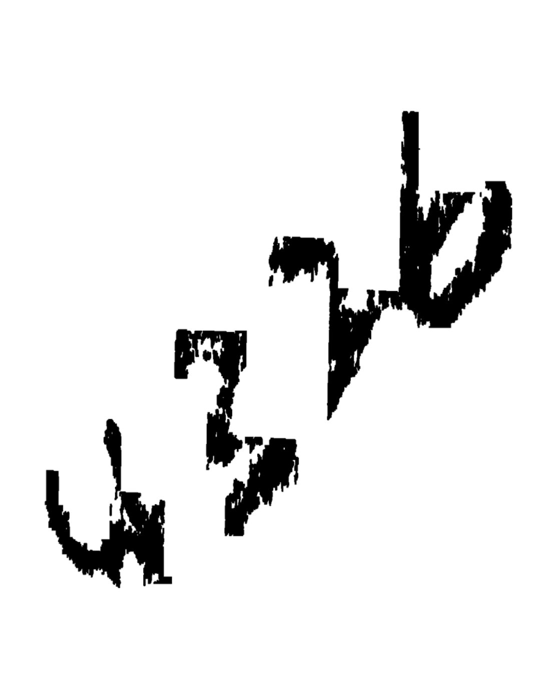
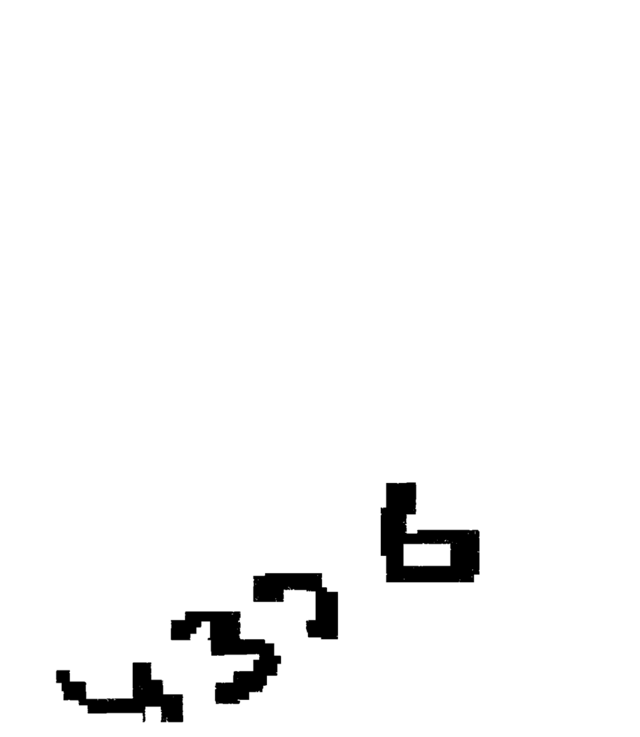
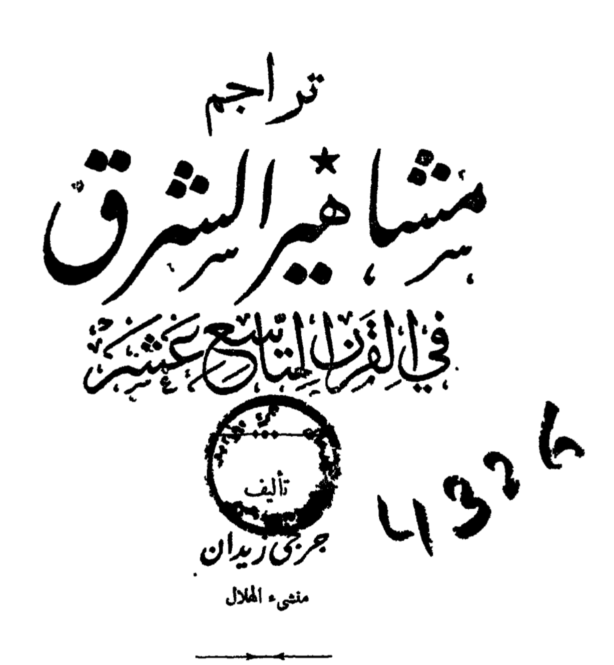



4376



الجزء الاول

يشتمل على تراجم امراء العائلة الخديوية
ومن نبغ في الشرق من الملوك والامراء والقواد ورجال
الادارة والسياسة ورجال الاعمال واهل البر
والاصلاح في اثناء القرن التاسع عشر

الطبعة الثانية

مقدمة الطبعة الاولى

رأينا من جمهور القراء ارتياحا لما ننشره في الهلال من تراجم مشاهير الناس . وتقدم الينا غير واحد من حضراتهم ان نولف من تلك التراجم وامثالها كتاباً على حدة مع ما تقتضية من الرسوم ونحوها ليسهل الاطلاع عليها والاعتبار بها . فرأينا ان نلبي الطلب على ان يكون عملنا قاصراً على مشاهير الشرق دون سواهم وان لا يتجاوز وفيات القرن التاسع عشر

ومما يهوّن ذلك علينا اننا قضينا العقد الاخير من القرن المذكور في البحث عن مشاهير رجالنا في السياسة والادارة والعلم والادب وقد نشرنا كثيراً من تراجمهم في اهلة السنين الماضية . فعمدنا الى جمع تلك التراجم في كتاب نرتب فيه اولئك المشاهير باعتبار ما اشتهروا به . فقسمناه الى جزئين الجزء الاول في رجال الحكومة. والثاني في رجال العلم مع ملاحظة الشروط الاتية :

١ اننا لا ننشر الا تراجم المشاهير الذين توفوا في اثناء القرن التاسع عشر — الا في احوال خصوصية اهمها ان يكون المترَجم قد فرغ من العمل الذي انتدب نفسه له او اوقف سيرته عند حد لا يرجى له ان يتعداه

٢ توسعنا في المراد من لفظ الشرق الى آخر الشرق الاقصى فترجمنا الذين بلغت الينا شهرتهم من رجال فارس والهند والصين واليابان

٣ عددنا في جملة مشاهير الشرق رجالاً من الافرنج خدموا الشرق وقضوا معظم حياتهم فيه مثل سليمان باشا الفرنساوي والدكتور كلوت بك والدكتور فنديك وغيرهم وفعلنا نحو ذلك بمشاهير المسلمين في بلاد المغرب

٤ قسمنا كلاً من جزئي الكتاب الى ابواب ورتبنا رجال كل باب باعتبار سني وفاتهم بقطع النظر عن اهليتهم (١)

(١) قد اختل معنا هذا الترتيب بعد ما اضفناه من التراجم بهذه الطبعة

فالجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق — وهو هذا — يحتوي على تراجم من اشتهر في الشرق من رجال الحكومة في اثناء القرن الماضي . وهو يقسم الى اربعة اقسام

اولا امراء العائلة الخديوية

ثانياً الملوك والامراء

ثالثا القواد

رابعا رجال الادارة والسياسة

والجزء الثاني يشتمل على من اشتهر في الشرق من رجال العلم والادب في اثناء القرن التاسع عشر وهو اربعة اقسام ١ اركان النهضة العلمية الاخيرة ٢ المنشئون وكتاب الجرائد ٣ سائر رجال الاقلام وخدمة العلم والادب ٤ الشعراء

فالجزء الاول عبارة عن تراجم رجال الحكومة وتاريخ اعمالها الادارية في الاستانة ومصر والشام والسودان وسائر المشرق او هو تاريخ الشرق السياسي في القرن التاسع عشر . والجزء الثاني عبارة عن تاريخ العلم والادب في النهضة الشرقية الاخيرة . وقد توخينا تحري الحقائق جهد طاقتنا والعصمة لله وحده

ونظراً لما يعتوره هذا المشروع من العقبات في انتقاء الرجال والبحث عن تراجمهم لقلة المآخذ المؤدية الى ذلك لقرب عهدنا من الحضارة الجديدة فلا يخلو ان يكون قد فاتنا ذكر بعض المشاهير من رجالنا فنرجو من اهل الاطلاع ان ينبهونا الى ذلك ويبعثوا الينا بما يعلمونه من تراجم اولئك الرجال لندرجها في ملحق نجعله جزءاً ثالثاً لهذا الكتاب ان شاء الله

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٢ فلم تمض بضع سنين حتى نفدت نسخها واضطررنا الى اعادة طبعها . وكنا قد حصرنا موضوع الكتاب في ترجمة الرجال العظام الذين توفوا في الشرق قبل انقضاء القرن التاسع عشر ثم رأينا في ذلك تقصيراً بحق جماعة نبغوا في القرن المذكور لكنهم توفوا في اوائل القرن العشرين وفيهم جماعة من ارباب الاقلام او غيرهم واخرون من كبار الرجال لا يدخلون في باب من الابواب الاربعة التي عيناها في الطبعة الاولى وفصلناها في مقدمتها المنشورة مع هذه . فاضفنا الى ابواب الجزء الاول هذا باباً خامساً سميناه « باب رجال العمل واهل البر والاصلاح » فدخل في الكتاب بسبب ذلك جماعة من خيره الرجال كالشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم امين وغيرهم فنشرنا تراجمهم في هذا الكتاب مع تراجم أخرى فاتتنا في الطبعة الاولى ونبهنا اليها بعض الادباء

فاصبحت ابواب هذا الكتاب خمسة وهي :

١ امراء العائلة الخديوية

٢ الملوك والامراء

٣ القواد

٤ رجال الادارة السياسية

٥ رجال الاعمال واهل البر والاصلاح

واضفنا الى الجزء الثاني تراجم كثيرين من اهل العلم والادب فاتنا ذكرهم في الطبعة الماضية ولا نزال نوالي البحث عن تراجم رجالنا لنضيفها الى ما عرفناه في فرصة اخرى وبالله التوفيق



قدومه فاسف عليه محمد علي كثيرًا وبعث الى شقيقته هدية تساوي عشرة آلاف فرنك

قلنا انه ربي في صبوته ببيت جربحي براوسطة وتعلم في صغره بما يتعلمه ابناء تلك البلاد من العاب السيف والجريد والحكم وما شاكل فنبغ فيها حتى اذا بلغ أشدهُ انتظم في سلك الجهادية تحت ادارة مربيه فاظهر في جباية الضرائب مهارة وبسالةً عجيبتين فرقاه الى رتبة بلوك باشي وزوجه احدى ذوات قرابته وكانت مطلقة ولها مال وعقار فترك الجهادية وتعاطى التجارة وعلى الخصوص في صنف التبغ لانه اكثر اصناف التجارة في بلاده . وقد برع في تلك التجارة حتي اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه وكان قد ذاق لذة التجارة واحبها مذ كان يتردد الى المسيو ليون المتقدم ذكره ولذلك رأيناه بعدان تولى مصر يوجه انتباهه بنوع خاص لتنشيط التجارة

وما زال يتعاطى التجارة الى سنة ١٨٠١ حينما عزم الباب العالي على اخراج الفرنساوية من مصر بمساعدة انكلترا . وكان الفرنساويون قد جاؤا مصر تحت قيادة نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٨ فحاربوا الامراء المماليك ودخلوها عنوةً واقاموا فيها ثلاث سنوات والحكومة العثمانية تبعث اليهم الجنود وتحاربهم تارة وحدها وطوراً بمساعدة انكلترا وهم قائمون بين اقدام واحجام الى سنة ١٨٠١ فبعثت العثمانية اليهم عمارة قوية تحت قيادة قبطان باشا وفيها قوات انكليزية وبعثت الصدر الاعظم في حملة من جهة البر

﴿ ارتقاؤه منصة الاحكام ﴾ وكان محمد علي في جملة القوة البحرية وقد تجند اليها في جملة من تجند في براوسطة بصفة معاون لعلي آغا ابن مربيه على ثلاثمئة جندي الباني (ارناؤوط)

فجاءت العمارة الى أبي قير وكانت الغلبة هناك للفرنساويين ثم عاد علي آغا الى بلاده تاركاً رجالهُ تحت قيادة محمد علي وكان هذا قد ترقى الى رتبة يكباشي

ثم تغلب العثمانيون بمساعدة العمارة الانكليزية وحملة الصدر الاعظم ودخلوا

البلاد واخرجوا الفرنساويين منسحبين انسحاباً قانونياً وجعلوا يهتمون بتأييد سلطة الباب العالي فيها

وكان في الجنود العثمانية جماعات من الارناؤوط والانكشارية والقليونجية فتفرقت هذه الجنود لحماية مصر السفلى و بعض مدن الصعيد . اما الانكليز فكانوا تحت قيادة الجنرال هتشنسون فنزلوا الاسكندرية ريثما يقيمون في القطر المصري والياً عثمانيا يؤيد سلطة الباب العالي ويكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال .

فاقاموا محمد خسرو باشا وكان في الاصل من مماليك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية فجاء القاهرة وقاص الذين كانوا فيها من محالفي الفرنساوية . وكان في يده اوامر سرية باعدام المماليك جملة باي وسيلة كانت فبعث الى محاربتهم وكانوا في الصعيد فتضايقوا ولم يروا وسيلة الا التجاء الى فرنسا فكتبوا اليها يستنجدونها متعهدين باجراء كل ما نطلبه منه فلم يسعدهم الحظ بمساعدتها

أما الحملة التي بعثها خسرو باشا الى الصعيد فانها عادت ولم تأت بفائدة ثم حاربهم مراراً في اماكن مختلفة وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى الى رتبة سرحشمة وصار قائداً لاربعة آلاف من الالبانيين فامره أن يسير في رجاله مدداً لتلك الحملة فسارت الحملة وحاربت المماليك وانكسرت قبل وصول محمد علي ورجاله فنسب قائدها انكساره الى تأخر محمد علي عن المجيء وابلغ ذلك لخسرو باشا . وكان هذا حاقداً على محمد علي فاستقبل ذلك البلاغ بالصدق وأقرّ على اعدامه سرًّا وكتب اليه ان يوافيه في منتصف الليل للمخابرة ببعض الشؤون فادرك محمد علي مراده ولم يجب الدعوة ولم ير وسيلة لنجاته من مكيدته وعدوانه الا بالالتجاء الى المماليك فانحاز اليهم واخذ في مخابرتهم سرًّا وجهراً فتمكنوا بذلك التحالف من اخراج خسرو باشا من القاهرة قهراً ففرّ الى دمياط واقاموا مكانه طاهر باشا ثم قتل طاهر واحتل محمد علي القلعة برجاله فقام أحمد باشا والي الشرطة اذ ذاك نطلب الولاية فاخرجه المماليك من القاهرة ذليلا ثم اتحد الجميع وساروا

لمحاربة خسرو باشا في دمياط فاسروه وجاؤوا به الى القاهرة وحجروا عليه في القلعة
أما الباب العالي فلما بلغه ما حصل في مصر بعث اليهم والياً اسمه علي باشا الجزائرلي فلم يصل القاهرة الا بعد شق الانفس ولما وصلها عمد الى الكيد بالمماليك ومحمد علي فعادت العائدة عليه



ش ٢ : امراء المماليك أوطه باشي (اوطبق) جندي

وكان للمماليك زعيمان الالفي والبرديسي يتنازعان السلطة وكان الالفي قد سار الى انكلترا يطلب مساعدتها على رفيقه للاستئثار بالسلطة فلما عاد من سفرته اغتنم محمد علي تلك الفرصة وأوغر صدر مناظره البرديسي عليه فنصب له مكيدة لم يقع فيها ولكنه فرّ الى الصعيد فظن البرديسي ان جوّ القاهرة قد خلا له ولكن محمد علي كان له بالمرصاد فحرك الالبانيين عليه واوعز اليهم سرّاً ان يثيروا ويطالبوا بمرتباتهم فقاموا وهددوا البرديسى بالاذى اذا لم يدفع اليهم المتأخرات فضرب على اهل القاهرة اموالاً واستبد في تحصيلها بقساوة فثاروا جميعاً عليه فاضطر الى مغادرة القاهرة ولم يعد يرجع اليها . وكل ذلك سنة ١٨٠٤

فلما فرّ الاميران لم يبق في القاهرة من رجال السلطة الا محمد علي فجمع اليه العلماء والمشائخ وتفاوضوا في اخلاء سبيل خسرو باشا فاقرّوا على ذلك وان يعود الى منصبه فاعادوه ولكنه لم يمكث فيه الا يوماً واحداً ثم اخرجوه من القاهرة الى رشيد ومنها الى الاستانة وكل ذلك بمساعي محمد علي ودهائهِ وحسن سياسته

ثم تظاهر ان الامور لا تستقيم في مصر الا بتنصيب والٍ عثماني حرّ واشار بتنصيب خورشد باشا وكان في الاسكندرية فوافقه العلماء والمشائخ في ذلك على أن يكون هو نائباً عنه في الاحكام بصفة قائمقام و بعثوا الى الباب العالي يخبرونه بذلك و يسترحمون تثبيت انتخابهم فاجيب طلبهم



ش٣ الجند الالباني (الارناؤط)

غير ان خورشد باشا رأى محمد علي مستأثرًا بالنفوذ عليه بمن معه من الجند الالباني فخاف عاقبة ذلك فاستقدم جنداً مغربيا (الدالاتية او الدلاة) يكونون له عونا وقت الحاجة فادرك محمد علي قصده فوقف له بالمرصاد ثم جعل الدالاتية يسيئون معاملة أهل القاهرة و ينهبون و يقتلون اعتماداً على نفوذ الباشا فسئم اهل القاهرة منهم ولا سيما المشائخ والعلماء

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ ورد لمحمد علي خط شريف بولاية جدّة فألبسهُ خورشد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وقد توسم قرب تخلصه منه فخرج محمد علي يريد الذهاب الى جدة وفي نفسه أن لا يخرج من مصر فقامت العساكر وطالبوه بالعلوفة فقال « هذا هو الباشا طالبوه بها » وسار الى منزله في الازبكية (قرب أوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على النّاس فازدادوا له حبا ولخورشد باشا كرهاً

و بعد ثلاثة ايام (لا ندري ما دار في اثنائها بينه و بين علماء البلاد ومشائخها) سار المشائخ والعلماء جميعاً الى محمد علي في منزله ينادون بصوت واحد « لا نقبل

خورشد باشا والياً علينا » فقال « ومن تريدون اذاً » قالوا « لا نريد احداً سواك » فامتنع اولاً وجعل يرغبهم في خورشد ويحملهم على الاذعان والسكينة وهم لا يزدادون الا اصراراً على طلبهم فوافقهم فاحضروا له الكرك والقفطان والبسوه اياهما و بعثوا الى خورشد ان ينزل من القلعة فأبى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بذلك فورد الفرمان بولاية محمد علي في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ ه (٩ يوليو (تموز) ١٨٠٥) وعزل خورشد باشا فخرج هذا من القلعة بامر من الاستانة وغادر البلاد وفي نفسه من الغيظ على محمد علي ما ليس وراءه غاية

ولكن المماليك كانوا أشد غيظاً منه لما ظهر لهم من تلاعب محمد علي بهم واستخدامه اياهم لاغراضه فثاروا وفي مقدمتهم الالفي فانه حالما علم بتولية محمد علي نزل بعصابته وخابر حكومة انكلترا بخلع محمد علي واشترط على نفسه انها اذا فعلت ذلك سلمها البلاد حالاً فعلم قنصل فرنسا بذلك فعرقل مسعاه فعكف على مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى به الاثنان فلم يتفقا فعاد الالفي لمخابرة سفير انكلترا فاقنع هذا الباب العالي فبعث والياً اسمه موسى باشا مع العفو عن المماليك وكادت تنطلي هذه الحيلة لو لم يقم العلماء والمشائخ من جهة وسفير فرنسا في الاستانة من جهة أخرى و يوضحوا للباب العالي مقصد المماليك فتثبت محمد علي واكنه امر ان لا يتعرض للمماليك فيما بعد لصدور العفو عنهم قبلاً ولكن التقادير ساعدته فتوفي البرديسي بعد قليل ثم الالفي فتولى على المماليك شاهين بك ولكن شوكتهم ضعفت ولم تعد تقوم لهم قائمة

اما انكلترا فاعتبرت ارجاع محمد علي مخلاً بنفوذها فبعثت حملة تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة المماليك ولكن المماليك كانوا قد تبعثروا في البلاد فاقامت الجنود الانكليزية على سواحل القطر مدة ثم عادت بخفي حنين بعد الاتفاق على صلح فاجتمعت السلطة في قبضة محمد علي باشا ثم سعي بعضهم في المصالحة بينه و بين شاهين بك زعيم المماليك فتصالحا وقدم هذا الى مصر بالهدايا الثمينة فاكرمه محمد علي و بنى له قصراً لسكناه في الجيزة وفي ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣

بويع السلطان محمود الثاني على عرش الأستانة العلية

﴿ اعماله الحربية ﴾ فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر أخذ في تسليم مصالح حكومته الى من يثق بهم من ذوي قرباه لانه كان شديد المحبة لعائلته ولا شك ان ازره اشتد بهم . ثم استفحل أمر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود خان يعهد الى محمد علي باشا أمر اخضاعهم وتخليص البلاد من أيديهم

والوهابيون فئة من المسلمين ذهبوا الى اغفال كل الكتب الدينية الاسلامية الا القرآن الشريف فهم بمنزلة الطائفة الانجيلية عند المسيحيين .زعيمها الاول يدعى محمد عبد الوهاب ولد سنة ١١١٠ هـ (سنة ١٦٩٦ م) ولما شب تفقه وحج ثم اظهر دعوته فالتفت عليه احزاب كثيرة فافتتح نجداً فالحجاز فالحرمين وما زال يفتتح في بلاد العرب حتى توفي سنة ١٢٠٥ هـ (سنة ١٧٨٩ م ، وسنهُ ٩٥ سنة فاستمرَّت احزابه في أعمالهم حتى سنة ١٢٢٤ هـ سنة ١٨٠٩ م تحت قيادة الامير سعود وقد اصبحت حدود مملكتهم من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن العرب البحر الاحمر فنهبوا الكعبة وقد استفحل أمرهم ولم يرَ الباب العالي بدًّا من تكليف بطل مصر اخضاعهم

فاجاب محمد علي باشا مطيعاً وجعل يجمع القوَّات اللازمة لتلك الحملة لكنهُ فكر في امر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في أمن منهم فيجمعون كلمتهم ويعودون الى ما كانوا عليه من القلاقل فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة لكنه في الوقت نفسه عمل على اعداد مواد الحملة فجند اربعة آلاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل اليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً واعدَّها عند السويس في انتظار الحملة

اما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالاحكام لما رأوا ماحل بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم ،ممتلكاتهم في حالة سلمية فقط. بعضهم الصعيد و بعضهم القاهرة ،تشتتوا في انحاء

القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد اذعن لمحمد علي باشا كما تقدم فأقطعه ارضاً بين الجيزة وبني سويف والفيوم فأوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ ﻫ (فبراير (شباط) سنة ١٨١١ م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون باقي الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله الى قبة العزب فاعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال وفي جملتهم المماليك وطلب اليهم أن يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعه ٥ صفر سنة ١٢٢٦ ﻫ (اول مارس (اذار) سنة ١٨١١) احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة حتى اذا اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي أمر محمد علي فاغلقت الابواب واشار الى الالبانيين (الارناوط) فهجموا على المماليك بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا أكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من ورائهم بالرصاص فطلب المماليك الفرار بخيولهم من طرق أخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ولما ضويق عليهم ترجل بعضهم وفروا ساعين على اقدامهم والسيوف في ايديهم فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك امام ديوان صلاح الدين وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة ان كل من يظفر باحد المماليك في اي محل كان يأتي به الى كحيا بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليه أفواجاً وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة أربعمئة فلم ينج منهم الا اثنان احدهما احمد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية بوش والثاني أمين بك كان قد أتى القلعة متأخراً فرأى الباب سائراً نحو باب العزب فوقف



ش ٤ : امين بك (المملوك الشارد)

خارج الباب ينتظر خروج الموكب . ثم لما أقفلت الابواب بغتة وسمع اطلاق النار علم المكيدة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتبادر على الالسنة ان امين بك هذا كان داخل القلعة فلما حصلت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو . والاقرب للحقيقة ان هذه الاشاعة مختلقة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قد قتل فخاف الناس ثم طافت العساكر المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجواريهم وعلا الصياح .

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة يأمر الناس

بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنه حرَّض على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر أنحاء القطر فكانوا يأتون بهم افواجاً يسوقونهم كالغنم الى الذبح فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ بيكاً . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجند لتسكين الخواطر وايقاف النهب . اما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفرًا جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهن الا لرجاله

ولما خلت البلاد من المماليك عكف محمد علي علي المهام الاخرى واخصها مسألة الوهابيين فكتب الى غالب شريف مكة يخبره باعداد حملة تنقذه من الوهابيين فيفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب اليه ان يمهد له السبيل فاجابه شاكرًا ووعدهُ بالمساعدة

اما سعود امير الوهابيين فانبأته الجواسيس بما نواه محمد علي فامر فاجتمع حوله خمسة عشر الفاً ليدفع بهم جنود مصر . اما حملة طوسون فركبت البحر من السويس حتى أتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة فتملكوا ينبع وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتقهقر سعود ورجاله اولاً ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا تاركين كل مؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع . فعلم محمد علي باشا بذلك فجند جندًا كبيرًا مددًا لابنه فاشتد ازر طوسون وجمع اليه القوتين وسار حتى أتى المدينة فاطلق عليها النار فهدم بعض السور ثم دخلها واثخن في حاميتها حتى سلمت فكف السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وكان في جدة لا يدري ماذا يكون من امر تلك الحملة فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح

واجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من اهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى ابيه ففرح فرحاً لامزيد عليه لما اتاه الله من النصر على يد ابنه نصراً لم يتأت لغيره من القواد العثمانيين وجيء اليه بقائد حامية المدينة من الوهابيين فارسله في خفر

الى الاستانة فقتلوه حال وصوله اليها . اما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لايزالون في مأمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٢ (سنة ١٢٢٨ھ) علموا ان جنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وانهم اذا ناهضوهم اذ ذاك يتغلبون عليهم فجندوا وساروا الى تربة شرقي مكة فحاربوها واستولوا عليها ثم ساروا الى المدينة وهددوها بعد ان استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرَ بدًّا من ذهابه بنفسه لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم . فسار في جند عظيم حتى اتى جدة فنزلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ ھ (٢٨ اغسطس) آب (سنة ١٨١٣ م) فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به وبعد ان ادى فروض الحج رأى ان الشريف ليس ممن يعتمد عليهم في الدفاع فعمد الى خلعه بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يده على ممتلكاته وبعث به وبعائلته الى القاهرة ومنها الى سالونيك فعاش فيها اربع سنوات ومات . اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ ھ (١٧ افريل (نيسان) سنة ١٨١٤ م) فانحطت سطوتهم فاقاموا عليهم ابنه عبدالله ولم يكن كفوءًا فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كبيرة لم تأت بنتيجة . وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ ھ) ١٠ يناير (ك ٢) سنة ١٨١٥ م) حصلت معركة بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل اخي عبدالله شفت عن انتصار المصريين فتقدم طوسون الى نجد الا انه اضطر اخيرًا الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ درعية

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنه لم يبد جميع الوهابيين فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ ھ فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوربا وهو اول من فعل ذلك في مصر فاصدر امرًا عاليًا في شعبان سنة ١٢٣٠ ھ مؤداه ان الجنود المصرية ستدرب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي فعظم على رجاله ولا سيما الارناؤط الامتثال الى هذه الاوامر

فرأى ان يدخل هذا النظام اولاً بين الجنود الوطنية لانهم اقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم

وفي اثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال والاكرام ثم نزل الاسكندرية حيث كان ابوه مقيماً فوجد امرأته قد وضعت في أثناء غيابه غلاماً دعته عباساً . وبعد يسير اصيب طوسون بالم شديد في رأسه وحمى لم يعش بعدها الا بضع ساعات . وكان محمد علي في القاهرة . ولما اتصل به الخبر كان على ضفة النيل الغربية بجوار اهرام الجيزة . فقالوا له ان طوسون مريض فاسرع الى الاسكندرية لمشاهدته فلما دنا من المكان علم بوفاته فوقف مبغوتاً لا يبدي حراكاً وبقي على مثل هذه الحال ثلاثة ايام متوالية . ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودفنت قرب مسجد الامام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فاخذ يهتم في امر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليه فكتب الى عبدالله بن سعود ان يأتي اليه بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم للمسير الى الاستانة . فاجابه يعتذر بعدم الشخوص وقال ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد ابيه وارسل له هدايا فاخرة فارجع اليه محمد علي تلك الهدايا واوسعه تهديداً . ثم جرد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم وكان باسلاً مقداماً وقائداً مجرباً لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه ولكنه كان سليم القلب حر الضمير ولذلك كانت احكامه عادلة صارمة

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ ﻫ سار ابراهيم باشا بحملته من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطىء البحر الاحمر ومنها بحراً الى ينبع ثم الى المدينة وتربص هناك يجمع قواته استعداداً لهجوم شديد امتثالاً لمشورة ابيه . فالتفت حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قواته أقام الحرب سجالا وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله فارسله الى



س ٥ : ابراهيم باشا بلباسه العسكري

أبيه فوصل القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ هـ فأذن له بالمثول بين يدي الباشا وتقبيل يديه فرحب به كثيراً لانه كان يعجب بجسارة الوهابين ثم سأله ما ظنه بابراهيم فأجابه قائلاً « انه قد قام بواجباته ونحن قمنا بواجباتنا وهكذا أراد الله » . وفي ٢٠ محرم أرسل الى الاستانة وطافوا به في اسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار بدرعية فخاف اهلها فهدموا المدينة وفروا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى امر الوهابيين . اما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان محمود لقب خان مكافأة لاخلاصه وبسالته وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الا حاكم القرم

ولما انتهى هذا الرجل الخطير من محارباته في بلاد العرب فكر في افتتاح السودان على امل ان يلاقي فيها الكنوز الثمينة من معادن الذهب بجوار البحر

الازرق ناهيك بما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ و
والعاج والرقيق وغير ذلك . فجند خمسة آلاف من الجند النظامي وبعض العربان
وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا احد اولاده فسارت الحملة من
القاهرة في شعبان عام ١٢٣٥ ه (يونيو) حزيران ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت
الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس فاتت شندي والمتمة وقد اخضعت كل
مامرت به من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت الى سنار على
البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن من القبائل التي يعتد بها هناك الا الشائقية
فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار وكوردوفان في املاك مصر فسار اسماعيل باشا
في جنوده الى فزغل وهناك ظن نفسهُ اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجاله
الوباء فمات منهم كثيرون ثم اتته نجدة من ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة صهره
احمد بك الدفتردار فاشتد ازره فاقام صهره هذا على كردوفان وسار في جيش
الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عدى الى شندى في البر الشرقي لجباية المال
وجمع الرجال فاستدعى اليه ملكها واسمه النمر وقال له « اريد منك ان تأتي الي
قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب والفين من العساكر » فجعل الملك
يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منه اخيرًا عوضاً عن الذهب
مبلغ عشرين الف ريال من الفضة فاجابه الى ما اراد ولكنه لم يكن يستطيع جمعها
في تلك المدة فطلب اليه تطويل الاجل فضرب به اسماعيل بالشبق الغليون على
وجهه قائلاً « لا . ان كنت لا تدفع المال فورًا ليس لك غير الخازوق جزاء »
فسكت النمر وقد اضمر له الشر وصمم على الانتقام فطيب خاطره ووعده باتمام ما
يريد وفي تلك الليلة جعل يرسل التبن الجاف احمالا الى معسكر اسماعيل علفاً للجمال
ولكنه اقامه حول المعسكر كانه يريد اسعاله . وفي المساء اتى الى اسماعيل في سرب
من الاهالي ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم فطرب اسماعيل ورجاله
وضباطه ثم اخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يتزايد شيئاً فشيئاً حتى اصبح كل اهل
المدينة هناك . فلما تكامل العدد امرهم ملكهم بالهجوم فهجموا بغتة على اسماعيل

ورجاله ثم داروا بالنيران على التبن فاشعلوه فمات اسماعيل باشا وكثيرون ممن كانوا معه بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظاً واقسم انه لا يقبل اقل من عشرين الف رأس انتقاماً لاسماعيل فنزل بجيشه القليل ولم ينفك حتى انفذ قسمه فقتل ذلك العدد من الرجال متفنناً في طرق قتلهم على اساليب مختلفة فهدأت الاحوال بعد ذلك وهكذا تم افتتاح السودان . وما زال احمد بك على حكومة سنار وكردوفان الى عام ١٢٤٠ هـ (عام ١٨٢٤ م) ثم ابدل برستم بك

وفي عام ١٢٣٩ هـ ارسل محمد علي باشا بامر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة المورا في بلاد اليونان فسار وحارب واظهرت العمارة المصرية في تلك الحروب شجاعة الابطال ولولا اتحاد الدول مثنى وثلاث على الجنود العثمانية والمصرية لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب ولكننا نقول ان ابراهيم باشا عاد عود الظافرين بعد ان بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل

ثم كانت حملة ابراهيم باشا على سوريا لافتتاح عكا لاسباب تتضح للقارىء من مراجعة ترجمة الامير بشير الشهابي الثاني في هذا الكتاب فجرد محمد علي باشا عام ١٢٤٧ هـ (عام ١٨٣١ م حملة في البر والبحر فارسل البيادة والطبجية عن طريق العريش برا وسار ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشه الى عكا فوصلها الى ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ هـ فحاصرها براً وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها فهجم عليها هجمة نهائية شفت عن تسليمها . ثم سار قاصدا دمشق فاخضعها ولم تدافع الا يسيرا و بارحها الى حمص حيث كانت تنتظره الجنود العثمانية تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٣٢ م فهجم عليه محمد باشا وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السرعسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حده فجاء وعسكر في

اسكندرونة فلاقاه ابراهيم باشا وحار به وانتصر عليه ولم يعد يلاقي بعد ذلك مقاومة تستحق الذكر . ثم تقدم في آسيا الصغرى تاركا طورس وراءه . وكان الباب العالي قد ارسل رشيد باشا في جيش لملاقاته فجند ابراهيم باشا جنداً كبيراً من البلاد التي افتتحها وسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في قونية جنوبي اسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجاله واخترق ابراهيم اسيا الصغرى حتى هدد الاستانة

فتعرضت الدول وفي مقدمتهن الدولة الروسية فانفذت الى مصر البرنس مورافيل لمخاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديده فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجابياً لخراج ادنه وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ (١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وجعل مقامه والا في انطاكية وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وولى اسماعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على ادنه وطرسوس اما الاجراآت العسكرية فلم يكن يسوغ لاحد ان يتولاها سواه

وكان ابراهيم باشا سائراً بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الا انه مع ذلك لم ينج من ثورة ظهرت في ضواحي السلط والكرك في اواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف عام ١٨٣٤م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطر ابراهيم باشا الى الاعتصام باورشليم لانها ذات اسوار منيعة ثم امتدت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ١٦ يونيو (حزيران) منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماهير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وفتكوا بنسائهم واصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم أجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة و بيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوه بصفد . ويقال بالجملة أن سوريا أصبحت بسبب ذلك شعلة

ثورية فاتصل الخبر بمحمد علي باشا فبرح الاسكندرية الى يافا فتقربت منهُ وجهاء البلاد وسراتها ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فتشتت العصاة الأ النابلسيين فانهم قاوموا طويلاً لكنهم اذعنوا اخيراً . ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموهما و بعد قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض اهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الى حلب واعادوها الى حيث اتت . فارسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين تحت قيادة الامير خليل بن الامير بشير أمير لبنان وسار الجميع الى النصيرية واخضعوهم ثم سعى ابراهيم باشا في تجّريد السوريين من السلاح خوفاً من عودتهم الى الثورة ففعل لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين . وكان الامير بشير وابراهيم باشا على وفاق تام وكانهما خلقا ليتحدا

وبعد ان اتمَّ ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير هجم برجاله على اهالي الشوف والمتن من لبنان وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوه منها الى عكا وكانوا يصطنعون منها نعالاً لخيولهم فاستتبت الراحة في سوريا واذعنت البلاد . الا ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمه فجعل يجمع منها الرجال والخيل بطرق زجرية فشق ذلك على الباب العالي فعقد مجلساً في ينايرسنة ١٨٣٩ للنظر في مقاصد المصريين فاقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين الف مقاتل منهم خمسة وعشرون الفاً من الباشبوزق طبقاً لارادة السلطان محمود الثاني وان تسير تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة تحت قيادة حفيده عباس باشا فلما عاد اليها علم باعدادات الباب العالي فانذعر لها فكتب الى ابنه يستحثه فاخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشه في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة برًّا . ثم علم ان معظم الاهالي راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان احد ابطالهم المعدودين .

فحصلت مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في نزيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش . وكان السلطان محمود قد ارسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فاصابها ما اصاب الحملة البرية ولكنه توفي قبل بلوغه خبر تلك الوقائع فخلفه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩

ثم توالت الحوادث الى ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لندرا قاضية باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية . الا ان ذلك لم يكن ليوقفه عن مقاصده ولديه اذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وكريد ومصر لكنه علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما يلزمه لاتمام مشروعاته فجعل يضم اليها كل تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى . ثم عمد الى انشاء خفر وطني احتياطيًا ولكنه لم ينجح به كل النجاح على انه مع ذلك لما عرضت عليه معاهدة لندرا لم يصادق عليها فعرض عليه ان يأخذ ولاية عكا ترضية له ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض ايضاً

وبعد ذلك بيسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفرّ ابراهيم الى الجبل . وكان الكومودور نابيه قد سار في عمارة بحرية انكليزية لمحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوي وقد حصنها تحصيناً منيعاً ومعه فرقتان من الجند وانما لسوء الحظ جاءته الانباء ان ابراهيم قتل وتشتت رجاله فخاف سليمان ورأى ان لا بدّ له من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليه ما بقي من الجيوش للمدافعة فبرح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احد أميرالايات الفرقتين . اما هذا فلما رأى نفسه منفرداً في بيروت خاف فترك المدينة وفرّ فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل به من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حيًّا ويأمره بالثبات امام العدو بينما يحضر فخاف صادق بك الرقوع في شر اعماله فانضم الى الانكليز هو ورجاله . ثم سار نابيه من بيروت الى عكا وحاصرها ففر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلّمت المدينة

ثم سار نابيه الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقع عليها الطرفان ولما ارادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الامور على حالها حتى دارت المخابرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فاراد السلطان ارضاء محمد علي فاعطاه ان تكون ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها فتردد محمد علي في باديء الرأي . ثم أمر جيوشه ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مئة وثلاثين الفاً فلم يرجع منها الا خمسون الفاً وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً فلم ير بداً من قبول انعام السلطان . فبعث الى الباب العالي بذلك فارسل اليه خطاً شريفاً بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١م بتثبيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابه وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب وغير ذلك.ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار فاصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان.و بمقتضى الخط الشريف تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبق عنده الا ثمانية عشر الفاً بين مشاة وفرسان وغيرهم فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيراً من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية وابدل الاساتذة الاوروباويين لما بقي من المدارس باساتذة اتراك او وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان فعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ الى جلالته ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية

ثم أصاب ابراهيم باشا انحراف في صحته فسار الى اوروبا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ فاصاب ترحاباً عظيما في سائر الممالك الاوربية ولا سيما في فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله بيسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديته لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) عام ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالمثول بين يدي السلطان

فرحب به ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكه جلالته واجلسه بجانبه ومكثا ساعة يتحادثان ثم انصرف شاكراً وزار عدوه القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ اوغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله مسقط راسه فاقام فيها عدة ابنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم بارحها الى الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون من الاصدقاء افواجاً فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس

وفي منتصف عام ١٨٨٤ توعك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيه ظواهر الخرف فلم يعد ثم بدٌّ من تولية ابراهيم باشا فتوجه هذا الى الاستانة في اغسطس من تلك السنة لاجل تثبيته على ولاية مصر خلفاً لابيه فثبته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه المرض واشتد عليه بغتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعي بالقاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر بعد ان قضى فروض الحج وبما انه اكبر ابناء العائلة لم يكن ثم اعتراض على توليته فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منه الضعف مأخذا عظيما وما زال يهزل جسداً وعقلا الى ٢ اوغسطس عام ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس ذلك لانه مكث في حالة النزاع مدة طويلة وفي ٣ منه تقاطر الناس من الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا هو في قاعة الاستقبال موضوعاً في محمل تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن الكريم وعلى رأسه طربوشه الجهادي احمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة . وكان سعيد اكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوه خطابات التعزية . وتلت جثة

الفقيد ودفنت في جامعه في القلعة ولا تزال هناك الى الآن

﴿ اصلاحاته ﴾ استولى محمد علي على مصر وهي في معظم الخراب والفساد سياسيا وماليًا وتجاريا وزراعيًا وادبيًا فاخذ علي نفسه اصلاح شؤونها وبذل في ذلك من الجهد والعناية ماليس وراءه غاية وقد فاز بما اراد فاحيا الديار المصرية وانعشها وانماها من سائر الوجوه حتى اصبحت تجاري مدن اورو باولذلك لقبه كتاب عصره بموجد الديار المصرية يريدون انه اوجدها من العدم

﴿ الاصلاح الاداري ﴾ واول شيء باشره من الاصلاح مسح الاراضي والانتفاع بزرعها وتوزيعها. وتفصيل ذلك ان الاراضي المصرية كانت منقسمة من حيث ملكها الى قسمين احدهما الاراضي التي كاد يكون لواضع اليد عليها الحق في ملكها ملكاً مطلقاً وكانت معفاة من الضرائب والقسم الثاني الاراضي التي لم يكن لزارعها الا حق التمتع بريعها وهي الاراضي التي كانت عليها الضريبة الخراجية اما نفس العقار في هذين القسمين فكان ملك بيت المال او الحكومة او السلطان

هذا كان شأن الاراضي المصرية قبل الفتح العثماني و بعده الى القرن السابع عشر حينما استأثر الامراء المماليك بالقوة والسلطة واختل نظام الارضين وصار الناس يهاجرون فاهملت الاشغال العمومية وقل ريع الارض فاصبحت الحكومة في عجز كلي عن استحصال النقود فالتجأت الى تلزيم الخراج وذلك ان الحكام كانوا يضمنون خراج النواحي والبلاد للناس وكان ذلك الضمان او الالتزام إما بالمزايدة او بالاتفاق بين الملتزم من جهة والرزنامة بالنيابة عن الحكومة من جهة أخرى حتى اذا تم الامر اعطت الرزنامة للملتزم تقسيطاً اي عقد تلزيم يصدق عليه شيخ البلد وهو كبير امراء المماليك

فاذا دفع الملتزم الضريبة يعطى له حق التصرف في تحصيل المال الذي عجله وعلى فوائده التي كان يقرر سعرها هو بنفسه كما يريد وكانت الحكومة تتعهد بمساعدته في التحصيل وتجعل له في مقابل ماينفقه و يكابده في ذلك التحصيل اراضي غير التي التزمها معفاة من كل ضريبة تعرف بالاواسي . اما الفلاحون فلم يكونوا يملكون

أرضاً قط على ان الملتزمين انفسهم كانت تنزع منهم الالتزامات اذا تصدى لهم من كان أكثر صولة منهم واشد بطشا . ولا يخفى ماكان ينجم عن هـذا التصرف من اختلال الامن وضياع الحقوق والاتعاب

فلما استقام الامر لمحمدعلي باشا امر بمسح كل اراضي مصر المزروعة ثم قسمها الى مديريات والمديريات الى مراكز او اقسام وهذه الى نواحي وعين فيها من يقوم بادارة أمورها وآخرين لجباية الضرائب وابطل الالتزامات جملة ووزع اراضي كل ناحية بين أهالي تلك الناحية نفسها بحيث يصيب كل فلاح قادر على الشغل جانباً من الارض بقدر جانب الآخر فبلغ نصيب كل فلاح ثلاثة افدنة وبعضهم اربعة او خمسة وجعل لمشائخ البلاد جانباً من الارض اعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جباة الاموال الاميرية الذين كانوا يمرون في بلادهم وما كانت الحكومة تكلفهم به من المهام ودعا تلك العطايا مسموح المشائخ او مسموح المسطبة وهي تقابل الاواسي المتقدم ذكرها

ثم رأى رحمه الله ان الفلاح لا يستطيع من نفسه امراً كافلاً اخراجه مما هو فيه من الضيق الذي تراكم عليه بمرور الاجيال وكان قد انتهى من اعماله الحربية ولم يعد ثمَّ حاجة الى بقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع بقاء رواتبهم جارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيناتهم وهم عطل من الاعمال ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشد يهديه الى الطرق اللازمة لاستقامة امره ووازع يدفعه الى النهوض بواجباته . وعلم ايضاً ان المرء مهما كان صادقاً في خدمة الحكومة يشتغل لنفسه اكثر مما يشتغل لغيره فارتأى ان يعهد بامر البلاد من حيث الزراعة الى اولئك الضباط مفوضا اليهم تعميرها واصلاحها بانفسهم ففعل ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابه بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها اصولاً وقوانين تقضي بان لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في اوقاتها . اما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهدته باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه

الواسطة نشطت الزراعة وتحسنت تحسناً عظيماً وما زالت تلك الاراضي في ايدي المتعهدين الى ايام المغفور له عباس باشا وهو الذي استردها

ومن اعماله الادارية انشاء الدواوين ومنها ديوان المعاونة وفائدته النظر فيما يعرض من الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات ثم الديوان الخديوي وكان يقوم باشغال ديواني الداخلية والخارجية والضابطة • ثم ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة ثم انشأ بعد ذلك ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والابنية وديوان المدارس وجميع ذلك او معظمه عهد بادارة اعماله الى مديرين ورؤساء من ابناء هذا القطر السعيد وكلها ترجع باحكامها الى ديوان المعاونة المتقدم ذكره

ثم انشأ مجالس للقضاء وما يقتضي لها من القوانين والاحكام ورتب البريد يحمل على أيدي السعاة برًّا وبالسفن بحراً وانشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة ابنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة بين البناء والآخر مسافة تكفي لفهم الاشارة لا يزال بعض منها قائماً اثراً لهمة ذلك الرجل

وانشأ لتأييد السلم وتوطيد الامن فرقة الضابطة وفرقهم في انحاء البلاد فأمن الناس غائلات السبل ولا سيما الاوربيون فانهم كانوا يقاسون اثناء تجولهم في القطر اهانات ومشاق جسيمة فاصبحت السبل في مأمن وتسهلت الصلاة التجارية على الخصوص بين انكلترا والهند على طريق البحر الاحمر فاستعاضوا بها عن طريق رأس الرجاء الصالح في امور كثيرة

﴿ الاصلاح الزراعي ﴾ ولم تقف اصلاحاته عند هذا الحد ولكنه رأى خصب التربة المصرية وامكان استخدامها لغير انواع المزروعات المعروفة بمصر فجاء اليها بالقطن البذار (التقاوي) الاميركاني وجاء بنبات النيلة من جهات الهند وبنبات الافيون من اسيا الصغرى وجاء بغير ذلك من انواع المغروسات المفيدة وجاء بأناس عالمين بكيفية زراعتها واستغلالها . واكثر من غرس الحدائق والاشجار

في القاهرة وضواحيها تلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث من جملة ذلك مغارس الليمون في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الازبكية فقد كان في مكانها قبل ايامه بركة كبيرة يتصل اليها الماء من النيل ايام فيضانه وكان الناس يأتون اليها في المواسم والاعياد في قوارب عليها الانوار وسائر الزخارف فاحتفر محمد علي حولها ترعة ينصرف اليها الماء فظهرت ارض البركة فجعل حول هذه الترعة صفوفاً من الاشجار تحيط بقعة كلها غرس طيب . اما الحديقة التي نراها الان فهي من آثار الخديوي الاسبق اسماعيل باشا

ومن آثاره الزراعية السدود التي اجراها في ابي قير وترعة الفرعونية واشتوم الدية واشتوم الجميل وغيرها وانشأ كثيراً من الجسور والترع ونظر في تطهيرها وأنشأ الترع الصيفية لانماء الزراعة الصيفية وابدل الخول بالمهندسين في اعمال الري و بعث كثيراً من ابناء البلاد الى اوروبا لدرس فن الزراعة واتقانه ليخدموا بلادهم به

ومن مشروعاته الخطيرة من هذا القبيل القناطر الخيرية القائمة عند رأس الدلتا والسبب في بنائها انه رأى النيل لما يصل الى رأس الدلتا ينفصل الى فرعين وهما فرعا رشيد ودمياط أو الفرع الغربي والشرقي ورأى ان الغربي اكبرهما ويمر في بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب كثير من مائه هدراً والشرقي يخترق بقاعاً واسعة حسنة التربة فاذا كانت ايام التحاريق. لا يبقى من مائه ما يكفي للري فاراد اتخاذ وسيلة ينتفع بها مما يزيد من ماء الفرع الغربي باضافته الى الشرقي. ورأى الصعيد في زمن التحاريق يشح فيه الماء لارتفاع ارضه وقد لا يرتوي جيداً الا في زمن الفيضان فاقرّ على بناء قناطر على عرض الفرعين عند اول تفرعهما عند رأس الدلتا وان يجعل لهذه القناطر ابواباً من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا اقفل قناطر هذا الفرع انصرف جانب من الماء المنحدر فيهِ الى الفرع الآخر فيستطيع صرف المياه كيف شاء واذا كان الفيضان قليلاً يقفل قناطر الفرعين جملة فيرتفع الماء في الصعيد فيروي اراضيهُ ثم لا يصرف منهُ الا ما يلزم لري الوجه البحري

فاذا كانت أيام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض في حاجةاليها. فباشر هذا العمل الخطير ولم يضع الحجر الاوَّل منـه الا عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) ولم ينثن عن عزمه حتى اتمَّ بناءه بدراية لينان باشا المهندس الفرنساوي . غير انذلك المشروع لم يأت بالفائدة المطلوبة ولا سيما بما يتعلق بارتفاع الماء في الصعيد ولكن الحكومة جعلت همها في السنين الأخيرة اصلاح ما هو فاسد منهـا وسد ما فيه من الخلل

﴿ الاصلاح العسكري ﴾ كانت القوة العسكرية في مصر لما تولاها محمد علي اخلاطاً من الالبانيين (الارناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية ومن جرى مجراهم ونظامهم الحربي النظام القديم الذي كان متبعاً في الازمنة السالفة عند الدولة العلية قبل هذا القرن فرأى رحمه الله ان يدربهم على النظام الفرنساوي الذي اتبعه بونابرت في غزواته واخذته عنه دول اوربا . فحاول ذلك مراراً فعظم على جنوده ولاسيما الارناؤوط وعصوا أوامره فيه لانهم اعتبروا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ولما ألحَّ عليهم ثاروا وتجمهروا الى القلعـة يطلبون الرفق بهم فرأى من الدراية والحزم ان يعاملهم بالحسنى فاجابهم الى ما ارادوا وأخـذ يدخل ذلك النظام أولاً بين الجنود الوطنيين لانهم أقرب الى الطاعة من الالبانيين ومن شاكلهم فأسس مدرسة حربية في الخانكاه قرب المطرية تعلم فيهااللغات والحركات العسكرية وجعل سراي مراد بك في الجيزة مدرسة للفرسان وأقام فيها اساتذةمن الافرنج وانشأ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسكب المـدافع واصطناع سائر حاجيات الجند . والفضل في تدريب الجند على النظام الجديد راجع لاحد من قواد الفرنساويين اسمه الجنرال «سيف» ولكنه اسلم ودعى نفسه سليمان باشا وقد خدم الحكومة المصرية خدمات صادقه في حروبها ببر الشام وغيرها

وبنى محمد علي فيالاسكندرية دارصناعة أتىاليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية واقام فيها مدرسة جاء اليها بالاساتذة من فرنسا وانكلترا وبنى حول الاسكندرية حصناً منيعاً وحصوناً أخرى في أماكن اخرى



٦ ش : جند محمد علي النظامي الجديد يجلدون رجلا بين يدي الكاشف

﴿ الاصلاح التجاري ﴾ ولما اصلح الزراعة وكثرت حاصلات البلاد وجه التفاته الى تنشيط التجارة فاراد انشاء مينا أمين تأوي اليه السفن التجارية فلم تعجبهُ رشيد ولا دمياط لخشونة مرساهما فاختار الاسكندرية فاحتفر ترعتها الموصلة بينها وبين النيل ودعاها ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني فكثر نقل البضائع فيها بين الاسكندرية وداخل القطر فاكتسبت الاسكندرية بذلك اهمية كبرى وتقاطر اليها التجار من اماكن مختلفة من أوروبا وغيرها واقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء . واصلح مرفأ بولاق وغيرهُ ووسع للاجانب في الاستيطان والاتجار فاتسعت التجارة وكثرت العلائق وعاد كل ذلك بالنفع الجزيل . وتوطيداً لاعماله هذه انشأ مجلساً تجاريّاً مؤلفاً من الوطنيين والاجانب للحكم في القضايا التجارية

﴿ الاصلاحات الصناعية ﴾ أما الاصلاحات الصناعية فكثيرة ولكن لم يبق منها الى الآن الاَّ آثار بالية مع ما توخاه رحمه الله من انشاء المعامل واستجلاب الصناع من اقطار أوروبا فانه أنشأ في هذا القطر معامل عدة لمعالجة القطن والنسلة

واصطناع الطرابيش التونسية والورق والغزل وانواع الاقمشة من الحرير والكتان والقطن والصوف في سائر جهات القطر ومعامل الاسلحة على انواعها وغيرها . أما سبب هبوط معظم تلك المعامل فعائد الى عدم وجود معادن الفحم الحجري في القطر المصري

﴿ الاصلاحات الصحية ﴾ رأى ذلك الرجل العظيم ان البلاد في احتياج كلي لهذه الاصلاحات لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجابة وماشا كل فاستقدم أحد مشاهير الاطباء الفرنساويين واسمه الدكتور كلوت (ثم صار كلوت بك واليه ينسب شارع كلوت بك في القاهرة) فانشأ المدارس الطبية والمستشفيات وفي مقدمتها المدرسة الطبية في قصر العيني (وكان هذا القصر قبلاً مسكناً لابراهيم بك الكبير من امراء المماليك) يدرس فيها الطب والجراحة ومدرسة اخرى في فن التوليد ومستشفى كبيراً في ابي زعبل قرب المطرية وانشأ مجلسا صحيًّا ومدرسة بيطرية ورتب مستشفيات واطباء للعساكر واخرى للاهالي وعين اطباء لمراقبة الاحوال الصحية في المديريات

﴿ الاصلاحات العلمية ﴾ أما الاصلاحات العلمية فلا تقل أهمية عما تقدم لانهُ الف مجلساً للمعارف العمومية قصد به تعليم خدمة الحكومة الملكين والجهاديين ما يؤهلهم للقيام بمهام اعمالهم وفتح مدارس كثيرة لتعليم الشبان من اهل البلاد و بعث بعضاً منهم الى أوربا لاتقان الدروس على مثال الارساليات العلمية بعد ذلك . وانشأ المطبعة الاهلية في بولاق وامر بترجمة كثير من الكتب المفيدة وانشأ الجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) وديوان المهندسخانة وغير ذلك

﴿ صفاته ومناقبه ﴾ كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصلعها بارز القوس الحاجبي اسود العينين غايرهما صغير الفم باسمه كبير الانف متناسب الملامح مع هيبة ووداعة . ابيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالبــاً على الخصوص اذا مشى في داره مفكرًا في امر

وكذلك كان يفعل بونابرت . وقلما كان يفاخر باللباس فكان لباسه غالباً على زي المماليك وعلى رأسه الطربوش الجهادي ثم ابدله بالعمامة فزادته هيبة ووقاراً وابدل اللباس العسكري بلباس واسع بسيط لا يمتاز به عن بعض اتباعه

وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابه الاَّ رجل واحد يخفره . واذا استوى في مجلسه لا يتقلد السلاح انما يجلس وفي يده حقة العطوس والمسبحة يتلاهي بها وكان يحب العاب البلياردو والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط • واما جلساؤُه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويجلون قدره ويلقبونهُ بمبيد المماليك او مصلح الديار المصرية . وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيراً ما كان ينقاد بدسائس المفسدين وكان كريم النفس سخي العطاء وفي بعض الاحوال مسرفاً •وكان يتفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته • وكان محباً للاطلاع ولا سيما على الاخبار السياسية وكان يعتبر الجرائد وتأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن

أما هواجسه السياسية فكانت تقلق راحته فلا ينام الا يسيراً وقلما يرتاح في نومه ولا ينفك متقلباً من جانب الى آخر فكان يجعل عند فراشه اثنين من خدمته يتناوبان اليقظة لتغطيته اذا انكشف عنه الغطاء من التقلب • ويقال ان من جملة دواعي ارقه الشهقة المرتجفة التي كانت تتردد اليه كثيراً وكان قد اصيب بها في حملته على الوهابيين على اثر رعب شديد . على ان ذلك الارق لم يكن ليضعف شيئاً من سرعة حركته فكان يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهاره في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شوراه او مراقبة استعراضات العساكر او استطلاع امور اخرى تتعلق بمصالح الامة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لانه شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والاربعين من عمره . ويقال انه ابتدأ بتعلم احرف الهجاء على احد خدمة حريمه والكتابة على احد المشائخ وهذا مما يزيده شرفاً وفخراً ويبرهن على ما فطر عليه من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع الناس ودقة في الطلب وكان متمسكاً

بالاسلام مع احترام التعاليم الاخرى ولا سيما التعاليم المسيحية فكان يقرب اصحابها منه و يعهد اليهم اهم اعماله

و يقال بالاجمال انه كان لرعيته اباً حنوناً وصديقاً مخلصاً ولذوي قرباه نصيراً مسعفاً ولاولاده اباً حقيقياً ولذلك نراه بعد ان اصيب بفقد اكثرهم غلب عليه الحزن حتى اثر في صحته تأثيراً رافقه الى اللحد . اما حبه للرعية فلا يحتاج الى دليل فهذه الديار المصرية عموماً اذا قصرت السنة اهلها عن تعداد مآثره ينطق جمادها بمزيد فضله هذه الترع والجسور والبنايات والشوارع والجنائن هذه المطابع والمدارس هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية هذه الزراعة والفلاحة هذه شبه جزيرة العرب تردد ما لاقته من نجدته . وقد كان محترماً لدى رعيته وذويه ومن الاجانب البعيدين منه وطناً وديناً ومشرباً وكثيراً ما تقربوا اليه بالنياشين والهدايا اقراراً بفضله على العالم عموماً بتمهيد سبل التجارة بين اوربا والهند على الخصوص .

ابراهيم باشا

هو نجل محمد علي باشا وقد تقدم في سيرة ابيه معظم سيرة حياته لانهما عملا معاً في مصر وكان ابراهيم ساعد أبيه الايمن في فتوحه وسائر اعماله العسكرية ولد في قوله عام ١٢٠٤ هـ ومال من صغر سنه للاعمال الحربية وفيه مواهب أعاظم القواد يشهد بذلك ما اتاه من الاعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها مما فصلناه في ترجمة ابيه

وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية وله اطلاع واسع في تاريخ البلاد الشرقية تولى الامارة المصرية بعد تنازل ابيه عام ١٢٦٥ فسار على خطواته سيراً حسناً وان كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الاصلية فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة كما يغلب ان يكون رجال العسكرية . وكان ابوه لين العريكة حسن السياسة ذا دهاء وحكمة ولم يطل حكم ابراهيم الا ١١ شهراً وتوفي قبل والده

وكان ربع القامة ممتلىء الجسم قويَّ البنية مستطيل الوجه والانف اشقر الشعر في وجهه أثر الجدري كثير اليقظة قليل النوم وكان نقش خاتمه «سلام على ابراهيم»



ش ٧ : ابراهيم باشا — في اواخر ايامه

ولد سنة ١٢٠٤ هـ وتولى وتوفي سنة ١٢٦٥ هـ

عباس باشا الاول

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ هـ او ١٨١٣م وربي احسن تربية وكان محبًّا لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملته الى الديار الشامية وشهد اكثر الوقائع الحربية وفي سنة ١٢٦٥هـ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لان المرحوم جده كان يحبه كثيراً فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه

ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل



ش ٨ : عباس باشا الاول

ولد عام ١٢٢٨ وتولى سنة ١٢٦٥ ﻫ وتوفي عام ١٢٧٠ ﻫ

سبل التجارة وغير ذلك

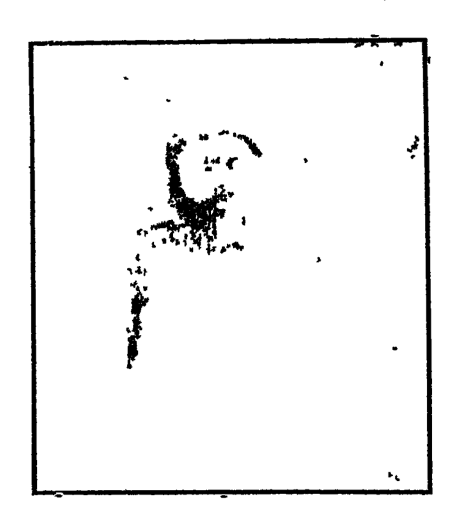
وكان له غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ ﻫ وتشرف بمقابلة جلالة السلطان عبد المجيد فاحبه وزوجه بابنته وغمره بنعمه فرجع الى مصر شاكراً حامداً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق ووالدة مولانا الخديوي الحالي

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقدكان

لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي ايامه كانت بين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فألقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ او يوليو سنة ١٨٥٤ م في قصره في مدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة



س ٩ . سعيد باشا

ولد سنة ١٢٣٧ هـ وتولى سنة ١٢٧٠ هـ وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ

هو ابن محمد علي باشا ولد في الاسكندرية عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) وكان

محبا للعلم بارعاً فيه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيداً . تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ ه او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن اخيه وكان محبًّا للعدل والفضيلة وكان مهتماً بالاصلاح الاداري ومن أعماله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامه تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطاً كبيراً واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دُعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية .

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لاساس القلعة السعيدية عند رأس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على أحد وجهيها رسم النيل عند تفرعه والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر و بينهما عند رأس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في اجمل ما يكون من الرسم . وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد « ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الاحد ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٢٧١ ه لاجل حماية الديار المصرية » نشرنا نصها التركي في كتابنا تاريخ مصر الحديث

وفي أيامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واخمد الثورة فهدأت الاحوال . ولما اختتن نجله طوسون اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى القاتلين . وفي أيامه اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولى عليها البرنس حليم باشا حكمداراً . وفي عام ١٢٧٦ ه او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت ثلاثة ايام ونزل ضيفاً كريماً على وجهاء المدينة وكان في اثناء مروره في الطرقات ينثر الذهب على الناس

وفي عام ١٢٧٨ ه او ١٨٦١ م توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى السلطان

عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩هـ او١٧ يناير (ك ٢) ١٨٦٣م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ودفن فيها



ش ١٠ - اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وخلع سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٥

﴿ ترجمة حاله ﴾ هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير وكان لوالده ثلاثة أولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد (ولد عام ١٨٢٥) ثم البرنس اسماعيل (ولد عام ١٨٣٠) ثم البرنس مصطفى (ولد عام ١٨٣٢) وكان البرنس أحمد نابغة من نوابغ الزمان ذكاء وفطنة كثير الشبه بوالده شكلاً واخلاقاً ولكنه توفي في أثمن سني حياته بين الشباب والكهولة فاصبح صاحب الترجمة كبير ابناء ابراهيم

وربي اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتثقف بحياطة جده لان جده رحمه الله كان قد أنشأ لاولاده الصغار وأولاد اولاده الكبار مدرسة خصوصية في القصر العالي فيها نخبة من مهرة الاساتذة فتلقي صاحب الترجمة فيها مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعيات فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جده مع ولديه المرحومين البرنسين حليم باشا وحسين باشا والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الاذكياء الى مدرسة باريس يتولى رئاستهم وجيه ارمني اسمه اصطفان بك فقضوا في تلك المدرسة بضع سنوات تلقوا بها العلوم العالية ثم عادوا الى مصر الا حسين بك فان المنية ادركته هناك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغة الفرنساوية والطبيعيات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الاخص فن التخطيط والرسم وهذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول والياً على مصر فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عباس باشا وسعيد باشا نفور مبني على اختلاف في اقسام التركة وانحاز سائر افراد العائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل فساروا كافة الى الاستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان فصدرت الارادة الشاهانية بانفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا الوزير والمؤلف الشهير الى مصر فأتيا وسوّيا الخلاف وتصالح افراد هذه العائلة الكريمة فعادوا الى مصر الاّ اسماعيل فانه بقي في الاستانة وتعين عضواً في مجلس احكام الدولة العلية

وفي سنة ١٨٥٤ توفي عباس باشا الاوّل وتولى عمه سعيد باشا فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاه عمه المشار اليه رئاسة لمجلس الاحكام فاهتم بشأنه اعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس احكام الدولة العلية

وفي عام ١٨٦٣ توفي المغفور له سعيد باشا فافضت ولاية مصر الى اسماعيل باشا وهو خامس ولاتها من السلالة المحمدية العلوية فاخذ منذ تبوئه الاحكام في

رفع شأن هذه الديار واعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا فاطلق يده في النفقة لتنظيم الشوارع وتشييد الابنية وانشاء المشروعات النافعة على انواعها مما سيأتي تفصيله غير مبال بما قد يجر اليه ذلك من الضيق

وكانت ولاية مصر تنتقل في العائلة الخديوية الى من يختاره جلالة السلطان بقطع النظر عن علاقته بالوالي السابق وكان ولاة مصر يلقبون بالعزيز او الوالي او الباشا واذا لقبوا احياناً بالخديوي فانما يكون ذلك على سبيل التجمل والتفخيم . اما اسماعيل باشا فهو اول من نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي فاصبحت ولاية مصر ارثاً صريحاً في نسله ينتقل منه الى اكبر اولاده ومنه الى اكبر اولاده وهكذا على التعاقب . وهاك اهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمادي الاولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو عام ١٨٧٣

« ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقرَّرة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الاخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوئي كرسيها الى بكر ابنائه ومن هذا الى بكر ابنائه أيضاً وهلمَّ جرًّا علماً بان ذلك ادنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له أهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وامانتك واثباتاً لذلك اجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوَّع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر ابنائك ثم لبكر ابنائه من بعده . فاذا لم يرزق من تولى الخديوية ولداً ذكراً كانت الولاية من بعده لاكبر اخوته او لاكبر بني خيه الاكبر كما تقرَّر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصرًا على الصورة الآتية وهي :

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولدهِ قاصراً اي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديوياً بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة . اذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاته [illegible] الوصاية وعين كيفيتها [illegible]

ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فاولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك ازمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب العالي ليثبتهم في مناصبهم . ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولي ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات فيجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوي وصياً باجماع الرأي او باغلبيته فاذا تساوت الآراء لاثنين من المتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبةً باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها و يشكل مجلس الوصايا من الباقين فيباشرون جميعاً امور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى أي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفى فكذلك لا تغير في الصورة الثانية . واما اذا توفي الوصي أو احد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الأوّل احد اعضاء المجلس وبدل الثاني أحد ذوات المملكة وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة امور الخديوية وذلك مما تقرَّر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

« ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من اهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر اسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا ان نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً للحكومة المصرية . وذلك انه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها واحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم ان ادارة اي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والمواقع وامزجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الدخلية حسب الحاجة واللزوم .

ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية او من قبل الحكومة مع الاجانب ولتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير اسباب التجارة منحنا كم ايضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلك موجباً للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية

« ولكون خديوي مصر حائزاً لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد اعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوماً على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق (وهو اهم الامور واحوجها الى العناية) من اقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك اسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد. وابقينا كذلك لخديوي مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط ان تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كاعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق أو تمييز ولا يجوز لخديوي مصر ان ينشيء البوارج المدرعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته ان ينشئها متى شاء » انتهى

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر قبله أنه حبب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية اوربا وأميركا وغيرهما بما مهده من وسائل الراحة والطمأنية مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشروعاتهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها افواجاً واقاموا فيها على الرحب والسعة لما آنسوه من الكسب الحسن والعيش السهل

وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس وكان قد بوشر بحفرها على عهد سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال جميع ملوك اوربا أو من يقوم

مقامهم وكان له رنة بلغ صداها أربعة اقطار المسكونة لما اعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه همم الملوك العظام . وفي جملة ذلك أنه بنى الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مرسحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل وكانت المدة غير كافية لتشييد ذلك البناء فبذل الدراهم والدنانير فلم تمض خمسة اشهر حتى تم البناء وسائر معدات التمثيل على مانشاهده الان وهو من المراسح التي لا مثيل لها الا في عواصم أوربا العظمى . ومما أختص به صاحب الترجمة من الشرف العظيم دون سواه من الولاة أن ساكن الجنان السلطان عبد العزيز حلت ركابه في القطر المصري في السنة الاولى من ولاية اسماعيل فلاقى ترحاباً عظيماً

وفي عام ١٨٧٢ تعدى الحبشة على حدود مصر مما يلي بلادهم وأسروا بعضاً من رعايا مصر فبعثت الحكومة المصرية تطلب ردهم فجرت المخابرات فآل ذلك الى حرب جرد فيها اسماعيل حملة لم تنل غرضاً فانتهت الحرب بالصلح . وفي عام ١٨٧٣ شخص رحمه الله الى دارالسعادة فاحتفل بقدومه فعاد وقد حاز رضى الحضرة الشاهانية ورجال المابين الهمايوني وفي تلك السنة احتفل بزواج انجاله الثلاثة وهم المغفور لهما توفيق باشا الخديوي السابق والبرنس حسن باشا ودولتلو البرنس حسين باشا احتفالاً واحداً تحدث به الناس زمناً طويلا ومما زاد ذلك الاحتفال بهجة انهم نالوا عندئذٍ رتبة الوزارة الرفيعة معاً

ولنأت الان الى أمر هو اهم الامورالمتعلقةبصاحب الترجمة وعليهامدار ما آل اليه أمره نريد به أمر الديون التي تعاظمت على مصر في أيامه . وايضاحاً لذلك نذكر ملخص تاريخ الدين المصري . فأول من وضع جرثومةالدين المصري المغفور له سعيد باشا عام ١٨٦٢ وقدره الاسمي ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه بفائدة ٧ بالمائه وفي السنة التالية تولى صاحب الترجمة تحت الحكومة المصرية فأخذ في البذل والنفقات في التشييد والبناء وغير ذلك حتى زادت النفقات على الدخل فكان اذا أراد عملا جنح الى الاستقراض لا يبالي بعاقبة ذلك حتى بلغت ديون مصر نحو مئة مليون جنيه واصبحت حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية وعلى أهالي البلاد لانه كان يضرب

الضرائب الفادحة ليفي منها فائدة تلك الديون ويستخدم العنف في تحصيلها من الاهالي حتى آل الامر الى مداخلة الدول الاجنبية للمحافظة على أموال رعاياها أصحاب الديون

فتخابرت الدول وتشاورت في أحسن الوسائل لضمان تلك الاموال واستهلاكها فالفت لجنة دولية مشتركة سموها لجنة صندوق الدين العمومي صدر الامر العالي بتشكيله في ٢ مايو عام ١٨٧٦ وورد في ذلك الامر ان هذا الصندوق قد أنشيء لتأمين ارباب الديون على ديونهم واستلام ما يستحق لهم من الفوائد وغيرها وان الحكومة لايجوز لها تجديد قرض الا بالاتفاق مع صندوق الدين وان الدعاوي التي يتراءى لصندوق الدين رفعها على الحكومة تنظر في المجالس المختلطة

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية فضموهما في ٧ مايو من تلك السنة الى دين واحد فبلغ قدره ٩١ مليون جنيه وسموه الدين الموحد بفائدة ٧ بالمائة ويتم استهلاكه في ٦٥ عاماً ثم رأى اسماعيل باشا ان توحيد على هذه الصورة لا يتيسر له اتمامه فاصدر في ١٨ نوفمبر منها امراً يقول فيه ان تصدر الحكومة المصرية عليها سندات بمبلغ ١٧ مليون جنيه تكون ممتازة برهن خصوصي هو السكة الحديدية المصرية وميناء الاسكندرية وفائدته ٥ بالمائة وسماه الدين الممتاز

على ان كل هذه الوسائل لم تكن كافية لاقناع الدول لان الحكومة لم تكن تقوم باستهلاك الديون حسب الشروط فعينت الدول عام ١٨٧٨ لجنة مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة المصرية فرأت فيها عجزاً مقداره مليون ومائتا الف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن أملاكه الخاصة وأملاك عائلته للحكومة وهي التي تعرف باملاك الدومين وتقرر في تلك السنة استقراض ثمانية ملايين جنيه ونصف وجعلوا أملاك الدومين رهناً لها وهذا هو الدين المعروف بدين روشيلد

وكانت أعمال الحكومة المصرية تجري بمقتضى ارادة الخديوي رأساً أما بعد تداخل الاجانب باحوال المالية فلم ير اسماعيل بدًّا من جعل حكومته شورية فشكل

مجلس النظار على ماهو عليه الآن برئاسة نوبار باشا وصادق على تعيين ناظرين أحدهما انكليزي وهو المستر ولسن للمالية والآخر فرنساوي وهو المسيو بلينير للاشغال العمومية . فرأى مجلس النظار ان يقتصد شيئاً من نفقات الجند فرفت جانباً منهم فثار المرفوتون وجاء جماعة منه وفيهم ٤٠٠ ضابط الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ولسن وطلبوا اليهما دفع ما تأخر لهم من رواتبهم وخاطبوهم بعنف وشدة حتى علت الضوضاء وكادت تأول الى ثورة لولا ان اقبل اسماعيل باشا وخاطب الجند ووعدهم وأمر بانصرافهم . اما هم فحالما رأوه ذعروا وكانه جاءهم برقية او سحر فانكفأوا راجعين والمظنون ان ذلك حصل بالتواطؤ من قبل

ثم استقال الوزيران نوبار ورياض تخلصاً من عبء التبعة لما آنسوه في اعمال الخديوي من الخطر فشكل مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا (الخديوي السابق) على ان ذلك لم يقلل شيئاً من القلاقل لان الداء لم يكن في المجلس ولكنه كان في مقاصد اسماعيل لانه استعظم اغلال يديه بمجلس فيه ناظران اجنبيان فقلب هيئة ذلك المجلس في ٧ افريل عام ١٨٧٩ واخرج الناظرين الاجنبيين وعهد برئاسة المجلس الى المرحوم شريف باشا فعظم ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لانهما اعتبرتا تلك المعاملة اهانة لهما فعمدتا الى الانتقام فسعتا في ذلك لدى الباب العالي سرًّا وجهراً وفي ٢٥ يونيو عام ١٨٧٩ صدر الامر الشاهاني باقالته وتولية المغفور له توفيق باشا وفي ٣٠ منه وقيل في ٢٦ سافر اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية ومنها الى اوربا ويقال انه خاطب ابنه توفيق باشا عند سفره قائلاً

« لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم ان تكون يا أعز البنين خديوي مصر فاوصيك باخوتك وسائر الآل برًّا واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان أزيل بعض المصاعب التي أخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأي ذوي شوراك وكن أسعد حالاً من ابيك »

وما زال بعد سفره مقيما في اوربا حتى افضت به الحال الى الاقامة في الاستانة العلية فاقام فيها الى ان توفاه الله في ٦ مارس عام ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ عاماً فحملت

جثته الى مصر ودفنت فيها

﴿ اعماله وآثاره ﴾ قلنا ان اسماعيل باشا كان شغفاً بتنظيم المدن حتى قيـل انه يريد ان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسعها واكثر من فتح الشوارع الجديدة وبناء الابنية الفاخرة كالاوبرا الخديوية والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية واعظم تلك الابنية سراي الجيزة وهي مما تقصر عنه همم الملوك حتى ضربت بها الامثال وانشأ المتحف المصري في بولاق والمكتبة الخديوية بالقاهرة وهما من اجل الآثار وانفعها واما المتحف فقد انشأه بامره ماريت باشا وقبره فيه وكان المتحف اولا في بولاق ثم نقل على عهد الخديوي السابق الى سراي الجيزة وهو اليوم في بناية بنوها له خاصـة بجوار قصر النيل . اما المكتبة فقد كانت اولاً في درب الجماميز ثم بنوا لها بناية خاصة في ميدان باب الخلق نقلوها اليها والمكتبة نفيسة تفتخر بها مصر على سائر الامصار الشرقية لما حوته من الاثار العلمية وبينها جانب كبير من الكتب الخطية التي يعز وجودها

ومن اعماله انه جرّ الماء بالانابيب الى بيوت العاصمة وكان الناس يستقون قبلاً بالقرب والصهاريج وعمم زرع الاشجار في المدن وضواحيها وانار القاهرة بالغاز وتدارك ما ينجم عن الحريق باستجلاب آلات الاطفاء

وهو الذي نظم معظم فروع الادارة على ماهي عليه الآن فقسم القطر المصري الى ١٤ مديرية وعين لها المراكز وأسس مجلس النواب ونظمه ونظم مجالس القضاء الاهلي والقضاء الشرعي وجعل لـكل روابط وحدوداً ووضع نظام المجالس الحسبية وأنشأ مجلس حسبي القاهرة . وعلى عهده أنشئت المجالس المختلطة بمساعي دولتلو نوبار باشا وقد اراد بها تقليل نفوذ القناصل وحصر النفوذ الاجنبي ولكنها كانت سبباً لزيادة النفوذ واتساع دائرة المداخلة . وكانت مصلحة البريد قبلاً شركات أجنبية فانشأ مصلحة البوسطة المصرية وجعلها من المصالح الاميرية كما هي الآن وحسن مطبعة بولاق وزاد فيها وأمر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها وأسس معملاً للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة قبله الا جريدة الوقائع المصرية

ولم تكن تصدر على نظام فجعل لها ادارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية كجريدة التجارة ومصر والوطن والاهرام والكوكب الاسكندري ورضة الاسكندرية وروضة المدارس واليعسوب ونزهة الافكار وحديقة الابصار وغيرها . وبالجملة فقد كانت للعلم في ايامه نهضة مرجع الفضل بها اليه لانه كان يقرب العلماء ويجيز المجيدين منهم ويأخذ بناصرهم ماديًّا واديبًّا.وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز لمستحقيها بيده وقد يقف عند تقديمها تنشيطاً لهم

ولم يكن في القطر المصري يوم توليه الا خط حديدي ممتد بين القاهرة والاسكندرية فانشأ كثيراً من الخطوط الاخرى الممتدة الى سائر انحاء القطر شمالا وجنوبا وشرقاً وغرباً ومد اسلاك التلغراف حتى اوصلها الى السودان وقد بلغت نفقات الخطوط الحديدية والآلات البخارية والعربات والآلات التلغرافية التي احدثها بين عام ١٢٨١ و١٢٩٠ ه ٩٦٦٥٨٩٣٢٧ جنيهاً على تقدير المرحوم صالح مجدي بك

ومن آثاره مدينة الاسماعيلية بناها على قنال السويس وسماها باسمه وجعل فيها الحدائق والقصور . وانشأ المنارات في البحرين الابيض والاحمر وزين حديقة الازبكية بغرس اشجارها وتسويرها ورتب فيها الموسيقى وبنى بنايات كثيرة بالقرب من طره على طريق حلوان لمعامل البارود والاسلحة الصغيرة انفق على بنائها مبالغ كبيرة ولكنه لم يستعملها . وبنى ليمان الاسكندرية والحمامات المعدنية في حلوان ولولاها لم تعمر حلوان . وبنى المرصد بالعباسية وكثيراً من معامل السكر في سائر انحاء القطر هذا فضلاً عن الترع الكثيرة والجسور الهائلة . ومن اشهر تلك الترع الابراهيمية بالصعيد والاسماعيلية بين القاهرة والسويس . ومن اعظم الجسور كبري قصر النيل الموصل بين القاهرة والجزيرة وبنى حوضا لترميم السفن في السويس

ومما تمَّ على يده من الاعمال العظيمة ابطال تجارة الرقيق واتمام فتح السودان واخضاعها فافتتح مملكة دارفور عام ١٢٩١ ه وما بعدها حتى بلغت جنوده الدرجة

الرابعة من العرض الجنوبي وراء خط الاستواء . وعني في تحسين احوال السودان فمهد شلال عبكة وفتح سدًا كبيراً جنوبي مديرية فشوده طوله ستون ميلاً كان يعيق مسير السفن في النيل الابيض فتسهلت طرق التجارة كثيرًا . ومن مآثره تسهيل اكتشاف ما غمض من قارة افريقا بعد اصحاب الخبرة

وكانت المدارس التي انشأها جده رحمه الله قد اخذت في الاضمحلال لاغفال امرها بعده فاعاد رونقها واحدث غيرها . فمن المدارس التي اسسها او حسنها مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والالسن والعمليات والادارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة البنات في السيوفية وغير ذلك من المدارس في القاهرة والاسكندرية والارياف . وفي عهده تأسست المحافل الماسونية الوطنية وبحمايته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادئها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي السابق وجماعة كبيرة من امراء البلاد ووجهائها

وخلاصة القول ان مصر كانت في ايامه زاهية زاهرة والناس في رغد ورخاء وخصوصاً بعد ارتفاع اثمان الاقطان اثناء حرب اميركا فان ثمن القنطار الواحد بلغ ١٦ جنيهاً فكان سكان هذا القطر السعيد وفيهم الكاتب والشاعر والتاجر والصانع يتحدثون بمآثره وانعامه وتنشيطه . على ان العقال منهم كانوا لا يغفلون عن ذكر ما كان من اسرافه فوق ما تحتمله حال البلاد وتنبأ بعضهم بمنقلب تلك الحال ووقوع مصر في وهدة الدين وتعريضها لمطامع الدول الاجنبية والواقع انه لم يترك هذه الديار الا وقد بلغت ديونها زهاء مئة مليون جنيه كما رأيت وهي لا تزال تئن من وطأتها الى الان وكان ذلك من اعظم الاسباب لمداخلة الاجانب في ادارة البلاد ومراقبة اعمالها

على اننا لا ننكر ان الاصلاحات التي اجراها ببعض تلك الاموال قد عادت على البلاد بالنفع الجزيل . ولكننا لا نرى انها تعوض الخسارة كلها وزد على ذلك انه لو احسن التصرف في النفقات وسار بها سيراً قانونيًا لكانت العواقب احسن كثيراً ولاصبحت مصر في غنى عن كل هذه التقلبات ويقال ان مقدار

الاموال التي دفعت من خزينة الحكومة المصرية بأمره بغير تسمية المدفوع اليه بمعنى انه كان يرسل الى المالية تذكرة بامضائه يقول فيها ادفعوا الى رافعه المبلغ الفلاني فيدفعونهُ وهم لا يعلمون مصيره — فقد جمعت هذه المبالغ فبلغت ٨٤ مليونـاً من الجنيهات . فاذا صحت هذه الرواية كان هذا المبلغ وحده كافيـاً لوفاء دين مصر

﴿ صفاته ﴾ كان اسماعيل باشا ربعة ممتلىء الجسم قوي البنية عريض الجبهة كثيث اللحية مع ميل الي الشقرة اما عيناه فكانتا تتقدان حدة وذكاء مع ميل قليل نحو الحول او ان احداهما اكبر من الاخرى قليلاً

وكان جريئاً مقداماً ذا قوة غريبة على اقامة المشروعات كثير العمل لا يعرف التعب ولا الملل ولا مستحيل عنده . وكان ساهراً على ماجريات حكومته لا تفوته فائتة واما اعمال الدائرة السنية فقد كان يطلع على جزئيات اعمالها وكلياتها فلا يباع قنطار من الفحم الا بمصادقته

وكان عظيم الهيبة جليل المقام لا يستطيع مخاطبه الا الانقياد الى رأيه حتى قيل على سبيل المبالغة ان الذين يخاطبونه يندفعون الى طاعته بالاستهواء او النوم المغنطيسي

وكان حسن الفراسة قلَّ أن ينظر في امر الا استطلع كنهه فاذا نظر الى رجل عرف نواياهُ أو تنبأ بمستقبل أمره . ومما يتناقلونه عنهُ انه ادرك مستقبل احمد عرابي وهو لا يزال ضابطاً صغيراً فاوصى المغفور له الخديوي السابق ان لا يرقيه لئلا يتمكن من بث نواياه الثورويةة فتقود الى ما لا تحمد عقباه

وكان يتكلم الفرنساوية جيداً وهي اللغة التي يخاطب بها الاجانب ويحسن العربية والتركية والفارسية ويحب الفخر والبذخ والابهة وكان منغمساً في الترف مكثراً من السراري والحظايا

ولكنه مع ذلك كان كثير الميل الى تنشيط المعارف ورفع منار العلم والاخذ بناصر المظلومين . ومما يؤيد ذلك ان مصر بليت عام ١٨٧٤ م بطغيان النيل

فاصابها جهد عظيم فوجه التفاته الى حال المزارعين والتجار فاراد جماعة من تجار الاسكندرية ان يقيموا لهُ تمثالاً تذكاراً لفضله فابى وامر ان يقام بدل ذلك التمثال مدرسة للتعليم

﴿ تركته ووصيته ﴾ يعسر تقدير تركة صاحب الترجمة تقديراً مدققاً لكثرة فروعها واختلاف جزئياتها وتفرقها في البلاد ولكن المعروف من تركته انهُ استبدل معاشه قبل مماته باثنين وعشرين الف فدان من الاطيان باع الفين منها للاوقاف العمومية و ١٥٠٠ للجناب العالي فبقي له ١٨٥٠٠ فدان منها ١٢ الف فدان في تفتيش اتياي البارود وقفها على زوجاته الثلاث في حياتهن ثم يرثها ورثته بعدهن والباقي وقدره ٦٥٠٠ فدان يقسم على الورثة . وترك غير ذلك مما ورثه عن والدته وهو ٥٠٠٠ فدان وهبها لها المرحوم عباس باشا الاوَّل وهي مرهونة و ٩٠٠ فدان وقصر في حلوان وسراي القصر العالي و ٣٤ فداناً تابعة لها . وما ورثه عن ابنه المرحوم البرنس علي باشا جمالي الذي توفي منذ بضع عشرة سنة وهو ٦٠٠ فدان . وترك في العباسية قصر الزعفران وفي الاستانة قصر ميركون وهو يحتوي على قصرين كبيرين وقصرين صغيرين . وترك فيها ايضاً قناق بايزيد وتقدر قيمة أرضه بثلاثين الف جنيه واصله للمرحوم البرنس حليم باشا ورثه عن اخته زينب هانم فأخذه السلطان منه ووهبه للفقيد . فهذه التركة كلها ما عدا سراي الزعفران تقسم على الورثة بعد ايفاء ديونه التي تقدر بنحو ١٨٠ الف جنيه

أما وصيته فانه كان قد أضاف ٤٧٠٠ او ٤٨٠٠ فدان من اطيانه في ايام ولايته الى الاطيان الموقوفة على اهل قوالة وقدرها ١٠ آلاف فدان في كفر الشيخ وجعل لنفسه الشروط العشرة في هذا الوقف بما فيها من حق التغيير والابدال . ثم آلت نظارة هذا الوقف اليه ففصل ٤٧٠٠ فدان التي أضافها اليه عملاً بحقه ووقفها على حاشيته كلها ولم يستثن أحداً منهم فرنسويًّا كان مثل سكرتيره او انكليزيًّا مثل طبيبه أو غيرهما من الاتباع والجواري اللواتي يبلغ عددهن ٤٥٠ جارية عدا ٤٠٠ بيضاء كان قد زوجهنَّ باعيان مصر قبل مفارقته هذه البلاد

وقد اقام صديقه الحميم دولتلو راتب باشا وكيلاً لحرمه واوصى ان يعطى ١٥٠ جنيهاً شهريًا وان نعطى حرمه ٥٠ جنيهاً شهريًا وان يضاف راتبها الى راتبه اذا توفيت في حياته . و يؤخذ راتبهما كليهما من تفتيش ايتاي البارود

وتأول نظارةوقف قوالة بعده الى حضرة دولتلو عصمتلو البرنسس ز بيدة هانم بنت محمد علي باشا الصغير ابن محمد علي باشا الكبير وتأول نظارة وقف القصر العالي الى البرنس عثمان باسا فاضل ولهذا الوقف بيوت ونحو ١٢٠٠ فدان من الاطيان ويبلغ دخله نحو ٥ آلاف جنيه سنويًا . وقد ترك سراي الزعفران لحرمه الثلاث . وكذلك كل منقولاته وقيمتها غير معلومة

محمد توفيق باشا الخديوي السابق

ولد سنة ١٨٥٢ وتوفي سنة ١٨٩٢

هو اكبر انجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق ولد سنة ١٨٥٢ وادخله والده مدرسة المنيل وسنه تسع سنوات فدرس فيها اللغة والجغرافية والتاريخ والطبيعيات والرياضيات واللغات العربية والتركية والفرنساوية والانكليزية وكان ميالاً للعلم من صغر سنه فاحرز منها جانباً اهله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنه ١٩ سنة . ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال ورئاسة مجلس النظار

ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكريمة المرحوم الهامي باشا وهي مشهورة بالجمال والعقل والكمال . وفي السنة التالية (١٨٧٤) ولد لهُ بكره الخديوي الحالي) فسماه عباس حلمي . ثم ولد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٧ والبرنسس خديجه هانم سنة ١٨٧٧ والبرنسس نعمت هانم سنة ١٨٨١

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم ابيه حتى قضت الاحوال باقالته كما تقدم في ترجمته فاستلم زمام الاحكام في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وجاءه الفرمان الشاهاني المؤذن بذلك . وكان مشهوراً بحبه للوطن المصري وقد شعر باحتياجه

الى الحرية والرفق بالرعية فخفف الضرائب ونظر في تأمين اصحاب الديون وفي ايامه تشكلت لجنة التصفية وأنشأت قانونها فصادق هو عليه ثم طاف القطر المصري لتفقد الرعية واستطلاع احوالهم فدرس في اثناء تلك الرحلة ما يحتاج اليه القطر من الاصلاح وحالما عاد عمد على اصلاح حال الفلاح من حيث ما عليه من الضرائب فامر بتقسيط الاموال والعشور على اشهر معلومة وان تقتضى من الكبير والصغير على السواء مع اتخاذ الرفق في تحصيلها ومن تأخر عن السداد تباع ارضه . فانتظمت الاحوال أحسن انتظام



ش ١٣ - محمد توفيق باشا الخديوي السابق

ثم وجه عنايته الى اصلاح شؤون المعارف فامر بانشاء المدارس العالية والابتدائية ووسع دوائر المدارس التي انشأها اباؤه ونظم شؤونها وجعل للبلاد نظامات شورية وشكل مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية



س ١٤ ـ محمد توفيق باشا
امام مداس قبلي واقعة طوسكى بين كروسكو وحلفا

وفي ايامه أنشئت المحاكم الاهلية وتحسنت حال الري بانشاء الترع و بناء القناطر الخيرية ورفع العونة والسخرة وانسأ لائحة المستخدمين الملكية والعسكرية ومعاشاتهم

وكان مع سهره على مصالح رعاياه تقيًا ورعاً بنى المساجد ونظر في الاوقاف الخيرية واصلح فيها وكان سفوقاً على رعاياه كثير الرفق بهم فاكثر من تنشيط اهل العمل بالرتب والنياشين وكانت الرتب على عهد ابيه تستلزم زيادة الرواتب فلما كثرت في ايامه جعلها لا تستلزم الرواتب بل هي علامة شرف من امير البلاد

وكانهُ بالغ في اكرام الناس وزاد في اطلاق الحرية قبل استعداد البلاد لها فانقلب النفع المنتظر منها الى ضرر فحدثت الثورة الوطنيه المعروفه بالثورة العرابيه وسيأتي تفصيلها في ترجمه احمد عرابي (باشا) . والحوادث السودانية وسيأتي تفصيلها في ترجمة محمد احمد المهدي

و صيب رحمه الله بالنزلة الوافدة اصابة شديدة لم تمهله الا اياماً قليلة فتوفي في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ فبكاه الناس على اختلاف الطبقات والعناصر والمذاهب لما كان عليه من صدق النية واخلاص الطوية والرفق والعدل ودفن في مصر



ش° ١٥ ـ عباس حلمي باشا
الخديوي الحالي

عباس حلمي باشا

الخديوي الحالي

ولد سنة ١٨٧٤ وتولى عرش الخديوية سنة ١٨٩٢

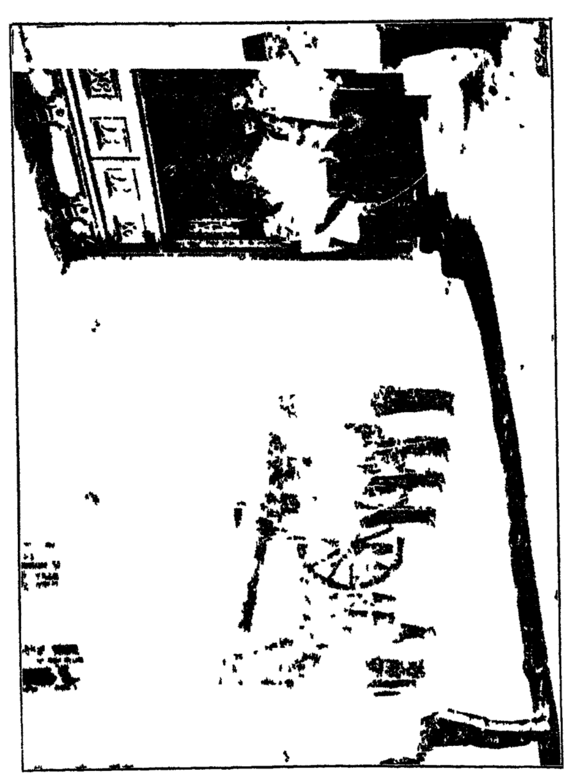
هو بكر الخديوي السابق ولما توفي والده كان سموُّهُ اعزه الله في مدرسة فينّا . وكان قبل ذهابه اليها قد تثقف في مدرسة عابدين التي شادها والدهُ له ولدولة شقيقه البرنس محمد علي فلما اتما دروسهما فيها ارسلهما والدهما الى مدرسة جنيف بسويسرة فمكثا فيها مدة يجدان في تحصيل العلوم ثم رحاها الى فينا وانتظما في مدرستها الملوكية العليا . وفي اثناء اقامتهما في تلك المدرسة استأذنا والدهما المرحوم بالتجول في انحاء اوربا لاستطلاع احوال تلك المدنية من مصادرها فزارا المانيا وانكلترا وروسيا وايطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه الممالك ترحاباً حسناً وزارا الممالك الاخرى

وفي سنة ١٨٨٩ عادا الى مصر واستأذناه في زيارة معرض باريس لذلك العام فاجابهما الى ذلك فلقيا هناك ترحاباً جميلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة ١٨٩١ عادا الى مصر في اثناء الراحة المدرسية ثم رجعا الى المدرسة في فينا . وفي ٨ يناير من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءهما النبأ البرقي بوفاة الخديوي السابق فاصبح سموا كبرهما مولانا الامير خديويًّا على مصر من ذلك اليوم . ثم جاءته رسالة الصدر الاعظم بتثبيته على ذلك العرش فاسرع الى مقر حكومته فوصل الاسكندرية في ١٦ يناير المذكور فاحتفل القطر بقدومه احتفالاً يليق بمقامه

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين اليه اكثر مما الى كل خديوي سواه لما يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر اسلافه بنهضة الاقلام واتساع نطاق الصحافة واطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضه العلمية

وفي ايامه تم فتح السودان وانقضت دولة الدراويش بتعاضد الجيشين المصري

والانكليزي . ورحل الجناب العالي الى السودان في شتاء سنة ١٩٠١ لتفقد احواله فاحتفلوا بوطء اقدامه هناك احتفالاً عظيما . وتلا في الخرطوم خطاباً دل حسن ظنه بحكومة السودان المشتركة



ش ١٦ ـ الخديوي يقرأ خطابه امام سراي الخرطوم

الملوك والامراء



ش ١٧ ـ السلطان محمود الثاني

ولد سنة ١٧٨٥ وتولى سنة ١٨٠٨ وتوفي سنة١٨٣٩

هو السلطان الثلاثون من سلاطين آل عثمان شقيق السلطان مصطفى الرابع وابن السلطان عبد الحميد الاول . تبوَّأ السلطنة العثمانية وهي في اختلال عظيم وارتباك لم يسبق له مثيل . وكان السلطان سليمان القانوني آخر من قاد جنوده بنفسه من سلاطين آل عثمان وتقاعدوا بعده عن المسير الى ساحة الحرب تاركين قيادة الجند الى وزرائهم ورجال دولتهم الامر الذي آل الى تقهقر الدولة واختلال احوالها وانتقاض ولاتها واصبح الانكشارية عثرة في سبيل فلاحها بعد ان كانوا حصناً لها وقواماً لسطوتها . وكان السلطان سليم الثالث ابن عم صاحب الترجمة قد شرع في اصلاح ما فسد من شؤونها فبثَّ لان عمه كل ما كان في نيته من ذلك

فلما اتيح للسلطان محمود تولي السلطنة اخذ على عاتقه القيام بتلك المهام واخراجها

من حيز القوّة الى حيز الفعل. وكان أعظم وزراء الدولة اذ ذاك مصطفى البيرقدار وهو الذي اجلس السلطان محمود على سرير السلطنة بعد سفك الدماء. فولاه السلطان الصدارة العظمى لما تبينه فيه من الشجاعة والاقدام وشدة البطش . فباشر البيرقدار اول كل شيء قطع شأفة الاحزاب المضادة فقتل بعضاً ونفى آخرين حتى خلا له الجو فاخذ في اصلاح شؤون المملكة باذلاً في ذلك جهد الطاقة عملا بارادة مولاه فرأى ان يبدأ باصلاح القوة العسكرية وتنظيمها على النمط الحديث الذي وضعه نابوليون بونابرت وهو المعول عليه في تنظيم جنود أوربا

وعلم ان مباشرته ذلك تقضي بتغيير الانكشارية وتمردهم لما يرون في الامر من انحطاط سطوتهم وتقلص ظل مجدهم فاحتال على العلماء والوزراء وكبار اهل الدولة واستجلب مصادقتهم في تنظيم جند جديد واصلاح جند الانكشارية بتدريبه على النظام الجديد . فتعهد له اولئك ببذل ارواحهم واموالهم توصلاً الى تلك البغية فعلقت الامال باصلاح الحال على يد ذلك الوزير

وكان الله سبحانه وتعالى لم يشاء ان يتم ذلك على يده فجاء البيرقدار اموراً غيرت عليه القلوب اخصها انه طمع في اموال الناس فاكثر من الضرائب واستخدم في استخراجها طرقاً غير قانونية فخاف الناس الانتظام في الجندية واوجس العلماء والمشائخ خيفة على مال الاوقاف لئلا يصبح طعمة له . اما السلطان فانه لم يكن اقل حذراً منهم وقد رأى كل شيء سائراً على ما يريده هذا الوزير والاحكام في يده يريدها كيف شاء

وما زالت الاحزاب تتعاظم وتتكاثر حتى صاروا يجاهرون بذلك في مجتمعاتهم العمومية . واتفق ذات يوم ان البيرقدار كان سائراً بموكبه الحافل والشوارع غاصة بالجماهير فامر رجاله ان يبعدوا الناس عن الطريق بالعنف وان يضربوا من لا يطيع الامر حالاً فنفر الناس الى القهوات والجوامع وقد عدوا ذلك استبداداً وعتواً واخذوا ينقمون عليه فاجتمع جماعة منهم الى أغا الانكشارية وتوسلوا اليه ان ينقذهم من استبداد ذلك الرجل . وكان الانكشارية اشد منهم رغبة في قتله فتواطأوا على

مهاجمة منزله بغتة واحراقه فهجموا عليه واحرقوه بما فيه من الرجال والنساء . وكان البيرقدار في جملتهم فذهب فريسة النار فتخلصت الاستانة منه . ولكنه لايزال مع ذلك معدوداً في جملة اهل الاصلاح لما اتاه من الاعمال العظيمة وما خصه الله به من المواهب التي رفعته من حضيض الفاقة الى منصة الصدارة العظمى ويروى عنه اعمال تدل على قسطه وعدالته مما يطلق الالسنة بالثناء عليه

وكان في جملة من قتل اثناء تلك الثورة السلطانية مصطفى الرابع وكان معتزلاً عن السلطنة فلم يبق من عصبية آل عثمان الا السلطان محمود ولم يعد للانكشارية باب للعزل والتولية فامن دسائسهم ولاح له لحسن سياسته ان يصلح ما بينهم و بين العساكر الذين سيباشر تدريبهم على النظام الحديث فاصلح ذات بينهم وابعد من بقي من اصدقاء البيرقدار فسكنت الخواطر فتربص ينتظر فرصة لتنفيذ ما يريده من الاصلاح فشغلته الاعمال الحربية التي قامت بين الدولة العلية والروسيين وقد اخذوا يزحفون بعددهم ورجالهم نحو الدانوب فاحتلوا بعض المدن هناك فجرد السلطان جنداً لدفعهم . واتفق اثناء ذلك تجريد نابوليون بونابرت على روسيا سنة ١٨١٢ فاضطر الروسيون لعقد معاهدة الصلح في ١٦ مايو (ايار) من تلك السنة مع الباب العالي وسحب جيوشهم عن الحدود لقتال نابوليون

و بقي ذلك الصلح مرعياً ثماني سنوات اهتم السلطان اثناءها في اخماد ما ثار اذ ذاك في ولايتي بغداد وآيدين وقمع عصيان الوهابيين الذين ظهروا في شبه جزيرة العرب بدعوى دينية حتى تعاظم امرهم فبعث السلطان الى محمد علي باشا والي مصر اذ ذاك فجند عليهم وقطع دابرهم

وفي عام ١٨٢١ ثار اليونان في المورا وشقوا عصا الطاعة حتى صاروا يهاجمون سواحل سوريا والاناضول وغيرهما ويصادرون العمارات العثمانية فبعث السلطان جنداً عظيماً لردهم فقامت الحرب على ساق وقدم و بعث الباب العالي الى محمد علي باشا اذ ذاك ايضاً فارسل حملة تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا انضمت الى جيوش الدولة وضيقوا على اهل المورا فاستنجدت اليونان الدول الاوربية فتوسطت دولتا انكلترا

وفرنسا . فلم يرضَ السلطان بتوسطهما فبعثا عمارتيهما وانضمت اليهما العمارة الروسية وهددوا ابراهيم باشا وعمارته في مينا نافارين من اعمال المورا وطلبوا اليه ان يكف عن القتال فأبى الا ان يكون ذلك بأمر من السلطان فدخلوا المينا واطلقوا النار على العمارتين المصرية والعثمانية في ٦ يوليو (تموز) عام ١٨٢٧ وظهروا عليهما بعد دفاع شديد فاضطر السلطان محمود لقبول اقتراح الدول المتحدة وامضى معاهدة تقضي باستقلال اليونان

وكان السلطان في اثناء ذلك مشتغلاً بتنظيم الجند الجديد لعلمه ان جند الانكشارية لا يقوى على مدافعة جنود أوربا المنظمة ولكنه علم بما يحول بينه وبين ما يريد فجمع اليه رجال دولته بحضرة المفتي افندي وخطب الصدر الاعظم اذ ذاك محمد سليم باشا خطاباً عدد فيه ما وصلت اليه فئة الانكشارية مع ما هم فيه من القصور في النظامات الحربية الجديدة وطلب اليهم ان يبدوا رأيهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل للافاة ما يهدد المملكة العثمانية بسبب ذلك فاقر الجميع وفي جملتهم آغا الانكشارية على اتخاذ الوسائل الفعالة فتلا المكتوبجي امراً قاضياً بتنظيم جيش جديد باسم (ايكنجي) وتهذيبه فوقع الجميع على وجوب تنفيذ ذلك الامر وتلي ذلك بعدئذٍ على ضباط الانكشارية فقبلوا به فاخذوا في تنظيم الجيش . وفي ٦ ذي الحجة عام ١٢٤١ ه (١٢ يونيو ١٨٢٦) استعرضوه وشرعوا في تهذيبه للمرة الاولى في ساحة اتميدان

اما الانكشارية فلما شاهدوا ذلك النظام نسوا عهودهم لما رأوا في الامر مما يحط من سطوتهم ونفوذهم واخذوا يتحدثون سرًّا وينقمون على تلك البدعة فحاول الصدر الاعظم قمعهم سرًّا وجهراً فلم يزدادوا الا عناداً حتى هجموا اخيراً على منزله للايقاع به فلم يظفروا بشخصه لانه لم يكن هناك فتفرقوا في المدينة يصادرون المارة والباعة فبعث الصدر الى السلطان بالامر وامر ضباطه وجنده الخصوصيين فحضروا في السراي . اما الانكشارية فأصروا على اعمالهم وجاهروا بطلب رؤوس الذين أشاروا بتنظيم ذلك الجيش فوقف الصدر الاعظم وحوله من رجاله

والعلماء والمشائخ عدد غفير في انتظار مجيء السلطان وكان في بشكطاش فأسرع الى السراي وخطب في الجماهـير فانهض هممهم فاقسموا على الثبات حتى يفوزوا او يقتلوا فداء عن سلطانهم وطلبوا اليه ان يجرد العلم النبوي الشريف فجرده ومشى فتبعه الناس وتقاطروا من انحاء المدينة للدفاع عن السلطان والسنجق الشريف ففرق فيهم الاسلحة ثم سلم العلم الى المفتي وجلس في قصر (كشك) فوق باب السراي حيث يشرف على الساحة ويشاهد الجماهير

ثم اجتمع الصدر الاعظم والمفتي والعلماء في جامع السلطان أحمد وتلوا الفاتحة وسوراً اخرى بالخشوع التام ثم نهضوا في هيئة الحرب وفيهم العساكر واهل المدينة فأدركوا الانكشارية وقد تجمهروا في ساحة اتميدان فحاولوا ردهم بالتي هي احسن فابوا فاطلقوا عليهم الرصاص والتحم الفريقان وكانت المذبحة هائلة عادت فيها العائدة على جند الانكشارية ومن لم يقتل منهم قيد اسيراً فنجت البلاد منهم وهدأت الاحوال كما نجت مصر من امراء المماليك بعد ان ذبحهم محمد علي قبل ذلك ببضع عشرة سنة

واخذ السلطان محمود بعد ذلك بتنظيم الجند على النمط الفرنساوي المتقدم ذكره فاغتنمت الدولة الروسية انهماكه بذلك واشهرت الحرب وزحفت بجنودهـا الجرارة لجهة الدانوب في اوربا وجهة القرص وارضروم وغيرهما في اسيا وبعثت عمارتها البحرية الى البحر الاسود . فعظم ذلك على السلطان لما يعلمه من قصور جنده الجديد ولكنه جند على الروسيين . وجاهد العثمانيون جهاد الابطال دفعاً لعدوهم عن حدود البلاد ما ليس فوقه غاية وقد شهد لهم بذلك اعداؤهم . على ان جهادهم وبسالتهم وثباتهم لم تغن عنهم شيئاً لانهم كانوا يحاربون ثلاث دول عظام وليس الروس وحدهم كما علمت من نجدة انكلترا وفرنسا للدورة وانقضت الحرب الروسية هذه باحتلال بعض المدن في رومانيا وفي اسيا

ولما علم السلطان بذلك اضطرب قلبه ولم يكن يعرف الاضطراب قبل ذلك ولكنه أظهر ثباتاً وحزماً جديرين بالسلاطين الفخام والمصلحين العظام وانتهت تلك

الشرور بعقد معاهدة ادرنة في ٦ سبتمبر (ايلول) عام ١٨٢٩ القاضية باستقلال اليونان استقلالاً تاماً والتنازل عن اقليم السرب لعائلة دوبرينوفيتش وعن اقليمي الفلاخ والبغدان . وقد انضمَّ هذان سنة ١٨٦١ الى امارة واحدة عرفت بامارة رومانيا تدفع جزية سنوية للدولة العلية كالديار المصرية . والتنازل عن بعض الجزائر الواقعة عند مصب الدانوب وعن بلاد اخرى في اسيا مع غرامة حربية مقدارها مائة مليون وعشرة ملايين من الفرنكات

وقد يستغرب القارى رضوخ السلطان محمود لتلك المعاهدة وهو من سلاطين آل عثمان الذين دوخوا العالم وارجفوا ملوك الارض ودانت لهم اعظم ممالك الدنيا. ولكن ليس ذلك محل الاستغراب وانما الغرابة في ثبات هذه الدولة أيدها الله ودفاعها الدولتين والثلاث او اكثر معاً بعزم ثابت . وكانت كل دول اوربا ضدها تنتظر فرصة لابتلاعها فلو لم تكن اقوى الدول واشدهن بطشاً ما استطاعت دفع تلك الصدمات ناهيك بما كان مستحكماً في داخليتها من الخلل وما افسده الانكشارية ومن جرى مجراهم

فلم تكد تتخلص من تلك المشاكل حتى كانت حملة الجنود المصرية تحت قيادة ابراهيم باشا على سوريا فافتتحوا عكا واوغلوا في داخل القطر وما وراءه حتى كادوا يهددون الاستانة فتوسطت الدول واوقفتهم في سوريا حيث أقام ابراهيم باشا حاكماً ضمن حدود وعهود تسع سنوات توفي السلطان محمود في السنة التاسعة منها بعد ان حكم احدى وثلاثين سنة كلها حروب واهوال ولولا حزمه وثباته وقسطه ما قوي على مقاومة تلك الصدمات التي لو كانت على اعظم دول الارض لذهبت بها الى الدمار

وكان رحمه الله ثابت الجنان مقداماً حازماً تتجلى في وجهه ملامح الوقار والرزانة وقد قال الذين قابلوه من سفراء الدول الاجنبية انهم لم يجدوا في سائر ملوك اوروبا وامبراطوريها المعاصرين ما في السلطان محمود من قوة التسلط على الافكار والتأثير على العقول وكان يحسن الخط ونظم الشعر متبصراً لا يعمل عملا

ما لم يتدبره وينظر في عواقبه . ومن اعماله ابادة وجاق الانكشارية وتأسيس النظام الجندي الجديد . وهو اول من لبس الطربوش واللباس الافرنجي على الزي المعتاد (في اواخر حكمه) واول من ركب عربة (فايتون) من سلاطين آل عثمان وقد كان السلاطين قبله يلبسون العمامة والجبة ويركبون الخيل وفي عصره ظهرت أول جريدة في المملكه العثمانية ويقال انه اذن بنقل رسمه بالزيت وعرضه فى الترسانة العامرة وقد طبع ذلك الرسم بمطبعة الحجر وبيع في الاستانة



(١٨) الامير بشير الشهابى الثاني

المعروف بالكبير او المالطي

ولد سنة ١٧٦٧ وتولى سنة ١٧٨٨ ونفي سنة ١٨٤٠ وتوفي سنة ١٨٥٠

هو اعظم امراء بني شهاب حكام جبل لبنان في الاجيال الاخيرة وهم عرب يتصل نسبهم الى قريش قدموا بلاد الشام في صدر الاسلام وما زالوا يتناوبون الاحكام في لبنان ووادي التيم مع الاسر الاخرى من الامراء وغيرهم تحت رعاية الباب العالي الى اواسط القرن التاسع عشر

ترجمته واعماله — اما الامير بشير فهو اعظم الامراء الشهابيين سطوة وهيبة و بسالة و بطشاً واطولهم حكماً تنصر والده في آخر ايامه ثم توفي عن ولدين حسن و بشير فتزوجت والدتهما وتركتهما وهما في ضنك من العيش وكان حسن اكبرهما سناً فانتظم في خدمة الامير يوسف الشهابي امير جبل لبنان اذ ذاك واقام في قصبة الامارة بلدة دير القمر . فاصبح الامير بشير وحيداً منفرداً وكان لوالده خادمة امينة فلازمت الغلام شفقة عليه واقاما في برج البراجنة قرب مدينة بيروت . اما والدته فسكنت مع زوجها الجديد في قرية الحدت قرب البرج وكانت تعول ولدها بشيراً وتسعفه بما يقوم باود حياته من الطعام واللباس

ولما ناهز السادسة عشرة انفت نفسه من تلك المعيشة فغادر البرج قاصداً دير القمر ونزل في بيت الدين بالقرب من الدير في منزل رجل يقال له الشيخ ابو علي البتديني وكان شيخ مجلس (خلوة) محترماً محباً للبر . وكان يؤانس في وجه الامير بشير مهابة الاسود وشهامة الرجال ففتح له صدر بيته وانزله على الرحب والسعة واقام عنده بضع سنين يقضي نهاره في الصيد وليله في التحرق لما هو فيه من ضيق المعيشة مع شرف الحسب والنسب . ولكنه كظم على مضض الحياة ينتظر فرصة ينهض بها من حضيض الذل الى ما تطلبه نفسه من المعالي

فاتفق ان دروز لبنان وهم الفئة الكبرى من سكانه انفوا من حكومة الامير يوسف واجمعوا على انزاله واقامة امير سواه وكان كبير الدروز اذ ذاك الشيخ بشير جنبلاط وكان نافذ الكلمة شديد البطش فشاور العقلاء والاعيان فاخبره بعضهم عن الامير بشير وقال « ان هذا اذا تولى الامارة كان آلة بيدنا لصغر سنه وقلة احزابه » فقال الشيخ بشير الي به وليكن مجيئه الى منزلي سراً لاراه ولا يعلم به احد فبعثوا اليه فجاء في منتصف الليل ودخل على الشيخ وحياه فسأله اذا كان يريد ان يتولى لبنان فقال « ومن اين لي ذلك ولا مال عندي ولا رجال » فقال « أما المال والرجال فنحن نقوم بتقديمها لك فكن انت الخاسر وتربص ريثما نخلع الامير يوسف ، وأمر وكيله فجاء بصرة من الدراهم دفعها اليه قائلاً خذ هذه الآن ومتى

انفقتها ابعث اليك بمثلها واحفظ هذا سرًّا حتى يؤون الوقت . فشكره الامير بشير وخرج ولم يعلم به احد

ولكن صدق من قال « كل سرٍّ جاوز الاثنين شاع » فالامير يوسف علم بما تواطأ عليه الدروز والامير بشير فعزم على اعدامه قبل تمكنه من الحكم فبعث اليه اخاه حسناً وامره ان يقتله ويأتي برأسه فسار حسن بالرغم منه حتى اتى بيت الدين فبلغ الامير بشير ذلك فجاء ببندقيته وذخيرته وجلس في صدر الحجرة فلما اطلَّ عليه اخوه من بعيد ناداه قائلاً « لا تقرب من هذا البيت والا فاني قاتلك لامحالة » وهول عليه بالبندقية فقال له « انما جئت لاخاطبك في امر » قال « لا تخاطبني في شيء اما كفاكم اني مقيم هنا ولا ينظر الي احد كانما انا من السوقة — اليس ذلك عاراً على الامير يوسف » فخجل حسن وعاد واخبر بما كان وحسَّن للامير الرفق باخيه فبعث اليه جواداً يريد تقريبه منه وهو غير واثق بما سمعه عنه

اما الدروز فكتبوا الى الجزار والي ولاية صيدا (وكان لبنان تحت ولايته) يشكون من الامير يوسف واستبداده فبعث اليه الجزار ان ينزل او ان يبعث اليه احداً من ذوي قرابته رهناً ضامناً لتسديد ما تأخر عليه من مال الحكومة . فارسل الامير بشيراً تخلصاً منه ويقال انه لما امره بالذهاب الى عكا ليكون رهناً عند الجزار قال له « سر يا ولدي الى الجزار في شغل» فاجابه « اخاف ان اذهب ولدك وارجع ولد الجزار » فلم يفقه الامير لما قاله

فوصل عكا ومعهُ كتب التوصية من الشيخ بشير للجزار وغيره من رجال حكومتهِ وفي جملتهم رجل يهودي اسمه حاييم كان مديرًا لدائرة الجزار وبيده الحل والعقد وعائلة سكروج وكانوا كتاباً في ديوانه فساعدوا الامير بشيرا مساعدة قوية فولاه الجزار الامارة على لبنان والبسه الفروة واعطاه العدة والرجال وامره بالذهاب الى دير القمر لاستلام مقاليد مصلحته . فسار في مائتي جندي وعلم الامير يوسف بقدومه ففرَّ من الدير ودخلها الامير بشير وتولاها . وكان الشيخ بشير جنبلاط وانصاره انصارًا للامير في كل ما يريد فتعززت سطوته وذاع صيته

ولكن لم يستتب له الامر الا بعد مقتل الامير يوسف لان اعوجاج حكم الجزار كان يقضي لمن يدفع اليه الرشوة الكبرى فكان يتعهد له الامير يوسف تارة بدفع قدر اعظم مما يدفعه الامير بشير فيوليه ثم يزيد هذا على ذاك القدر فيعيده ويعزل ذاك • وكان اللبنانيون يشتكون احياناً من قساوة الامير فيتامرون عليه ويتظلمون منه وبقي الحال كذلك حتى قتل الامير يوسف في عكا بامر الجزار سنة ١٧٩٠ • وكيفية ذلك ان الجزار كان سائرًا الى الحج فوصل اليه وهو في المزاريب كتاب من الامير بشير يشكو فيه من دسائس الامير يوسف وكان هذا قد التجأ الى حمى الجزار في عكا فكتب الجزار الى نائبه هناك ان يقتله ثم ندم على مسارعته فبعث اليه ان لا يقتله ولكن سبق السيف العزل . فقتل الامير يوسف شنقاً قبل وصول الكتاب الثاني ويقال انه وصل واخفاه ابن السكروج كاتب الجزار خدمة لمصلحة الامير بشير ولما عاد الجزار وتحقق ذلك منه قتله

فاستتب الامر للامير بشير غير ان الفتن بين ولايتي صيدا ودمشق لم تكن تنقطع واللبنانيون تارة يثورون على اميرهم وطورًا يستبد فيهم محصلو الاموال • ونظراً لكثرة الفئات والطوائف في لبنان لم يكن يخلو ذلك الجبل من فتنة تهرق في سبيلها الدماء وتسلب الاموال . وكان الامير بشير يتدبر كل ذلك حيناً بالحكمة وآونة بالقوة وتارة بالحيلة والدهاء حتى بهر الحكام وسحر الرعية . وزد على ذلك انه لم يكن في مأمن من صداقة رئيسه الجزار والي صيدا لان الجزار لم يكن يرعى ذماماً ولا يتفاضل الامراء عنده الا بنسبة ما يدفعونه اليه من الخراج والاموال . وكان اذا ولى اميراً لا يامن انتقاضه فيسترهن عنده ابنه او اخاه او زوجته فاذا عزله بعث اليه بالرهن ويسترهن احداً من ابناء الامير الجديد وهكذا

وفي سنة ١٧٩٩ قدم بونابرت بجيوشه لافتتاح سوريا بعد ان دوخ الديار المصرية فافتتح يافا ثم جاء عكا وحصرها وكان الامير بشير عوناً كبيرًا للفرنساوية يمدهم بالمؤونة والزاد وقد سر نصارى لبنان بقدوم تلك الجيوش وخاف الدروز . ولما طال الحصار على الفرنساويين وامتنعت عكا عليهم بمساعدة العمارة الانكليزية

تحت قيادة السير سدني سميث مل الامير بشير من معاضدتهم . ثم وردت عليه كتابات من السير سدني يبين له فيها « ان الفرنساوية لما دخلوا مصر نشروا منشورات ادعوا انهم مسلمون وقد كسروا الصلبان في رومية » وبعث اليه بنسخة من ذلك المنشور فنفر الامير من الفرنساوية وقطع المؤنة عنهم. وكان ذلك من جملة اسباب فشلهم وعودهم على الاعقاب ولم يفتحوا عكا مع انهم حاصروها زهاء شهرين

وكان الجزار قد تغير على الامير لمساعدته الفرنساوية ثم علم بكفه عن مساعدتهم ولكنه لم يقره في مكانه فتوسط له السير سدني سميث وكان بين هذا والامير صداقة ومهاداة . وسافر الامير في اثناء تغير الجزار عليه في مركب من عمارة السير سدني الى الاسكندرية وكان ذلك المركب بانتظاره في طرابلس وبالغ السير سدني في اكرام الامير واحبه محبة شديدة لما رأي من هيبته وجسارته وأمر بتصويره وخاطب بشأنه الصدر الاعظم وكان قد قدم غزة لمحاربة الفرنساوية ليعيده الى منصبه في امارة لبنان فاعاده

ولكنه اضطر بعد قليل لمغادرة لبنان لعدم رضوخ اصحاب المقاطعات له فسافر في عمارة السير سدني الى قبرص واقام فيها ستة اشهر ثم سافر معه الى الاسكندرية وما زالوا في البحر المتوسط بين ذهاب واياب نحو شهرين . وبعد ذلك عاد الى امارته في لبنان وكانت بينه وبين الجزار ومن ولاهم مكانه حروب دامت اربع سنوات ثم تصالح والجزار سنة ١٨٠٣

وفي السنة التالية توفي الجزار وخلفه ابراهيم باشا (غير ابن محمد علي باشا) ولم تطل ولايته فخلفه سليمان باشا وكان من مماليك الجزار وبينه وبين الامير صداقة فاقره في امارته وايد نفوذه وكان أولاد الامير يوسف من اكبر مناظري الامير في الامارة وكثيراً ما كانوا يتمكنون من اغراء الجزار على عزله والتولي مكانه بمساعدة مدبرهم جرجس باز واخيه عبد الاحد فلم يصف له الكاس حتى قتلهما بسبيسة سنة ١٧٠٧ . وفي سنة ١٧٠٩ بنى الامير بشير جسر نهر الكلب وبعد

ستين بني جسر نهر الصفا وكان للامير بشير ثلاثة اولاد الامراء قاسم وخليل وامين

وفي سنة ١٨١٣ جاء الى الامير رجل حمصي اسمه بطرس بن ابراهيم كرامة وكان شاعراً فصيحاً ومنشئاً بليغاً حسن الخط وكان قد قرأ صناعة الانشاء والشعر على الشيخ امين الجندي الشاعر المشهور فجعله الامير نديماً عنده ثم وكل اليه تعليم ابنه الامير امين وصار بعد ذلك كاتب يده

وكان بجوار دير القمر قرية يقال لها بيت الدين وقد تقدم ذكرها فاتخذها الامير مسكناً له وبنى فيها الدور لسكناه ولسكنى اولاده وفي جملتها السراي الباقية الى هذا العهد المعروفة بسراي بيت الدين وفيها مقرُّ متصرفية لبنان الى هذه الغاية . واجرى الى بيت الدين قناة من ماء تحت عين زحلتنا على مسافة ثلاث ساعات يسمى نبع القاع بجانب نهر الصفا وغرس فيها المغارس والبساتين حتى أصبحت من أجمل المساكن وابهاها

وكان الجنبلاطية عوناً كبيراً له في كل حروبه واعماله لانهم هم الذين سعوا في امارته وقد شدوا ازره وقاموا بنصرته وأيدوا حكومته ماديا وادبياً . ولكنهم كانوا يفعلون ذلك حباً بتعزيز سطوتهم وتاييد نفوذهم فكانوا ينظرون من وراء مساعدتهم الى ما يؤيد نفوذهم على الأسر الاخرى الدرزية التي كانت تناظرهم في السطوة ونفوذ الكلمة وقد سعوا في استخدام الامير بشير لاغراضهم حتى سئم هو من استبدادهم واعتراضهم له في اعماله فرأى ان الجو لا يخلو له الا اذ كسر شوكتهم وتفرد بالاحكام فعوَّل على التخلص منهم

ولكنه لم يكن يتظاهر بذلك فاتفق ان احد الامراء المدعو الامير حسن اراد التزوج بابنة ولم يرض ابوها به فغضب وقتله — فعل ذلك برضاء الشيخ بشير جنبلاط فغضب الامير بشير على الامير حسن وأمر بالقبض عليه ففر الى دمشق وهناك أسلم ووشى بالامير انه مسيحي وهيج عليه الوالي فحقد الامير على الشيخ بشير لانه نسب ذلك اليه . وفي اثناء ذلك بنى الشيخ بشير جامعاً في المختارة بالقرب من بيت الدين وتظاهر بالاسلامية فازداد حقد الامير عليه واضمر له الشر وعزم

على تعضيد الاحزاب المضادة له من الدروز ولكنه كتم ذلك في باطن سره وبقي مظهراً الصداقة له كالعادة

وفي سنة ١٨١٩ توفي سليمان باشا والي عكا وخلفه عبد الله باشا الخزنه دار بن علي باشا احد مماليك الجزار فاقر الامير في امارته ولكنه اخلف بعد قليل وولى غيره مدة قصيرة ثم عادت الامارة اليه فعاد مكرماً مع الهدايا والتقادم على ان يكون اميراً على لبنان مدة حياته . ولكن بعض اللبنانيين لم يذعنوا له بدسيسة ممن كان اميراً قبله وأبوا دفع الاموال كما اراده هو فقامت بينه وبينهم حروب آلت الى خصام طويل بين ولايتي صيدا ودمشق وكان الامير يحارب مع عبد الله باشا والي صيدا او عكا ضد درويش باشا والي دمشق وقد اخلص النية وبذل قصارى الجهد في تلك المساعدة حتى اوجس درويش باشا خوفا منه وكان عالماً ان الفضل في ذلك النصر للامير بشير فكتب اليه يستجلب رضاه ووعدهُ بالولاية على صيدا ولقبه بوالي الشام وصيدا فأعرض الامير عن اجابته وبعث الكتاب الى عبد الله باشا فسر هذا من صداقته وكتب اليه ان يثابر في محاربة الدمشقيين ولقبه بوالي الشام وصيدا أيضاً . اما الامير فجاء عكا يريد ارجاع عبد الله باشا عن عزمه في ذلك فلم يجبه فسار في الجند كما امره وعاد الى المحاربة فاعتبرت الدولة العلية اعمال عبد الله باشا هذه تعدياً على حقوقها فانجدت درويشاً وانذرت الامير بذلك فاذعن ولكنها اشترطت عليه بواسطة الشيخ بشير شروطا صعبة في امارته فلم يرض فاتفق الامير والشيخ على تولية الامير عباس فقبل درويش بذلك وعقد الامير مع الامير عهداً ان يحافظ هذا على بيت الامير وكل ما له اثناء غيابه وركب قاصداً عكا فعلم ان درويش باشا بعث للقبض عليه فعرج الى صيدا ونزل من ضواحي بيروت في المراكب ومعه من الحاشية نحو المئة وخمسين رجلا قاصداً مصر سنة ١٨٢١ وفيها اذ ذاك المغفور له محمد علي باشا واليا فلاقى منه كل رعاية واكرام

وكان الغرض من قدومه اليه الالتماس منه ان يتوسط لدى الباب العالي في العفو عن عبد الله باشا لان الدولة كانت تحب محمد علي باشا وتراعي خاطره على اثر

ما أوتيه من النصر في حرب الوهابيين في بلاد العرب بعد ان تعبت الدولة في قهرهم

وكان محمد علي باشا اذ ذاك في شاغل من امر الحرب في المورة وكانت الدولة قد بعثت اليه ان يجند جنداً لمحاربتها فلما جاءه الامير مستنجداً طيب خاطرهُ ووعده بالمساعدة وكتب الى الباب العالي بذلك واسكن الامير في بني سويف ريثما يرد الجواب وشدد في طلب العفو تشديداً كبيراً لانه كان راغباً في امتلاك قلب الامير ولسانه ليكون له عوناً في ما نواه من فتح الشام

ولبث الامير في مصر حتى وردت الاوامر بالعفو عن عبد الله باشا فحملها شاكراً بعد ان تداول مع محمد علي سرًّا بشؤون كثيرة تعود الى مقاصد الباشا في بر الشام . وسار الامير من مصر الى عكا بكل اكرام ومعهُ سلاحدار الباشا حاملاً العفو فوصلوا عكا وبلغوهُ ذلك فسر عبد الله باشا بفوزه ولكن الجنود العثمانية في الشام طلبت النفقات المعينة في مثل هذا الصلح ولم يكن عند عبد الله باشا نقود وكان الامير قد جاء بنحو نصف القدر اللازم من محمد علي فضرب عبد الله باشا الباقي ضرائب على المقاطعات وفي جملتها جانب على الامير . وكان الامير قد زاد حقداً على الشيخ بشير ولا سيما لما بلغه تواطوءه مع الامير عباس عليه فاحب التخلص منه قطعيًّا ففرض عليه مبلغاً كبيراً من ذلك المال فدفع جانباً واعتذر عن الباقي فالح عليـه ففرَّ الى دمشق فطلبه من واليها فامره بالذهاب ثم التمس من عبد الله باشا التوسط له عند الامير بالعفو فاظهر الامير القبول فحضر الشيخ بشير وكان لا يزال خائفاً من الغدر به فجاء في جماعـة من رجاله الى بيت الدين وسار توًّا الى مقابلة الامير في قصرهِ فجعل رجاله صفين مرَّ بينهما ذليلاً خائفاً من الغدر به حتى دخل على الامير وسلم عليه فامره بالجلوس فجلس مكتئباً واجساً . وامر له بالقهوة فلم يستطع تناولها لما كان فيه من الارتعاش ولكنه امسك الفنجان واراد الارتشاف منه فنظر اليه الامير بعين الغضب فازداد ارتعاش يده حتى انسكبت القهوة على ثيابه وكان منظر الامير مخيفاً بغير غضب فكيف بالغضب . ولم يستطع الوقوف حتى حوَّل الامير نظره عنه الى نافذة بقربه فنهض الشيخ مستأذناً وخرج

ثم بعث اليه الامير ان يصرف من جاء بهم من الرجال لئلا يتكدر خاطره عليهم فانصرفوا عنه فخاف الشيخ ففر الى حوران فضبط الامير ارزاقه وممتلكاته فعاد الشيخ بشير ناقماً وجمع اليه احزابه الدروز و بعض احزاب الامراء مناظري الامير وقدموا لمحاربته فانتشبت الحرب بينهما شديدة حتى اضطر الى استنجاد ولاة طرابلس وعكا ومحمد علي باشا في مصر فبعث اليه محمد علي باشا « ان الفي مقاتل متأهبة تنتظر امركم »

ولكن لم تبق حاجة اليها لان والي الشام قبض على الشيخ بشير و باقي المشايخ وقتل احدهم الشيخ علي العماد لانه من اكبر زعماء الثورة وكان لوالي دمشق ثأرٌ عليه و بعث بالباقين الى عكا اما الامراء المتحزبون معهم فقبض عليهم الامير وأمر بسمل عيونهم وقطع رووس السنتهم

أما الشيخ بشير فكتب الامير الى عبدالله باشا ان يقتله لان اصل الشر منه ثم علم الامير ان الباشا اطلق سراحه واذن له بالسكنى خارج السجن فبعث الى محمد علي باشا على يد ابنه الامير امين — لانه كان اذ ذاك في مصر — يخبره بالامر ويلتمس منه كتاباً الى عبدالله باشا بقتل الشيخ بشير فبعث اليه برسول خاص بشأن ذلك فقتله شنقاً مع شيخ آخر و بقيت جثتاهما معلقتين امام باب عكا ثلاثة ايام

و بقتل الشيخ بشير خلا الجو للامير بشير ففرق اولاده وذويه حكاماً في المقاطعات وهدأت الاحوال الى سنة ١٨٢٦ حينما قدمت مراكب اليونانيين الى بيروت وكان قدومها عدوانياً لان اليونان كانوا في حرب مع الدولة العلية في المورة فبعثوا بمراكبهم الى سواحل سوريا لافتتاح الثغور

فلما بلغ الامير قدوم تلك المراكب جمع اليه رجاله ونزل الى حرج بيروت لدفعها وكانت قد اطلقت بعض القنابل على المدينة فلما علم اليونان بتجمع الرجال لدفاعهم تحولوا عن المدينة . وفي سنة ١٨٣٠ انتدبه عبدالله باشا لفتح قلعة سانور في نابلس فسار وفتحها فتحا أيد ما عرف به اللبنانيون من الشجاعة والاقدام وفي

السنة التالية قدم المغفور له ابراهيم باشا بن محمد علي باشا لحصار عكا

والسبب الحقيقي لقدومه يكاد يكون مجهولاً لان المؤرخين قلما افصحوا عن حقيقته ولكننا قد عرفناه ممن عاصر الامير وكان من حاشيته وسمع حقيقة الخبر من فيه قال : ان محمد علي باشا لما قدم اليه الامير بشأن العفو عن عبدالله باشا تداولا في امور كثيرة تعود الى التعاضد والتعاون عند الحاجة . ولذلك رأينا عزيز مصر لم يتقاعد عن نجدة الامير في حروبه مع الشيخ بشير كما قدمنا . واما محمد علي فكان عازماً على توسيع نطاق حكمه بافتتاح سوريا وكان يظن صنعه الجميل مع عبدالله باشا والامير يكفي لبلوغ امانيه ولكنه رأى من عبدالله باشا اعوجاجاً عن غرضه والغالب ان عبدالله كان طامعاً بمثل مطامع محمد علي فلما علم بما نواه هذا صار يحاذره

وادرك محمد علي ذلك فعزم على اختياره والتعويل على تنفيذ مقاصده بالقوة فبعث الى الامير بشير ان يبعث اليه بجانب من الاخشاب التي يحتاج اليها في بناء المراكب فباشر الامير اجابة طلبه فمنعه عبدالله باشا فشق ذلك على محمد علي واعتبره بظاهر الامر مخالفاً لاوامر الدولة العلية لان تلك المراكب انما هي للحكومة فجرد لمقاصته حملة تحت قيادة ولده ابراهيم باشا فسار لحصار عكا كما قدمنا

فبعث عبدالله باشا الى الامير ان يعد رجاله ويأتي لدفع الجنود المصرية عن عكا وكتب ابراهيم باشا بمثل ذلك لما بينه وبين والده من العهود فوقع الامير في حيرة بين ان يطيع رئيسه الشرعي او يقوم بمواعيده لدى والي مصر وكان حاقداً على عبدالله باشا لانه رأى منه استبداداً فيه بعد ان كان هو السبب في عوده الى ولاية عكا فترجح لديه افضلية نصرة الجنود المصرية فجمع رجاله وسار قاصداً عكا وكان ابراهيم باشا قد استبطأ حضوره فكتب الى والده بذلك فغضب محمد علي وكتب الى الامير يهدده فادركه الكتاب وهو قادم الى عكا وفي جملة ما قال له فيه « اذا تأخرتم عن الحضور الى ولدنا ابراهيم أخربنا دياركم وغرسنا موضعها زيتوناً » فظل سائراً الى صحراء عكا فاستقبله ابراهيم باشا بترحاب لانه كان في

حاجة كلية الى مساعدته فيما جاء من اجله .

وكان الامير عضداً قوياً للجنود المصرية في حصار عكا وغيره من اعمالهم في سوريا . وكان ابراهيم باشا يحترمه كثيراً ويدعوه « والدنا » وكان اعتماده في كثير من المواقع عليه وعلى اولاده ولا سيما الامير خليل فانه حارب عنه حروباً كثيرة في طرابلس وغيرها . اما اهل لبنان فكان دروزهم ضد ابراهيم باشا ونصاراهم معه غير ان الدروز اضطروا اخيراً الى الاذعان بمساعي الامير وتهديده وقد جاهد هذا مع الجنود المصرية جهاداً حسناً وعرض بنفسه للخطر مراراً حتى كان يضطر احياناً الى التنكر بلباس الفعلة وغيرهم خوفاً من مكامن الدروز

وبعد ان فتح ابراهيم باشا عكا وقبض على عبدالله باشا وبعث به الى الاسكندرية سار الي دمشق وبعث الى الامير ان يوافيه اليها فجند اليها وفتحوها وعاد الامير الى بيت الدين وخرج ابراهيم باشا لفتح حمص ففتحها وسار منها الى حلب يحارب الجنود العثمانية ففتحها ثم فتح ايقونية وهناك قبض على الصدر الاعظم قائد الجنود العثمانية وزحف على مرسين فترسيس . وما زال في فتوحاته حتى توسطت الدول الافرنجية وتم الصلح بين الدولة العلية وابراهيم باشا على ان يقف عند حدوده في سوريا وان يكون والياً عليها جابيا لاموالها كما تقدم في ترجمة محمد علي باشا

ولما كادت تهدأ الاحوال انتقض النابلسيون وهاجوا وماجوا حتى اضطر محمد علي الى المجيء بنفسه لنجدة ولده فاتى واخمد الثورة وعاد وكان ذلك عام ١٨٣٣

ثم رأى ابراهيم باشا ان الامر لا يستتب له الا اذا جرد اللبنانيين والنابلسيين وغيرهم من السلاح فعهد بذلك الى الامير فجمع السلاح ولم يكن جمعه كافياً لاستتباب الراحة لان البلاد لم ترضخ لحكومته رضوخاً تاماً والدولة لم تفتأ عن محاربته تارة بعد اخرى فقضى ابراهيم باشا في سوريا نحواً من تسع سنوات لم يهدأ له فيها بال . وفي سنة ١٨٣٧ قدم الدكتور كلوت بك كبير الاطباء المصريين الى بيت الدين

فطلب اليه الامير ان يستأذن محمد علي باشا في ارسال بعض اللبنانيين يدرسون الطب في القصر العيني على نفقة الحكومة فنال ما طلبه و بعث بعضاً منهم الى تلك المدرسة . وفي سنة ١٨٣٨ أمر ابراهيم باشا ان يلبس اولاد الامير بدل العمائم الطرابيش وكتب الامير الى اقاربه أن يفعلوا ذلك ايضا ففعلوا

وفي سنة ١٨٤٠ توسطت الدول الاوروبية ثانية في فض الخلاف فعقدوا موتمراً اقروا فيه على وجوب اخلاء الجنود المصرية للديار السورية . ومما حملهم على اخلائها ايضاً ان الحكومة المصرية جندت عسكراً أدخلت فيه شباناً من الذين كانوا قد ارسلوا لدراسة الطب في مصر . فلما بلغ نصارى لبنان وسوريا ذلك خافوا ان يجرى هذا التجنيد عليهم اذا استقام الامر للمصريين بينهم فانقضوا عليهم وكان الامير بشير مع ذلك يحاول اقناعهم في الخضوع فلم ينجح وحاول جمع سلاحهم ثانية فلم يفز

ورأت الدول ان ابراهيم باشا لا بد من اخراجه من سوريا بالقوة فجاء ريشارد وود الانكليزي بمامورية سرية وكان يعرف العربية فاغرى السوريين على كتابة عرض يطلبون فيه من الدولة العلية وسفراء دول انكلترا وفرنسا والنمسا ان يخرجوا الجنود المصريين من بينهم فكتبوا وارسلت الكتابة الى الاستانة

فجاء الاميرال نابيه في عمارة انكليزية الى مينا بيروت و بعث يتهدد متسلمها ويبشر اللبنانيين والسوريين بقدوم عمارات اخرى لانقاذ سوريا من الدولة المصرية ثم جاءت العمارة العثمانية وفيها بوارج افرنجية كما تقدم واطلقت المدافع على بيروت فتحققت الجنود المصرية ان الانسحاب أولى بهم بعد ان دافعوا دفاع الابطال وصبروا صبر الرجال

أما الامير فخاب أمله وكان يظن فرنسا تساعده عند الحاجة فلم يتحقق ظنه فاضطر الى التسليم فسلم فأمر بالذهاب بمن أراد من أهله وذويه للاقامة في مالطة فاخذ اولاده وحفدته وكاتبه المعلم بطرس كرامة وسائر الحشية وسار مودعاً لبنان بدموع الاسف في مركب اعدّ له حتى اتى مالطة فاقام فيها مكرّماً نحو سنة ثم

استأذن للاقامة في الاستانة فاذن له فاقام فيها مع اولاده نحو ثلاث سنوات ثم ارسل الى الاناضول الى بلدة اسمها زعفر انبول فاقام فيها سنة ونصف سنة ثم أقام في بروسة سنتين منفيًا ايضاً ثم عاد الى الاستانة ومات هناك شيخا هرماً ودفن في كنيسة الارمن الكاثوليك بغلطة

اما اولاده فالامير امين اعتنق الديانة الاسلامية بعد مجيئه الاستانة واستأمن فلم يسر مع والده الى المنفى واما الامير خليل فبقي مسيحياً حتى توفي في الاستانة

اما بطرس كرامة فتعين مترجماً في الباب العالي وبقي مع ذلك محافظاً على صداقة الامير وتوفي بعده ببضعة اشهر في الاستانة أيضاً

هكذا كانت نهاية هذه العائلة بعد الحروب الطويلة والمعاناة الشديدة

﴿ صفاته ومناقبه ﴾ كان الامير بشير ربع القامة كثير الشعر حادّ العينين عظيم الهيبة جدًّا ويروى عن هيبته وشدة باسه وصرامته روايات اشبه بالخرافات منها بالحقائق

ومما يحكى عنه انه كان لعظم هيبته لا يستطيع احد ان يطيل النظر اليه بغير ان يخافه . وكان جهوري الصوت حتى قد يسقط الرجل خوفاً ورعباً بمجرّد سماع صوته اذا غضب . ولولا ذلك لم يستطع ان يحكم اللبنانيين المعروفين بالشجاعة وشدة البأس وقوة الاجسام والعقول . ومما يحكى عن صرامته ان احد رجاله الذين كان يبثهم في انحاء لبنان لصيانة الطرق من اللصوص جاءه يوماً قائلاً « رأيت ايها الامير بالامس في وادي العليق فتاة منفردة في ظلام الليل غير خائفة فعجبت من جسارتها فسألتها عما جرّأها على المسير وحدها في ذلك الوادي المخيف فقالت اني لا اسير وحدي لان ابا سعدى (تريد الامير بشيراً) سائر معي . فعجبت بجسارتها وركنها » فحمق الامير بالرجل حتى كاد يقع صريعاً من الخوف وقال له « لقد صدقت الفتاة ولكن ما الذي جرّأك انت على مخاطبتها وهي سائرة بنفسها في طريقها » وامر فقبض عليه ويقال انه قتله

ويروى عنه من امثال هذه الحكاية شيء كثير تشيب لهوله الاطفال

ومما يحكى عن هيبته انه لما كان في الاستانة وكان قد زاده الشيب هيبة ووقاراً دعاه الصدر الاعظم لزيارته في مجلس الوكلاء فلما حضر وقف له واكرمه فلما خرج عنف الوكلاء الصدر على وقوفه له فوعدهم انه اذا جاء ثانية لا يقف لهُ . فلما زاره المرة الثانية لم يستطع الا الوقوف بالرغم منه فسألهُ الوكلاء بعد خروجه عما حمله على الوقوف واخلاف وعده قال « اني وقفت له بالرغم مني لاني حالما رأيته وما هو فيه من الهيبة لم اشعر الا اني وقفت بغتة »

وكان اذا جلس في مجلسه لايجلس الا جاثياً على طرف مقعد وغدارته محشوّة الى جانبه

اما لباسه فكان بسيطاً لا يزيد عن القفطان الحريري والجبة والعمامة وفي آخر أيامه لبس الطربوش كما يشاهد في الصورة

وكان عفيف النفس قليل النهم في الطعام وكان يدخن في شبق كبير يسع ربع رطل مصري من التبغ فاذا اخذ في التدخين يتصاعد الدخان من فيه كدخان الاتون متخللا شعر شاربيه ولحيته

وكان قويّ البنية شديد البطش . اما آدابه فكانت من العفة على جانب عظيم وكان بعيداً عن مغازلة النساء ورعاً تقياً مثابراً على الفروض الدينية حتى أقام كنيسة للصلاة في نفس منزله في بيت الدين وقضى حياته طاهرا عفيفاً لم يدنس عرضه ولا شرفه بدنيئة حتى توفاه الله . وقد اوضحنا اخلاق هذا الرجل وسائر مناقبه في روايتنا « المملوك الشارد »





ش ١٩ : محمد احمد المتمهدي السوداني

ولد سنة ١٨٤٨ وتوفي سنة ١٨٨٦

﴿المهدوية في الاسلام﴾ المشهور بين المسلمين من اوائل الاسلام الى الآن انه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين و ينشر لواء العدل و يستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي و يسندون ذلك الى احاديث نبوية بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون . ومن اوثق الاحاديث

المروية من هذا القبيل رواية الترمذي وهي « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطيء اسمه اسمي واسم أبيه اسم ابي » ورواية الحاكم وهي « تملأ الارض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعاً أو تسعاً فيملا الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ولم يرد في هاتين الروايتين لفظ المهدي ولكنهم ذكروا احاديث احرى ورد فيها لفظه انتقدها ابن خلدون انتقاداً طويلاً في كلامه عن امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس الخ في مقدمته الشهيرة فمن اراد الاسهاب فليراجعه هناك

على ان ذلك لم يقلل شيئاً من اعتقاد الجمهور في مجيء المهدي فما انفك المسلمون ينتظرون مجيئه فادى ذلك الى ظهور جماعة كبيرة في ازمان مختلفة ادعى كل منهم انه المهدي المنتظر فالتفّت حوله الاحزاب واسس بعضهم دولاً عظمى لا يزال ذكرها باقياً الى الآن على ان كثيرين آخرين لم يكادوا يظهرون بدعواهم حتى طوى الزمان ذكرهم لان الاحوال لم تكن معدة لقبولهم

على ان بين الشيعة والسنة خلافاً من قبيل المهدي وزمن ظهوره فاهل الشيعة يعتقدون انه ظهر في اواخر القرن الثالث للهجرة في شخص ابي القاسم محمد بن الحسن العسكري الامام الثاني عشر وانه سيظهر ثانية قبل انقضاء العالم من سرداب في سر من رأى بالعراق . وأما اهل السنة فيقولون انه لم يظهر بعد وتتمة للموضوع نذكر اشهر الذين ادعوا المهدوية من اول الاسلام الى الآن

(١) محمد بن عبدالله الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٥٤ هـ في عهد الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين فدعا الناس اليه وكان له اخ اسمه ابرهيم نصره وقام بدعوته ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فافتى له وشد ازره فكثرت دعاته حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لو لم يستدرك المنصور امره ويتغلب عليه ويقتله (وترى تفصيل اخباره في الجزء السادس من تاريخ ابن الاثير)

(٢) عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة

الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر ٠وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم (وترى تفصيل اخبارهم في الجزء الاول من كتابنا تاريخ مصر الحديث)

(٣) محمد بن عبد الله تومرت المعروف بالمهدي الهرغي ويكنى ابا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصي بلاد الغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بابي حامد الغزالي وغيره فاخذ العلم عنهم واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب واقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل القرن السادس للهجرة هي دولة عبد المؤمن (وترى تفصيل ذلك في الجزء الثاني من تاريخ ابن خلكان)

(٤) العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدوية فتكاتف الناس حوله وعظمت شوكته حتى دخل مدينة فاس عنوة واحرق اسواقها و بعث العمال الى الانحاء لكنه قتل غيلة فانقضى اجله وسقطت دعوته

(٥) السيد أحمد ظهر في اوائل القرن التاسع عشر للميلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولم تقم له قائمة

(٦) محمد المهدي السنوسي بن الشيخ محمد السنوسي الذي ظهر في المغرب في اواسط القرن المذكور واصله من جبل سوس بجزائر الغرب نبغ (والده) سنة ١٨٣٧ ولاقى من بعض اولي الامر الاسلامي ترحابا نشر دعوته وايدها وكان مقامه الرئيسي في جغبوب على مقربة من واحة سيوا نحو الغرب ولكنه انشأ زوايا عديدة في اماكن اخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثمائة كلها تعلم طريقته وتعاليمه

اما زاوية جغبوب (او جربوب) فانها اعظمها كلها تجتمع اليها الطلبة من تونس ومصر والشام ومن بادية الغرب وفيها كان يقيم الشيخ محمد السنوسي وقد وفق هذا الشيخ الى نشر تعاليمه ونفوذه توفيقاً غريباً وانتشرت طريقته بين القبائل المغربية وامتدت الى سلطنة ودّاي ودارفور ونال هناك نفوذاً عظيماً حتى اصبحت

تلك السلطنة في قبضة يده • فلما توفي سلطانها سنة ١٨٧٦ استخاروا السنوسي في من يخلفه فاختار لهم سلطانا اسمه يوسف

فالسنوسي هذا توفي منذ بضع عشرة سنة ولكنه لمح قبل وفاته ان المهدي المنتظر سيظهر قريباً ولعله ابنه فاستوضحوه فلم يزدهم الا كلمة « لا اعلم » على انه أنبأهم بان ظهوره سيكون في ختام القرن الثالث عشر للهجرة (١٨٨٢ م) فالسنوسيون يعتبرون شيخهم المشار اليه مهدياً وقد سموه محمد المهدي وهو رجل عاقل شديد البطش والمشهور من كراماته خيمة سحرية يحملها في حربه يزعمون ان الزاد لا يفرغ منها

(٧) محمد احمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منحى الشيعة فقال انه الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدراويش تأييد لرغبته في قول الشيعة لان لفظة درويش فارسية

﴿ سبب ظهور المهدي السوداني وقيامه ﴾ لو بحثنا عن قيام دعاة المهدية المتقدم ذكرهم لرأينا لكل منهم داعياً حمله على القيام واحوالاً ساعدت في تأييد دعواه • فالاسباب التى دعت الى قيام محمد احمد وساعدت في وقوع دعوته موقع القبول لدى اهل السودان كثيرة نذكر اهمها وهي :

(١) ذكرنا انتظار جمهور المسلمين للمهدي واهل السودان في جملتهم ولكن السودانيين كانوا ينتظرونه قريباً اعتماداً على قول الشيخ السنوسي كما تقدم

(٢) من المتداول بين شيوخ اهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى اقوال يروونها عن بعض الائمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » وغير ذلك

(٣) كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بجماعة الباشبوزرق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها انواع الخسف والذل وقد تقدمنا مراراً وروى المستر فرنك باور قنصل انكلترا بالخرطوم اذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على

اهل السودان بلا شفقة فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء واخرى للجابي واخرى للحكمدار . وكان الزارع اذا زرع حنطة لا يؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنهات كل سنة ويدفع سبعة اخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل . فاذا تردد في الدفع سيق الى السجن واذا صح زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لجيب الباشا . واذا كان من اصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليه اربعة جنهات عن كل سفينة فاذا لم يرفع العلم المصري على سفينته غرم باربعة أخرى ومن تأخر عن تادية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منه بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين باحراق منزله اوسلب امتعته . والخلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امراً الا ادى عليه ضريبة

(٤) من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في اصناف معدودة اهمها تجارة الرقيق • والنخاسون او تجار الرقيق اشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات أو الوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده . فالنخاسون عمد السودان وعيون اعيانه وقادة اعماله تهابهم الحكام وتخشى سطوتهم الحكومة . وما زالت تجارتهم رابحة وأعمالهم سائرة حتى قام اهل العالم المتمدن لابطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انيطت بغوردون باشا فاخذ بالكف عن الاسترقاق جملة. وهي صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لان منع النخاسة لم يقتصر على تقليل ارباح النخاسين ولكنه عرضهم لاستبداد الجباة لانهم كانوا يؤدون الجانب الاكبر من الضرائب عبيداً او ماشية فاصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقوون على تأديتها فاستبد بهم الجباة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم . ولكن غوردون باشا لحسن سياسته ولين جانبه لم يحدث في ايامه اضطراب فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن عالماً بمحل الضعف ليتلافى خطره فكأن غوردون اوقد ناراً في بعض جهات البيت فجاء غيره لا يدري كيف يطفئ تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها . فلما قام

المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم آنس من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عونا في اضرام تلك الثورة

محمد احمد المتمهدي السوداني

هو من قبيلة الدناقلة ولد في جزيرة اسمها نبت مقابل دنقلا (وقال آخرون في حنك) سنة ١٨٤٨ ويقال ان نسبه ينتهي الى الشيخ القرفي صاحب كتاب الفروق اشتهرت عائلته باصطناع سفن سودانية يضرب المثل بدقة صنعها ومتانتها وكان اسم والده عبدالله هاجر الى شندي باولاده كلهم ومحمد احمد لا يزال طفلاً . فقضى محمد احمد حداثته في صناعة السفن ولم يكن ميالاً اليها على انه كان يختلف في اثناء ذلك الى المدرسة لحفظ القرآن وهو في الثانية عشرة. ويقال انهم عهدوا بتربيته وتدريبه في اتقان صناعة السفن الى عمه شريف الدين في جزيرة شبكة بالقرب من سنار فاتفق ان عمه هذا ضربه مرة ففر الى الخرطوم وانتظم في سلك طلبة طريقة الفقراء وهي من الطرق الشهيرة في السودان بمدرسة خوجلي بالقرب من الخرطوم وخوجلي هذا مقام شهير هناك يأمه اهل الخرطوم وضواحيها يتبركون به فقضى في هذه المدرسة بضع سنين ثم انتقل الى بربر فدخل مدرستها ثم انتقل منها الى قرية ارداب وتناول العلم فيها على الشيخ نور الدايم وعنه تناول سرّ طريقة الفقراء سنة ١٨٧١ ويقول الامام السيد الميرغني انه اخذها عن القرشي هذا كان عنده فرس لا تلد فقال ان فرسي هذه ستلد ويركب نتاجها المهدي فاخذها محمد احمد فولدت عنده

وكان قوي الذاكرة لحفظ القرآن وشيئاً من الحديث وجاء جزيرة ابا جنوبي الخرطوم واقام فيها وكان حسن الاسلوب لين العريكة فطناً حاد الذهن فصيحاً قوي الحجة اذا خطب اثر في السامعين فمال الناس اليه واحبوه فكان يذكر ويعظ ويصلي ويظهر التقوى والزهد والاعتزال عن العالم والناس يتقاطرون اليه افواجاً واكثرهم من قبيلة البقارة المشهورين بالقوة والشدة فكانوا يتألفون حوله حلقات

يذكرون وينشدون

وقد قال سلاطين باشا في حداثة هذا المهدي ما يخالف هذا القول من ذلك قوله انه ولد في جزيرة ارقو قرب دنقله وانه سار الى بربر وانتظم في حلقة محمد الخير ثم ذهب الى الخرطوم وانتظم في حلقة الشيخ محمد الشريف من شيوخ الطريقة السمانية ثم انتقل الى جزيرة ابا واتفق ان بعض التلامذة احتفل بختان اولاده فاجتمع في الحفلة جماعة كثيرة غنوا ورقصوا فنهاهم محمد احمد عن ذلك لان الشريعة لا تجيزه وان شيخ الشريعة نفسه لا يقدر ان يجيزه . فبلغ الشيخ محمد الشريف ذلك فغضب واستحضر محمداً فجاء ذليلاً والتمس العفو فلم يعف عنه بل وبخه ومحا اسمه من سجل الطريقة . فخرج محمد احمد مطروداً ثم عاد وقد ذر الرماد على رأسه وحمل في عنقه الشعبة وهي عود ذو شعبتين توضع في العنق علامة التذلل والاستعطاف فانتهره محمد الشريف وطرده واهانه . فلم يعد محمد يستطيع الكظم فالتجاء الى شيخ آخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشي وكان بينه وبين الشيخ الشريف منافسة فخاف هذا عاقبة الامر فاستقدم محمد احمد واستدناه فابى وكان لذلك الاباء رنة في آذان اهل السودان وعظم محمد احمد في عيني الناس وانتقل الى جزيرة أبا . وبعد قليل مات الشيخ القرشي فبنى محمد على قبره قبة وبالغوا في اكرامه نكاية بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة في معظم انحاء السودان وهو الى ذلك الحين لم يدع المهدوية

وكان استبداد جباة الاموال ضارباً اطنابه وحال السودان كما تقدم من القلاقل والاضطراب فكان محمد احمد اذا ذكر الضيق الذي اصابهم من ظلم الجباة نسب ذلك الى خطية بني الانسان وان العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فنالهم ما نالهم من غضب الله وان الله سيبعث رجلاً يصلح ما فسد ويملأ الارض قسطاً وعدلاً هو المهدي المنتظر . وقد كان ذلك حديث الناس في سائر انحاء السودان فحيثما اجتمعوا تحدثوا في مايقاسونه من الضنك وما ينتظرونه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى اصبح لفظ « المهدي » يدوي في سائر

مجتمعاتهم ومنازلهم في الاكواخ والاسواق والمساجد والزوايا على الطرق وفي العطمور وحيثما وجد اثنان او ثلاثة فلا حديث لهم الا الفرج المنتظر على يد المهدي

فلما رأى محمد احمد ذلك وآنس من الناس ارتياحاً الى اقواله واصغاء الى مواعظه خطر له ان يكون هو صاحب ذلك الامر على انه لم ينطق به حتى سالوه الملك المهدي المنتظر فقال « اجل انا هو » فاخذ يبث تعاليمه والناس يقدمون اليه ويسلمون له فانتشر خبره رويداً رويداً من جزيرة ابا على ضفاف النيل حتى وصل الخرطوم وما والاها فآمن بدعوته قبائل البقارة ورئيسها علي ولد حلو ولم يكن ايمان البقارة به لمجرد اعتقادهم بمهديته ولكن اكثرهم من النخاسين الذين نقموا على الحكومة لمنع الرقيق . ومكن هو علاقته معهم بعد ذلك بالتزوج ببنات كثيرين من كبارهم

وكان في جملة الذين يجتمعون عليه عبد الله التعايشي من قبيلة التعايشة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجبة وله شأن كبير في قبيلته فقال له محمد احمد انت وزير المهدي فقال عبد الله اني في انتظار مجيئه فاذا كنت اياه اظهر وانا ناصرك فقال نعم انا هو فآمن به فاستوزره فكان هو وقبيلته انصاراً له واتفق ظهور نجم ذي ذنب سنة ظهوره فاعتقد اهل السودان ان ذلك النجم انما هو راية المهدي تحملها الملائكة

ووصل خبر هذه الدعوة الى الخرطوم سنة ١٨٨١ وحكمدارها رووف باشا فانفذ اليه رجلاً من خاصته اسمه ابو السعود ليستقدمه الى الخرطوم فسار في اربعة من العلماء على باخرة حتى اتوا جزيرة ابا فلما نزلوا الشاطئ نادوا باعلى اصواتهم اين المهدي فجاء محمد احمد ويداه مخبأتان في ثوبه وجلس على عنقريب (مقعد سوداني) بجانب ابي السعود فقال له ابو السعود « ما هذا الذي قمت به » فاجابه محمد احمد بلطف ودعة « انا هو المهدي » فقال ابو السعود « ولكن يجب ان تذهب » فنهض محمد مغضباً ويده على قبضة حسامه وصاح به « لا لا اذهب » فخاف ابو السعود وترك الرجل للحال واخذ علماءه وعاد بباخرته الى الخرطوم

فوصلها ليلاً فايقظ رؤوف باشا من فراشه وأنبأه بما كان وقال له اعطني خمسين رجلا وانا آتيك بهذا المنافق فاذن له فسار بهم حتى اتوا الجزيرة فنزلوا اليها و بقي ابو السعود في الباخرة . وهم يفكرون في كيفية الهجوم على المتمهدي هجم رجاله عليهم بغتة وقتلوهم عن آخرهم فاشتد ازر المهدي وتمكن اعتقاد اتباعه بدعوته

على انه ادرك خطر مقامه بالقرب من مركز الحكومة فرأى ان يوغل في السودان ريثما تتكاثر احزابه فولى مكانه رجلاً اسمه احمد المكاشف وغادر أبا قاصداً جبال كردوفان وسمى انتقاله هذا « الهجرة »

وكان في كاوا على النيل الابيض على مسافة خمسين ميلا من ابا شمالاً قوة عسكرية مصرية مؤلفة من ١٤٠٠ رجل تحت قيادة محمد سعيد باشا فاقتصت آثار محمد احمد فاوغل هو في جنوبي كردوفان فتعقبته شهراً حتى هلكت ولم تدرك منه وطراً . ثم انتقل محمد احمد الى جبل قدير فحارب رشيد بك حكمدار فشوده وتغلب عليه في ٩ دسمبر سنة ١٨٨١ وكتب الى القبائل يدعوهم الى الاعتقاد بدعوته والاخذ بناصره

فلما علم رؤوف باشا بفشل سعيد باشا ورشيد بك هاله امر المتمهدي واخذ يجمع الجند من دنقله وبربر ودار الشايقية والثورة آخذة في الانتشار فانضم الى المهدي عرب الشلك واصبحت قبائل الكبابيش في شمالي كردوفان والرفاعة في سنار والبشارين بين سواكن وبربر تتردد بين الطاعة والعصيان

وفي مارس سنة ١٨٨٢ اقيل رؤوف باشا فقام مقامه موقتاً جيكلر باشا فانفذ يوسف باشا الشلالي لمحاربة المتمهدي فجنحت به السفينة عند كاوا فتركه رجاله وفرّوا فلما علم المكاشف بذلك تشدد وخرج برجاله على سنار ومديرها حسين بك شكري فدخلها وقتل بعض حاميتها وتجارها فحاصر المدير ورجاله في المديرية فبلغ ذلك جيكلر باشا فانفذ لانقاذهم صالح بك في خمسمئة جندي فجاؤوا المدينة ودخلوها ورفعوا الحصار عن المديريــة فتقهقر الدراويش الى كركوج وراء سنار فخرجت عليهم الجنود المصرية من ابي حراز ومعهم ٥٠٠ مقاتل من عرب الشكرية بقيادة

اميرهم عوض الكريم باشا ابي سن فلقيهم العصاة في المسلمية وارجعوهم على اعقابهم بعد ان قتلوا منهم جمعاً كبيراً . فخرج جيكلر باشا على العصاة بنفسه فغلبهم في ابي حراز وفي موقعة بالقرب من سنار ثم عاد الى الخرطوم . وكان قد وصلها عبد القادر باشا حكمداراً بدلاً من رؤوف باشا (في ١١ مايو سنة ١٨٨٢)

وكان الشلالي باشا قد اعدّ حملة في كاوا للخروج على المهدي في جبل قدير فسار بحراً في ستة آلاف مقاتل حتى اتى فشوده في مايو فسار برّاً واقام مدة على جبل في منتصف المسافة بين فشوده وجبل قدير ثم استأنف المسير في السهول والجبال حتى دنا من العدو في ٧ يونيو وكانوا فئة ضعيفة جائعة ولكن الشلالي استخف بهمته ولم يحسن التحصن فهاجموه بغتة وكسروه شر كسرة واخذوا كل ما كان معه من المؤن والذخيرة ولم يبقوا الا على القليل من رجاله وكان ذلك النصر اعظم ما ناله المتمهدي الى ذلك الحين فاتخذ السودانيون نصرة هذا مع قلة رجاله دليلاً على صدق دعوته وكان قد طاف كردوفان قبل ان صرح بدعوته واشتهر بين اهلها بالتقوى والكرامة والغيرة على الدين فجاء نصره هذا مصداقاً لما في اذهانهم فتقاطروا اليه بالمال والرجال من اقاصي كردوفان وعظم امره في عين الحكومة فاخذ عبد القادر باشا في تحصين الخرطوم وفرض لمن يقتل الدراويش جنيهين عن كل درويش و١٨ جنيهاً عن كل امير و بعث الى الدراويش ان يثوبوا الى الطاعة ووعدهم خيراً واخذ من الجهة الثانية يجمع الجند فاستقدم فرقاً من حاميات القلابات وسنهيت وجبرا وجنّد غيرهم فاجتمع لديه ١٢ الف مقاتل وأمدّ حامية الابيض بالف

وفي اثناء ذلك هجم المكاشف على شات وافتتحها وقتل حاميتها وحاول فتح الدويم فلم يستطع . وكا المهدي لا يزال في جبل قدير لا يبدي حراكاً اما قواده فكانوا يسيرون برجالهم يفتحون البلاد في جهات كردوفان فحاربوا الحامية المصرية في اماكن مختلفة وهددوا الابرا وكشحيل والبركة وغيرها . ثم سار المهدي برجاله الى الابيض عاصمة كردوفان وفيها محمد سعيد باشا فلما علم بقدوم العصاة جمع جنده من الجهات وحصن المدينة وفي اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصبح المتمهدي برجاله

على مقربة من الابيض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الامر فاقروا على شنق الرسل وان لا يبعثوا جواباً ولكن اهل الابيض كانوا على دعوة المهدي سرًّا وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا اعظم تجار كردوفان وحاكمها السابق فانضموا الى العصاة في تلك الليلة هم وبعض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشبوزوق واما جيش المتمهدي فكان جراراً فيه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية . واما سائر قواته فتبلغ ستين الفاً ويقول سلاتين باشا في كتابه (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معه الا بيض بل بقيت في قدير

وفي ٨ سبتمبر هجم العصاة على الابيض فارتدوا خاسرين وقد غنم الجند المصري ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي نفسه واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو عشرة الاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبدالله التعايشي ولم يقتل من الحامية الاّ ٣٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وادرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعول من ذلك الحين ان لا يهاجم سوراً وانما يفتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضنيها الجوع وتعمد الى التسليم . ثم جاء العصاة مدد فاشتد ازرهم فشددوا الحصار على الابيض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقره احد امراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنه رأى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سرًّا انه اذا ارسل اليه أميراً من اكابر امرائه سلم له فارسل اليه ولد النجومي فخرج نور عنقره مع محمد الخير وكان يلقب سر سواري أي قائد الخيالة وسلما لولد النجومي فقبلهما وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الابيض وبارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهدي قد ارسل فرقاً من رجاله لنشر دعوته في دار فور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يغتنموا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي اوائل سنة ١٨٨٣ فتحوا دارا في ٥ يناير واضطرت الابيض الى التسليم من الجوع في ١٩

منه فدخلت كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردوفان وقبض على سعيد باشا ورجاله و بعد اسرهم مدة اكتشف على تقرير بعثوا به سرًّا الى الخرطوم وامر بقتلهم



ش ٢٠ طيب المهدي

وكان عبد القادر باشا قد سار بنفسه وجنده لقمع العصاة في جهات سنار فوشى به بعضهم في مصر فاستقدمته الحكومة اليها على حين غفلة وعينت مكانه علاء الدين باشا وكان قبلاً في مصوَّع وعهدت بقيادة الجند الذي كان في سنار الى حسين باشا وارسلت حملة حديدة لاسترجاع كردوفان عهدت بقيادتها الى ضابط

انكليزي اسمه الكولونيل هيكس ثم سمي هيكس باشا

وكان المهدي لما فتح الابيض ودانت له كردوفان وآمن به معظم اهل السودان أخذ ينظم حكومته على غير نظام الحكومة . واهم اقسام الادارة على ابسط وجوهها ثلاثة الجند والمال والقضاء فجعل على الجند جليفته عبد الله التعايشي قائداً عاماً لجماعة الدراويش يدبر حركاتهم . وانشاء ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة والزكاة والغرامات التي يضربونها على شارب المسكر او السارق . وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان . اما القضاء فاقام عليه رجلاً اسمه احمد ولد علي كان قاضياً في دارفور وسماه قاضي الاسلام .

وكان محمد احمد منذ اوائل ظهوره قـد عين خلفاءه وجعلهم اربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبدالله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فاخذ يحث الناس على الجهاد ويحقر الدنيا في اعينهم ويحبب الآخرة اليهم وهم يفدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يـده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشبزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملأ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جـوراً وظلما » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذ الرجل بالتقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والجبة فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحث بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالاخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ومن امثلة ذلك منشور نشره من الابيض سنة ١٣٠١ هـ وقعت لنا نسخة منه ننشرها مثالاً لتعاليمـه وهاك نصها بالحرف الواحد على علاتها اللغوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله اعلاماً منه الى كافة

المشائخ في الدين والامراء والنواب والمقاديم اتباع المذكورين . ياعباد الله اسمعوا ما اقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها وهو ظهورنا فهو شرف لكم على سائر الامم ولكن المطلوب منكم يااحبابنا المهاجرة في سبيل الله والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها فالى البوار ولو كانت لها بال لكان ربكم يحليها وانظروا في اهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ما كانت عسلاً حنظلاً وسماً وصاروا في غاية العذاب والهلاك بعده وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لماصاروا هكذاوبعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان عجبكم هذا فافعلوا والا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وجاهدوا في سبيل الله فلهزة سيف مسلم في سبيل الله افضل من عبادة الله سبعين سنة ووقفة في الجهاد قدر فواق ناقة يعني حلبة ناقة افضل من عبادة سبعين سنة . وعلى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها ارب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها والشابة فليجاهدن نفوسهن ويسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن الا لحاجة شرعية ولا يتكلمن كلاماً جهراً ولا يسمعن الرجال اصواتهن الا من وراء حجاب ويقمن الصلاة ويطعن ازواجهن ويسترن بثيابهن فمن قعدت كاشفة فاتحة راسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً ومن قال لاخيه ياكلب اوياخنزير او يا يهودي او يا ... او يا ... فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام ومن قال يا فاجر او يا سارق او يا زاني او يا خائن او يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً او ياكافر اويا نصراني او يا لوطي فعليه ثمانون سوطا ويحبس سبعة ايام . ومن تكلم مع اجنبية وليس بعاقد عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطا ومن حلف بطلاق او حرام يؤدب سبعة وعشرين صوتا ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويحرق التنباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فمه ومن عملها بانفه ومن ابقاها في فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطا ومن شرب الخمرة ولو مصة مرة فيؤدب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام وجاره ان لم يقدرعليه يكلم امير الديوان لم يكلمه

فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة ايام ومن ساعد شارب الخمر بتسربة ماء أو اناء فيؤدب كدلك ويحبس ويجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة اسد من الجهاد بالارماح لان النفس اشد من الكافر مقابلة فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومساكها تعب ٠ ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصي الله ورسوله قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم اميرالبلد فان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة ايام وقيل اموالهم غنيمة ٠ وبنت خمس سنين ان لم يسترها اهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج بغير عقد وصبر يوماً قيل يقتل وقيل يحبس وماله غنيمة واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجل ان تشفقوا على الخلق وتزهدوهم في الدنيا ليتركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها ويطلبوها وتعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها وتنصفوا من انفسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما اشكل فامروهم فيه بالصبر لغاية طلب الامراء وجمعهم عندنا ويصير تخييره بحسب الحكم فيه من الله ورسوله واعلموا يقيناً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه . واعلموا أيها الاحباب ان القضايا التي كانت من اثنى عشر رجب الماضي عام ١٣٠٠ بقعة ماسة قد صار رفعها مطلقاً ماعدا الامانة والدين ومال اليتيم واما التي بعد الاثنى عشر رجب الماضي وقبل الفتوح تسمع فيه الدعاوي وأما قتل النفس فيه تفصيل في كونه مخير ولي المقتول في أخذ الدية او القصاص وأما بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المسطور وكذلك مال الخلع اخذه عموما من الازواج بعد الدخول بهنّ والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن فلا يصح أخذه منهنّ فاحكموا فيه بالحكم الذي فصله الله تعالى في القرآن العظيم واعلموا يا احبابي ولا تخالفوا وامتثلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي من الاله عليكم بها فقيدوها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدي أو انقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي او انقص ومن خالف هذا فعليه الادب بالضرب والحبس في السجن حتى يتوب

او يموت في سجنه ومقطوع من اهل زمرتنـا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام (الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفة عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اغراضها فكان يعرف كل ذلك في حينه معرفة تامة فلا تحدث حادثة او تنوي الحكومة نية او تخطو الجنود المصرية خطوة الا ويعلم بها هو وارسل في اثناء ذلك قواده تبث دعوته في انحاء السودان فبعث عثمان دقنة الى السودان الشرقي يتولى قيادة العصاة هناك وارفقه بالمنشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له وكان عثمان دقنه هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقما على الحكومة



ش ٢١ ـ هيكس باشا

حملة هيكس باشا هذه هي الحملة التي زادت الويلات على مصر وكان من امر فشلها وهلاكها ما هو اشهر من نار على علم فيجدر بنا بسط واقعتها وسبب هلاكها وكيفيته لان الناس ما زالوا حتى الآن يعجبون لهلاك تلك الحملة وذهابها ادراج الرياح وعدد رجالها احد عشر الفاً او تزيد معظمهم من الجنود المنظمة

جاء هيكس باشا في بادىء الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصمم على فتح الابيض فاقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة البقارة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المهدي هناك فخرج اليهم هيكس وحاربهم عند مراباية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من قواده ورجاله وفر الباقون وكان لتلك الواقعة تأثير حسن في ارجاع ثقة أهالي سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها

فصممت الحكومة على ارسال حملة تفتح الابيض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهرة انه لا يتحمل تبعة هذه الحملة الا اذا كانت القيادة اليه وحده فسلمت له بذلك ولكنها ارسلت معه علاء الدين باشا حكمدار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر اربعة آلاف جمل وفي اواخر اوغسطس تمت كل معدات الحملة من ام درمان

وفي ٨ سبتمبر استعرض هيكس باشا جنوده وفي ٩ منه خرجت الحملة من ام درمان قاصدة الدويم وبينهما مئة وعشرة اميال وكانت تلك الحملة مؤلفة من اربع ارط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية وخمس ارط سودانية وارطة من الطبجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر وابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق . والباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك ووالي بك وملحم بك ويحيى بك . والطوبجية والسواري بقيادة عباس بك وهبي وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر الفاً منهم سبعة آلاف من المشاة المصريين والباقون من الباشبوزوق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٥٠٠ جمل و٥٠٠ فرس واربعة مدافع كروب

وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس اركان حرب والبكباشية سكندروف وورتر وماسي وايفانس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك

وفي ٢٠ سبتمبر وصلت الحملة الى الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا أما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلغرافاً الى القاهرة أنبأ الحكومة بخروج الحملة من الخرطوم وبين الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظرًا لحرارة الاقليم وقلة المياه وكان في عزمه ان يجعل مسير الحملة من الدويم الى الابيض عن طريق باره وطول هذه الطريق ١٢٦ ميلاً يقيم في اثنائها محطات فيها قوات عسكرية لحفظ خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم فيفتح اولا بارة يقيم فيها مدة ثم يخرج على الابيض

فلما جاء الدويم وانضم الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسوا الارض فقالوا ان طريق باره قليلة المياه وان أحسن طريق للابيض بمثل هذا الجند الكبير طريق خور ابو حبل والرهد الى الجنوب فان الماء كثير فيها نعم ان طولها ٢٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير الا ان المسافة بين الدويم ونورابي وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه فاقنعه علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه و بناء على ذلك قرّروا ان تسير الحملة عن طريق خور ابو حبل فوصلوا في ٢٤ سبتمبر الى شات واستولوا على آبارها وأنشأوا نقطة عسكرية . وبدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدرون العواقب الوخيمة وينتظرون البلاء العظيم . وكان سيرهم على شكل مربع يتأهب للقاء العدو في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام واركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والاثقال وفي وسط المربع الطوبجية وقد شبه سلاتين باشا ذلك المربع بغابة من الرؤوس والاعناق اذا اطلق العدو عليها رصاصه يستحيل ان تخطئها كلها

وزد على ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المرعى بالنظر الى انحصارها في المربع

فجاعت واكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلاً عن الدويم اسمها زريقة

كل ذلك والحرارة تشتد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف من سوء العاقبة ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين سببه اختلافهما في الراي بشأن خطة المسير فرأى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لانها تقلل عدد الجند فخالفه هيكس في ذلك لان قطع ذلك الخط يقطع كل امل برجوع احد من رجال الحملة حيا اذا قدّر انكسارها في ساحة الحرب على انهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات

اما محمد احمد فحالما علم بمسير حملة هيكس جمع رجاله ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الابيض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاؤه وامراؤه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والتكول (نوع من العشش)

اما الحملة فما زالت سائرة تسحف سحفاً كانها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت عقيلة (ايجلا في ١١ اكتوبر . وفي ١٤ منه وصلت بحيرة شركلا فتناولت شيئاً من مائها وهي لم تزدد الا يأساً وخوفاً . وكانت الحكومة المصرية قد أنبأت هيكس باشا قبل خروجه من الدويم ان ستة آلاف من اهل جبل تاج الله وبعض الجبانية سينضمون اليه فكان ينتظر وصولهم بفروغ صبر فذهب انتظاره عبثاً . وقبل ان تصل الحملة بحيرة الرهد بقليل فرَّ منها رجل الماني اسمه كلوتس من صف الضابطان والتجأ الى العصاة ولكنه لم يكن يعرف الطريق فلقيه بعض الدراويش فارادوا قتله فاشار اليهم انه جاء بمهمة فارسلوه الى الابيض فوقف بين يدي المهدي واخبره عن الضيق المحدق بالحملة وما هي فيه من اليأس فكانت خيانته هذه مساعداً كبيراً على هلاك حملة هيكس فسرَّ المتمهدي سروراً لا مزيد عليه واسلم كلوتس هذا وسمي مصطفى . وبعث المهدي الى هيكس ورجاله ينصح لهم ان يسلموا اليه ويؤمنوا بمهدويته فلم ينل منهم جواباً فضلاً عن احتقارهم كتبه واستخدام اوراقها في سبل هاجت غضب المتمهدي



ش ٢٢ ـ الافيال في صحاري السودان

ووصلت الحملة الى الرهد في ٢٠ اكتوبر فاقامت هناك ٦ ايام شاهدت في أثنائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها وفي ٢٦ اكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلته العصاة فعلم علاء الدين اذ ذاك خطأه في اهمال خط الاتصال وقد اصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهات . وكان في عزمهم المسير الى الابيض عن طريق البركة ولكن الجواسيس اخبروا هيكس ان العصاة نزلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي وامراؤه بعدتهم ورجالهم فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى الرهد او يسيرون الى كشجيل ومنها الى مليس فالابيض لا .ن خور ابو حبل يتشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احداهما الى البركة والاخرى الى كشجيل فاقرَّ الراي على المسير الى كشجيل فساروا في ٣ نوفمبر عشرة اميال بين الغابات والاحراج وقد اخطأوا الطريق ثم وقفوا وانشأوا زريبه باتوا فيها الى الصباح فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقد اجهدهم العطش فهجم عليهم شرذمة من العصاة فتبادلوا اطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم فعلموا ان الدراويش هناك بكثرة

عظيمة فجمع هيكس باشا كبار رجاله وعقدوا مجلساً تشاوروا فيه فلم يقروا على امر وكثر اللغط بين الجند وتسلط الرعب على قلوبهم وايقنوا بالهلاك . وفي الصباح التالي عوّل هيكس على المسير تحت رحمة الله فجعل جيشه ثلاثة مربعات وسار في طريق وعر كثير الاشجار والصخور فحصل بينه وبين الدراويش موقعة قتل فيها كثير من رجاله . ثم سار ايضاً فلم يمض ميلاً حتى هاجموه ثانيةً في شيكان. وقد رأينا في منشور ارسله المتمهدي الى عثمان دقنة يخبره بتلك الواقعة ويسمى مكان وقوعها علوية وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تذر لان الدراويش هاجموها من كل جانب حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده ولم ينج منهم الا نحو ثلاثمائة رجل اكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر او تحت جثث القتلى وفي جملتهم رجل اسمه محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس باشا وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمرة النصر وتركوا بعض الامراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الابيض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبوها من حملة هيكس وكان دخوله الابيض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت اخمصه لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الآن) الى ذلك الحين حكمداراً على دارفور وقد قاسى مشقات جسيمة في مناواة العصاة وتمردهم وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس فلما علم بقتلها لم ير بدًّا من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وان ينفذ اليه بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور واوصاه بسلاتين خيراً فوصلت الدراويش دارا ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي وجاء سلاتين مخفوراً الى الابيض وبايع المهدي واظهر



ش ٢٣ ـ سلاتين باشا

الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر . وهاك نص ايمان البيعة كما رواه سلاتين باشا « بسم الله الرحمن الرحيم بايعنا الله ورسوله على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصاك في معروف بايعناك على ترك الدنيا والاخرة ولا نفرُّ من الجهاد » ويظهر ان فيه تحريفاً عن الاصل اذ لا يعقل ان يبايعوه على ترك الدنيا والآخرة معاً وهم انما يرغبون في دعوته طمعاً في الاخرة فكيف يبايعونه على تركها . والظاهر ان الاصل « ترك الدنيا والتماس الآخرة » واقام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

﴿ السودان الشرقي ﴾ وفيما كان هيكس يتجشم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر القدر المقدور وكان عثمان دقنه ينشر دعوة محمد احمد في السودان

الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة . وقد حدثنا صديق فاضل رافق تلك الحوادث في السودان الشرقي وعرف خفاياها قال : ان توفيق بك محافظ سواكن اذ ذاك تصرف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بين سواكن وكسلا تصرفاً اوجب نفورهم وذلك انه ولى عليهم شيخا اسمه محمد الامين ليكون مسئولاً عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل فالتمسوا من المحافظ ان يبدله بسواه فابى الا توليته فغضبوا جميعاً ونفروا من الحكومة وهم كثار واتفق مجيء عثمان دقنه بمنشور المهدي فانضموا اليه جميعاً فاشتد ازره بهم ثم انضم اليه غيرهم فسار لمناواة الحكومة في سواكن وضواحيها فهاجموا سنكات في ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فارسلت الحكومة محمود طلما باشا قائد حامية السودان الشرقي لانقاذها فباغته الدراويش وكسروه شر كسرة وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت مواقع كثيرة في تمانيب وترنكتات وغيرها فلم تعد منهم بطائل . وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فاعدت الحكومة في اوائل سنة ١٨٨٤ حملت تحت قيادة باكر باشا سارت الى سواكن لفتح الطريق بين سواكن وبربر وطرد العصاة من البلاد الواقعة بينهما فسارت ومعها نجدة من مصوع وكسلا فلاقاها العصاة في التب بغتة في ٢ فبراير فحاربوها ففشلت وعادت بخفي حنين . كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سواكن المتقدم ذكره وكان رجلا باسلاً شهماً اظهر في حصاره شجاعة لم تعهد الا بالقليل من الناس وقد جاء سنكات عرضاً وانحصر فيها وسنكات قرية صغيرة لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنه السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يهلكون جوعا فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فأبى الا البقاء على ولاء الحكومة فلما جاء باكر باشا وعاد خائباً بعث عثمان اليه ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات ولما رأى توفيق بك اخيراً ان المؤن فقدت والجند جاعت واهل البلد ملت جمع اليه رجاله واهل سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات على ولاء

الحكومة فقالوا نحن على ما تريد فقال اذ قد نفذ زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقتلين فاما ان نسير الى سواكن واما أن يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا حتى الموت

فخرجوا في اوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي واخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنه برجاله وهاجوهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم ينج من رجاله واهل القرية الا نفر قليلون

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المتمهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة امره . و بدلاً من مواصلة العمل في كبح جماح العصاة واسترجاع ما ملكوه من بلادها أقرت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء ما بقي من السودان في قبضتها وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش واصدرت بذلك امراً بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وانفذت الحكومة الانكليزية الجنرال غوردون باشا الى السودان للنظر في افضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وغير ذلك. فسار غوردون باشا ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم اسراره فوصل القاهرة فانبأه السير افلن بارنغ (اليوم اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليه اخلاء السودان واعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمونها لما فتحها محمد علي باشا ويقل لهم الملوك او ان يولي غيرهم كما يتراءى له

فسار غوردون عن طريق كروسكو وابي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير سنة ١٨٨٤ وفي ١٨ منه وصل الخرطوم فتلقاه اهلها بالاكرام وكان السودانيون يحبونه ويكرمونه للين جانبه وكرم اخلاقه . ومن الغريب ان يسير غوردون بنفسه بلا جيش الى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنه كان كثير الاتكال على الله وقد صرح بذلك عند وصوله الخرطوم فقال « لم آت لانقاذ السودان بجيش ولكني اتكلت على الله فلا احارب الا بسلاح العدل »

سقوط الخرطوم ومقتل غوردون سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير

سنة ١٨٨٤ ومعه مساعده الكولونيل ستيوارت قاصدين الخرطوم في عطمور ابي حمد فبربر فالخرطوم ومعهم اوامر عالية تنحصر خلاصتها في ما يأتي



ش ٢٤ غوردون باشا

١ ان يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم واموالهم من سائر انحاء السودان الى مصر ٢ ان يقيم مقامهم موظفين من اهل السودان يدبر شؤونهم بحكمته كأنه يؤسس دولة جديدة ٣ ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل المدندوة في السودان الشرقي فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكسلا ٤ ان ينقذ سنار وسائر البلاد الوقعة بين النيلين الازرق والابيض (الجزيرة) ٥ أن يرسل خمس بواخر لنقل عائلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء

وبحر الغزال ٦ ان يدبر طريقة لمن بقي في دارفور ان ينسحبوا الى مصر عن طريق دنقلا

هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها اخلاء السودان فلما وصل بربر أراد ان يتلوها على اهلها فنعه حسين باشا خليفة مدير بربر لان التصريح بذلك يعجل على بقية نفوذ الحكومة فأطاعه ولكنه تلاها في المتمة فكانت داعياً الى سرعة سقوط بربر بعد ذلك . واما غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير كما تقدم وفي يوم وصوله جمع أعيان الخرطوم كافة في بناية المديرية وافهمهم مهمته ثم خرج الى سراي الحكدارية فلاقاه مئات من الناس وتراموا على يديه ورجليه يقبلونها وهم يقولون « يا سلطاننا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم أخذ غوردون وستيوارت في تدبير شؤون الاحكام فانشأوا اقلاماً مختلفة في الحكدارية للنظر في قضايا الناس وانصافهم على اختلاف طبقاتهم . فاخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود لذممات مطلوبة من اصحاب الاطيان خراجاً عن اطيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية وأوقد فيها النار ولما اتقدت النيران وتعالى لهيبها استخرج الكرابيج والعصي وسائر ادوات الضرب والصفع التي كان يستخدمها الحكداريون قبلاً والقاها في ذلك اللهيب واهل الخرطوم ينظرون فكان لذلك تأثير حسن في اذهانهم ثم انشأ مجلسا وطنياً مؤلفا من اعيان المدينة و بعد قليل زار الترسانة والمستشفى واخيراً ذهب لتعهد السجن ومعه ستيوارت وكوتلجن والمستر بوار قنصل انكلترا هناك فرأى فيه حوادث تتفتت لها الاكباد فضلاً عن القذارة وشاهد بين المسجونين أولاداً وشيوخاً بعضهم قد ثبتت براءتهم ولا يزالون في السجن واخرون سجنوا لتهمة فقضوا ثلاث سنين في السجن قبل ان تثبت عليهم جناية . ورأى هناك امرأة قضت خمس عشرة سنة مسجونة لذنب اقترفته في صباها فامر غوردون باخراج المسجونين كافة وتنظيف السجن فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحداناً وهم يطلبون الى الله تعالى ان يطيل عمره . وقضى اهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فاضاؤا الانوار الملونة واوقدوا المشاعيل وباتوا فرحين مسرورين

واراد غوردون ان يمكن محبته من قلوب اهل السودان فخفف الضرائب وانصف المظلومين وابطل كثيراً من العوائد ثم اصدر منشوراً يلغي فيه كل الاوامر الصادرة بشأن الغاء تجارة الرقيق وهاك مفاد المنشور :

منشور الى اهل السودان كافة

اعلموا ان راحتكم هي غاية ما نرجوه وبما اني اعلم ان ابطال تجارة الرقيق قد ساءكم وهالكم ما وضعته الحكومة من القصاص على من يتعاطاها وغير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماساً لراحتكم ان ابطل كل تلك الاوامر وامنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم احد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم والسلام لكم

الخرطوم غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق لهذا المنشور ولكنهم استدلوا منه على ضعف الحكومة وانها انما اصدرته بالرغم منها لانها لم تقوَ على تنفيذ اوامرها في ابطال تلك التجارة . ثم حوّل نظره الى امر المهدي فارسل اليه في الابيض كتاباً يطلب فيه اطلاق الاسرى ويوليه كردوفان وارفق الكتاب بخلعة نفيسة فرد محمد احمد الخلعة وبعث الى غوردون ان يسلم فيسلم وان المهدي لم يقم بدعوته طمعاً في الولاية

وكان غوردون باشا في اثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر امر مهمته هذه فرأى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها تعود على مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويزحف الدراويش الى حدود مصر فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبعث اليه الزبير رحمت باشا حالاً وكان الزبير باشا من اكابر تجار الرقيق في دارفور وبحر الغزال وعاضد الحكومة وفتح لها دارفور ثم جاء مصر قبل الحوادث السودانية ليشكرها على رتبة انعمت بها عليه فلم تأذن له بالعود الى بلاده فظن غوردون باشا انه اذا اخلى السودان ودبر حكومته جعل الزبير باشا خلفاً له عليه خوفا من استفحال امر المهدي وخروجه على مصر فابت الحكومة ارسال الزبير فشق ذلك عليه كثيراً

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليه فاصدر منشوراً يتوعد الثائرين بعذاب اليم وينصح لهم ان يثوبوا الى طاعة الحكومة وبعث الى مصر يقول « اذا شئتم ان تتخلص مصر من عذاب دائم ارسلوا جنداً لمقاتلة المهدي وسحق قواته وهو امر ميسور لكم الآن اما اذا دخلت الخرطوم في حوزته فيصعب عليكم قهره على انكم ستضطرون الى ذلك ان عاجلاً وان آجلاً التماسا لسكينة القطر المصري وسيكون ذلك شاقاً كثيراً بعد الآن »

وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالمة القبائل القاطنة على النيل الابيض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعد عن الخرطوم ازداد نفور الناس عنه حتى صاروا يعترضون مسيره ويحاربونه واكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خاسراً فارسله غوردون ثانية في ٢ مارس سنة٨٤ بمنشورات اخرى فعاد بخفي حنين . وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدقت بها من كل الجهات .وفي اثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فجاء جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرد غوردون في ١٦ مارس عليهم الفي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزوق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية فاطلهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقرى الى الخرطوم وقد قتل منهم جمع كبير ففشل غوردون لهذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة واكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من اهل السودان فحكم عليهم بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما قتلا وقطعت اعضاؤهما

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض على مديرها وارساله اسيراً الى الابيض وتولى بربر امير من امراء الدراويش اسمه محمد الخير وكان سقوط بربر ضربة قوية على الخرطوم لانها كانت واسطة الاتصال بينها وبين مصر . فادرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقينا ان انفاذ مهمته لم يعد ممكناً بالحسنى فلا بد من استعمال قوة الجند فطلب الى حكومته ارسال حملة لمساعدته فترددت انكلترا طويلاً قبل الاقرار على الحملة على انها اقرت في مايو على وجوب

ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان الا في سبتمبر فتذمر اهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي جملتهم كل الاجانب المقيمين هناك فقال لهم من أراد الذهاب فليذهب أما انا فلا أستطيع الخروج الا بعد انقاذ الحامية والناس أو ان أموت معهم. ولكنه أشار على ستيوارت ان يسير الى مصر بمن اراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه ايصال تقاريره اليومية عن احوال الخرطوم من اول مارس الى ٩ سبتمبر وهو يوم سفر ستيوارت وظن غوردون ان ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر يفيد الحملة القادمة لانقاذه فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر فضربها ومرَّ بها فعادت الباخرتان وجرت باخرته حتى اذا تجاوزت أبو حمد الى واد قمر ضايقها الدراويش من البر ثم جنحت فنزل من فيها فلقيهم الدراويش وقتلوهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي . كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض هممهم وينذرهم بالخطر القريب فجاءه خبر هلاك ستيوارت ومن معه قبل خروج الحملة . على ان تلك الحملة لم تصل الخرطوم الا في ٢٨ يناير سنة ٨٥ أي بعد سقوطها ومقتل غوردون بيومين

فلننظر في حركات الدراويش واجرآتهم في اثناء حصار الخرطوم من معسكرهم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه « السيف والنار في السودان » وما أحكاه غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها

تركنا المتمهدي وقد عاد ظافراً الى الابيض بخيله ورجله فبعد وصوله اليها انفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورهما ثم علم ما كان من امر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتمانيب والتب وحصار كسلة وكان قد ولى صهره ولد البصير على الجزيرة ما بين النيلين الازرق والابيض فبلغه انه حارب الجنود المصرية هناك وغلبها وعلم في اثناء ذلك ان غوردون باشا جاء الخرطوم بلا جند ثم وصله كتابه يطلب اليه اطلاق الاسرى ويوليه كردوفان فلم يعبأ به واجابه بلهجة شديدة كما قدمنا

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات

قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وابلهم وخيلهم حول الابيض فقلت مياه الابيض فخاف المهدي ان يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الى الرهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالاً ونساء واولاداً في اواسط افريل سنة ١٨٨٤ باحمالهم واثقالهم ودوابهم وأقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث على الجهاد ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على اهل الجزيرة فبعث محمد أبا جرجا اميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش على ان يمد اهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم مواقع انتصرت في اولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رايت . وارسل المهدي الشيخ محمد الخير اميرا على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وارسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردوفان فالتقى بسلاتين باشا وتشاطرا مصيبة الاسر . اما دنقلا فكان مديرها مصطفى بك ياور (ثم صار مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يسلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقية ليجسوه فحاربهم وفرق جمعهم وكان الماجور كتشنر (اللورد كتشنر باشا) قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بعض مواقعه مع الدراويش

وخلاصة الامر ان حجار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » وكان الى ذلك الحين مقيماً في الرهد فكتب اليه امراؤه من انحاء مختلفة ان ينزل برجاله الى النيل الابيض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة اعدائه والاعتداد بقوته ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عموميا يحضره هو بنفسه يسمونه (عرضة) والجيش اذ ذاك ثلاثة اقسام برأس كل منها خليفة من خلفائه ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقته تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها اخوه يعقوب التعايشي وفرقة الخليفة علي ولد الحلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى « الراية الحمراء » او « راية الشرفاء » . وتحت قيادة كل من هذه الرايات

الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدٌّ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش
وكيفية الاستعراض عندهم ان يقف امراء الزرقاء براياتهم صفاً واحداً يولون وجوههم المشرق ويقف امراء الراية الخضراء صفاً آخر يقابل الصف الاول وجهاً لوجه ويقف امراء راية الاشراف صفا آخر يقابل الشمال فيولفون مربعاً ينقصه ضلع كانه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحييها قائلاً « الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد اوحى اليه في الرؤيا (الحضرة) ان ينزل لمحاصرة الخرطوم فبعث الى ابي عنقر وكان قد ارسله في مهمة الى جبل الدير وأوعز الى كل أمير ان يجمع رجاله للخروج على الخرطوم فلما تكامل الجمع زحف المهدي برجاله من الرهد في ٢٢ أغسطس (آب) سنة ١٨٨٤ في ثلاث فرق سارت كل منها في طريق أعظمها الفرقة التي فيها المهدي وخلفاؤه فهذه سارت على طريق حملة هيكس السيئة الحظ اي من الرهد فشركلا فالدويم وكان في هذه الفرقة سلاتين باشا بمعية التعايشي فلما وصلوا شركلا جاءهم غريب أمسكوه اسيراً فوقف بين يدي التعايشي وسلاتين يترجم بينهما فاذا هو فرنساوي واسمه أوليفيه باين قال انه جاء من قبل دولة فرنسا يعرض مساعدتها على المهدي ليقهر الانكليز فابقاه التعايشي في جملة الاسرى ريثما يقيمون فينظر في امره ولكن الرجل مرض من سوء المعاملة واشتدت عليه الحمى فمات في اثناء الطريق قبل أن تصل الحملة الى الخرطوم

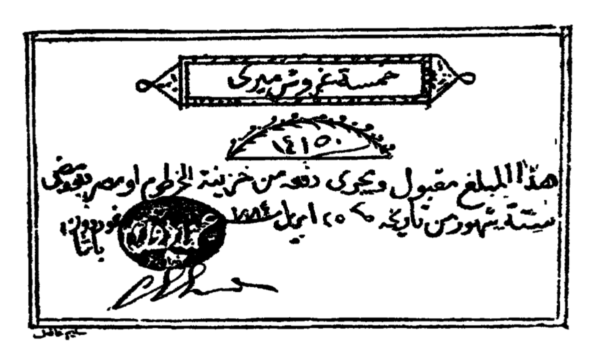
أما الحملة فوصلت جوار الخرطوم في اواسط اكتوبر سنة ١٨٨٤ فعسكرت على مسافة يوم منها وهنالك بعث المهدي الى سلاتين وأمره أن يكتب الى غوردون يدعوه الى التسليم ويقول له ان المهدي حقٌّ وان عبد القادر (يعني سلاتين) نفسه يكون اول المحامين له فاستأذن سلاتين المهدي قائلاً « أخاف اذا كتبت اليه ذلك ان يستغشني فارى أن انصح له بالتسليم للامام المهدي لان جنوده مظفرة لا تقوى جنود الخرطوم عليها وأن اتوسط في أمر تسليمه اليكم » فاستحسن المهدي

الراي فذهب سلاتين الى خيمته وهو لا يصدق انه سيكتب الى غوردون فكتب اليه كتاباً طويلاً عريضا بالنمساوية (لانه لا يعرف الانكليزية جيداً) شرح فيه حكاية تسليمه دارفور والاحوال التي قضت عليه بذلك وقال له ان الاسرى المقيمين مع المهدي هم على ولاء الحكومة يسلمون لها ويضربون بسيفها حالما يتاح لهم ذلك وأوعز اليه ان يخبره عن حاله بالخرطوم وان يكتب اليه كتاباً في العربية يطلب فيه مقابلته في ام درمان للنظر في شروط التسليم . وكتب كتاباً آخر الى هنزل قنصل النمسا بمثل هذا المعنى وجاء بالكتابين الى المهدي فامره ان يرسلهما مع احد خدمه الى أم درمان ولم يكد يسير الرسول حتى جاء خيالة من بربر ينبئون المهدي بمصاب ستيوارت ومن كان معه وجاؤا بالاسلاب وفيها كثير من الاوراق فبعث المهدي الى سلاتين ليخبره بما في تلك الكتب فقلب فيها وقال انها كتب خصوصية ارسلها بعض اهل الخرطوم الى اهلهم في مصر وغيرها ورأى تقارير غوردون نفسها وعرف خطه فتأسف اسفاً لا مزيد عليه ولكنه اظهر الجلد فقال له المهدي « اكتب الآن الى عمك (يريد غوردون) ان مركبه قد كسر ورجاله قتلوا وارسل اليه هذا التقرير تاييداً لذلك فاظنه اذا تحقق الامر اسرع الى التسليم » فكتب سلاتين اليه والى القنصل كتابين اخرين وارسلهما مع خادمه الى ام درمان . وكان في مكان ام درمان اذ ذاك طابية من طوابي الخرطوم اسمها « طابية ام درمان » أو « طابية رجب بك » فعاد الخادم من عند القنصل هنزل بجواب مقتضب لم يشف غليلاً فارتاب المهدي بنية سلاتين فامر بتقييده فاثقلوه بالحديد وحجزوا عليه في خيمة منفردة

و بعد قليل زحف المهدي برجاله واحمالهم واثقالهم ودوابهم فضربوا تقارتهم وساروا حتى اشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي وسار الامراء الآخرون يبحثون عن مكان اخر يعسكرون فيه . ثم أمر المهدي ان يحدق جنده بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فامر ابا جرجا وولد النجومي ان يحاصراها برجالهما من البر الشرقي للنيل الابيض عند مكان اسمه كلاكلا

وأمر أبا عنقر (أو أبو عنقه) وفضل المولى ان يحاصرا طابية ام درمان على البر الغربي وما زالوا محاصرين تلك الطابية حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي أول طابية فتحوها من حصون الخرطوم . ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المضوّي احد قواد المهدي في ذلك الحصار ان المهدي كان عازمـا ان يشدد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالابيض وان رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين الفاً . فربما كانت قوة الدراويش كلها هناك ستين الفاً او سبعين او اكثر

فلنعد الى الخرطوم ولنشرح حالهـا اثناء الحصار . قلنا ان غوردون وصل الخرطوم في ١٨ فبراير سنة ٨٤ ولكنه لم يقض فيها شهرين حتى نفدت النقود من خزينتها فاصطنع نقودا من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى اجل مسمى وقد شاهدنا كثيرا منها عند وصولنا المتمة سنة ١٨٨٥ وفي الشكل ٢٥ صورة احداها برسمها الاصلي تماماً



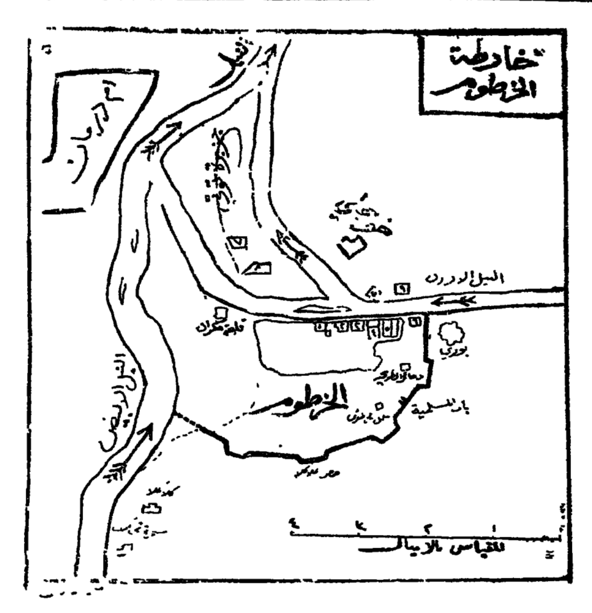
ش ٢٥ ــ نقود غوردون

على ان ذلك قلما خفف من ضيق اهـل الخرطوم ونزلائها فانهم ما انفكوا يشعرون بالضغط يوما بعد يوم والحصار يزيدهم تضييقا حتى اصبحوا محاطين بالعدو

من كل جهة وقلّ زادهم أو نفد وجاءوا وغوردون يصبرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيراً فملّ الناس الانتظار واشتد الجوع حتى أكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردون ولكنهم كادوا يسيئون الظن به اخيراً

اما الحملة الانكليزية التي اقروا على ارسالها لانقاذ غوردون فبرحت مصر في اوئل الخريف وعدد رجالها ستة الآف من نخبة الجند الانكليزي واكثر قوادها من الاشراف فقد تسابق الانكليز الى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعمهم انها عبارة عن (فسحة) على النيل فلم يصل من رجالها الى كورتي الأ بعضهم وتفرق الباقون في نقط خط الاتصال ومن كورتي سارت حملة في عطمور صحراء بيوضة الى المتمة بقيادة الجنرال ستيوارت والقصد بها سرعة الوصول الى الخرطوم وسارت حملة اخرى على النيل الى بربر بقيادة الجنرا اول . وكنا ممن سار برفقة حملة العطمور فشهدنا وقائعها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها وترى تفصيل ذلك في كتابينا « تاريخ مصر الحديث » و « رواية أسير المتمهدي » فقطعت الحملة جكدول الى ابي طليح فلاقاها العرب على تلك الآبار فحصلت بين الفريقين واقعة شفت عن انهزام العرب فتعقبهم الانكليز الى المتمة وهناك حصلت واقعة أخرى انهزم بها الدراويش ايضاً وعادوا على أعقابهم . وقبيل هذه الواقعة أصيب الجنرال ستيوارت برصاصة في أحشائه واحيلت القيادة الى السير شارلس ولسن فنزلت الجنود الانكليزية على ضفاف النيل في مساء ١٨ يناير سنة ١٨٨٥ بعد ان قضت ١٣ يوماً في الصحراء واسم مكان الواقعة أبو كرو ونزل الجند بعد الواقعة في مكان اسمه القبة والافرنج حرفوه فجعلوه (جوبات)

وكان غوردون قد انفذ اليهم اربع بواخر كانت في مياه الخرطوم ليستعينوا بها في الوصول اليه و بعث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا الينا في بضعة ايام ذهبنا هباء مثوراً . وقد علم السير شارلس بذلك في ٢١ يناير وكان يجب ان يبادر حالاً الى الخرطوم بدلاً من ان يقضي أربعة أيام بجوار المتمة بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير



ش ٢٦ ـ دلالات الارقام في خريطة الخرطوم

١ الحكمدارية ٢ السراي ٣ حواصل الحنطة ٤ الترسخانة ٥ القشلاق ٦ طابية بوري ٧ مخازن البارود ٨ قرية توتي ٩ الطابية البحرية ١٠ السراي الشرقية

سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم الا في ٢٨ منه وكانت قد سقطت وقتل غوردون في ٢٦ منه فعاد السير شارلس كاسف البال ولم يصل المتمة الا بعد شق الانفس لان باخرتيه انكسرتا واصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا

اما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي . من تأمل هذه لخارطة (ش ٢٦) علم ان الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل ومن الجنوب والغرب بسور منيع ووراءه من الخارج خندق عميق والجند قائمون

على السور ليلاً ونهاراً وترى بين بنايات الخرطوم وسورها ارضاً لا بناء فيها

وقد ذكرنا ان المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمض مدة حتى أنبأه جواسيسه ان حملة الانكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جنداً لاقاها في ابي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وأبي صافية فعادت خاسرة فارسل جنداً آخر الى أبي كرو بقيادة نور عنقرة فانكسر ايضاً كما تقدم . فلما بلغه خبر انكسار رجاله اراد التمويه على اتباعه فامر باطلاق مئة قنبلة وقنبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمان الدراويش ولكن محمد أحمد جمع امراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءته (أي رأى رؤيا روحية) فاوحت اليه ان يهاجر الى الابيض . فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا كل حين والطريق الى الابيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم اولاً فاذا امتنعت علينا هاجرنا الى الابيض واذا فتحناها فلا يقوى الانكليز ولا غيرهم على أخذهـا منا » فاستحسن المهدي رأيه وصبر بضعة ايام وهو يستقصي اخبار الانكليز وحركاتهم وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخرتين من المتمـة فاقر الرأي على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث المهدي الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله جعل ارواح اهل الخرطوم كلها في قبضته

وفي مساء ذلك اليوم (٢٥ منه) قطع المهدي النيل الابيض من أم درمان وكل من اراد الجهاد معه ونزل الى معسكر ولد النجومي في كلاكلا وتلا هناك خطاباً حث رجاله فيه على الجهاد وأوصاهم ان لا يقتلوا غوردون باشا ويقول سلاتين باشا ان غرضه من ذلك بقاء غوردون أسيراً حتى يفتدي به احمد عرابي المنفي في سيلان فلما أتم خطبته عاد بيطانته الى ام درمان

وفي الصباح التالي (٢٦ منه) الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلاكلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الابيض وباب المسلمية وفرقة تهاجمه من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور

بين باب المسلمية والنيل الابيض قد تهدم بعضه مما يلي النيل لمجاورته ارضاً يغمرها ماء النيل في فيضانه ترى حدودها في الخارطة منقطة وكان الماء قد انحسر عنه اذ ذاك وتهدم بعضه فتكوّنت فيه تغور دللنا عليها بتقطيع السور هناك الى نقط . فعوّل الدراويش على ان يدخلوا المدينة من تلك الثغور على انهم اذا فازوا بالدخول منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الابيض

فزحفوا سكوتاً حفاة تحت جناح الليل لا تسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك الثغور فردموا الخندق ووسعوا الثغور وصاحوا صيـاح الحرب قائلين « في سبيل الله » ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فاطلقت بعض الطلقات وكان فرج باشا على باب المسلمية فما انتبه الا وقد قضي الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم فانهال الدراويش على المدينة كالصواعق وهم ينادون « للكنيسة . . للسراي » وامعنوا في الاهالي المسا كين قتلاً ونهباً لم يبقوا ولم يذروا . وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يئس من قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكد يغمض جفنـه حتى سمع اطلاق النار فصعد الى سطح السراي واشرف على الاسوار فرأى العرب قد دخلوا السور ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقـلد سلاحه وهمّ بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش عند أعلى السلّم فسأل اولهم قائلاً « أين سيدك المهدي » فاجابه بطعنة قاضيةٍ وضربه آخر بالسيف فخر قتيلاً لم يبد دفاعاً ويقال ان قاتلـه من رجال ولد النحومى ولم يكن ولد النحومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فامرهم بجر جثته الى باحة السراي وان يقطع رأسه ويحمل الى المهدي في أم درمان فحملوه اليه في منديل كبير في الساعة الاولى من النهار وكان سلاتين مقيداً في خيمته بام درمان وقد سمع اطلاق المدافع وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزيناً كئيباً فمرّ حاملو رأس غوردون به وبينهم رجل اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلا فكشف له عن رأس غوردون وقال « اليس هذا رأس عمك الكافر » كما ترى في الرسم ش ٢٧ فأثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف

وكاد يغمى عليه ولكنه تجلد وقال بصوت ضعيف « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكا « أتمدح الكافر سوف تلقى ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين اذ ذاك



ش ٢٧ ـ رأس غوردون تريه الدراويش لسلاتين باشا

ثم حملوا الرأس الى المهدي فاظهر كدره لذلك ولكن سلاتين يظن ان المهدي لو اراد ان يبقي عليه وأوصى رجاله بذلك ما استطاع أحد مخالفة اوامره

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في أيدي الدراويش وبسقوطها سقط كل أمل بافتتاحها ولكن المهدي لم يقم فيها بل اقام في ام درمان وبنى هناك مدينة جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

أما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المتمة الى كورتي فاقامت هناك مدة ثم عادت الي دنقلا فمصر وسحبت معها كل من أراد مرافقتها من سكان السودان شمالي كورتي وأصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني

موت المهدي وخلافة التعايشي فلما فتحت الخرطوم وعدت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه

في مشروعاته فانه لم يشهد موقعة الا انتصر فيها ولا حاصر مدينة الا فتحها(تقريباً) واذا اعتبرتَ ما لاقت الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ غوردون من العراقيل والعوائق عجبتَ لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق فاتخذ اسياعه ذلك دليلاً على انه انما يعمل بوحي من الله وأيقن هو انه أصبح المالك المتصرف في السودان من اقصائه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع لهُ الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو ان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين و بيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها . ولكن ساء فأله فانه لم يكد يؤيد سلطته ويقيم في عاصمته (أم درمان) بضعة أشهر حتى داهمته الوفاة في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ على أثر اصابة شديدة بالحمى التيفوس لم تنجع فيها حيلة ففارق هذا العالم على عقريب (سرير سوداني) وحوله خلفاؤه الثلاثةوخاصة أمرائه منهم احمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والسيد المكي . فلما شعر المهدي بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي صلعم اختار الخليفة عبد الله خليفة الصديق خليفة لي وهو مني وانا منه فاطيعوه ما اطعتموني . استغفر الله » ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره وتمطط وأسلم الروح

ولم يكد يخرج النفس الاخير من أنفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المتمهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرأته عائشة ويدعونها « ستنا أم المؤمنين » فسارت لابلاغ خبر وفاته الى نسائه الاخريات وتعزيتهنَّ وكان الناس قد تجمهروا مئات وألوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فاوعزاليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلقي وجه ربه . فغسلو الجثة ولفوها دلا كفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقها الروح ودفنوها وجعلوا فوقها بعد ذلك مقاماً من الخشب يغشاه ستر اسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئراً يستقي

الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من خشب (ش ٢٨)

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فخلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه السيف والنار والسودان وصفاً تاما



ش ٢٨ ـ قبة المهدي وفيها ضريحه

فبعد دفن المهدي سار خليفته عبدالله الى الجامع وخطب في الناس وأنبأهم بوفاة المهدي فبكى وبكى الناس ثم اوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل باوامره وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعة التي ذكرناها قبل الآن ولكنه غير

العبارة الاولى منها فجعلها « بايعنا الله ورسول الله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ »

(اوصاف المهدي) كان طويل القامة عريض المنكبين اسمر اللون قمحه قوي البنية . وكان اول قيامه بدعوته ربع القامة فاصبح في اواخر ايامه سميناً ضخماً . وكان كبير الرأس عريض الجبهة حاد العينين اسودهما خفيف اللحية اسودها وعلى خديه آثار الاخاديد العرضية ثلاثة من كل جانب كسائر الدناقلة ابناء قبيلته . وكان متناسب الانف والفم لا ينفك مبتسما فتظهر اسنانه وبين الاماميتين منها فلجة تشبه الثمانية (٨) تعد عند السودانيين وغيرهم من المشارقة علامة السعد ويقال لصاحبها افلج وكان ذلك من جملة ما حبب المهدي الى النساء وكنّ يسمينه (ابو فلجة)

وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة مضربة تراها دائماً مغسولة نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهوراً بين اتباعه بهذه الرائحة حتى نسبوها اليه فسموها «رائحة المهدي» وذكر بعضهم خالاً كان في خده ادعى انه من علامات المهدية

وقد علمت من تدبر ترجمة حاله انه كان نبيهاً مدبراً رضي الخلق حسن السياسة ماهراً في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تتكلم فاذا ذكر مآثم بني الانسان او وصف النعيم المقبل أو حث على الجهاد بكى وتخشع وابكى السامعين . ويظهر من مجمل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راغب في امتلاك قلوبهم باللطف وحسن الاسلوب وكان ذلك من اكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو امد الله في اجله لكان فتح السودان صعباً على الجنود المصرية نظراً لاستهلاك قواده في سبيل نصرته . اما خليفته فكان على غير خلقه من اللين والدعة والمسالمة الى حدٍ هاج غيرة الخليفتين الآخرين وغيرهما من الامراء فقام الشقاق بين

الدراويش فضعفت عزائمهم وفسدت أمورهم وتضعضعت أحوالهم وسهل الفتح على المصريين

﴿تعاليمه﴾ ذكرنا في ما تقدم ما كان من اعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته فنقتصر الآن على ذكر ما احدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان :

(١) علّم الزهد في الدنيا وملذاتها ونبذ المجد الدنيوي فابطل الرتب والالقاب الرسمية وغير الرسمية وساوى بين الغني والفقير . وفرض على اتباعه لباساً واحداً يمتازون به ويدل على تزهدهم وهو الجبة المرقعة



ش ٢٩ — دراويش المهدي

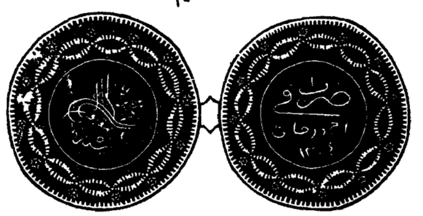
(٢) جمع المذاهب الاربعة (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحدها بتسوية بعض ما بينها من الخلاف والغاء البعض الآخر واختار آيات من القرآن الكريم

تتلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر سماها « الراتب » وسهل طرق الوضوء

(٣ حرَّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرها مما يتناولونه في الاعراس وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وجازى من يخالف ذلك بسلب امواله كلها . وأبدل ولائم الاعراس بطعام من التمر واللبن فتسهلت بذلك وسائل الزيجة على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم و بين الاقتران

(٤ ابطل الرقص واللعب ومن رقص او لعب فقصاصه الجلد أخذ امواله وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي تقدم نشره

(٥) منع الحج الى الحرمين خوفاً على قواته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم اهل الاسلام . ووضع قصاصاً على من يشك في دعوته أو يتردد في تنفيذ اوامره ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفي لثبوت الدعوى عليه شهادة شاهدين وقد يكفي ان يدعي عليه ذلك بالوحي . وتأييداً لدعوته احرق كل كتاب او ورقة تخالف هذه التعاليم



ش ٢٩ ـ نقود المهدي

وقد ضرب المهدي نقوداً باسمه ترى صورة قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي (ش ٣٠) على احد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « أم درمان » وعند اسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤ هـ وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية والى اعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الاولى من سلطانهم وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء

يقرأ منها كلمة « مقبول » كأنهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم . وعند اسفل الطغراء يقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي أو هجرته

﴿ دولة الدراويش ﴾ هذا ما كان من امر محمد احمد المهدي زعيم هذه الثورة فقد مات وقلبه عالق بما اوتيه من النصر لانه غرس غرساً ولم يذق ثمر غرسه فترك تلك الشجرة وقد آن اثمارها لاقوام اختلفوا على اقتسامها وتوكأوا على اغصانها حتى كادوا يكسرونها . فقد تولى التعايشي الخلافة وهو يخاف مناظرة الخليفتين الآخرين ويخشى احزابهما . على ان الاعمال الحربية ما زالت في بادىء الرأي سائرة بقوة الاستمرار كما كانت على عهد المهدي

وكان المهدي قد بعث امراءه الى الانحاء لبث دعوته وتأييد سلطته وحث الناس للمهاجرة الى ام درمان فسعى خالد في دارفور فاتم اخضاعها وسار ابو عنقر (او ابو عنقه) الى كردوفان وكانت قد سلمت الى المهدي الا سكان الجبال الجنوبية منها فاخضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلاً . أما مابقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الابيض الى حدود وداي فقد دانت للمهدي برمتها

أما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكسلا محاصرتين وقد دافعت حاميتها دفاعاً حسناً حتى اضطرت الى التسليم فلم تنقض سنة ١٨٨٥ حتى بلغ نفوذ المهدي وسلطته جنوباً الى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية الا سواكن وحدها

واتفق في اثناء حصار سنار ان القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الامير عبد الكريم وهو من اقارب المهدي فدافعته حامية سنار فانفذ التعايشي ولد النجومي وهو من اعظم قواد الدراويش ففتحها في اوغسطس سنة ١٨٨٥ فبعث التعايشي الى عبد الكريم ان يأتي هو ورجاله الى ام درمان وكان قد اخذ معه لحصار سنار الجنود السودانية بلواء الخليفة الشريف وهو من اقارب المهدي ايضاً فلما فتحت

سنار على يد ولد النجومي ثم دعي عبد الكريم الى ام درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي محمل الاهانة له وذاع على الالسنة اذ ذاك ان عبد الكريم قال لوضمت اليه رجاله ورجال الخليفة الشريف لاخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها الى الخليفة الشريف لانه أولى بها من ذاك . فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث الى اخيه يعقوب وهو عمدته وقائد جنده واخبره الخبر واوصاه ان يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتحية والتهنئة واثنى على ما بذله في حصار سنار ثم شرفه و بعث الى الخليفتين وسائر الاشراف (أقارب المهدي ، فادخلهم غرفة داخلية ولما استتب بهم المقام امر كاتبه فتلا عليهم منشوراً كان قد كتبه المهدي في الابيض يحرض اتباعه به على طاعة التعايشي

فلما تمت تلاوة المنشور قال لهم عبد الله ان عبد الكريم خائن فانكروا ذلك عليه ودافعوا عن صداقته وامانته فتظاهر بالعفو عنه ولكنه اشترط اخراج الجنود السودانية من قيادته الى قيادة اخيه يعقوب فقبل الشريف وسائر الاقارب بذلك بالرغم منهم ثم اشار التعايشي الى الخليفة علي ولد الحلو بطرف عينه ان يجددوا المبايعة ويمين الطاعة فوضعوا ايديها على القرآن واقسموا ان يسلموا الجنود السودانية وان يحافظوا على الطاعة . ولا ريب ان الشريف ورجاله فعلوا ذلك بالرغم منهم وفي انفسهم حزازات يودون لو انهم يذهبون بحياة التعايشي وكانت تلك الحادثة امثولة ذات بال اصبح بها مقاوموه مقصوصي الاجنحة لا يستطيعون حراكاً ولكنهم حقدوها عليه . واخذ كل من الفريقين ينظر الى الآخر بعين الحذر على ان الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين . اما التعايشي فما انفك يدعو الناس من الجهات البعيدة للمهاجرة الى ام درمان ليعمرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة

وفي اثناء ذلك تعدى بعض السودانيين على الاحباش في بلاد الحبشة واخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون الى قلابات وهي في بلاد الدراويش

مما يلي حدود الحبشة فهاجمهم حاكم المدينة فجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الرأس عادل واخربوا البلدة واحرقوها حتى صارت قفراً ياوي اليها الضباع والذئاب وساقوا الاولاد والنساء اسارى الى الحبشة فبلغ التعايشي ذلك فكتب الى يوحنا نجاشي الحبشة اذ ذاك ان يرسل الاسرى ويعين الفدية التي يريدها عنهم ولكنه بعث ايضاً يونس أحد قواده بجند الى قلابات وامره ان يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه امر آخر . وبعث ولد النجومي الى دنقلا وابا جرجا الى كسلا وكتب الى عثمان دقنا يؤمره على السودان الشرقي بين كسلا وسواكن — اراد بذلك كله ان يثبت سلطته على تلك الاماكن واخذ من الجهة الاخرى ينظم حكومته في ام درمان ففرض ضريبة سماها « فطرة » تدفع بانقضاء عيد الفطر لا يعفى من دفعها احد كبيراً كان او صغيراً واخذ في تنظيم المالية وعهد بذلك كله الى ابراهيم عدلان فوضع انواع الضرائب واتخذ كل وسيلة يمكنه اكتساب المال بها وفي جملة ذلك تجارة الرقيق

وفي اواسط سنة ١٨٨٦ عاد ابو عنقر الى ام درمان ومعه الغنائم والاسلاب فاحتفلوا باستقباله احتفالاً عظيماً حضره التعايشي وسائر الخلفاء والامراء وضربت به الطبول وغيرها

وبعد قليل جاء التعايشي نبأ ان يونس في ضيق فبعث ابا عنقر يتولى قيادة الدراويش في قلابات فسار في جنده وانقذه من ضيقه . وسبب ذلك الضيق ان بعض رجال يونس ادعى انه عيسى المسيح والتف حوله تلامذة كثيرون بعضهم مؤمن به والبعض الآخر تبعوه نكاية في يونس لاحقاد بينهم وبينه فلما وصل ابو عنقر قبض على على ١١ اميرًا ظهر له انهم تآمروا على قتل يونس وبعث الى الخليفة يستشيره في امرهم فبعث اليه ان يقتلهم ثم ندم فبعث ان لا يفعل ولكن سبق السيف العزل

وكان جند ابو عنقر اذ ذاك اكبر جند اجتمع في حوزة الخليفة عبدالله مؤلفاً من ١٥ الفاً من حملة البنادق و٤٥ الفاً من حملة الرماح والنبل وثمانمائة فارس

فجمع ابو عنقر هذه القوة وسار نحو رأس عادل لينتقم منه فوفق في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال راس عادل واخرجهم من محلتهم واستولى على الخيم والمؤن وكل الامتعة واسر امراءه رأس عادل وابنته وكانه بهذه الغلبة قد فتح كل مقاطعة أمحرة فسار توًّا الى غندر على امل ان يلاقي فيها خزائن واموالا فلم يجد شيئاً فاحرق البلدة وعاد وهو ينهب ويسلب كل ما مرَّ به بطريقه حتى ساقوا امامهم قطيعاً من نساء الاحباش واطفالهم سوق الاغنام فلما وصلوا قلابات بعثوا الاسرى الى ام درمان فاخذ الخليفة خمسهم وضموا الباقي الى بيت المال وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب واصبح الطريق بين قلابات وابي حراز مملوءا بجثث اولئك المساكين وفي جملتها جثتا ابنة رأس عادل وابنه

وبعث التعايشي الى ابي عنقر ان يحصن قلابات لان الاحباش لا يتقاعدون عن الانتقام ولكن المنية عاجلت أبا عنقر فمات شاباً لم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره

ثم ما لبث النجاشي يوحنا ملك الحبشة ان جند الانتقام من الدراويش على خراب غندر فحمل بجند كبير على قلابات وكانت جنود ابي عنقر لا تزال هناك ولم تفقد الا قائدها الاكبر فتأهبوا للدفاع فوصل النجاشي وعسكر بالقرب من قلابات فاقسم جنده فرقتين هاجمت المدينة من ناحيتين فدخلت احداهما المدينة من اثلام في السور واشتغلت بالنهب والقتل وبقيت الاخرى تهاجم السور من الخارج وفيها النجاشي وقد وقف يستحث رجاله ويحرضهم على الدراويش فاصابته رصاصة قتلته فبعد ان كان النصر للاحباش عادت العائدة عليهم فخافوا وتقهقروا في اثناء الليل فأصبح الدراويش وهم يحسبون لهجمة الاحباش الف حساب فاذا بالارض خالية من الخيم فبعثوا الجواسيس فعلموا ان النجاشي قتل فتعقبوهم وكان الاحباش قد عسكروا على مسافة نصف يوم من قلابات فباغتهم الدراويش ففر الاحباش وتركوا المسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جملة الغنائم تاج النجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسلاً اليه من ملكة الانكليز فحملوا ذلك غنيمة الى ام درمان

(فتح مصر) ومن اغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضمها الى مملكته على حين ان المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً . فلما توفي هذا كتب التعايشي كتاباً الى جلالة السلطان وآخر الى سمو الخديوي وآخر الى ملكة الانكليز يطلب اليهم جميعاً ان يسلموا له ويذعنوا لسلطانه وارسل الكتب مع رسل خصوصيين الى مصر فعاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء فشق ذلك عليه وحقده عليهم

فلما قدر له الفوز على الاحباش حدثته نفسه ان يجرد على مصر فيفتحها ويقيم نخاساً من البقارة أو التعايشة أميرًا يتولى حكومتها أو يأتي هو بجلالة قدره من بيته في أم درمان فينصب عنقريبه في سراي عابدين

ففي اوائل سنة ١٨٨٩ استشار بعض رجاله في التجريد على مصر فشوقوا اليه سكناها ووصفوا له قصورها وغياضها واموالها ونساءها . فما اشبه وصفهم هذا بما وصفها به عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب يوم حثه على فتحها قبل ظهور التعايشي بثلاثة عشر قرناً فتاقت نفس التعايشي الى فتح مصر ولم يرَ بين قواده أولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجومي وكان من اشد الدراويش بطشاً واصعبهم مراساً واكثرهم استهلاكاً في نصرة الدعوة وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان قد خبر الارض وعرف الطرق فارسله في حملة اكثرها من قبائل الجعالين والدناقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا سكان تلك الاقاليم متظاهراً ان قصده بذلك فتح مصر برجال هم ادرى بها من غيرهم ولكن الحقيقة انه لم يجهل الخطر الذي يهدد ذلك المشروع فلم يجعل في تلك الحملة احداً من اقاربه وابناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الابيض لانهم من حزبه فاذخرهم لحين الحاجة اما الدناقلة والجعالين فاكثرهم من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رأيت ما قام بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلبيهما فما انفك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدوًا له تحت طي الخفاء فبعث احزابه في حملته هذه وفي نيته انهم اذا فتحوا مصر عاد الفخر له واتسعت

مملكته واذا انكسروا تقهقروا الى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم
فجعل دنقلا محط رحال تلك الحملة وأقام يونس ولد الدغيم أميراً على دنقلا
يقيم فيها ويدير شؤونها وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل الا بمشورة يونس
واتفق في اثناء تجريد تلك الحملة حادث يدلك على ظلم التعايشي وعسفه
فتعلم ان دولته لم تقم الا لأجل قصير لان الظلم مرتعه وخيم . والحادثة ان التعايشي
امر جماعة من قبيلة البطاحين ان يرافقوا تلك الحملة وفيهم احمد ولد جار النبي .
والبطاحين قبيلة تسكن شمالي النيل الازرق بين قبيلة الشكرية والنيل مشهورة
بالشجاعة والاستقامة من عهد الحكومة المصرية وكان التعايشي قد استعمل جماعة
كبيرة منهم في دنقلا وبربر فلم يروا في اعماله خيراً فلما اوعز اليهم ان يرافقوا تلك
الحملة أبوا وفرّ ولد جار النبي فتعقبه بعض رجال الخليفة فجرح واحداً منهم فشق
ذلك على التعايشي فانفذ جماعة قبضوا على البطاحين عن بكرة ابيهم الا نفراً قليلين
تمكنوا من الفرار . فجيء بسبعة وستين منهم بنسائهم واولادهم فاوعز التعايشي
الى القضاة ان يحكموا عليهم فحكموا انهم (مخالفين) عصاة فقال « وما قصاص
العاصي » قال القضاة « قصاصه الموت » فنصب المشانق وقسم هؤلاء المنكودي
الحظ الى ثلاثة اقسام قتل قسماً بقطع الرأس وقسماً بالشنق والقسم الثالث امر
فقطعت اطرافهم وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً في ام درمان جاء فيه عبدالله على
جواده الى ساحة السوق وحوله ملازموه وفي جملتهم سلاتين باشا ووقفوا لمشاهدة
ذلك المنظر المريع وكان بعض المحكوم عليهم معلقين بالمشانق ازواجاً واثلاثاً والبعض
الآخر مكتوفي الايدي جاثين امام الجلادين وفيهم من قد قطع رأسه وزهقت
روحه ومن قد اصابه السيف بضربة لم تفصل رأسه فتململ وتوجع في باطن سره
لئلا يقال انه جبان وفيهم الجاثي مكتوفاً ينتظر مجيء الساعة الى غير ذلك مما يفتت
الاكباد - اما هم فكانوا يلاقون الموت بصدور منشرحة ومنهم من ينادي باعلى
صوته « هذا هو يوم العيد عندي فمن لم ير شجاعاً يقتل فلينظر اليَّ » أما التعايشي
فدار بجواده حول تلك الساحة ينزه نظره بذلك المنظر حتى قضي الامر فعاد

بموكبه وحاشيته

﴿ عود الى مصر ﴾ فلما اعد التعايشي تلك الحملة بعث كتباً اخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في اصوان ثم أعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي راس النجاشي يوحنا الى يونس امير دنقلا على ان يرسله الى وادي حلفا تهديداً للمصريين وامر ان يسير النجومي بحملته على مصر فلا يحرك ساكنا في حلفا بل يهاجم اصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه أوامر اخرى

فخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالمة بكل حركة من حله وترحاله وكان سردار الجيش المصري اذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وحسن الروية فضلا عن الرقة ولين الجانب فحصن حلفا واصوان وسائر الحدود فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شرذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصريون بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة

وكان غرانفل باشا قد خرج من اصوان فبعث الى ولد النجومي يبين خطر موقفه وينصح له ان يسلم فيسلم فابى فسار السردار بجيش معظمه على البر الغربي للنيل و بعضه على البر الشرقي لأن الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي فجرت بينهم و بين الحاميات مناوشات ليست بذات بال حتى وصلوا توشكي وهناك حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشتت شملها واليك التفصيل

﴿ واقعة توشكي ﴾ توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي و بعضها على البر الغربي للنيل بين كروسكو وحلفا على بضعة اميال من هيكل ابي سمبل شمالاً مؤلفة من اعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقة على ضفة النيل في مسافة من الارض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة اميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل

وفي البر الغربي مقابل توشكي على بعد اربعة اميال منها جنوباً سلسلة تلال عالية من حجر الغرانيت تمتد من الضفة غربا نحو ثلاثة اميال في الصحراء وعند

طرف هذه السلسلة والى جنو بها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي وعلى نحو تلك المسافة شمالاً سلسلة اخرى و بين السلسلتين سهل واسع متصل بالصحراء وفي هذا السهل جرت الواقعة

وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعه في صباح ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ باكراً لاستكشاف معسكر العدو فعادوا واخبروا بان العرب يستعدون للمسير فخرج السردار لمجرد الاستكشاف فلم يكد يشرف على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا تهيأ للمسير فساروا باسرع من لمح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حملوا من الماء الا شيئاً قليلاً فعزم السردار اذ ذاك ان لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم وكان قد علم بما كانوا فيه من الضيق والجوع . وهاك اسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي دن والثالثة عشرة بقيادة اليوزباشي كستر والطوبجية بقيادة البكباشي رندل فضلاً عن البيادة الراكبين والاورطة الثانية من البيادة جاءت متأخرة . وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم اعمالاً عجيبة و بالغوا برغبتهم في الحرب حتى عصوا أوامر قوادهم لما دعوهم الى الكف عنها . والخلاصة ان الواقعة المشار اليها لم تنقض الى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم ٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩)

و بلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد اسراهم على أر بعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من الجيش المصري الا ٢٥ وجرح ١٤٠

ووجد بين قتلى الدراويش اذ ذاك اعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشيخ الابيض فقد نجا هؤلاء بنحو الف وار بعماية شريد وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط أما ولد النجومي فقد قتل وحزّ راسه وجيء به الى السردار

فكان ذلك النصر نصراً مبيناً سر المغفور له الخديوي السابق فبعث الى

السردار يهنئه به لعلمه انه امثولة علمت التعايشي ما لم يكن يعلم أما لذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقاماً قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبرًا نقشوا فوقه باللغة العربية حفرًا على وا بهة القبر كتابة هذا نصها

« شيد هذا الاثر تذكارًا لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦هـ وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل اميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان »

وبعيد الواقعة سار الخديوي السابق في بعض رجال معيته لتفقد أحوال الحدود فركب الى مكان تلك الواقعة ووقف امام قبر شهدائها يتأمل ما اظهره جنده من البسالة في ذلك القتال . وقد نشرنا رسمه رحمه الله واقفاً أمام ذلك القبر وقد اسند رأسه على كفه متأملاً , انظر شكل ١٤)

﴿ قحط عظيم ﴾ وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في ام درمان فعرفوا قدرهم ووقفوا عند حدهم ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك الكسرة حتى داهمهم قحط غلت فيه اثمان الحنطة وقلَّ الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى اكلوا سيور الجلد التي يشدون بها مقاعدهم فكثر النهب وازداد الضغط وقد بالغ سلاتين باشا في وصف هذا الجوع وحال الجائعين ومما حكاه قوله « خرجت في ليلة مقمرة وبينما أنا عائد الى منزلي في منتصف الليل اقتربت من الامانة (مخازن الاسلحة والذخيرة فآنست عن بعد شبحاً يتحرك على الارض فدنوت منه فرأيت ثلاث نسوة عاريات (تقريباً) وقد أرخين شعورهن مجعدة على اكتافهنَّ وجلسن القرفصاء حول جحش صغير ملقى على الارض ولعله مولود حديثاً لم يكد يخرج من جوف أمه حتى سرقنه وجئن به الى حيث لا يراهنَّ احد فشققن جوفه واخذنا يلتهمن احشاءه والجحش المسكين لا يزال حيا يتنفس فلما رأيت ذلك المنظر المريع صحت بهنَّ فنظرن اليَّ وقد حملقن اعينهنَّ كأنهنَّ أصبن بجنة وكان بعض الجاعة المتسولين من الفقراء قد لحقوا بي يلتمسون حسنة

فتركوني وهموا باختطاف الفريسة منهنّ فتركتهم وسرت في طريقي آسفاً لتلك الحال »

وكانت وطأة الجوع في الغالب اشد على المارين بام درمان والقادمين اليها مما بأهلها حتى اتصلت الحاجة ببعضهم الى بيع اولادهم بيع الرقيق انقاذاً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل مئات وليس من يدفنها فأصدر التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مسئول بدفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله فقلت الجثث عن الشوارع ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بها تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت مياه النيلين الازرق والابيض تجري امام امدرمان حاملة مئات من الجثث فارق اصحابها الحياة على ضفاف النيل او بالقرب منها فألقوها اهلهم او اصحابهم فيه . وخلاصة القول ان الجوع اهلك من الدراويش اضعاف ما ابادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم ورافق هذا الضيق جراد جارف اكل ما بقي من الزرع

على ان التعايشي ما زال يبث دعاته في سائر الانحاء لتأييد دعوته وكانت بقية من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة أمين باشا فانفذت المانيا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لانقاذ أمين باشا فقاست في ذلك مشقات جسيمة تمكنت بعدها من الخروج به و ببعض الحامية فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبق للحكومة من السودان المصري الاّ سواكن وطوكر

(خصام بين خلفاء المهدي) اشرنا غير مرة الى النفور الواقع بين التعايشي ومحمد الشريف لتناظرهما على الخلافة فالتعايشي تولاها بارادة المهدي ويرى الشريف انه اولى بها بحق القرابة على ان هذا لولا استبداد التعايشي واحتقاره الاشراف (اقرباء المهدي) ما حدثته نفسه بسوء ولكنه رآه لايدع فرصة لا يحط بها من شأنه فحقد عليه وما انفك ساعياً في ذلك سرًّا بمساعدة ابني المهدي وهما شابان لا يتجاوز عمر احدهما عشرين سنة وكثيرين من الاشراف فاتحدوا سنة ١٨٨٩ وعقدوا الخناصر على خلع التعايشي والقبض على ازمة الحكومة فألفوا لذلك جمعية سرية في

ام درمان ضموا اليها جماعة من القائلين بقولهم وكاتبوا اخوانهم الدناقلة المقيمين في الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق ' يدعونهم الى ام درمان للتضافر على ذلك العمل فجاء منهم جمع كبير الا ان احد امراء الجعالين وشى بهم الى التعايشي وكان قد اقسم الايمان المعظمة ان لا يبوح بسرهم لاحد غير اخوته وأعزا صدقائه فأفتى لخيانته هذه بأنه يعتبر التعايشي من اعزاصدقائه فأخذ هذا في تدبير الوسائل الفعالة لعرقلة مساعي الاشراف وعلم هؤلاء ايضاً ان سرهم قد انكشف فأسرعوا في تنفيذ مشروعهم قبل ان يستعد التعايشي لدفعهم فاجتمعوا في المنازل المجاورة لقبة المهدي وعاضدهم البحارة وغيرهم ممن اعتبروا تصرف التعايشي في احكامه مخالفاً للشريعة الغراء

وكان الاشراف قد اعدوا الاسلحة وخبأوها في مكان فاخرجوها ذات ليلة من مخابئها وفرقوها في رجالهم ولكنها لم تكن تزيد على ١٠٠ بندقية (رمتون) وشي من الذخيرة وبعض المدافع وكان زعيم تلك الحركة احمد ولد سليمان فقال للقوم ان المهدي ظهر له في الرؤيا وأنبأه بفوز الاشراف . ولم يبق من الاشراف احد الا تقلد الحسام او البندقية واستعد للقتال حتى ارامل المهدي انفسهن فقد كنَّ الى ذلك العهد محجورات في منازلهنَّ لا يخرجنَ ولا يرين احداً فخرجن تلك الليلة في جملة المطالبين وخصوصاً « ام المؤمنين » فانها تقلدت الحسام وتهيأت للحرب

كل ذلك والخليفة عبدالله في منزله وقد اوصى ملازميه باليقظة وفرق فيهم العدة والذخيرة وامر ان يلازموا بابه لا يبرحوه مطلقاً و بعث ملازميه من الجهادية السود فبثهم في الاسواق ليمنعوا المدد عن الاشراف ثم امر برجاله التعايشية ففرق فيهم ما يزيد على الف بندقية واوقفهم في الساحة بين قبة المهدي ومنزله ليكونوا حاجزاً بين الاشراف و بينه واقام العساكر السود في وسط الجامع ينتظرون اوامر اخرى وهناك كانت الرماحة والخيالة أيضاً تحت قيادة اخيه يعقوب . اما الخليفة علي ولد الحلو فاشيع انه على دعوة الاشراف قلباً فامره التعايشي ان يقيم في اقصى ام درمان شمالا وقطع كل مواصلة بينه و بينهم كل ذلك اجراه التعايشي

مساء الاثنين وفي صباح الثلاثاء احاط بالاسراف احاطة السوار بالمعصم وبعث اليهم قاضيه يدعوهم الى الارعان ويذكر اولاد المهدي بمنشور والدهم وبما قاله وهو يحتضر وانهم اذا كانوا يشكون امراً فهو يتعهد بدفع كل ضيم عنهم فاجابوه انهم يريدون القتال فرأى من الحكمة ان يجتنب الخصام بقدر الامكان لاعتقاده ان الحرب اذا بدأت لا تنتهي الا بخراب ام درمان اذ يغتنم الدراويس تلك الفرصة للسلب والنهب . فبعث اليهم ثانية ان يرجعوا عن عزمهم فابوا الا القتال ثم اطلقوا بعض الطلقات فاجابهم رجال التعايشي بمثلها فراى ان يوسط الخليفة على ولد حلو في الامر فبعث اليه فلما جاء دفع اليه منشوراً للاشراف يطلب اليهم الصلح والكف عن العدوان فكان جوابهم هذه المرة اقرب الى المسالمة فقالوا نريد ان نعرف ما هي شروط الصلح فأجابهم التعايشي « ضعوا الشروط انتم » وما زالت المخابرة جارية بقية ذلك اليوم وطول ليله الى الصباح التالي فانقضت الازمة وتمَّ الصلح على شروط اهمها (١) ان يعفو التعايشي عفواً عاماً عن كل المشتركين في تلك الثورة (٢) ان يجعل لمحمد الشريف عملاً يليق بمقامه ويخلي له كرسيا في مجلسه ,٣ ان يرجع له الرايات التي مات امراؤها في واقعة توشكي لكي ينصبها ويجمع رجالا تحتها (٤) ان يخصص لاقارب المهدي اموالاً تنفق عليهم من بيت المال (٥ ان يسلم الاشراف كل سلاحهم ويطيعوا اوامر التعايشي اطاعة عمياء . فكتبت هذه الشروط وامضاها الفريقان وعادت الاحوال الى الهدوء ظاهريا ولكن القلوب ما فتئت على غلها



ش ٣١ : عبدالله التعايشي

قتل سنة ١٩٠٠

ويجدر بنا في هذا المقام الاستطراد الى ترجمة التعايشي ووصف احواله واحوال السودان قبل فتحها الاخير فنقول

هو السيد عبدالله بن السيد محمد التقي ويتصل نسبه بعشيرة اخبيرات من قبيلة التعايشة والتعايشة من قبائل البقارة والبقارة اسم يطلق على القبائل القاطنة غربي النيل الابيض وهم بدو اكثر اشتغالهم برعية البقر والنخاسة وتجارة الرقيق ويقيم التعايشة في الغرب الجنوبي من دارفور

وكان السيد محمد التقي مشهوراً في قبيلته بالتقوى والكرامة والاستقامة يؤمه المرضى وذوو الاسقام يلتمسون الشفاء بما يتلوه عليهم من الآيات او يردده من الصلوات او بما يكتبه من الاحجبة والعقود . وقد ولد له اربعة ذكور وانثى وهم عبد الله ويعقوب ويوسف وسماني وفطمة وكان عبدالله ويوسف اقلهم ميلاً الى العلم

فلم يحفظا القرآن الا بعد الجهد الشديد وكثرة المزاولة وكانا اكثر ميلاً الى النخاسة (اقتناص العبيد) أما يعقوب وسماني فكانا اقرب الى الهدو والسكينة فحفظا القرآن سريعاً ولازما اباهما يساعدانه في صلاته وسائر اعماله

واتفق في اثناء حرب الزبير باشا لدارفور ان عائلة السيد محمد التقي هذا كانت في جملة القائمين على الزبير فوقع عبدالله اسيراً في بعض مواقع شكّا واراد الزبير قتله فتوسط بعض العلماء في العفو عنه فأبقى عليه فاراد عبدالله ان يكافىء الزبير على عفوه عنه فقال له سرًا « رأيت في الحلم انك المهدي المنتظر واني احدا تباعك » فاجابه الزبير « لست المهدي ولكنني رأيت هؤلاء العرب قد قطعوا الطرق على التجارة فجئت لفتحها »

فلما فتحت دارفور واستقر الامن فيها نزح التقي وعائلته من وطنهم الى شكا اقاموا فيها سنتين ثم ساروا منها الى دار الحمر فالابيض فدار القمر ونزلوا اضيافاً على شيخ ذلك المكان عساكر ابي كلام بضعة اشهر وهناك توفي السيد محمد التقي ودفن في شركلة وقبل مماته اوصى عبدالله ابنه الاكبر ان يلازم بعض مشائخ الدين في وادي النيل مدة ثم يهاجر الى مكة فيقيم فيها ولا يعود الى السودان

فترك عبدالله اخوته عند الشيخ عساكر وسار قاصداً وادي النيل فسمع في اثناء الطريق بمحمد احمد المهدي وما يتحدث به الناس من كرامته مع شهرته في طريقه فقصده وطلب الانضمام اليه . واتفق ان محمد احمد كان اذ ذاك في خصام مع استاذ طريقته افضى الى الشحناء فاغتنم عبدالله تلك الفرصة وخدم محمد احمد خدماً حببته اليه فأسس محمد احمد طريقة كان عبدالله من اقدم المشتركين فيها ورأى تجمع الاحزاب حول محمد احمد فقال في نفسه لعل هذا هو المهدي المنتظر وكان اهل السودان ينتظرون ظهور المهدي قريباً وكلما رأوا رجلاً يفضلهم عقلاً ودراية ظنوه المهدي فقال عبدالله لمحمد احمد « ان كنت المهدي المنتظر قل » فقال وجعل عبدالله خليفة له فهو اقدم خلفائه وأول القائمين بنصرته ويده اليمنى في كل اعماله كما قد رأيت في سياق تاريخ المهدي مما لا فائدة من اعادته

صفاته واخلاقه واعماله

(وجهه) بلغ التعايشي السنة الخمسين من عمره وهو ربع القامة اسمر اللون قليلا على وجهه آثار الجدري اقنى الانف حسن شكل الفم خفيف الشاربين والعارضين كثيف العثنون (شعر الذقن) أشيب الشعر عربي الملامح وكانت ملامحه في اوائل ايامه تتخللها طلاقة وبهجة فامست في اواخرها وقد غشاها انقباض تنقبض منه النفس ويدل على ما انطوى عليه الرجل من الاستبداد والمكر والدهاء . وهو قصير الشفتين تظهر اسنانه من خلالها وخصوصاً اذا تكلم فانها تبرز لامعة بيضاء كأنه يبتسم

(لباسه) وكان قبل وفاة المهدي يلبس الجبة المرقعة الخاصة بالدراويش فلما تولى الخلافة جعل جبته من القطن الابيض الرفيع بلا رقع ولكنه خاط بحوافيها شرائط ملونة . وكان يلبس السراويل من القطن أيضاً ويلف عمامة بيضاء حول طاقية من الحرير صنع مكة ويلقي على كتفيه احياناً شالاً خفيفاً من القطن . وترى في صورته (ش ٣١) رسمناها بناء على ما وصفه به سلاتين باشا وغيره ممن شاهدوه لان الرجل لم يتصور صورة منقولة عنه رأساً

وكان في بادىء امر يحتذي نعالاً كنعال سائر الدراويش ثم ابدلها بالخف والبابوج من جلد ضارب الى السمرة فاذا مشى حمل بيساره سيفاً جميلاً وبيمينه رمحاً صغيراً جميل الشكل من صنع قبيلة المدندوة يتوكأ عليه كالعصا . وهو لا يمشي الا محاطاً بحلقة من صغار العبيد واكثرهم من ابناء الاحباش الذين اسروا في المواقع الاخيرة المتقدم ذكرها وواجباتهم ايصال اوامره الى من اراد في ام درمان فاذا بلغ احدهم اشده انتظم في سلك الملازمين

(اخلاقه) كان حاد الطبع مقحام غضوب اذ غضب سارع في حكمه واصرّ على عناده لا يسمع نصحاً ولا يصغي الى مشورة كثير التفكر سيء الظن لا يثق باحد ولو كان من اقرب اقربائه أو من اهل منزله لاعتقاده أن الاخلاص

والامانة يندر وجودها . يرتاح الى الاطراء والتملق فاذا خاطبه احد صدّر خطابه بذكر محامده ونسب كل ما حدث من الحسنات الى حكمته ودرايته وعدله وبسالته وكرمه فيسمع كل ذلك مصغياً ويزداد عجبا وافتخاراً وهو يثق بقدرته وثوقاً تاماً ويظن نفسه قادرًا على كل شيء فما كان من ذلك فوق استطاعة البشر نسبه الى قوة الهية حلت فيه

ومن اخلاقه الحقد والصرامة والعنف والانتقام فيفرح بتكدير الآخرين وخذلانهم . وأسعد يوم عنده يوم يضبط فيه الاموال ويلقي الناس في الاغلال والقيود او يسوقهم الى القتل والذبح فيبعد الولد عن والديه والامرأة عن زوجها ظلماً وعدواناً فكثيرًا ما امر بقتل الالوف من النساء والاولاد الابرياء

﴿ مجلسه ﴾ ويكاف التعايشي القائمين بخدمته والجالسين في مجلسه تذللاً لا تستطيعه نفس الحر فالداخل عليه يقف امامه مطرقاً ويداه متقاطعتان على صدره ينتظر امره بالجلوس والتعايشي جالس في صدر القاعة على عنقريب عليه حصير مصنوع من سعف النخل فوقه فرو من جلد الضأن يرف عن حوافي العنقريب وقد يتكئ الى وسادة من القطن فاذا كان الداخلون عليه أهلاً للجلوس في حضرته أشار اليهم فيجلسون على الارض جلوسهم للصلاة مطرقين ينتظرون ما يلقيه عليهم من الاسئلة فيجيبون وهم ينظرون الى الارض لا يبدون حراكاً الا اذا أمرهم بالانصراف فينصرفون

﴿ داخليته ﴾ ومن الغريب انه مع استبداده في حكومته وعنفه في تنفيذ اوامره فهو على الضد من ذلك مع أهل منزله فقد كان يحب ابنه عثمان اكبر اولاده حبًا شديدًا وينعطف نحوه انعطافاً غريباً وقد بذل كل مرتخص وغال في سبيل تعليمه القرآن والتفسير والحديث وسائر العلوم الاسلامية فلما بلغ السابعة عشرة أزوجه ابنة عمه يعقوب واغضى عن وصية المهدي بابطال ولائم الافراح فنصب الموائد ومد الابسطة ثمانية ايام حتى لم يبق أحد من أهل ام درمان الا أم ذلك الاحتفال ثم أزوجه فتاتين اخريين من اقاربه واهداه قطيعا من السراري

والجواري وأوعز اليه صريحاً ان لا يقرب امرأة من نساء وادي النيل (الدناقلة) وزوج ابنته بمحمد بن المهدي وكان محمد هذا ينوي الاقتران ببعض ذوات قرابته لانه لا يحب ابنة التعايشي ولكنه لم يتجرأ على التصريح بذلك لعلمه ان التعايشي يسيء الظن به ويتعرض في اموره تعرض الوصي ويراقبه مراقبة الحرس فكظم غيظه وصبر على بلواه

﴿ نساؤه﴾ كان التعايشي قبل فتح ام درمان يقيم في منزل كبير على مقربة من الجامع ونساؤه الشرعيات اربع واما الجواري فعددهنَّ يزيد على الاربعمائة اكثرهنَّ من الفتيات اللواتي أخذن من والديهنَّ بالاسر بعد الحرب . فهنَّ في اعتباره مما ملكت ايمانه وفيهن البيضاء والسمراء والحبشية والسوداء جعلهنَّ اقساماً يرأس كل عشرين منهنَّ رئيسة وعلى كل ثلاثة او اربعة من هذه الاقسام امرأة حرة هي في الغالب سرية يختارها هو لهذه المهمة . وفي دار الحريم هذه خصيان معظمهم صغار السن وفي جملتهم عشرون خصياً يرأسهم واحد منهم اسمه عبد القيوم

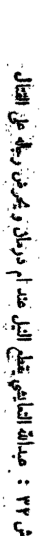
﴿طعامه﴾ وكان طعامه في اوائل حكومته قاصراً على العصيدة واللحم المطبوخ والدجاج ولكنه ما لبث أن صار يتناول الاطعمة المركبة التي يتخذهـا الاغنياء في مصر وغيرها

﴿ ملازموه﴾ كان بخدمة التعايشي جند من الملازمين يقف جماعة منهم في بابه أو يسيرون الى جانبه اذا ركب . وكان سلاتين باشا واحداً منهم واراد التعايشي تعزيز حاشيته فامر بتجنيد جند لحرسه الخصوصي فاختار عدداً كبيرًا من عساكر الجهادية واوعز الى امراء الغرب (غربي النيل الابيض) فاختاروا له عددًا آخر واضاف الى هذا وهذا جماعة من أحاسن الجعالين وغيرهم الا الدناقلة والمصريين فانه كان لا يثق بهم فاجتمع من ذلك كله جندٌ عدده ١٢ الفاً قسمهم الى ثلاث فرق يتولى قيادة الاولى منها ابنه عثمان ويتولى قيادة الثانية اخوه هارون ابو محمد وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر ويتولى الفرقة الثالثة رجل حبشي اسمه رابح

ربي في منزل التعايشي . وتقسم كل من هذه الفرق الى اقسام عدد كل منها مئة يتولى قيادتها ضابط يسمونه (رأس مئة) على أن ابنه عثمان كان يعتبر في أي حال قائد الملازمين كافة . وراتب الملازم نصف ريال من ريالات الدراويش في الشهر ويصرف لكل منهم وظيفة من الذرة مقدارها ثمن اردب كل اسبوعين . وواجبات الملازمين المحافظة على شخص التعايشي وهو لا يغفل عن مراقبة حركاتهم وتعهدهم بنفسه ليتحقق قيامهم في مراكزهم واخلاصهم في خدمته

﴿ اعماله ﴾ أما واجباته بالنسبة الى رعاياه فاقامة الصلوات الخمس كل يوم في مسجد أم درمان الاكبر فيجلس في المحراب بحيث يرى كل من في الجامع ووراءه ابنه والقضاة و بعض من اختصهم بالتقرب منه والى اليمين واليسار الملازمون ووراءهم من اليمين اخوه يعقوب وسائر الامراء ومن اليسار بعض رجال علي ولد الحلو ثاني خلفاء المهدي و بعض الجعالين والدناقلة ووراء هؤلاء يجلس العامة صفوفاً . ويبلغ عدد الحضور عادة عدة الاف . وكان التعايشي كثير التدقيق في حضور الامراء الصلاة فاذا تخلف عنها أحد منهم لامه أو حقدها عليه واذا منع التعايشي مانع كمرض أو غيره عن اقامة الصلاة ناب عنه بعض قضاته ولكنه لا يجلس في المحراب . ويشتغل التعايشي ما بين صلاتي العصر والغروب في سماع ما يرد عليه من الاعمال والمداولة بشأنها مع القضاة ولما كان اميًّا لا يحسن القراءة ولا الكتابة فيتلو الاوراق عليه بعض كتابه أو كتمة سره وهم الذين يكتبون الاوامر والمنشورات ثم يختمها هو بختمه

﴿ البريد ﴾ والمخابرات بين عاصمة الدراويش وسائر أعمالها بواسطة الهجانة وهم عبارة عن ستين أو سبعين هجيناً يتولاها بضعة من الرجال يختارهم التعايشي لحمل أوامره الى العمال ورؤساء القبائل ويعودون اليه بالاخبار والاجوبة وقد اشار عليه ابراهيم عدلان أن يرتب البريد ويعين له مواقيت ومحطات فأبى بدعوى ان الهجانة الذين يحملون البريد رأساً ينقلون اليه أخباراً شفاهية هي اثمن عنده من نظام البريد



ش ٣٢ : عبدالله التعايشي يقطع النيل عند ام درمان و يحرض رجاله على القتال

﴿ ركوبه ﴾ وكان التعايشي يركب احيانا فيخرج بموكبه لتعهد بعض منازله في اطراف المدينة فينفخ بوّاق في بوق طويل من قرن الخرتيت اسمه أمبايو له صوت مزعج فضلاً عن اصوات الطبول فاذا سمع الناس صوت الامبايو والطبل علموا ان التعايشي خارج من ديوانه فيفتح الناس ابوابهم و يطلون من السطوح والكوى لمشاهدة خليفة مهديهم . فاذا مشى الموكب ركب الخليفة في حلقة الملازمين يتقدمها شرذمات منهم وراءهم جماهير الناس من اهل المدينة بين راكب وماش .

ويمشي الى يسار التعايشي رجل ضخم اسمه ابو ضحكة يساعده في ركوبه وترجله ويسير امام التعايشي البواق ينفخ الامبايو بامره ووراءه اصحاب النفير العسكري لتبويق الوقوف او المسير او غير ذلك حسب امره ويمشي وراءهم خدمته الخصوصيون يحملون له الركوة (ابريق من جلد يملأ ماء للوضوء) وفروًا للسجود عند الصلاة ورماحاً ويرافق هذه الجماهير الموسيقى العسكرية يضربها خمسون عبداً وهي عبارة عن ابواق من قرون الوعل وطبول مصنوعة من جذوع الشجر مجوفة ومغطاة بالجلد اصواتها تزعج الحواس . وفي اثناء مسير الموكب يلعب بعض الخيالة من الملازمين على ظهور الخيل

الاستعراض وكان يستعرض التعايشي رجاله اربع مرات في السنة في الاعياد الاربعة المولد النبوي والمعراج وعيد الفطر وعيد الاضحى باحتفال شائق يحضره أهل أم درمان وغيرهم وكان يستعرضهم قبلاً مرة كل اسبوع في يوم الجمعة

قواته وأما قواته ومقدار ما كان عنده من الذخيرة والمؤونة قبيل ذهاب دولته فمعظمها من المشاة حملة السيوف والرماح وعددهم ٤٦٠٠٠ ومن الخيالة ٦٦٠٠ ومن العساكر الجهادية ٣٤٣٥٠ وغيرهم . وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و ٤٠٣٥٠ بندقية هذه قوات التعايشي الرسمية ولكنها كانت تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته

حكومة التعايشي وادارتها واعمالها

(١) المالية تسمى المالية عند الدراويش «بيت المال» أو هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من أنواع الدخل والخرج اهمها خمسة وهي ١ بيت المال العمومي ٢ بيت مال الملازمين ٣ بيت مال الخمس للخليفة ٤ بيت مال ورشة الحربية ٥ بيت مال ضابطة السوق

بيت المال العمومي هو عبارة عن الخزينة العمومية لمملكة الدراويش يجمع دخلها من المصادر الآتية ١ الزكاة والفطرة ٢ الاسلاب والغنائم المكتسبة بالحرب ٣ العشور وهي ما يدفعه التجار ضريبة على بضائعهم (المكس)

٤ ضريبة الصمغ ٥ ضريبة القوارب ٦ قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي دفعها ٧ ضرائب العبور في النيل من ضفة الى اخرى .(المعديات) ٨ غلة الارض الواقعة غربي النيل الابيض وشرقي النيل الازرق وهي تمتد جنوباً الى كركوج وفشوده وشمالاً الى حجر العسل ٩ معين يستولي عليه بيت المال العمومي من بيوت المال الاخرى · واما نفقات بيت المال العمومي فهي ١ نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائرهم الى المديريات والمقاطعات ٢ اعطيات الجند (رواتب الجهادية) ٣ رواتب المستخدمين ٤ الصدقات

« بيت مال الملازمين » ويراد به خزينة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حراسه وياورانه يجتمع دخل هذه الخزينة من محاصيل ارض الجزيرة « بين النيلين الابيض والازرق » واما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين

﴿ بيت مال الخمس للخليفة ﴾ وهو اشبه شيء بالخزينة الخاصة ودخله من المصادر الآتية ١ معظم ما يفضل في خزائن المديريات بعد نفقاتها المعلومة ٢ محاصيل الجزائر الواقعة في النيل وفي جملتها جزيرة توتي تجاه الخرطوم ومحصول ارض الغنيمة ومنها حلفاية وكلين وكانتا قبلاً من املاك الخاصة الخديوية ٣ عشر البضائع التي ترد من بربر الى ام درمان ٤ اثمان العبيد الذين يرسلون من المديريات ٥ محصول اكثر البواخر والسفن · أما خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي

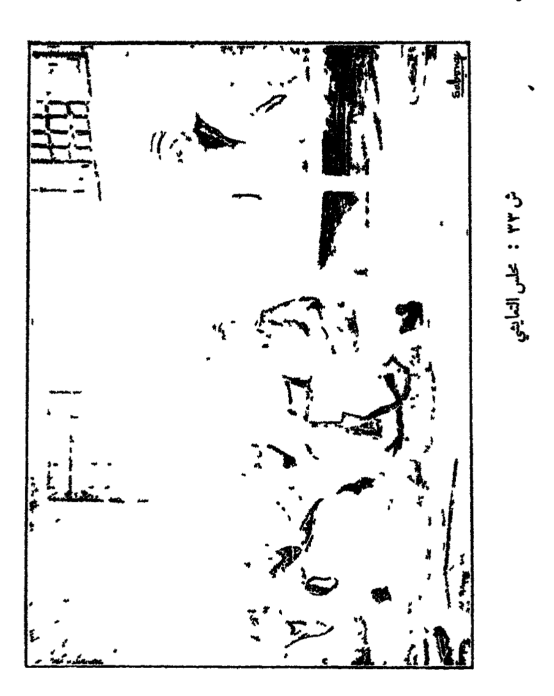
« بيت مال ورشة الحربية » ويشبه خزينة الحربية عندنا دخله من ١ غلة جنائن الخرطوم ٢ محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم ٣ العاج الوارد من خط الاستواء وخرجه ١ نفقات البحرية ٢ نفقات الترسخانة ويسمونها بيت الامانة ٣ استخراج ملح البارود وتنقيته ٤ نفقات معمل الاسلحة

﴿ بيت مال ضابطة السوق ﴾ وهي خزينة الضابطة دخله من اموال السكيرين والمقامرين التي يحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت · واما نفقاته فعلى ما يأتي ١ رواتب الضابطة من الانفار والضباط ٢ نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب

اخي عبد الله التعايشي ٣ نفقات بناء السور الكبير لام درمان ، هذه هي اقسام المالية من الدخل والخرج اما المقادير التي تدخل وتخرج فلا تتيسر معرفتها

٢ النقود والتجارة : لما قام المهدي بدعوته ووفق الى فتح المديريات استولى على خزائنها واموال اهلها فكان ينفق مما وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة المصرية اهمها الريال المجيدي والريال ابو مدفع فلما اتسعت مملكته ونفدت تلك الاموال اخذ في ضرب النقود باسمه اشار عليه بضربها احمد ولد سليمان فضرب نقوداً فضية شبيهة بالريال المصري وجنيهات شبيهة بالجنيهات المصرية ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقادير اللازمة من كل معدن منها وكان الذهب قليلاً بين ايديهم فكفوا عن ضرب الجنيه واكثروا من ضرب النقود الفضية فضربوا منها ضربات عديدة تعرف باسماء خاصة منها (ريال المهدي) وهذا أحسنها كلها ومنها (مقبول) و (أبو سدر) وكلاهما من ضرب نور القيرافوي و (أبو كيس) وعليه رسم رمحين متصالبين . و (العملة الجديدة) على انهم أخذوا ينقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ مع انها كانت في بادىء الرأي ٧ الى ١ اي ان الريال كان يحتوي سبعة اجزاء من الفضة وجزءا من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة وخمسة من النحاس وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته . على ان دار ضرب النقود كان يتخذها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها اموالاً طائلة لانها تعطى حكراً او ضمانة ومن قوانينها ان يرأسها اثنان معاً يدفع الواحد منهما ستة آلاف ريال كل شهر وما يضربانه من النقود يجب ان يكون مقبولاً لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض احد على صحتها او تمنع عن قبولها فعقابه الجلد او سلب الاموال فالريال صار يستبدله تجار ام درمان بثمانية ريالات من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابو مدفع بخمسة ريالات فاضطروا ملافاة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة ان يرفعوا اثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة البفتة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالات وكان ثمنها على عهد الحكومة

المصرية ثلاثة ارباع الريال واصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤ درهماً) بريالين .
ومن الغريب ان غلاء الاثمان قاصر على البضائع الواردة من مصر أما ما يجلب
من السودان فاثمانه بخمسة بالنسبة الى تلك فالجمل مثلاً يساوي ستين ريالاً والبقرة
امئة ريال واردب الذرة ستة ريالات والخروف خمسة ريالات فاكثر



ش ٣٢ : مجلس التعايشي

٣ القضاء : كان القضاء منوطاً عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى « قاضي الاسلام »
وجميعهم آلات صماء بايدي التعايشي فلا يصدرون حكما الا كما يوحيه هو اليهم

ما خلا القضايا الطفيفة من الاحوال الشخصية وما شا كلها فقضاة الدراويش بهذا الاعتبار بين جاذبين قويين ضميرهم والاحكام الشرعية من جهة وارادة التعايشي من جهة اخرى وهاك اسماء قضاة ام ردمان عام سنة ١٨٩٥

١	حسين ولد زهرة	من قبيلة الجعالين
٢	سليمان ولد الحجاز	« « الحجماب
٣	حسين ولد قيسو	« « الحمر
٤	احمد ولد حمدان	« « العراقين
٥	عثمان ولد احمد	« « البطاحين

٦ عبد القادر ولد ام مريم وكان قاضي كلاكلا على عهد الحكومة المصرية
٧ محمد ولد المفتي وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين

وهناك قضاة آخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدرون حكماً بل يبدون رأيهم وأما شيخ الاسلام فهو حسين ولد زهرة المتقدم ذكره اول القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو اعلم اهل السودان كافة مع الميل الى العدالة وكثيراً ما اصدر احكاماً تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي فاصبح التعايشي غير راض عنه تمام الرضى وقلما يدعوه لحضور الجلسات

واساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي اشرنا اليها في كلامنا عن اوصاف المهدي وتعاليمه ويزعمون ان هذه التعاليم انما وضعها المهدي لاحياء ما كاد يندثر من احكام الشريعة الغراء بالاهمال. واهم تلك التعاليم الاعتقاد بان محمد احمد هو المهدي المنتظر ومن شك في ذلك فعقابه القتل

وواجبات قاضي الملازمين الحكم في ما يعرض بين الملازمين او بينهم وبين عامة الناس وفي الحالة الثانية فالحق دائماً في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان بيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالاحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشرائه . وعندهم قاض يقيم في السوق ليحكم في الامور الطفيفة التي تعرض هناك

تلك كانت حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ ثم توالى عليها النحس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لقهرها و بعد مواقع عديدة فتحوا ام درمان سنة ١٨٩٨ وفر التعايشي ورجاله الى الجبال في كردوفان فتبعوه بعد قليل وحاربوه سنة ١٨٩٩ فحاربهم مستهلكاً حتى قتل هو وكل من كان معه الا قليلين التجأوا الى الفرار وانقضت بتلك الواقعة دولة الدراويش



ناصر الدين شاه

ملك الفرس



ش ٣٤ — ناصر الدين شاه ملك الفرس الاسبق

ولد سنة ١٨٣١ وتوفي سنة ١٨٩٦

مملكة الفرس من الممالك القديمة التي عاصرت البابليين والمصريين واليونان والرومان وامتدت سطوتها الى الخافقين اجيالاً متطاولة وتوالى على سرير ملكها دول متعددة اقربها عهداً منا الاكاسرة بدأ حكمهم فيها في القرن الثالث للميلاد حتى استخرجها العرب من ايديهم في صدر الاسلام وما زالت في حوزة العرب الى سنة ١٢٥٨ م فتولاها التتر الى سنة ١٥٠٠ م فأخرجها من ايديهم رجل عربي الاصل اسمه اسماعيل فتولاها ٢٣ سنة وسمي نفسه الشاه ثم تولى خلفاؤه بعده وعرفوا بالشاهات

واشتهر بينهم افراد امتازوا بالحكمة والشجاعة . وآخر عائلة من شاهات الفرس عائلة قاجار اولها اغا محمد خان تولى الملك سنة ١٧٩٤ وخلفه ابن اخيه فتح علي شاه سنة ١٧٩٧ ثم محمد شاه حفيد فتح علي سنة ١٨٣٥ م ثم ابنه ناصر الدين شاه الذي نحن في صدده

ولد رحمه الله يوم الاثنين ٦ صفر سنة ١٢٤٧ (١٦ يوليوا سنة ١٨٣١) واسم والدته البرنسس وليت فربي في حجر والده وتولى في صباه ولاية اذربيجان بحياة والده وفي ١٣ اكتوبر سنة ١٨٤٨ توفي والده محمد شاه فافضت السلطة اليه وهو لم يكد يتجاوز الثامنة عشرة من عمره فتولى الاحكام بعقل ودراية مع ميل الى الاصلاح ومجاراة التمدن الحديث وكان في اوائل حكمه كثير الاعتماد على مشورة وزيره الاعظم الامير مرزاً طاغي وكان وزيره هذا رجلاً محنكاً عاقلاً فكانت له باع طولى في سائر الاصلاحات التي احدثها الشاه في بلاده وعرف الشاه له ذلك فكافأه بتزويجه اخته وتلك نعمة قلما نالها وزير فحسده بعض زملائه فوشوا به الى الشاه فنفاه وقالوا بل قتله

على ان ذلك لم يقف في سبيل اعماله فتابع الاصلاح والاحكام بحكمة وثبات ولكن موقع بلاد ايران الجغرافي جعلها عرضة لمطامع دولتين من اعظم دول اوربا وهما الروسية من الشمال وانكلترا من الشرق فلافاة لما يخشاه تقرب من فرنسا فعقد معها سنة ١٨٥٥ معاهدة صداقة وتجارة ولما انتشبت حرب القرم التزم الحيادة

وفي سنة ١٨٥٦ احتلت جنوده هرات فشق ذلك على حكومة انكلترا فجردت عليه جنداً هندياً في آخر سنة ١٨٥٦ واستعرت نار الحرب بضعة اشهر وانتهت باخلاء هرات ومعاهدة عقدت بباريس في ٤ مارس سنة ١٨٥٧ يعود النفع بها على انكلترا . ولم يكد يستريح من مناضلة ذلك العدو الشديد حتى ثارت عليه بعض الولايات المجاورة فحاربها وتغلب عليها وارسل حملة الى التركمان وعاد ظافراً غانماً

فلما هدأ باله من الحروب والفتن عمد سنة ١٨٦٠ الى الاصلاح فغير نظام الجند وادخل الاسلاك التلغرافية الى بلاده . واول سلك نصبه احتفل بنصبه بنفسه سنة ١٨٦١ . وفي سنة ١٨٦٦ عقد مع انكلترا عهداً بشأن انشاء المواصلات التلغرافية بين اوربا والهند عن طريق الفرس وانشأ المدارس والمكاتب ونشط المشروعات الادبية والعلمية على انه لم يخل من اعداء يتربصون له ويغتنمون الفرص للفتك به ففي سنة ١٨٦٩ اكتشف على مؤامرة سعى فيها جماعة من رعيته فانتقم منهم انتقاماً جاوز به حد الرأفة وعرض اسمه للوم امم اوربا فهاجت خواطرها ولكنها لم تحرك ساكناً .

وفي سنة ١٨٧١ اصاب بلاد فارس قحط رافقه الهواء الاصفر والحمى فاصاب الناس جهد شديد فبلغ عدد الذين ماتوا في اصبهان وحدها ١٦٠٠٠

فلما زالت النكبات وعاد الخصب عزم ناصر الدين شاه على السياحة في اوربا فسار في ١٢ مايو سنة ١٨٧٣ من طهران شمالاً فقطع بحر قزوين الى استراخان ومنها الى موسكو فبطرسبورج فالمانية فبلجيكا فانكلترا ففرنسا فسويسرا فايطاليا فالسبورج ففينا ثم عاد الى ايطاليا وسار منها الى الاستانة ومنها الى تفليس ومنها الى باكو بالعربة وعاد الى طهران مسرعاً فوصلها في ٦ ستمبر سنة ١٨٧٣ وشاع عند عودته انه انما اسرع لملافاة مؤامرة كانوا يسعون فيها لخلعه فجازى المؤامرين بعصا من حديد .

وفي سنة ١٨٧٥ ثار الجهادية وتمردوا على الشاه حتى اضطروه لمغادرة طهران ولكنه ما لبث ان اخمد نارهم وعاد الى كرسيه . وفي سنة ١٨٧٨ ساح سياحة اخرى في روسيا . وفي سنة ١٨٨٠ ثار عليه الاكراد فابلى فيهم بلاء حسناً فثابوا الى السكون وفي سنة ١٨٨٨ مد أول خط حديدي بين طهران وشاه عبد العظيم على ان السكك الحديدية دخلت بلاد الفرس منذ سنة ١٨٦٥ وفي اوائل سنة ١٨٨٩ خرج للسياحة في اوربا مرة ثالثة فلاقى ترحاباً عظيماً وعاد في اواخرها وقضى السنين

الاخيرة بالراحة والسكينة مهما في شؤون مملكته وترقية شأن رعيته وقد أخذ الايرانيون يشتغلون في اعداد المعدات للاحتفال بالعام الخمسين لملكه ففاجأهم ذلك المصاب بقتله بغتة

قتله رجل معتوه في اول مايو سنة ١٨٩٦ وهو داخل مسجدعبد العظيم ليصلي فاصابت الرصاصة قلبه فمات وافضى الملك بعده الى اكبر انجاله مظفر الدين شاه



ش ٣٥ ــ مظفر الدين شاه

ملك الفرس السابق

النهضة العلمية الاخيرة في بلاد الفرس

تمهيد : اشتهر الفرس من قديم الزمان بالعلم والادب ونبغ منهم الشعراء والفلاسفة والحكماء والاطباء يوم كانت اوربا لا تزال محجوبة بظلمات الجاهلية • حتى اذا ظهر الاسلام ودخلت بلاد فارس في حوزته كان الفرس من اكبر العوامل الفعالة في نشأة التمدن الاسلامي

فلما قضي على الشرق بالتقهقر في الاجيال الاخيرة اصاب بلاد فارس من ذلك ما اصاب الشام ومصر فانغمست تلك البلاد في حمأة الجهل الا ما كان من بقايا العلوم القديمة الذائعة على ايدي المشائخ والفقهاء وغيرهم مما لا يلائم مقتضيات العصر الجديد عصر الاختراع والاكتشاف . وتفتخر مصر ويحق لها الفخر بأنها سبقت سائر بلاد المشرق في اقتباس انوار التمدن ثم نسج الشرقيون على منوالها

ومما لا يحسن السكوت عنه ان الفضل الاكبر في تأسيس النهضة العلمية في الشرق سواء كان ذلك في مصر او الشام او فارس انما هو للفرنساويين واول من غرس بذور التمدن فيه انما هو رجلهم بل هو رجل العالم وفرد افراده « نابوليون بونابرت » حمل هذا القائد على الشرق يريد اكتساحه كما اكتسحه الاسكندر قبله لكنه لم يأته بالعدة والسلاح فقط بل نقل اليه بذور التمدن واصول المعارف فارفق حملته الحربية بحملة علمية جمعت نخبة من علماء فرنسا في ذلك الحين . ولم يوفق بونابرت في فتوحه الشرقية فعاد على اعقابه وظلت تلك البذور كامنة حتى نهض من رجال الشرق من احسن تعهدها وتربيتها فنمت وكان منها ما كان من نهضة مصر والشام . فالنهضة الاخيرة تبدأ فيهما من آخر القرن الثامن عشر وقد نمت وازهرت واثمرت على يد ارومة العائلة الخديوية المغفور له محمد علي باشا الكبير ومن خلفه من اعقابه الكرام

اما بلاد فارس فان الفضل في نهضتها الاخيرة للمغفور له ناصر الدين شاه

اساس النهضة : تبدأ هذه النهضة سنة ١٢٧٠ ﻫ (١٨٥٤ م) لان في هذه

السنة ارسل المغفور له ناصر الدين شاه اربعين شابا من ادباء الفرس واهل العصبية برئاسة حسن علي خان امير نظام من مشاهير قواد الفرس واهل البيوت الرفيعة . سار اولئك الشبان الى فرنسا فتلقوا فيها العلوم الحديثة بانواعها من الطب والرياضيات والطبيعيات وعادوا الى بلادهم وعملوا على نشر تلك العلوم بانشاء المدارس كما سيجيء

المدارس : كانت المدارس في بلاد فارس قبل هـذه النهضة على نسق الكتاتيب المصرية القديمة وربما كان في البلدة الواحدة عدة مدارس ولكن التعليم كان على الطريقة القديمة يقتصر الخوض فيها على العلوم الدينية وشيء من العقليات والرياضيات والعلوم العربية . وكانت اللغة العربية يومئذ سائدة بعد الفارسية كما هي الآن فلما عادت البعثة المتقدم ذكرها سنة ١٢٧٧ هـ أنشئت المدارس على النمط الحديث في طهران وتبريز . ففي طهران اليوم سبع مدارس كبرى للحكومة وهي (١) مدرسة الطب (٢) المهندسخانة (٣) مدرسة الميكانيك (٤) مدرسة المعادن (الطبيعيات) (٥) مدرسة الصنائع (٦) مدرسة المبتديان (٧) التجهيزية ويطلق عليها جميعاً اسم « دار الفنون »

وفي تبريز مدرسة كبيرة تعلم فيها اللغات الفارسية والعربيـة والانكليزية والفرنساوية والروسية وسائر العلوم العصرية . وكل من المدارس المتقدم ذكرها كانت تحت رئاسة عالم فرنساوي واكثر اساتذتها ورؤسائها من متخرجي مدارس فرنسا

وأسس ناصر الدين شاه في مدينة طهران فضلاً عما تقدم مدرسة سماها « دار الترجمة » اقامها في قصره وتحت رئاسته لترجمة الكتب العلمية من اللغات الافرنجية وكان ينفق عليها من ماله الخاص

مدرسة الطب : ومما يحسن ذكره ان الطب كان قبل هذه النهضة على ثلاثة اشكال الطب الهندي والطب اليوناني والطب الفارسي . وكان كل منهـا يعلم على حدة وله قوانين خاصة . فلما اراد ناصر الدين شاه انشاء المدرسة الطبية استقدم من فرنسا طبيباً ماهراً اسمه الدكتور طولوزان كلفه بانشاء مدرسه طبية كلية على مثـال

مدرسة باريس وفرض على كل طالب ان يتعلم الطبين الحديث والقديم وأمر بترجمة الكتب الطبية من الفرنساوية الى الفارسية واستحضر سائر المعدات الطبية من الادوات والتماثيل ونحوها بحيث يخرج الطالب منها وشهادته مقبولة في سائر الممالك كأنها معطاة من اكبر مدارس فرنسا وقد توفي مؤسسها الدكتور طولوزان وخلفه غيره . ونبغ من هذه المدرسة جماعة من الاطباء نذكر منهم الدكتور ميرزا علي خان والميرزا محمد خان وزين العابدين خان وغيرهم من نطس الاطباء



ش ٣٦ احمد شاه ملك الفرس الحالي

ولما تولى جلالة مظفر الدين شاه سنة ١٨٨٦ سار على خطوات المرحوم والده فنشط العلم ووسع الساعين في انشاء المدارس فأنشئ منها تحت رعايته ست عشرة مدرسة بعضها في طهران والبعض الآخر في تبريز وبوشهر وغيرهما . ثم شغلت الامة بالقيام على الشاه المذكور التماساً للدستور حتى افضى الامر الى خلعه سنة ١٩٠٩ وتوليه احمد شاه الحالي

المطابع : يظهر ان المطابع في ايران اقدم من المدارس الحديثة فيها وأول مطبعة انشئت في تبريز سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) سعى في انشائها عباس ميرزا ولي عهد فتح علي شاه ملك الفرس يومئذ فانه استدعى اثنين من فحول العلماء وهما ميراز صالح شيرازي وميرزا محمد جعفر التبريزي الشهير بامير وارسلها الى موسكو وبطرسبرج فاستحضرا ١٤ آلة طباعة من الطراز القديم (مكبس) تطبع على الحجر (ليتوغراف) واسسا دار الطباعة في تبريز باسم الحكومة وبعد بضع سنين تنازلت لها الحكومة عنها . ثم انشئت في طهران مطبعة حروف (تيبوغراف) واول كتاب طبع فيها القرآن الشريف . ولكن هذه الحروف لم يطل استعمالها اكثر من بضع وعشرين سنة فاهملت وانتشرت المطابع الحجرية في طهران وخراسان وشيراز ثم عادوا منذ بضع سنين فانشأوا مطبعة حروف في تبريز تسمى « مطبعة سركاري » سعى في انشائها محمد علي ميرزا ولي العهد يومئذ . وفي تبريز وطهران فضلاً عما تقدم كثير من المطابع الاجنبية الفرنساوية والارمنية

الصحافة الفارسية : اول صحيفة فارسية ظهرت للوجود جريدة « روزنامه » صدرت في تبرز في اواسط القرن الثالث عشر للهجرة وكانت اسبوعية ثم جريدة « ايران » الرسمية وجريدة « رومية » في اذربايجان . و « فرهنك » في اصبهان تحت رعاية السلطان مسعود ميراز ظل السلطان الشقيق الاكبر للشاه السابق

وظهرت في ايام مظفر الدين شاه جريدة « تبريز » في تبريز و « صدى الفرس » بالفرنساوية و « اطلاع » و « شرف » (وهي جريدة مصورة) و « خلاصة حوادث » يومية و « تربيت » في طهران . ثم « شرافت » مصورة و « ناصري »

و « احتياج » و « ادب » و « كمال » في تبريز. وجريدة « رومية » ظهرت في روميـة باللغة الكلدانية. ولما أعيد الدستور الفارسي بالامس ظهرت جرائد كثيرة لا محل لها هنا

امـا الصحافة الفارسية خارج ايران فاولها جريدة « اختر » (الكوكب) صدرت في الاستانة سنة ١٢٩١ (١٨٧٥ م) لصاحبها آقا محمد طاهر تبريزي ظلت تصدر الى عام ١٣١٣ فتعطلت لضعف الم بصاحبها ثم صدرت « حكمت » في مصر القاهرة سنة ١٣١٠ وهي مجلة سياسية علمية لمنشئها زعيم الدولة الدكتور ميراز محمد مهدي خان التبريزي رئيس الحكماء وهو من فطاحل علمـاء ايران وعليه كان معتمدا في اكثر ما ذكرناه عن النهضة الاخيرة في بلاد الفرس. ولا تزال « حكمت » تصدر بين ظهرانينا مرة كل اسبوع. ثم صدرت جريدة « كوكب ناصري » في بومباي . ثم « حبل المتين » في كلكتة من بلاد الهند سنة ١٣١٢ للسيد جلال الدين الكاساني. ثم ظهرت جريدة « ثريا » في القاهرة سنة ١٣١٦ لمنشئها ميراز علي محمد خان وظهرت منذ بضع سنين جريدة جهره نما بالاسكندرية وهي الآن تصدر في القاهرة. والفرس ميالون الى المطالعة وكلهم يقرأون العربية لان تعلم هذه اللغة الزامي في مدارسهم

وفي بلاد الفرس جماعة كبيرة من العلماء وهم على اربعة اصناف ١) علماء العلوم الدينية وهم الفئة الكبرى ومنهم الفقهاء وجل اشتغالهم باللسان العربي مطالعة وتاليفاً (٢) الحكماء ويسمونهم الحكميين نسبة الى الحكمة اي الفلسفة وهم كتار ومتسرون ويكتبون بالعربية والفارسية (٣) علماء العلوم الحديثة ومنهم الاطباء والمهندسون وغيرهم وهم يعرفون العربية والفارسية والفرنساوية وغيرها ٤) الشعراء وهم جماعة كبيرة لهم شأن عظيم عند الدولة والملة لان الشاه واهل دولته يعظمون شأن الشعراء ويجلون مقامهم . ومنهم شاعر خاص يسمونه « ملك الشعراء » واخر لولي العهد يسمونه « صدر الشعراء » . وليس في بلاد فارس جمعيات ادبيـة او علمية على ما نعلم الا جمعية نشأت منذ عدة اعوام تسمى « انجمن دانش » وفي النجف

طائفة كبيرة من علماء الدين عندهم كان لهم تأثير كبير في اعادة الدستور وهم الذين تعاقدوا مع ثريا بك مندوب جمعية الاتحاد والترقي العثمانية على الثبات في نصرة الحرية وهذا رسمهم وهم يتعاقدون (راجع تاريخ الدستور الفارسي في السنة ١٧ من الهلال)



ش ٣٧ ـ تعاقد علماء الحب وثريا بك

نظام الجند : ولا باس من استطرادنا الى ذكر نظام الجند الفارسي لانه من جملة مقتضيات التمدن الحديث دخل هذا النظام سنة ١٢٢٨ ه‍ (١٨١٣ م بدأ بتنظيمه فتح علي شاه وكان قد سمع بنظام الجند الفرنساوي على ما وضعه بونابرت فبعث الى فرنسا استقدم احد مشاهير قوادها ومعه عشرون ضابطاً جعلهم جميعاً تحت قيادة ابنه عباس ميرزا ولي عهده وكان يومئذ والياً على اذربيجان فدربوا الجند على نظام الجند الفرنساوي . ثم تراءى له ابداله بالنظام الانكليزي وسمي الجندي « سرباز » اي فادي الرأس . ثم ابدله ناصر الدين شاه بالنظام النمساوي سنة ١٢٩٢ ه‍ (١٨٧٦ م) على أثر رحلته المشهورة الى اوربا واختار لجنده ضباطاً نمساويين عقد معهم اتفاقاً على خمس سنوات. فلما قضوا تلك المدة طابت لهم الاقامة هناك فتجنسوا بالجنسية الفارسية وتوطنوا ولا يزال هذا نظام جند فارس الى اليوم

الامير عبد الرحمن

امير الافغان



ش ٣٨ — الامير عبد الرحمن خان

ولد سنة ١٨٣٠ وتوفي سنة ١٩٠١

استقلال افغانستان : يبدأ تاريخ افغانستان بالوضوح منذ استيلاء تيمورلنك عليها وهو القائد المغولي الشهير الذي دوخ اسيا في اواخر القرن الرابع عشر للميلاد وفتح افغانستان في جملة فتوحاته وتولاها خلفاؤه بعده . وفي سنة ١٥٠١ م استخرجها من دولة آل تيمور ظهير الدين محمد القائد المغولي المعروف ببابر « بابر » في الهندية « النمر » سمي بذلك لما ظهر من اعماله الدالة على البطش والشجاعة . وهو من سلالة جنكزخان وفي عروقه شيء من دم تيمورلنك . ظهر هذا القائد في

فرغانة بين سمر قند ونهر الهند . وكان أبوه اميراً على فرغانة فطمع هو في الغزو فتح كابل ودوخ بلاد الهند واسس فيها دولة مغولية دخلت افغانستان في حوزتها



ش ٣٩ – تيمورلنك القائد المغولي الشهير

وما زالت افغانستان تابعة لدولة بابر حتى ظهر نادر شاه القائد الفارسي الشهير بنابوليون الشرق (راجع ترجمته في الهلال ٢٢ سنة ٧) فكان من جملة غزاوته انه فتح قندهار وكابل سنة ١٧٣٧ واكتسب ثقة الافغانيين فأحبوه وانتظموا في جنده وفي جملتهم شاب شجاع اسمه احمد خان الدراني من قبيلة العادلة وكان يعرف باحمد خان العبدالي

وظلت افغانستان في حوزة الفرس عشر سنوات . فلما قتل نادر شاه سنة ١٧٤٧ اختار الافغانيون احمد المذكور اميراً عليهم . فاصبحت افغانستان مملكة مستقلة وملكها احمد العبدالي وقد سموه احمد شاه . فتولى حكومتها بضعاً وعشرين سنة وفتح بلاداً كثيرة اخضعها للافغان . فأصبحت مملكته تمتد من بحر قزوين غرباً الى حدود الهند شرقاً . ومن أشهر حروبه واقعة بني بتان قرب دهلي حارب بها قبائل المهراتة من الهنود الوثنيين في ٦ يناير سنة ١٧٦١ والمهراتة يومئذ في ابان بطشهم وقد اعجزوا اعاظم السلاطين التيمورية في الهند حتى طمعوا بنزع السلطة من ايدي المسلمين وكانت جنود الهند في تلك الواقعة ثمانين الفاً وجند احمد شاه ستين الفاً نصفهم من الافغان ولم يكن احمد شاه يعتمد في حروبه على سواهم . فانهزمت المهراتة شر هزيمة ونكل بهم الافغانيون تنكيلاً عظيماً . فطار صيت احمد شاه في اقطار الهند

وهابه الملوك والامراء وانتشرت سطوته هناك ففتح بنجاب وكشمير والسند وما والاها . ثم بلوجستان ومكران وبلخ وغيرها واتسعت مملكة الافغان في ايامه اتساعا عظيماً ونالت ثروة وسطوة لم تبلغ لهما قبله ولا بعده . واحبه رعاياه واكرموه حتى لقبوه ببابا وصار اسمه « احمد شاه بابا »



ش ٤٠ ـ نادر شاه ـ الفاتح الفارسي الشهير

ولكن الممالك القائمة بقوة سلطانها او اميرها فقط لا تلبث اذا هو مات ان تسقط حتى يقوم من يقيمها بعده خلافاً للحكومات المؤسسة على النظام والمقيدة بالشورى فان موت الملك قلما يؤثر فيها . ومات احمد شاه سنة ١٧٧٣ فخلفه ابن له اسمه تيمور وكانت قصبة المملكة قندهار فجعلها كابل وهي لا تزال قصبة افغانستان الى الآن . وكان تيمور هذا حكيماً عاقلاً فاجتهد في استبقاء ما خلفه ابوه من العز



فبقيت المملكة سعيدة طول ايامه . وتوفي بعد عشرين سنة وخلف ٢٣ ولداً خلفه منهم ابنه الخامس شاه زمان وقام النزاع بين الاخوة فتضعضعت المملكة وخرج كثير من الولايات من حوزتها وصار القواد يختطفونها والاعداء يسطون عليها مما يطول شرحه . حتى افضى الامر الى انقسامها فاستولى على كابل احد القواد من قبيلة الباركزائية واسمه دوست محمد (جد عبد الرحمن امير الافغان) في اوائل القرن الماضي . وطمحت مطامع نابوليون بونابرت في اثناء ذلك الى اواسط آسيا فبعث الجواسيس الى امرائها وملوكها وفي جملتهم شاه الافغان . فخاف الانكليز عاقبة تلك الدسائس فبعثوا سفيراً الى الشاه سنة ١٨٠٩ لمقاومة دسائس بونابرت وكان ذلك اول علاقات الانكليز بالافغان ثم سطا الفرس على الافغان فحاصروا هرات سنة ١٨٣٧ وتحرك الروس . . . الانكليز على اغراضهم فارسلوا سفيراً اسمه بارنس ليقيم في كابل وازدادت العلائق بعد ذلك بين دوست محمد وانكلترا وكتبت المعاهدات وانكلترا تنصره على كل مهاجم او منازع . وكان دوست محمد شاه هذا حكيماً ينظر في شؤونه بعين الحكمة والدراية فاستفاد من علائقه الحسنة مع انكلترا فائدة كبرى

وتوفي دوست محمد عام ١٨٦٣ ونذكر من . . . ثلاثة وهم افضل خان واعظم خان وشير علي خان وكان هذا اصغرهم ولكن ا . . . خصه بولاية العهد من دونهم فشق ذلك على اخويه وقام النزاع بين الاخوة وشبت الحروب الداخلية فكان النصر حليف شير علي خان حتى قبض على اخيه افضل خان (والد الامير عبد الرحمن) والقاه في السجن وكان عبد الرحمن شاباً لا يزيد عمره على العشرين عام ففر الى بخارا ثم عاد الى افغانستان وانضم الى جيش عمه أعظم خان وحارب معه حتى تمكن من دخول كابل بجيشه ظافراً ثم طارد شير علي خان وتغلب عليه في مواقع كثيرة

ثم عاد شير علي ومعه القبائل والاحزاب فاخرج عبد الرحمن من كابل فاراد الالتجاء الى الهند فمنعه حاكمها من الدخول اليها فاحتمى بروسيا نكاية بانكلترا

واقام عبد الرحمن بين سمرقند وتشقند عشر سنوات والحكومه الروسية تجري عليه راتباً يزيد على مئة وخمسين جنيهاً في الشهر

الاميرعبدالرحمن : هو عبد الرحمن خان بن افض ـ ن بن دوست محمد خان. ولد عام ١٨٣٠ ونشأ منذ نعومة اظفاره بين الفتن وبما قام من التنازع على النفوذ في افغانستان بين الروس والانكليز . ناه ، . استحكم من الخصام بين والده افضل خان واعمامه اولاد دوست محمد خان ، عبد الرحمن يناضل عن والده نضالاً حسناً واشتهر بالشجاعة والاقدام ولم بقعة في افغانستان لم تتلوث ارضها بدماء قتلاه . حتى اذا حمي وطيس الحرب بعد دخول الانكليز لجأ هو الى الروسيين وتلك عادة أمراء الافغان في مثل هذه الاحوال . فأجرى القيصر عليه الرواتب والوظائف حتى كانت سنة ١٨٨٠ وخلت كرسي الملك في كابل فاقامه الانكليز عليها على ان يراعي جانبهم

ثم أخذوا بناصره وعضدوه وبالغوا في تقريبه بالهدايا والرواتب وفي جملة ذلك راتب مقداره ١٨٠٠٠ جنيه في من النياشين والرتب ولقبوه السير عبد الرحمن خان . وجهزوه بـ حة والمدافع وجعلوا من مقتضى المعاهدة المبرمة بينهم و بينه ويبصروه بالرجال عند الحاجة وانشأوا له في كابل ترسانة وامدوه بالعملة والمهندسين حتى صاروا يعتقدون انه صنيعتهم وخادم حتهم . اما هو فلم يكن يعترف بذلك ولا يريد ان يعترف به بل كان ـه محالفاً لانكلترا ويؤيد ذلك انه أراد ان يرسل سفيراً من قبله يقيم في لندن كما تفعل سائر الدول المستقلة . على انه كثيراً ما صرح بصداقته لانكلترا جهاراً ومن جملة ذلك انه التقى باللورد دوفرين في بندي في ربيع عام ١٨٨٥ فأعرب الامير عما في نفسه من الاحترام لجلالة الملكة ورجال حكومتها وكانوا في وليمة جمعت جماً غفيراً من رجال الدولتين فاستل الامير عبد الرحمن سيفه من غمده المرصع ولفظ خطاباً قال في ختامه انه سيقتل عدو انكلترا بحد ذلك السيف

ولم يكن جلوسه على كرسي الملك كافياً لتأييد سلطانه فحارب حروباً كثيرة

قبل ان استتب الامر له من جملتها ان ايوب خان احد منازعيه ثار في قندهار فارسل اليه عبد الرحمن جنداً عادوا خاسرين فلم ير بداً من اقتحام الوغى بنفسه فحمل عليه وقهره ففر ايوب الى بلاد ايران وعاد عبد الرحمن وقد سكر بخمر الظفر وحكم رعاياه بعصا من حديد فنفر الوجهاء منه فساء الظن بهم وخيل له انهم يتآمرون على خلعه ولم يهدأ له بال حتى قتل كل من ظنه من اعدائه او كان وجيهاً محبوباً يخشى منه على نفوذه . فازداد الناس كرهاً له ورعباً منه . ولكنهم لم يحركوا ساكناً لما يعلمونه من شدته واستبداده

على ان ذلك لم يمنع ظهور ثورات أخرى بل ربما كان داعياً لها فان الغلزية حاربوه مراراً ولم ينج من مطامعهم الا بسفك الدماء

وفي سنة ١٨٨٨ حاربه ابن عمه اسحق خان وكان حاكماً في افغانستان تركستان وسبب حربه ان عبد الرحمن دعاه الى كابل دعوة ظاهرها حبيّ فخاف اسحق تلك الدعوة لما يعلمه من عاقبة المدعويين قبله فاعتذر عن القدوم فاعاد الدعوة وتفنن باساليب التجمل فلم ينخدع اسحق وظل على عزمه فاتهمه عبد الرحمن بالعصيان وانفذ جيشاً للقبض عليه فشتته اسحق وطمع بكابل فحمل عليها . فاسرع عبد الرحمن لملاقاته وحاربه ففر اسحق الى بلاد الروس وأقام في سمرقند هو وانصاره تحت رعاية روسيا وحمايتها وهي تنفق عليهم وتبالغ في اكرامهم

ثم ثار عليه الهرارية بين كابل وهرات وهم من اهل الشيعه فحاربهم فتعبوه ولكنه تغلب عليهم واستتب له الملك ثم اصيب بمرض النقرس ولا يزال يتردد عليه العام بعد العام حتى ذهب بحياته سنة ١٩٠١

﴿ صفاته واخلاقه ﴾ هو ربعة ممتلىء الوجه حاد البصر متناسب الملامح كما ترى في الرسم . يتكلم الفارسية والبوشتية وبعض العربية قال بعض الذين جالسوه انه حسن المحاضرة فصيح الكلام محتشم صحيح القياس مع مبالغة واطراء وتظهر فيه هذه الصفات خصوصاً اذا وقف على منبر الخطابة فانه يؤثر على سامعيه تأثيراً شديداً . ومن غريب ما يروونه عنه مما يندر في امراء تلك الاصقاع انه معتدل

المزاج لا نهمٌ ولا شرهٌ لا يشرب الخمر الا قليلاً ويكره الافيون ولا يقبله الا اذا اشتد به الالم من مرض او نحوه فيتخذه مسكّناً . ولكه شديد الاعجاب بنفسه كثير التحدث بما اوتيه من النصر حتى جعل نفسه قريناً للاسكندر الكبير فهو يعتقد انه متصل بهذا الرجل العظيم بحلقات كثيرة تفصل بينهما لكنها بالية لا يعبأ بها

ويؤخذ من بعض احاديثه انه مطلع على كثير من اخبار الامم قوي الذاكرة وشديد الحذر من الاجانب فلا يأذن لاحد ان يجتاز بلاده لتجارة او نحوها الا في احوال خصوصية . ولكنه مع ذلك كثير الاكرام للنزيل لا يذخر وسعاً في سبيل راحته

﴿ حكومته ﴾ هي ملكية مطلقة وتقسم مملكته الى اربع ايالات كابل وتركستان وهرات وقندهار وأضاف اليها مقاطعة بدكشان وما يتبعها . يتولى كل ولاة والٍ يسمونه « حاكماً » وكان يسمى في أيام شيرعلي‌خان «نائب» ويتولى القضاء قاضٍ وبعض المفتين أو المحتسبين وهم الشرطة يجرون على نظامات لو روعيت لم يكن بها بأس

واما جنده فقد نظمه شير علي خان سنة ١٨٦٩ على نظام الجند الاوربي وكان قد اهمل هذا النظام فأعاده عبد الرحمن وعنده فضلاً عن الجند النظامي عدد كبير من لاهالي وفيهم الفرسان والمشاة ينجدونه عند الحاجة . اما عدد الجند فلا يمكن تحديده لاختلاف الروايات في شأنه . فقد قدروه سنة ١٨٩٦ بخمسين الف ماش تحت السلاح واربعين كوكبة من الفرسان واما سنة ١٨٩٠ فقد بلغ جند الافغان ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل وعنده من الاسلحة النارية ست بطاريات جبلية تجرها البغال وبطارية تجرها الافيال . ومراكز الجند في هرات ومزارع الشريف وقندهار وجلال آباد وتصنع الذخيرة في ترسانة كابل بادارة بعض الانكليز يصنع فيها في كل يوم ١٠٫٠٠٠ فشكة من فشك مارتيني و١٠٫٠٤٤ من فشك سنايدر و١٥ بندقية ويصنع فيها مدفعان في كل اسبوع



ش ٤١ – الامير عبد الرحمن في اثناء سياحته بلاد الهند سنة ١٨٨٥
الى يمينه دوك كانوت والى يساره ماركيز دوفرين

ومما يذكره الانكليز من علائقه الحسنة بانكلترا زيارته الهند سنة ١٨٨٥ لحضور المجلس الاعلى (دربار) الذي عقد في روال بندي في شمالي الهند الغربية على اثر المؤتمر الذي تشكل يومئذ من روسيا وانكلترا بشأن الحدود الشمالية لافغانستان بعد احتلال روسيا لمرو. وقد جرى امير الافغان في هذا الامر على مقتضى مصلحة الانكليز فاكرموه واحتفلوا باستقباله في روال بندي احتفالاً شائقاً على النمط الشرقي وقدموا له سيفاً مرصعاً. وفي (ش ٤٢) صورته في اثناء ذلك الاحتفال

(حياته في بيته) اطلعنا على رسالة للدكتورة هملتن طبيبة بيت الامير عبد الرحمن نقتطف منها ما يأتي تتمة لما ذكرناه من مناقب هذا الامير قالت : —

« (اعتقاده في النساء) لم اسمعه يتكلم عن زواجه الا قليلاً وكان ذلك بمناسبة ذكر زواجه الاول الذي تم وله من العمر ثمانية عشر عاماً فقد قال لي « قد

يتزوج الرجل غير مرة لاسباب تدعوه الى ذلك ولكن قلبه لا يعرف الا زوجة واحدة وتلك زوجته الاولى » وقال لي انه لكي يكاتب خطيبته الاولى ويراسلها تعلم الكتابة والقراءة فلهذا يجل تذكارها و يقدس ايامها فقد اقتطفت المنون زهرة شبابها في نضرة عمرها وهي بنت عمه الامير محمد أعظم خان واقول انها لو كانت كأفراد العائلة فانها تستحق الشهرة التي نالتها في اللطف والجمال

« وفي السنوات الاخيرة لم يكن يحفل الامير بالنساء ولا يسمح لهن بحضور مجلسه الا في القليل النادر واذا سمح لهن بذلك فانما يعاملهن كما يعامل الاطفال الصغار لا كما يستحق ان يعامل من في يده تربية الناشئة الجديدة . والحق يقال ان تربية الابناء ليست موكولة هناك الى الامهات . اذ لا يكاد يقدر احد انجال الامير على المشي حتى يسلم الى المعلم يتولى تربيته ويبقى تحت رعايته حتى يصير رجلاً • وأتذكر اني ابديت له استغرابي من هذه الطريقة فقال « ليت شعري كيف يكون حال اولادنا لو تركناهم الى تربية نسائنا ؛ وكيف ينشأ الولد الذي يتربى بين احضان هاته النسوة » ولما قلت له ان النساء الانكليزيات يتولين تربية ابنائهن في زمن الصغر حتى يقدرن على الذهاب الى المدرسة تبسم وقال « كيف يمكنك ان تقارني بين سيدة اوربية وسيدة شرقية » ولم اقدر على اقناعه بان نساء الافغان اذ تعلمن وتربين واطلقت لهن الحرية اصبحن كنساء اوربا لانه كان يرى ان الزمن لم يأت لهذه الحركة وان نساء الافغان لا يصلن الى درجة المرأة العربية حتى قال ذات مرة « اي دليل اظهره نساؤنا على رغبتهن في التعليم او ميلهن الى المعارف • هل طلبن منك ان تعليمهنّ شيئاً من الاعمال التي تقومين بها ؟ الا يحتقرنك ويرين علمك ومعارفك من سقط المتاع ؟ الا يتحسرن عليك بدلاً من ان يغبطنك » فلم اقدر على الجواب ولكنني لا ازال أعتقد انه لو مهد لهن سبيل التعليم واطلقت لهن حرية الفكر فانهن يترقين شيئاً فشيئاً

« ﴿ اعتقاده في الدين ﴾ جمع الامير عبدالرحمن في صفاته الاخلاق المتضادة فبينما نطه متمسكا بعادات قومه وعقائد شعبه تراه يبدي لك رأياً أو يبرهن لك



ش٤٢ ـ الامير عبد الرحمن بلباسه الرسمي

قضية لا يصدران الا عن استقلال فكر وحرية ضمير مع ثبات عليه وتمسك به مهما حاول احد اقناعه ، وكان كثير الشغف بالمجادلات الدينية حتى انه طالما كان يتهمني باني مشركة لا اعبد الها واحداً وكان لا يصغي كثيراً اذا اردت ان اشرح له حقيقة اعتقادي ، واتذكر اني تكدرت من هذه التهمة وظهر على وجهي التأثر الشديد فقال وهو يتبسم « حمي عنك وطأة لا تقاضي ايتها السيدة لاننا انما نسطر لى المسألة من وجوه مختلفة وارجو ان تضعي هذا الاناء الصيني ... كان بالقرب مني على المائدة » . ثم قال « اجلسي امامي » وسألني « ماذا ترين من النقش على هذا الاناء » فقلت « اني ارى صورة تنين اخضر فاغر فاه محلق بعينيه وله ذنب طويل » .

فاجابني على الفور قائلاً « هذا كلام لا حقيقة له فان المنقوش على الاناء صورة بحر واسماك ومغاره تتكسر عليها المياه وتحوم حولها اشباح صغيرة اظنها حشرات او ما اشبه ذلك . والآن ارجو ان تصغي ايتها الطيبة وتعلمي انني لا امزح بل انني حقيقة ارى ما وصفته لك ولا ارى ما ترينه انت .. لانني لا ابصره ولم يقع تحت نظري — فاذا انا انكرت وجود البحر والاسماك فهل يقتضي ذلك ان ان نتشاجر ونتقاتل ؟ » ولا خلاف فانني فهمت كل ما اراد ان يعبر عنه لان مثل هذا التعبير ظاهر جلي ولكنني استغربت صدوره منه وزاد عجبي حينما رأيته بعد ذلك قد اضطجع على كرسي كبير واسند راسه على وسادته ثم قال « هكذا نحن في هذه الدنيا ننظر الى الامور من وجه واحد ولكن سوف نرى باعيننا الوجهين في العالم الآخر . بل سوف نعلم ان كل نظر الى جهة واحدة باطل وخطأ مبين »

« قلت ان الامير كان ذا شغف بالمجادلات الدينية الا انه كان لا يحب ان يسمح لي تفسيراً عن معتقداتي . وفي ذات يوم احـذ برتقالة وعلقها في سلسلة ساعة ثم طلب مني خيطا من الصوف وكنت جالسة بالقرب منه انسج شيئاً من القماش ومع رغبتي في عدم قطع الخيط لم أتأخر عن اجابة طلبه ثم قال « والآن احضري لي خيطاً من الحرير وسلكاً دقيقاً من الحديد » ثم ربط كل خيط بالبرتقالة وانا واقفة أنظر اليه ولا ادرك ما يريد ثم قال « انظري ايتها الطيبة انني حينما اعلق هذه البرتقالة باحد هذه الخيوط لا تقع ولكنها ليست كلها متساوية في القوة فاحد هذه الخيوط امتن من الاخر انظري الى الخيط الصوفي والى سلسلتي الذهبية فهما متساويان متبادلان في تأدية المطلوب . وهـذا مثال الاديان وقيمتها فبعضها اتقى واطهر واعلى وهو بذلك امتن سبباً واقوى رابطة . ولكنها كلها تربط الانسان بالخالق القادر المبدع سبحانه وتعالى حتى ادنى الاديان واحطها انفع من لا شيء . فهذا الخيط الحريري لا يدوم طويلاً بل ينقطع حالاً . وهذا السلك الحديدي يفلت من البرتقالة كغيره فتمسكي بدينك فان الافضل ان يكون لك دين ولو فيه خطاء من ان لا تديني بشيء » (انتهى)



ش ٤٣ — حبيب الله خان امير الافغان

نظر الانكليز الى عبد الرحمن : قال احد كتبة الانكليز يصف علاقة الامير عبد الرحمن بانكلترا « ان علاقة هذا الامير بنا لا يصح ان نعتبرها مرضية وان ظهرت لنا كذلك . نعم انه يسايرنا في كل مـا نرجوه من نفعه ويقابل سفراءنا بالاكرام والتعظيم وقد ارسل ابنه لزيارتنا في لندن — ولكن القرائن الاخرى تدلنا على انه كثيراً ما ساير ألد اعدائنا في الهند . ولا اظنه لو وفق في سعيه معهم الا رامياً بصداقتنا عرض الحائط . وغاية ما يقال في هـذا الرجل انه صديق حميم وحليف مفيد للهند طالما كانت حكومة الهند شديدة البطش . اما اذا ضعفت فانه من اشد الجيران خطراً عليها قال — واما خليفته حبيب الله خان فاننا لا نتوقع منه غير السكينة والمسايرة وهو لا يرى منا الا كل مساعدة ونصرة »

حبيب الله خان : هو اكبر انجال الامير عبد الرحمن الجديد تولى الملك

بعد وفاة ابيه بمقتضى نظام وضعه ابوه لذلك • وهو الآن في حدود الاربعين من عمره ودلائل الصحة والشباب بادية في صورته • وقد تأتى له ان يتولى نيابة حكومة كابل في حياة ابيه وهو يحارب اسحق خان سنة ١٨٨٨ ورأى الامير بعد رجوعه ما حقق ظنه في ولده حتى عهد اليه مراجعة ما يرد من كتب الولايات فلا يقرأها هو الا بعد ان ينظر فيها ابنه ثم ولاه بيت المال سنة ١٨٩٧ وعهد اليه القضاء الاعلى

وكان من رغائب الامير المتوفى ان يوطد العلائق بين ابنه والاسر الافغانية الكبرى فلم ير وسيلة لذلك خيراً من المصاهرة فازوجه سبع زيجات • ولكن الغرض الذي رمى اليه الوالد بهذا الزواج لا يوازي ما يخشى من الفساد بتكاثر النسل والخصام على الملك • ولم يقتصر الامير عبد الرحمن على تزويج ابنه ولكنه ازوج ابناء ابنه المذكور بفتيات اختارهن من العائلات الكبرى المشار اليها

ومن الاعمال التي تولاها الامير حبيب الله خان في حياة ابيه نظارة الخارجية فقد كانت المخابرات مع الدول الاوربية على يده • على ان اسرار السياسة كانت منحجبة في صدر عبد الرحمن والغالب انه اطلعه عليها قبل موته واهمها ان يكون موالياً لانكلترا حليفاً لها • وفي لسان حبيب خان لعة او عجمة تعيقه عن الاسترسال في الكلام يظن ابوه انها نتجت عن سم دسه له بعض الاعداء ولم يمته ولكنه اضرَّ بنطقه

امبراطورة الصين ـ تسي هسي



ش ٤٤ ـ تسي هسي امبراطورة الصين

حداثتها : هي من اصل منشوي والمنشو قبيلة نزحت الى الصين منذ قرنين ونصف ومنها العائلة المالكة . وكان والد « تسي » في اول امره في سعة ثم نكب فخسر ماله وسيق منكسر الخاطر الى « كانتون » فاقام فيها ومعه امرأته وابنته « تسي » هذه وابن آخر. وربيت تسي قوية البنية نشيطة سريعة الحركة لان المنشو لا يحبسون اقدامهم في احذية الحديد كما يفعل سائر اهل الصين . ولعلها اشتغلت في حداثتها بجمع العيدان من الطرق والدروب وقوداً لبيت والدها

نزح والدها الى كانتون سنة ١٨٣٨م سن ابنته اربع سنوات . فكان ذلك قبل حرب الافيون التي اذلت امبراطور الصين وكسرت نفوس الصينيين وكان والد تسي يغالب الفقر والفقر يغلبه فلم ير له مخرجاً منه الا ان يبيع ابنته . والصينيون اذا

اصابهم فقر فرجوا ضيقهم ببيع بناتهم وهم يرون في ذلك حكمة لان الفتاة اذا بيعت امنت الجوع وخصوصاً اذا كانت جميلة وينتفع اهلها بثمنها . ويقال ان فتاتنا هي التي اقترحت على والدها ان يبيعها فابى عليها ذلك في بادىء الرأي لانه منشوي من اهل الشمال وبيع البنات شائع بالاكثر بين الصينيين الاصليين في ولايات الجنوب . ولكن الجوع اضطره بعد ذلك الى بيعها فاشتراهـا تاجر اعجب بذكائها ونباهتها . ومن غرائب الامور انها تعلمت القراءة والكتابة قبل الثامنة من عمرها بمجرد رغبتها مع صعوبة ذلك في الصين يومئذ حتى على الرجال . واغرب من ذلك ان بعض كتبة الانكليز يدعيها لامته فيزعم ان فيها دماً انكليزياً — وهو من غرائب الادعاء

زواجها بالامبراطور : ولما بلغت « تسي » بضع عشرة سنة اصبحت في بيت سيدها كاحدى بناته . واتفق لامبراطور الصين يومئذ « هيان فونغ » ان زوجته لم تلد له اولاداً فاعلن رغبته في فتاة يقع اختياره عليها فيتزوجها التماساً للنسل وعين يوماً تحضر فيه الفتيات اللواتي يطمعن في ذلك النصيب .على ان يكون سنهن بين ١٤ و ١٨ سنة وان يكون حضورهن في قصر الامبرطور في بكين

قالوا : وكانت « تسي » مارة في بعض الشوارع فقرأت منشور الامبراطور على بعض الجدران فوجدت سنها يساعدها على ذلك مع كونها منشوية . فخطر لها ان تعرض نفسها في جملة العارضات . واكبرت ذلك في بادىء الامر ولكنها عولت على التجربة فاستشارت سيدها فاستغرب جرأتها ولكنها اقنعته فسلم وادعى انها ابنته لعله يصيب خيراً بنجاحها

وجاء يوم الاستعراض فبلغ عدد المعروضات بضعة آلاف فتاة حاز السبق منهن عشرٌ وفيهن « تسي » ولما عرضن على الامبراطور اختارها هي من بينهن فيزوجها وسنها ١٧ سنة فولدت له بعد ثلاث سنوات ولداً ذكراً هو ولي عهد المملكة سموه « تونغ تشي »

وليس من الغريب في بلاد الجمال النساء سلطانٌ على قلوب ملوكها ان تنال

المرأة حظوة في عيني الملك ولكن الغريب ان هذه الفتاة مع صغر سنها وانها دخلت على البلاط الامبراطوري وفيه امبرطورة قبلها — تمكنت بحسن سياستها واطافة اسلوبها ان تجتذب قلب ضرتها وقلوب سائر اهل البلاط . وكانت منذ دخلت ذلك القصر تظهر اللطف والانس لرفيقتها الامبراطورة فلما صارت ام ولي العهد لم تغير شيئاً من ذلك

الامبراطور الجديد : وظلت الاحوال في استكانة ووفاق حتى كانت الحوادث المشومة على الصين سنة ١٨٦٠ يوم اغار عليها الانكليز والفرنساويون يداً واحدة فهدموا حصون طاكو وحملوا على بكين ففر الامبراطور بامرأتيه وابنه وعمره ست سنوات الى قصر له يسكنه في ازمنة الصيد في مكان يقال له « ياهو » . اما المهاجمون ففتكوا بالمدينة واحرقوا قصر الصيف

وفي السنة التالية توفي هيان فونغ وولي عهده لا يزال في السابعة من عمره . فعهد بالحكومة قبل موته الى مجلس اعضاؤه اميران من العائلة المالكة ووزيره « لونغ تشي » وترك العناية بامر الغلام الى الامبراطورتين . واختص الامبراطورة الاولى بعهد مختوم دفعه اليها وفيه تفويض تام في امر الغلام وتربيته . ولكنها كتمت ذلك التماساً للوفاق بينها وبين ضرتها . قال الكاتب « وهذه اول مرة اتفقت فيها سارة وهاجر »

وما لبثت « تسي » ان رات نفسها امبراطورة بالاسم فقط وان الاحكام صائرة الى قبضة مجلس الوصاية فاغرت البرنس (كونغ اخا الامبراطور المتوفى على مشاركتها في التخلص من ذلك المجلس . فوافقها واتهمهم بتقصير ارتكبوه في جناز الامبراطور فقبض عليهم وقتلهم . فخلا الجو للامبراطورتين في البلاط الملوكي واستبد البرنس (كونغ) في ادارة شؤون المملكة

مضى على ذلك ثلاث سنوات والبرنس كونغ عمل على رد ما فقدته الصين بالحروب الماضية والثورات المتوالية . فشاع في المملكة انه الفاعل لما يريد . فخافت (تسي) ان يجره ذلك الى الاستبداد بالامر دونها فاصدرت في ٢ ابريل سنة

١٨٦٥ امراً باغلال يدية عن مصالح الحكومة لانه تعدى الحدالذي وضع له. فاطاع واعتزل ولكن المملكة لم تكن تستغني عنه فاعادوه بعد خمسة اسابيع الى كل ما كان فيه الا رئاسة المجلس

وفي سنة ١٨٧٢ اوشد الامبراطور وآن زواجه فاخذت والدته على نفسها ان تختار له زوجة . فاعلنت غرضها وتقاطرت الفتيات من انحاء المملكة يعرضن جمالهن وفي يد كل منهن لوح فيه اسمها وسنها . فاذا مرت بين يدي الامبراطورة دفعت اللوح اليها . فاذا وقعت منها موقعاً حسناً سألتها بعض الاسئلة والا امرت لها بحذاء من الفضة وزنه اوقية وخلت سبيلها

فالفتيات اللواتي لم يأخذن تلك الهدية مررن ثانية فاللواتي أخرجن منهن هذه المرة اعطين لفة من الحرير وفي المرة الثالثة عينت الفتاة التي وقع اختيارها عليها واسمها « ألوتى » وهي جميلة عاقلة . وقبل الزواج ثلاثة ايام ارسل الامبراطور العريس الى عروسه حلة الملك ثم بعث اليها امراً بتسميتها امبراطورة وزفت اليه باحتفال لم يسبق له مثيل مشى فيه الامراء واستقبلتها حماتها « تسي » في القصر الامبراطوري بكل رعاية واكرام

وكانت تسي بعد ذلك لا تظهر لاحد من الوزراء ولا يراها احد من الناس ولكنها كانت تستطلع حركاتهم وتتبع خطواتهم من وراء الحجاب . ولم تظهر للوزراء وجهاً لوجهٍ الا بعد ان ادركت العام الستين من عمرها

وكان البرنس كونغ بعد ما آنسه من حرج مركزه قد احتال في الايقاع ما بين الامبراطورتين فلم يفز . وما زالتا في وفاق معاً حتى ارشد الامبراطور الجديد وتولى عرش الصين فافترقتا على وفاق . فسكنت تسي في جناح القصر الغربي وضرتها في الجناح الشرقي وسميت الاولى الامبراطورة الغربية والثانية الامبراطورة الشرقية

واقامتا في سلام الى سنة ١٨٧٣ على رواية مراسل كتب الى بعض الجرائد عام ٨٨٨ قال « بعثت الامبراطورة الشرقية الى رصيفتها تطلب اليها الاجتماع في

بعض شرفات القصر فاجتمعتا وبعد السلام والكلام صرحت هذه الامبراطورة ان من بواعث ذلك الاجتماع ان المهمة التي اجتمعتا لاجلها قد انقضت وآن زمن الافتراق . وانها تود من صميم فؤادها ان تتخلص من ثقل التبعة بعد ان وفقتا الى التضافر على العمل كل ذلك الزمن الطويل بوفاق تام لخير المملكة ومصلحة الامبراطور الصغير . واشارت الى التفويض الشرعي الذي بيدها من زوجها المتوفى ولم تكن ذكرته قبل ذلك الحين فاستخرجته حينئذٍ واطلعت رفيقتها عليه ثم احرقته وهي تقول (لم يبق له نفع الان) فأثر ذلك الفصل المدهش في (تسي) تأثيرًا شديدًا وابغضت ضرتها من ذلك اليوم »

هذا ما رواه المكاتب ولكن يظهر انهما ظلتا في وفاق مدة اخرى ففي سنة ١٨٧٤ امر الامبراطور بخلع البرنس كونغ وابنه لانهما فاها بما لا يليق . ولكن كونغ عاد الى منصبه في اليوم التالي بامر الامبراطورتين وما زال فيه الى سنة ١٨٨٤ حتى عزلته الامبراطورة تسي نفسها

امبراطور ثالث : اما الامبراطور تونغ تشي فانه مات سنة ١٨٧٥ وترك زوجته (الوتى) حاملاً فاتفقت الامبراطورتان ثانية على العدل . وكان لا بد لهما من انتظار الولادة ليريا اذا كان المولود ذكراً او انثى . فاذ كان ذكرًا كانت والدته هي الوصية على الملك ولا يبقى لحماتها وضرتها ذكر واذا كان انثى قضت شرائع الصين بان تتبنى الوالدة صبياً باسم الامبراطور وتكون مع ذلك هي الوصية عليه

فرات (تسي) انها فاقدة نفوذها في الحالين فتفقت مع رصيفتها والبرنس كونغ على حيلة أخرى . وذلك انهم قبل ان تلد الحامل تبنوا ولدا سنه اربع سنوات هو ابن (تشون اصغر اخوة الامبراطور (هيان فونغ) فاصبحت (الوتى) في زاوية النسيان . وعادت (تسي ورفيقتها الى الوصاية مرة اخرى . فبسطتا ايديهما في الحكومة واستبدتا في اعمال المملكة ومعهما البرنس كونغ

وعهدتا بتربية الغلام وتثقيفه الى رجل مشهور بالتعقل والصلاح سمه (ونغ تونغ شو) وهو الذي غرس فيه الميل الى قبول الآراء الحديثة . ويقال ان الغلام

شبّ وفيه انعطاف الى الامبراطورة الاولى اكثر مما الى (تسي) . ولكن القضاء فصل بينهما فماتت تلك سنة ١٨٨١ وخلا الجو لتسي . وما زال كونغ على الحكومة الى سنة ١٨٨٤ فعزلته وولت مكانه البرنس (تشون) والد الامبراطور الغلام . ولم يكن تشون كفئاً لذلك المنصب العظيم ولكنها استخدمته آلة واستعانت في ادارة شؤون المملكة بالرجل السياسي الصيني الشهير لي هنغ تشانغ . وفي سنة ١٨٨٨ آن وقت انتخاب عروس للامبراطور الجديد فاستعرضت البنات واختارت له فتاة اسمها (تيت هونالا) ابنة احد رجال الحكومة



ش ٤٥ : كوانغ سو امبراطور الصين الحالي

وفي سنة ١٨٨٩ جلس الامبراطور الجديد على كرسي المملكة وسمي (كوانغ سو) والصين ارقى حالاً مما كانت عليه يوم تولاها سلفه . وكانت تسي قد شعرت قبل جلوسه ان النفوذ ذاهب منها فارادت حفظ حقوقها فكتبت عهدًا اشترطت

لنفسها فيه بعض الحقوق في السلطة وطلبت الى الامبراطور ان يمضيه قبل ان يتولى فامضاه فلما تولى الملك انكر ذلك عليها فاعتبرت انكاره خيانة ونشأ النزاع بينهما من ذلك الحين

﴿ الامبراطور كوانغ سو ﴾ كان هذا الامبراطور في حداثته ميالاً الى الصناعة اليدوية والآلات الميكانيكية مع ميل قليل الى الدرس والمطالعة . ولما تولى الملك أظهر من الجلد على العمل ما يندر مثله في الملوك بالنظر الى صغر سنه فانه ينهض من فراشه الساعة ٣ ونصف بعد نصف الليل فيتناول فطورًا خفيفاً ويستقبل وزراءه من الساعة الرابعة الى الساعة السادسة ثم يخرج لاقامة الشعائر الدينية . ويتناول غذاءه الساعة الحادية عشرة ويتعشى في العصر ويذهب الى الفراش باكرًا جدًّا

وهو نحيف البدن أصفر اللون مع اسمرار . لوزيُّ العينين أسودهما مرتفع الجبهة منتظمها مقوَّس الحاجبين لطيف الفم بارز الذقن . اذا ابتسم ظهرت اسنانه صفراء مستطيلة غير منتظمة تلوح على وجهه البلاهة يخالطها بعض السويداء . ولعل ذلك ناتج عن انقطاعه الى العمل الشاق مع تحمله تبعة الكبرى في هــذا المنصب العظيم .وكان اعتماده الاكبر على وزيره لي هنغ تشانغ . وكل ما تم من المشروعات المفيدة على يده انما تمّ برأي هذا الوزير العظيم

وفي عام ١٨٩٦ ظهر شاب اسمه « كانغ يووي » كان استاذًا في كانتون . وكان مغرماً بتاريخ بطرس الاكبر قيصر روس الشهير . فحدثته نفسه ان يصلح الصين كما أصلح بطرس الاكبر روسيا . فرفع الى الامبراطور تقريراً في الاصلاح اللازم لمملكته حرضه فيه على نقض عوائد أسلافه وتقاليدهم . وان يتبع خطوات جيرانه اليابانيين والروسيين في التمدن الحديث . وان يجمع وزراءه ورجال حكومته الى الهيكل الذي يصلون فيه ويأخذ عليهم المواثيق والعهود المقدسة ان يجروا الاصلاح في المملكة . وان ينقح قوانين الادارة ويفتح لرعيته سبيلاً يرفعون به ظلاماتهم اليه رأساً . وان يختار لحكومته شباناً اذكياء نشيطين بقطع النظر

عن حالهم في دنياهم او انسابهم • وان ينشىء ١٢ ادارة كسائر الممالك المتمدنة . و بسط له كيفيات الحكومة ووضع الضرائب وغير ذلك مما يطول شرحه

ودفع هذا التقرير اولاً الى احد الوزراء فكان جوابه « وكيف نغير تقاليد اسلافنا وعاداتهم » اما الامبراطور فاعجب بما فيه وعول على العمل به وشرع في تنفيذ ذلك سريعاً . ولكنه لسوء حظه لم يكن له ما كان لبطرس الاكبر من القوة والمنعة وكان في جملة مساعيه انه أبعد الامبراطورة « تسي » الى جزيرة في ساحة القصر . فلما هاج الشعب من صدمة تلك الاصلاحات خابروا الامبراطورة واتفقوا معاً على محاصرة القصر فحاصروه . ثم دخلته «تسي» واصدرت سنة ١٨٩٨ امراً بامضاء الامبراطور يعترف فيه انه بالنظر لعجزه عن ادارة شؤون المملكة قد كلف الامبراطورة «تسي » ان تنوب عنه فيها . فعادت الى ولاية الاحكام وفرّ رجال الاصلاح وفي مقدمتهم « كانغ يوءي » وظل كوانغ سو محصوراً في قصره تصدر الاوامر باسمه وهو لا يعلم بها . اما نصراء الاصلاح فانهم طافوا في انحاء المملكة يطعنون في الامبراطورة واستبدادها . فشق ذلك عليها فامرت باعدامهم ووعدت من يأتي برأس زعيمهم « كانغ يوءي » بجائزة كبرى

وقد يخيل للقارىء مما قدمناه ان هذه المرأة مفطورة على الاذى او انها وحش بصورة انسان . ولكن بعض الذين قابلوها ودرسوا اخلاقها يقولون فيها ما يخالف ذلك ومنهم كاتب انكليزي قال في عرض كلامه عن فظائعها في القصر الامبراطوري «ولكنها بالنظر الى العالم الخارجي لا تقلّ شيئاً في اخلاقها وسجاياها عن الملكة فيكتوريا» وهو إطناب كبير وخصوصاً من رجل انكليزي . وذكروا لها حسنات اخرى • على ان بعضهم عدد سيئاتها و بالغ في فظاعتها حتى لم نعد نعرف الحقيقة والظاهر انها جمعت الى قوة العقل كثرة المطامع والله اعلم



ش ٤٦ : منيليك ملك الحبشة





ش ٤٧ : علي بن حمود

(سلطان زنجبار)

القواد



ش ٤٨ سليمان باشا الفرنساوي

موسس الجند النظامي المصري

ولد سنة ١٧٨٧ م وتوفي سنة ١٨٦٠ م

﴿ تاريخه في اوربا ﴾ ولد في ليون من اعمال فرنسا في اوائل افريل سنة ١٧٨٧ وسمي يوسف سيف وكان ابوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة فلما بلغ يوسف اشده اراد والده ان يستعين به في اعماله ولكن الغلام كان يشعر بانه ارفع من ذلك المكان فضلاً عن ميله الفطري الى الخروج والجولان فلم يستطع المواظبة فشق ذلك على ابيه فتوعده اذا لم يثابر على العمل بان يدخله في سلك الملاحة عقاباً له فلم يكن ذلك الا موجباً لسروره فدخله في مهنة البحرية سنة ١٨٩٩ وهو لم

يتم السنة الثالثة عشرة من عمره فاعجبه جوب البحار وركوب الاخطار في سفن كانت الى ذلك العهد تسير بلا بخار حتى كانت حروب ترافلغار سنة ١٨٠٥ بين الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نلسون الشهير والاساطيل المتحـــدة لدول فرنسا واسبانيا تحت قيادة الاميرال فيلينوف واميرالين اسبانيين وكان الفوز للانكليز لـكن صاحب الترجمة اظهر على صغر سنه اعمالاً تدل على استعداده للشؤون الحربية وكان المنتظر ان ينال فى مقـابل ذلك مكافأة تستحق الذكر فاتفق انه تخاصم وأحد روءسائه وكان سيف عنيفاً خشناً فجرتهما المعاتبة الى المضاربة فبدأ الضابط فضرب سيف ضربة جرحته فلم يستطع صبراً على ذلك فهم بالضابط ومازال يضربه حتى قيل كفى فقبض عليه وحوكم فحكم عليه بالاعدام وهو حكم عسكري لامرد له

ولكن العناية سخرت له رجلاً من الاشراف اسمه الكونت يول دي سيغور يقال ان سيف كان قد انقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجميل فلما علم بالحكم عليه توسط في امره فانقذه وارسله الى الجيش الفرنساوي الذي كان اذ ذاك في ايطاليا

ولما شبت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في جملة الاسرى عند النمساويين وبقي مغترباً عامين حتى اذا كانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في جملة جندها واظهر في اثناء وقائعها الهائلة بسالة اوجبت التفات نابليون الخصوصي حتى اراد ان يقلده نشان اللجيون دونور فدعاه اليه بهذا الشأن فآنس منه استخفافاً فحنق عليه وحرمه من ذلك الشرف على انه ما لبث ان رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (امير الاي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالاسر والنفي فقضي على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانقطاع الى التجارة التمـاساً للتعيش ولكن انى للجندي المحارب ان يساوم امرأة او غلاماً على مبيع سلعة فيبح قبل اتمام المبايعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل

ذلك فانفت نفسه التجارة ولم يفلح فيها . وسمع في اثناء ذلك ان شاه العجم في حاجة الى ضباط حاذقين في تدريب الجند فكتب الى صديقه الكونت دي سيغور المتقدم ذكره يلتمس كتاب توصية منه الى الشاه فنصح له الكونت ان يتوجه الى محمد علي باشا بمصر

(تاريخه واعماله في القطر المصري) فجاء مصر سنة ۱۸۱۹ ومعه كتاب توصية فاحسن محمد علي باشا مقابلته وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فحم الحجر ولكنه لم يعثر على شيء منه فعاد الى القاهرة واتفق وصوله اليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهابية

وكان محمد علي باشا لحسن نظره واهتمامه في تأييد دولته ما زال يفكر في سبيل يوسع به ملكه . وتوسيع الملك لا يكون لا بتعزيز الجند والجند لا يقوم الا بالانتظام وكان قد شاهد الجنود الفرنساوية بمصر واعجبه نظامها وهو النظام الذي وضعه بونابرت وتمكن به من التغلب على معظم دول الارض . وكانت الجنود المصرية الى ذلك العهد لا تزال على النمط القديم لا يعرفون الخطوط ولا المربعات ولا ماشاكل ذلك من النظامات العسكرية بل كانوا عبارة عن فرق او وجاقات وفيهم الارناؤوط والانكشارية والمغاربة ونحوهم ولكل من هذه الفرق قائد فاذا نزلوا ساحة الوغى ركب كل جواده واستل حسامه او بندقيته او رمحه وهجم على ما يتراءى له

فرأى محمد علي باشا رحمه الله ان يجعل جنده نظاميًا ففاوض الكولونيل سيف بالامر فرغبه فيه فعهد اليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية فشق ذلك على جماعة الارناؤوط وغيرهم لان ذلك انتظام في اعتبارهم بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار فلم يقبلوا الاذعان ونفروا وتمردوا وتجمهروا حول القلعة يطلبون لرفق بهم فرأى محمد علي ان يعاملهم بالحسنى فاجاب ملتمسهم واغضى عن تعليمهم ولكنه رأى ان يدخل ذلك النظام بين جماعة الوطنيين لقربهم من الاذعان فانشأ مدرسة حربية في الخانكاه قرب الخرية تعلم فيها الفنون والحركات العسكرية وجعل سراي مراد بك بالجيزة مدرسة للفرسان وانشأ مدسة للطوبجية ثم

انشأ في القاهرة معامل لسكب المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند وعهد بذلك كله الى الكولونيل سيف وكان قد اسلم وسمى نفسه سليمان فصار يعرف باسم سليمان بك الفرنساوي واحبه المصريون وأذعنوا له فنظم جنداً نظامياً بلغ عدده ٢٥,٠٠٠ جندي كانوا له عوناً في حروبه بالمورة والشام وغيرهما

ولما كانت حروب المورة المشهورة منذ سنة ١٨٢١ انفذ الباب العالي الى محمد علي باشا ان يجند جيشاً لمحاربة المورة فارسل عمارة بقيادة ابنه ابراهيم باشا سنة ١٨٢١ وكان سليمان بك من جملة ابطالها وتمكن ببسالته من الاستيلاء على جزيرة ميسولونغي سنة ١٨٢٦ ثم عين حاكماً لبريونتزا فساس امورها . ثم انقضت مشكلة المورة بمداخلة الدول الاوربية فعادت الجنود المصرية وعاد سليمان بك ومعه فتاة يونانية على مثل ما كان يفعل ابطال اليونان القدماء ,

ولكن هذه الحرب اثقلت كاهل الجندية المصرية فاعاد محمد علي اهتمامه في اصلاحها ثم كانت الحوادث التي قضت بتجريد الجنود المصرية على عبد الله باشا والي عكا سنة ١٧٣١ بقيادة المرحوم ابراهيم باشا وفوَّض قيادة الطوبجيـة الى سليمان بك فسارت الحملة الى الشام في حرب عكا ثم فتحتها عنوة فقبض ابراهيم باشا على واليها عبد الله باشا وارسله الى الاسكندرية واوغل في الشام وسليمان بك ساعده الايمن في كل المواقع الكبيرة وكان قدّرًا لستة الاف جندي فانفذ الباب العالي جنداً كبيرا لقهر الجند المصري فوكل ابراهيم باشا مقابلة جانب من هـذا الجند الى سليمان بك وسار هو لمقابلة الباقين فحارب سليمان فرقة كبيرة قرب حمص فتغلب عليها في بيلان ثم في الاسكندرونة ثم في قونية وكانت قد تعززت بنجدات قوية . فاعجب ابراهيم باشا بشجاعة هذا الرجل ومهارته في الحركات العسكرية ورقاه الى رتبة باشا . وكان في عزم المصريين البقاء على الزحف لو لم تتداخـل الدول وتقرر الصلح فعادت الجنود المصرية الى السكينة ولكنها ما لبثت ان عادت الى الحرب لهياج حدث في بيت المقدس فساروا ومعهم سليمان باشا فاخمدوا الفتنة وبعد قليل اصدر محمد علي باشا أمره برجوع سليمان باشا الى مصر ثم عادت الحرب

في سوريا فعاد اليها ابراهيم باشا وما زال يحارب بسيف المصريين حتى اقتضت السياسة الاوربية انسحاب الجنود المصرية من سوريا فرجع سليمان باشا معها الى مصر وتعين رئيساً عاما للجيش المصري وما زال فيها عالي الكلمة مرعي الجانب حتى اراد ابراهيم باشا السفر الى جبال البيروني الاستحمام فانتدب سليمان باشا لمرافقته فرافقه وساعده الحظ ان يرى وطنه رأي العين بعد ان غاب عنه اعواماً طوالاً . ولما شفي ابراهيم باشا من مرضه زار فرنسا ثم لندرا وصاحب الترجمة معه فسرته تلك الرحلة لانه تمكن بها من تفقد الثكنات العسكرية في اكبر عواصم اوربا وملاحظة الحركات الحربية ثم عاد الى باريس وابراهيم باشا لايزال في لندرا وبرح باريس الى البلجيك وهولندا ثم عاد الى ليون مسقط رأسه فاقام فيها مدة بين اهله وذويه ثم رجع الى الاسكندرية فمصر ورفع الى محمد علي باشا تقريرًا بما رآه ولاحظه في اثناء سفره وعاد الى الاهتمام في تدريب الجند وما زال عاملاً مجتهداً حتى توفي ابراهيم باشا فصار الامر الى عباس باشا الاول ثم الى سعيد باشا فتوفي صاحب الترجمة على عهده في ١١ مارس سنة ١٨٦٠

﴿ صفاته واخلاقه ﴾ كان ربعة ممتلىء الجسم قوي العضل شديد التعلق بالجندية وكان عنيداً مع ميل الى خشونة المعيشة العسكرية ومما يروى عنه من هذا القبيل ان عباس باشا الاول رغب اليه مرة ان يخرج بتلامذة الحربية الى النزهة ففعل فلما كان وقت الغذاء ارسل اليه عباس باشا طعاماً شهياً متقناً فرفضه وقال لحامله « سحقاً لهذا الغذاء الا يعلم عباس باشا اننا جنود لا نأكل لا مثل اكل الجنود » واصر على ارجاع الطعام بالرغم عن تقدم نجل عباس باشا اليه في قبوله . وله نوادر كثيرة تدل على صلابة طباعه وخشونته . وقد يتوهم بعضهم ان الخشونة والصلابة لازمتان في قيادة الجند ولكن اللين اولى بها والجند يطيع رئيسه اذا خشن طاعة الخائف واما اذا لان فانه يطيعه طاعة المحب وبينهما فرق واضح. اما سليمان باشا مهما قيل في اخلاقه فانه كان ماهرًا في قيادة الجند وتدريبه وكان طلاباً للعلى فتمكن منه بجده واجتهاده



ش ٤٩ : عمر باشا

ولد سنة ١٨٠٦ وتوفي سنة ١٨٧١

هو نمساوي الاصل وكان ابوه ضابطاً في الجند النمساوي ولد له هذا الغلام في بلاسكي على حدود بوسنه غرباً سنة ١٨٠٦ فسماه ميخائيل وادخله في المدرسة الحربية في يورن قرب كرستات وحب الجندية موروث فيه . فلم تمض مدة حتى تعين في احدى فرق الجند النمساوي وارتقى الى درجة معاون في مساحة الطرق والجسور . وفي الثامنة والعشرين من عمره نزح من وطنه وترك منصبه فيه وجاء بوسنه العثمانية فاعتنق الدين الاسلامي لسبب لا نعلمه وسمى نفسه عمر وتولى تعليم ابناء بعض تجار الاتراك هناك . ثم زار الاستانة ومعه تلامذته ففتح له باب التدريس في مدرسة للعسكرية أنشأتها الدولة هناك وكان ناظر الجهادية يومئذ خسرو باشا فانس فيذلك الشاب اقتدارًا عسكرياً فاضافه الى اركان حربه وجعله تحت عنايته وقدمه في مصالح الدولة فادى خدمات حسنة في امارات الدانوب ثم سعى له في وظيفة تعليم في البلاط السلطاني فتعين مدرساً للسلطان عبد المجيد قبل توليه السلطنة . وفي سنة ١٨٣٩ كان عمر باشا في جملة ضباط الحملة التي انفذتها

الدولة لمحاربة ابراهيم باشا المصري في الشام و بعد ثلاث سنوات تعين قومندانا عسكرياً في احدى ولايات سوريا

وفي سنة ١٨٤٨ ارسلت روسيا جنداً لاخماد ثورة المجريين فدخل جندها بلاد الفلاخ فتعين عمر باشا قائدًا لجند عثماني أقام هناك للمراقبة . ثم انتدبه الباب العالي لاقماع بعض ولاة البوسنة فاقمعهم وعادوا الى كنف الدولة . وفي سنة ١٨٥٣ سار في عشرين الف جندي لمحاربة رجال الجبل الاسود وارجاعهم الى الطاعة ففاز بذلك فوزًا عظيماً فانتدبه الباب العالي لقيادة الجند العامة في البلغار وكان على ضفة الدانوب الاخرى جند الروس بقيادة البرنس غورتشاكوف السهير . وحدث بين الجندين والقائدين حركات عسكرية ومناورات دلت على مهارة عمر باشا في الجندية حتى بهر البرنس المشار اليه . على انه ما زال يحاربهم والاصر رفيقه في اكثر المواقع حتى اضطروا الى الانسحاب عن ضفاف الدانوب . وتعين سنة ١٨٥٥ في حرب القرم المشهورة فغلب الروسيين في بوباتوريا غلباً صريحاً فانتدبته الدولة لانقاذ القرس ولكنها سلمت قبل وصوله

و بعد الفراغ من الحروب تعين والياً في بغداد ولكنه ساء الحكومة وأغضب الباب العالي فنفي ثم أعيد في السنة التالية وفي سنة ١٨٦١ انتدبه الباب العالي لاخماد ثورة البوسنة والهرسك ففعل وهاجم الجبل الاسود وافتتح اعظم مدنه وفي سنة ١٨٦٩ تقاعد عن الاعمال العسكرية وقد نال رتبة لوزارة وصار من مشيري الدولة حتى توفي سنة ١٨٧١ وقد نال اعظم الرتب العسكرية العثمانية ونال من روسيا رتبة فارس من صنف القديسة حنه وكانت له منزلة رفيعة لدى رجال الحرب ولكنه كان شديد البطش صعب المراس وذلك شأن رجل العسكرية على الاكثر



ش ٥٠ عبد القادر الجزائري (١)

ولد سنة ١٨٠٧ وتوفي سنة ١٨٨٨

هو الامير عبد القادر ناصر الدين ابن الامير محيي الدين الحسيني يتصل نسبه بالامام الحسين ولد في شهر مايو (ايار) عام ١٨٠٧ في قرية القيطنة التابعة لايالة وهران في جزائر الغرب وكان والده من اكابر العلماء العاملين محترماً لدى اعيان الجزائر لبسط يده وكرم اخلاقه ودعته

وقد بذل قصارى جهده في تثقيفه لما آنس فيه من الذكاء والدراية حتى انه تمكن بمدة قصيرة من اكتساب جانب عظيم من العلم وحفظ القرآن الشريف حفظاً جيداً . واشتهر في السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية حتى كان يشار اليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها وكان يطارد الخنزير البري في الغابات ويصطاده . على ان ذلك لم يشغله عن القيام بواجباته الدينية

(١) ماخصة من تاريخ سوريا سنة ١٨٦٠ لنعمان افندي قساطلي (لم يطبع)

وفي نوفمبر سنة ١٨٢٥ صحب والده الى الحرمين لاداء فريضة الحج فمرا بحاشيتهما بالاسكندرية وزارا القاهرة وفيها المغفور له محمد علي باشا فاكرمهما. ومن القاهرة قصدا الحجاز عن طريق السويس وعرجا بعد الحج نحو دمشق قضيا فيها زمناً وسارا منها الى بغداد لزيارة مقام سيدي عبد القادر الكيلاني فنالا كل رعاية واكرام . ثم عادا من هناك الى الحرمين ثانية ومنها الى وطنهما فوصلاه في اوائل عام ١٨٢٨

ولم يزدد عبد القادر بعد هذا السفر الا شغفاً في العلم فاعتزل لتحصيله ولازم الخلوة يطالع كتب العلم والفلسفة فدرس رسائل افلاطون وفيثاغورس وارسطاليس وتعمق في درس الفقه والحديث والجغرافية والفلك والتاريخ وكتب العقاقير وجمع مكتبة من اثمن مكاتب تلك الايام

وفي عام ١٨٣٠ استولى الفرنساويون على الجزائر ونشروا المنشورات الرسمية بامتلاك البلاد واستخراجها من ايدي العثمانيين فشق ذلك على القبائل العربية القاطنة في تلك الانحاء وانتقضوا على الفرنساويين . وكان الفرنساويون تحت قيادة الجنرال برمونت وقد بلغوا جبل الاطلس فاضطروا للتقهقر الى الشطوط وأخذوا في تحصينها ثم عادوا فاستولوا على مدينة وهران

وتسبب عن تداخل الفرنساويين وخروج جانب من تلك البلاد من حوزة الدولة العلية اختلال الاحوال فسادت الفوضى واجتمع المرابطون ورؤساء القبائل وفي جملتهم الامير محيي الدين والد صاحب الترجمة وتشاوروا في الامر فقر رأيهم على الانضمام الى سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن فبعثوا اليه بذلك فوافقهم فدخلت الجزائر في سلطانه وخطب الجزائريون له وبايعوه فغضب الفرنساويون وبعثوا الى مولاي عبد الرحمن يهددونه بالحرب او يسحب جنوده من الجزائر ففضل الانسحاب فاجتمع كبار اهل الجزائر وتداولوا في امرهم فقر رأيهم على ان يقيموا عليهم الامير محيي الدين سلطاناً يرجعون اليه فذهبوا الى القيطنه (بلدته) وطلبوا اليه قبول اقتراحهم وأرادوا مبايعته فامسك عن الاجابة فاصروا عليه وهددوه

بالقتل اذا تمنع فاجابهم على ان تكون تلك السلطة لولده عبد القادر فقبلوا وكان عبد القادر يحارب الفرنساويين في مكان يقال له حصن فيليب فبعثوا اليه و بايعوه وسنه اذ ذاك ٢٥ سنة فذهب الى الجامع وصلى وحثّ الناس على الطاعة والسير بمقتضى الشرع الشريف والاقتداء بالخلفاء الراشدين . واول شيء باشره جمع كلمة القبائل وضمها بعضها الى بعض حتى يقووا على مقاومة العدو الاجنبي واخراجه من بلادهم . وحارب بهم عدة مواقع فاز في بعضها ولا سيا في موقعة وهران فانه انتصر فيها انتصاراً مبيناً وكانت الجنود الفرنساوية تحت قيادة الجنرال ميشيل فصار يهابه الفرنساويون ويخشون بطشه

وكانت فرنسا على رغبتها في التفرد بسلطتها في الجزائر لا تحب المخاطرة بحملة كبيرة من جندها تقهر عبد القادر فاوعزت الى الجنرال ميشيل ان يعقد معه معاهدة صلح فخابره بذلك وتمت المعاهدة سنة ١٨٣٤

ولما هدأت الاحوال تفرغ عبد القادر لاصلاح شؤون داخلية بلاده واعداد المعدّات الحربية لاعتقاده ان الحرب لا بدّ من العود اليها فانشأ معامل لعمل الاسلحة وصب المدافع واصطناع البارود ونظم الجند . فاضطر من اجل كل ذلك للنفقات الطائلة فطالب القبائل بالزكاة عن المواشي فانتقض عليه بعضهم ولكنه تمكن بحسن درايته من اخضاعهم ولم شعثهم فاتسعت سلطته وامتدّ نفوذه فشق ذلك على الجنرال دي اورلين القائد الفرنساوي اذ ذاك فبعث اليه ان يلازم حدوده ولا يمد يده الى خارج وهران فاجابه ان دائرة سلطانه غير محدودة بمقتضى المعاهدة المار ذكرها . فدارت المداولة بين الفريقين بالمسالمة ولكن مطالب عبد القادر لم تحز قبولاً لدى الفرنساويين فاضمر لهم الشر وأمر بعض القبائل المقيمة بجوار وهران ان تنزح الى داخل البلاد فخاف هؤلاء بطش الفرنساوية وطلبوا حمايتهم فطلب الامير الى الفرنساويين ان لا يحموهم فاستاؤا واشهروا عليه القتال وساروا في خمسة آلاف ماش وعدة من الفرسان و بعض المدافع ولكنهم رأوا من رجاله ما اضطرهم الى الانسحاب حالا فعلم الامير بجهة انسحابهم فسار لملاقاتهم في مضيق

وهم لا يعلمون فلما بلغوا المضيق هجم عليهم برجاله فأبلوا فيهم ولم يبقوا الا على نفر منهم

وكان لهذه الغلبة رنة في باريس وقام الخطباء يحثون الحكومة على ارسال القوات اللازمة لقتال ذلك الامير البدوي وقهره وكان عبد القادر يعرف كل ما يدور في باريس من هذا القبيل لانه كان يطلع على الجرائد الفرنساوية بواسطة تراجمة يحسنون فهمها فكان على بينة من مقاصد عدوّه

وفي نوفمبر سنة ١٨٣٥ قدمت الجنود الفرنساوية الى وهران لمحاربته فقاتلهم ولكنه لم يفز فتفرق رجاله فعاد الى عاصمته (مسكرا) ونزل في بلد على مقربة منها وهو في حالة اليأس الشديد خوفاً من نهوض الفرنساويين عليه وكانوا معسكرين في مسكرا فاصبح يوماً وقد اخلوها لغير سبب يعلمه فعاد هو اليها ونزلها فعاد اليه رجاله واشتد ازره واخذ في مقاصة الذين عصوه

اما الفرنسان فاحتلوا تلمسان فلاقاهم اهلها بالترحاب ولكنهم ضربوا على يهودها ضريبة كبيرة اعتذروا عن دفعها فاجبروهم فندم هؤلاء على التسليم وصاروا يودون العود الى عبد القادر وكان ذلك مما شدد عزم الامير فجاء وطارد الفرنساويين واخرجهم من تلمسان

فغضب الفرنساويون في باريس فبعثوا بالنجدات القوية فحاربها عبد القادر مراراً ولكنه انكسر في واقعة منها انكساراً رديئاً انتقض من أجله العرب عليه وفي جملة المنتقضين قاض يقال له سيدي ابراهيم كان في نيته خلع عبد القادر والاستيلاء مكانه فحمي غضب الامير لتلك الخيانة فجرد سيفه وعلقه بسرج جواده وركب واقسم انه لا يغمد ذلك السيف حتى يقطع رأس ذلك الخائن . فلما بلغ منزله أمر باحضاره فاحضروه وهو يرتعش فضربه ضربة قطعت رأسه فكان لذلك وقع عظيم في قلوب رجال عبد القادر فاجتمعوا اليه واستهانوا الموت في سبيله فحمل بهم على مواقع الفرنساويين وضايقهم مضايقة عظيمة حتى قلّت المؤن لديهم وقلّت الذخائر لديه

فدارت المخابرة بين الفريقين في ان يتبادلوا التجارة فيبتاع كل من الفريقين

ما يحتاج اليه وتم الاتفاق على ذلك وهدأت الاحوال

وبعد ذلك بيسير قدم الجنرال بوجيد من جانب حكومة فرنسا الى وهران يستحث الجند الفرنساوي على القتال حتى يبيد الامير ورجاله او يقبل بهذه الشروط وهي :

(١) اعتراف عبد القادر بسيادة فرنسا

(٢) تحديد مملكته الى نهر الخليف

(٣) اداؤه الجزية لفرنسا

فعظمت هذه المطالب على عبد القادر واجاب انه لا يحق لفرنسا ان تشترط هذه الشروط وهي ليست المنتصرة في مواقع الحرب معه وهددها . فشق ذلك على الفرنساويين ولكنهم فضلوا الصلح على الحرب لعلمهم ان عدوّهم عنيد باسل

وبعد المخابرات والاخذ والرد رأى بوجيد ان الحرب اولى له لانه لم يستطع التوصل الى وفاق موافق لدولته فعرض عساكره فذا هم لا يستطيعون مناواة عدوهم فاستأنف المخابرة بشأن الصلح وطال الجدال بشأنه حتى تم القرار عليه في ٢٠ ايار سنة ١٨٣٧ فعقدت المعاهدة المعروفة بمعاهدة التافنا وفي جملة بنودها ان لا يسلم الامير شيئاً من شواطىء بلاده لدولة اجنبية الا بعد مشورة فرنسا وان يكون لكل من الامير وفرنسا قناصل في بلاد الآخر

ولما ارتاح الامير من قبيل المعاهدة وجه انتباهه الى اصلاح الداخلية وتنظيم مملكته والاستعداد للحرب لانه علم لحسن فراسته ان الحرب لا بد من استئنافها فعصاه بعض القبائل فاخضعهم بالسيف وحسن الدراية وكان الفرنساويون ينصرونه عند الحاجة . وفي جملة القبائل التي اقلقت راحته بعصيانها قبيلة ارارق ولكنه ما انفك حتى اذلها وادخلها تحت لوائه

ثم ابتنى مدينة دعاها تقدمة وجعلها مركزًا تجارياً وأنشأ كثيرًا من المعاقل ونظم جيشاً على النمط الافرنجي الحديث تحت قيادة قواد اوربيين وانشأ معامل للمدافع والاسلحة في تلمسان وغيرها واستخرج المعادن ونشط الصناعة والزراعة

والتجارة واخذ بناصر العلم فافتتح المدارس حتى في الاحياء الصغيرة وكان في عزمه انشاء مدرسة جامعة في تقدمة تجمع بين العلوم الدينية الاسلامية والعلوم الحديثة . وضرب نقوداً فضية ونحاسية نقش على احد وجهيها « هـذه مشيئة الله وعليه توكلت » وعلى الوجه الاخر « ضرب في تقدمة السلطان عبد القادر » وكان شديد السهر والتيقظ على مصالح بلاده حتى كان يتفقدها بنفسه

ولكن الاقدار لم تسمح باستمرار الامن لان الفرنساويين بعد ان استولوا على قسطنطينة أرادوا مد سلطتهم على البلاد الواقعة بجوارها وكانت في حوزة الامير فعارضهم بدعوى ان معاهدة التافنا تقضي له بها فاصرّوا على عزمهم وانكروا عليه الامر بتحريف كلمة من كلمات المعاهدة فاستأنف امره الى باريس فلم تنصفه الحكومة الفرنساوية فاخذ على نفسه الدفاع بالقوة وحصّن الاماكن التي عليها الخلاف وبعث الى قائد الحملة الفرنساوية والى المسيو تيرس وزير فرنسا الشهير اذ ذاك ينذرهم بان الاصرار على طلبهم لا يفيدهم الا سفك الدماء فلم يعبأوا بتهديده ولكنهم قوّوا جندهم واخذوا يتظاهرون بالتأهب للحرب ظنّاً منهم انه يخاف عددهم وعددهم فيذعن بدون حرب وكان الامر بالعكس فانه ثبت على عزمه حتى انتشبت الحرب وتقهقر الفرنساويون الى الشطوط

فعظم الامر على الحكومة الفرنساوية وبعثت بالنجدات القوية فاشتد ازر الفرنساويين وقاتلوا الامير بجوار جبال الاطلس وتغلبوا عليه وكان جنده على النظام الافرنجي فعدل عنه الى النظام القديم فقوي على اعدائه وأعادهم على أعقابهم وكان يفوز عليهم في كل موقعة ودامت تلك الوقائع ست سنوات . فتعبت فرنسا منه وهو لم يتعب فأبدلت قائد الحملة وبعثت القائد القديم الجنرال بوجيد ومعه الجيوش المجيشة ولكنه لم يثبت امام ذلك البطل المغوار

ولما رأى الامير ان البلاد اصبحت برمتها ميداناً للحرب ابتنى مدينة نقالة دعاها الزملة يلجأ اليها المنهزمون بنسائهم واولادهم ويقيم فيها الصناع والعمال والخفر فحيثما انتقل الجند انتقلت تلك المدينة معهم وهي مؤلفة من خيم جعلها على نظام المدن

فاذا نقلت من مكان الى آخر يعرف كل واحد خيمته . وامر رجاله ان لا يقتلوا أسيراً وأجاز من يأتي بالاسير حيًّا . وعلم الفرنساويون بالزملة وبما لهـا من المنفعة للامير ورجاله فاهتدوا اليها بخيانة بعضهم وهاجموها فاحرقوا وقتلوا ونهبوا ولم يبقوا عليها وكانوا قبل ذلك بقليل قد احرقوا تقدمة المدينة التي ابتناها الامير لنفسه

وكان الامير في احراج سيرسو فبلغه خبر حريق الزملة وتقدمة فتكدّر كدراً لا مزيد عليه لعلمه ان ذلك يقلل من نفوذه و يقود رجاله الى الفشل ولكنه اظهر الجلد وقال لمن حوله « لا تخافوا ولا تحزنوا لان اخواننا الذين قتلوا قد مضوا الى النعيم » ثم نهض وجدد قوّته والف زملة جديدة واستنجد حكومة انكلترا فلم تنجده ثم استنصر سلطان مراكش فلم ينصره فاضطر لان يقوم باعماله بنفسه وهو ثابت العزم لا يثنيه شيء ولا يخيفه أمر

ولكن فرنسا انجدت جندها واغرت سلطان مراكش على معاضدتها فاشتد الامر على الامير ووقع في وهدة اليأس حتى حدثته نفسه بنشر راية الجهاد والمسير برجاله الى مكة المكرمة تاركاً البلاد خراباً لمحتليها وفيما هو يفكر في ذلك جاءته نجدات عديدة من بعض القبائل فاشتد عزمه وعاد الى الحرب حتى اصبحت الجزائر بجملتها ميداناً للقتال وما زالت الحال كذلك الى نهاية سنة ١٨٤٦ فملّ العربان وانحاز جانب منهم الى سلطان مراكش فاغتنم الفرنساويون تلك الفرصة واثاروا المراكشيين وأنهضوهم على الامير وقتاله فبعثوا اليه جيوشاً حاربته في اماكن مختلفة وكان الامير يقاتل بالامر الممكن لا تثنيه كثرة اعدائه ولا شدتهم ولكنه استاء من خيانة سلطان مراكش فبعث اليه يذكره بالصداقة القديمة فاجابه أما ان يسلم نفسه او ان يرحل الى براري الجزائر فكظم الامير على نفسه وفضل الاعتزال عن الناس على التسليم فاقام على الصلاة وتلاوة القرآن الشريف

وفي اواخر سنة ١٨٤٧ علم بقدوم المراكشيين لغزو زملته ولم يكن فيها اكثر من خمسة آلاف والمراكشيون يزيدون على الخمسين الفاً فخاف الامير على رجاله وان يكن لم يعرف الخوف قبلاً . فمادت اليه نخوته فهجم ليلاً بذلك الجيش القليل

وفرق شمل المراكشيين ثم عادوا فاجتمعوا ثانية وهاجموه فطاردهم وظهر عليهم ولكنه خسر جانباً من رجاله فرأى الانسحاب افضل له فرجع الى الجزائر فوصل مكاناً علم بعد وصوله اليه ان الجيش الفرنساوي على مسافة ثلاث ساعات منه ورأى ان جيشه قد انهكه السفر والحرب فخشي ان يقع هو وزملته في يد الفرنساوية لانه لا يستطيع الرجوع والمراكشيون من ورائه يطاردونه — ولكنه عاد فرأى ان يبذل قصارى جهده فجمع اليه رجاله وخطب فيهم مفصحاً عما هم فيه من الضيق وقال « اراكم قد وفيتم بما بايعتموني عليه و بذلتم جهدكم في معاضدتي . واما الحالة الراهنة فتقضي علينا بالتسليم للعدو وعندي ان التسليم للفرنساوية خير من التسليم للمراكشيين فما رأيكم ؟ »

فاجابوه انهم على رأيه فنظر اليهم فاذا هم عدة من احسن الرجال واشدهم وقد رافقوه في حروبه خمس عشرة سنة فشق عليه ان ينتهي جهاده هذا بالتسليم للعدو ولكنه اذعن لحكم الضرورة قسراً وهو غير خائب لانه جاهد الجهاد الحسن مدة ١٥ سنة حتى نفدت الحيلة

وأراد ليلة ٢١ دسمبر سنة ١٨٤٧ كتابة شروط التسليم فلم يستطع لتساقط الامطار وهبوب العواصف فبعث اثنين من خاصته دفع اليهما ختمه شاهداً على صدق نيابتهما عنه امام قائد المعسكر الفرنساوي الجنرال لامور يسير فذهبا وعرضا الشروط ومن مقتضاها ان يبارح الامير بلاده ويسكن في لاسكندرية بمن معه من الرجال والنساء والاولاد او في مدينة بورصة . فقبل الجنرال الشروط بدون تردد وسرَّ لانتهاء متاعب فرنسا في حروب هذا لامير واخبر فرنسا بذلك فابتهجت باريس . وهكذا سلم الامير ولكنهم احتفلوا به عند قدومه المعسكر احتفالاً عظيماً

وفي ٢٥ منه سافر الامير بمن اراد مرافقته من رجاله وعددهم ثمانون على دارعة الى طولون فقوبلوا بالترحب ثم طلبوا اليه التنازل عن اشتراطه السكنى في الاسكندرية اوغيرها من المدن العثمانية وان يقيم في فرنسا بكل احترام و بكل ما

يحتاج اليه من النفقات فابى ثم انقلبت حكومة فرنسا من الملكية الى الجمهورية و بعد اخذ ورد اجابوه الى مـا اراد ولكنهم اشترطوا عليه ان يتعهد بعدم الذهاب الى الجزائر فتعهد بذلك كتابة هو ورجاله في اذار (مارس) سنة ١٨٤٨ وبات ينتظر الامر بالذهاب . فورد عليه الجواب على غير المراد ومفاده ان الجمهورية تعتبره اسيراً كما تركته الحكومة السالفة وزجوه في السجن مع رجاله . فتكدر الامير كدرًا لا مزيد عليه ولكنه كان يتأسى في سجنه بالكتابة والتأليف ورأى رجاله يتذمرون من الاسر فالح عليهم ان يتركوه ويذهبوا لانهم غير مكلفين باحتمال الاسر من اجله فابوا الا مرافقته في السراء والضراء وبقوا في ذلك الاسر الى اكتوبر سنة١٨٥٢

فقدر الله ان البرنس نابوليون كان متجولاً في انحاء المملكة فمر باميس حيث كان الامير مأسورًا فزاره ووعده بالانقاذ وبعد بضعة ايام اطلق سراحـه ودعاه لزيارته في باريس فقوبل فيها بالتجلة والاكرام والباريسيون مطلون من الشبابيك والكوى لمشاهدة الامير البدوي الذي شغل دولة فرنسا ١٥ سنة بالحروب . ثم دعي لزيارة البرنس نابوليون في قصره فسار مع اربعة من اخصائه وكانت الحفلة حافلة فتكلم الامير معتذرًا عن عدم معرفته العادات الجارية في فرنسا وطلب الاغضاء عما ربما يأتيه مما يخالف ذلك وتعهد له بعدم الرجوع الى الجزائر فشكره البرنس وبعد الغداء طاف به في القصر واهداه جواداً عربياً وبالاختصار ان احتفال البرنس نابوليون بالامير عبد القادر كان عظيماً جدًّا وبعد مضي شهر في باريس اتفق اجماع الفرنساوية على ارجاع الامبراطورية فكان الامير في جملة المنتخبين ووقع الانتخاب على البرنس نابوليون ولما تنصب زاره وهناه فلاقى منه كل رعاية واعطاه سيفاً مكتوباً عليه « من الامبراطور نابوليون الثالث الى الامير عبد القادر ابن محيي الدين » . وفي ٢١ دسمبر سنة ١٨٥١ برح الامير فرنسا فوصل الاستانة فاحتفل به سفير فرنسا هناك احتفالاً شائقاً وبعد ايام سار الى بورصة على نية الاقامة فيها وله نفقات معينة من فرنسا تبلغ اربعة الاف جنيه سنويا تنفق عليه وعلى رجاله ولم يطب له المقام هناك فاستأذن بالعود الى فرنسا فعاد ومكث فيها مدة ثم عاد الى

بورصة قضى فيها بضعة اسابيع ريثما اعد نفسه ورجاله ومتاعه وبرحها الى بيروت فوصلها في ٢٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٥٦ ومنها الى دمشق فخرج للقائه جماهير كبيرة بالاحتفاء اللائق رجالاً ونساء حتى وصل المحل المعد لاقامته ثم اتخذ مسكناً له في محل يقال له العمارة في دمشق وقام فيه وقد طابت له المعيشة في تلك المدينة الفيحاء الى آخر ايامه لما لاقى من لطف اهلها وانسهم وكان يقضي معظم وقته في المطالعة والصلاة والتأليف لا يخلو مجلسه من العلماء والفضلاء

وفي سنة ١٨٦٠ كانت الثورة المشهورة في دمشق وهي المذبحة التي ذبح فيها المسيحيون وكان الامير من اكبر المعارضين لاجرائها . ولما نفدت حيلته في منعها اصر على بذل قصارى جهده في كف الاذى عن المسيحيين

فلما علم يوم الاثنين في ٩ يوليو (تموز) سنة ١٨٦٠ بابتداء المذبحة تكدر جداً وبعث حالاً الى كل مغربي في دمشق وفرقهم في احياء المدينة لانقاذ من يستطيعون انقاذه من المسيحيين فكانوا يهجمون كالاسود بقلوب لا تهاب الموت ورؤوس قد ثارت فيها الحمية والمروءة فيأتون بمن يستطيعون انقاذه رجالاً ونساء واولاداً الى دار الامير ولما علم النصارى بما عزم عليه الامير كانوا يفرون اليه من تلقاء انفسهم ويقيمون في بيته حتى غصت داره فاخذ البيوت المجاورة له واخلاها واقام فيها اللائذين به وفي جملتهم قناصل الدول وغيرهم وكان ينفق عليهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام وغيره وممن عاضده في هذا العمل الخيري العالمان الشريفان محمود افندي حمزه وأخوه اسعد افندي رحمهم الله أجمعين

في ثالث يوم من المذبحة هجم الاكراد الثائرون على بيت الامير للقبض على النصارى فدافعهم الامير ورجاله والشريفان بكل ما في وسعهم فعاد الاكراد خاسرين . ثم ان والي دمشق اذ ذاك وعد النصارى اذا سلموا ودخلوا القلعة انهم يكونون فيها آمنين من القتل فاجتمع فيها نحو من خمسة الاف وكانه اراد بهم الغدر بعد ذلك بجماعة من الدروز كانوا قادمين للنهب فخرج اليهم الامير ورجاله وهددهم بالرصاص فخافوا وكروا على اعقابهم . وبقيت الثورة سبعة ايام متوالية لم

يفتر فيها الامير لحظة عن نصرة المظلومين وانقاذهم من القتل وتطبيب الجرحى وتعزية الثكالى والارامل واليتامى

وكان يقضي اكثر الليالي ساهرًا والبندقية في يده حرصاً على من هم في حماه فاذا غلب عليه النعاس اسند رأسه الى فمها قليلا . وفي ١٥ توليو سنة ١٨٦٠ جاء دمشق وال جديد وعزل القديم وأخذت الاحوال في الهدوء وقد كان في حمى الامير من النصارى يوم جاء ذلك الوالي نحو اربعة الاف نفس وفي القلعة نحو ستة آلاف وبعد يسير جاء فؤاد باشا لتحري المسألة ومقاصة المعتدين وهكذا انتهت المذبحة

اما النصارى فهم كافة مدينون لفضل هذا الرجل العظيم لانه جاء عملاً برهن على عظم نفسه ومروءته وشهامته وقد نال جزاءه من الدول الاوربية فبعثت اليه بوسامات الشرف ورسائل الثناء وخصوصاً الدولة العلية ايدها الله

ولما هدأت الاحوال عاد الى السكينة وعكف على المطالعة والصلاة والتدريس

وفي سنة ١٨٦٣ استأذن الامبراطور في الذهاب الى الحج فاذن له فزار الحرمين وقضى فروض الحج كما يجب وزار الطائف والمدينة المنورة وكان حيثما حل يلاقي كل رعاية واكرام وفي اثناء عوده من الحجاز سنة ١٨٦٤ مرّ بالاسكندرية وانتظم في سلك الجمعية الماسونية في ١٨ يونيو (حزيران من تلك السنة . وبعد أيام عاد الى دمشق وعكف على ما اعتاده من التدين والصلاة واشتهر بالتقوى حتى كان الصوفيون يعتبرونه مكاشفاً وينزلونه منزلة سيدي محيي الدين ابن العربي والشيخ عبد الغني النابلسي وكان له في قلوب اعيان دمشق منزلة رفيعة جدًّا . وقد كتب كتباً في التصوف والتوحيد ولم يترك ملابسه العربية مطلقاً . ونظراً لمحافظته على عهوده مع نابوليون كان يدعوه صديقه الباسل

وكانت معيشته في بيته في غاية البساطة مع الترتيب وما زال معظماً مكرماً محترماً لدى كل من عرفه حتى توفاه الله سنة ١٨٨٨ في منزله بدمشق فاسف الناس عليه واستعظموا المصاب فيه وأبنه الكتاب والعلماء ورثته الجرائد في سائر الاقطار رحمه الله



ش ٥١ : عثمان باشا الغازي

ولد سنة ١٨٣٢ وتوفي سنة ١٩٠٠

هو عثمان نوري باشا القائد العثماني الشهير . ولد في طوقات احدى مدن سيواس في شمالي اسيا الصغرى . قدم لاستانة صغيراً وكان شقيقه حسين افندي استاذ اللغة العربية في المدرسة الاعدادية هناك فادخله في تلك المدرسة فتلقى فيها مبادىء العلم ثم انتظم في سلك المدرسة الحربية فنبغ بين رفقائه وخرج منها سنة ١٨٥٣ ضابطاً ملازماً في فرقة الفرسان (سواري)

ولما انتشبت حرب القرم ألحق باركان حرب عمر باشا القائد الشهير وشهد مواقع كثيرة اظهر فيها بسالة استلفتت انتباه روسائه فلما عاد من الحرب ترقى الى رتبة يوزباشي في الحرس الشاهاني بالاستانة

وكان عثمان باشا في جملة رجال العسكرية الذين توسطوا في اصلاح شؤون

الحوادث السورية عام ١٨٦٠ وهو في رتبة بكباشي . واشتغل سنة ١٨٦٦ في اخماد ثورة ظهرت في كريد فارتقى على اثر ذلك الى رتبة قائمقام . وعاد الى الاستانة فارتقى هناك الى رتبة اميرالاي . وترى مما تقدم انه انما كان يرتقي على اثر اعمال تؤهله للارتقاء

وفي سنة ١٨٧٤ أحرز رتبة لواء وفي السنة التالية صار فريقاً وتولى قيادة الفليق الخامس وخرج لمحاربة الصرب ففاز في كل المواقع وعاد وقد حمل الصربيين على التماس الصلح كما سيأتي فصدرت الارادة السنية بترقيته الى رتبة المشيرية مكافأة له

وفي سنة ١٨٧٧ انتشبت الحرب الشهيرة بين الدولة العلية والروس فتولى قيادة ٦٨ طابوراً و١٧ كوكبة و١٧٤ مدفعاً وحارب جند الروس في مواقع كثيرة . وفي هذه الحرب نال هذا القائد شهرته الكبرى

﴿ حرب الروس ﴾ وسبب هذه الحرب ان البوسنه والهرسك في غربي بلاد الروملي تمردتا على الدولة العلية سنة ١٨٧٥ وامتنع اهلهما عن دفع الرسوم الاميرية وربما كان سبب ذلك متصلا بمطامع النمسا فيهما وتفاقم امر هذه الثورة حتى خيف منها على السلم العام . فاجتمع قناصل الدول العظمى في مستار بالهركس في سبتمبر سنة ١٨٧٥ وأقروا على تسوية تقضي على الباب العلي ببعض الاصلاح وعلى الثائرين بالامتثال فلم يجد سعيهم نفعاً . فانفذت الدولة العلية جندها لاخماد الثورة بالسيف . فجرت مواقع كثيرة سفكت بها دماء غزيرة ولكنها لم تقرر النصر لاحد الفريقين

وتوقفت الحكومة العثمانية في اكتوبر من تلك السنة عن دفع فائدة الدين العمومي واصدر الباب العالي بلاغاً الى الدول يعدهن فيه بدفع نصف المطلوب معجلاً واتخذ الاحتياطات اللازمة لدفع النصف الآخر ولكنه لم ينجز الوعد . فوضع الكونت اندراسي رئيس وزارة النمسا لائحة طلب بها من الدولة العلية مطاليب اصلاحية صادقت عليها روسيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وانكلترا ورفعوها الى الباب

العالي في ٢١ يناير سنة ١٨٧٦ فوعــد باجراء ذلك . ولكن البوسنة والهرسك لم تقبلا لان الدول لم تشركهما في كيفية التسوية . وفي مارس من تلك السنة عادت الحرب الى ما كانت عليه

ووقع في ٦ مارس المذكور خصام بين المسيحيين والمسلمين في سالونيك قتل فيه قنصلا فرنسا والمانيا فاحتجَّ سفيرا هاتين الدولتين في الاستانة على الحكومة العثمانية فامر الباب العالي بقتل الجانين وعوض على عائلتي القتيلين ووعد بتجنب مثل هذه الحوادث في المستقبل

ولكن ذلك لم يمنع مطالبة الدول باجراء الاصلاح فاجتمع البرنس غورتشاكوف وزير روسيا والبرنس بسمارك وزير المانيا والكونت اندراسي وزير النمسا في منزل البرنس بسمارك في برلين في ١١ مايو عام ١٨٧٦ واتفقوا على مذكرة وضعها غورتشاكوف يطلب فيها انفاذ لائحة اندراسي . فأبت انكلترا المصادقة على هذا الطلب لانه يقضي باتحاد الدول الست على استخدام السلاح اذا لم يتم ما طلبوه . وزد على ذلك ان البوسنة والهرسك لم تقبلا بتلك المذكرة فالغيت

وفي اثناء ذلك الشهر نزل المغفور له السلطان عبد العزيز عن العرش العثماني وحصل ما حصل من الاضطراب على اثر خلعه تولى السلطان عبد الحميد

وكانت امارة الصرب منذ ثورة البوسنة والهرسك واقفة وقوف المتحفز للقتال وكذلك الجبل الاسود فانه انتصر للهرسك . فاصبح الباب العالي في حرب مع البوسنة والهرسك والصرب والجبل الاسود بدأت في يوليو عام ١٨٧٦ وقتل فيها كثيرون حتى جرت الدماء سيولاً . وكانت الجنود العثمانية تحارب الصرب بقيادة عثمان باشا صاحب الترجمة ودرويش باشا وحافظ باشا وسليمان باشا وعبد الكريم باشا وغيرهم . وكان الفوز نصيبهم في معظم المواقع اما في الجبل الاسود والهرسك فكان الجند العثماني قيادة مختار باشا وسليم باشا والبلاد هناك اكثر وعورة فقاسوا فيها عذاباً شديدًا . وأخيراً تضايق الصربيون فالتمسوا الصلح في سبتمبر عام ١٨٧٦

وكانت الثورة قد ظهرت في بلغاريا من مايو السابق فارسل الباب العالي بعض

الشراكسة والباشبوزق لاخمادها فارتكبوا في اثناء ذلك فظائع تقشعر من ذكرها الابدان دوى صداها في سماء اوربا فقام شعب الانكليز قومة واحدة يطلبون توسط دولتهم في هذه الشؤون . فتوسطت والتمست من الباب العالي تحري تلك الفعال ومعاقبة الجانين فوعد ولكنه ابطأ في الانجاز وأصدر منشوراً يقول فيه انه سيوقف دفع الدين ريثما تخمد الثورات القائمة في ولاياته . وكان لانكلترا اكبر حصة في هذا الدين فآل ذلك الى فتور بينها و بين الدولة العلية

وعرضت الدول من الجهة الاخرى شروطاً للصلح بين الدولة العلية ومحاربيها طال امد المخابرة بشأنها وأخيراً رفضها الباب العالي فاعتبر الروس رفضها مهيناً لهم لعلاقاتهم الجنسية والدينية بالصرب . فنشأت الضغائن بين الدولتين . وتداولت الدول بشأن الاصلاح فاقترحت روسيا ان تتوسط الدول جميعاً يداً واحدة في شؤون تركيا فرفضت فرنسا وانكلترا والنمسا هذا الاقتراح . فصرحت روسيا بعيلها الى مساعدة الصرب وهو اول ما ظهر من رغبتها في الحرب فطلب الباب العالي هدنة ستة اشهر فلم تسمح روسيا الا بستة أسابيع واذاعت ذلك بمنشور على الدول العظمى قالت فيه انها اذا لم ينفَّذ طلبها هذا حملت على تركيا واكتسحتها . فاهتزت اوربا لذلك التهديدوأخذت كل دولة تتحفز وتتأهب وخصوصاً انكلترا فانها أستاءت من الروس لانهم لم يساعدوها على طلب التعويض عن فظائع بلغاريا

اما روسيا فعبأت الجند في بندار وتفليس وقد عولت على محاربة الدولة العلية في اوربا واسيا معا والدول تسعى من الجهة الاخرى في التسوية وسعيهن ذاهب هدراً وما قدر فقد كان

وليس من غرضنا البحث في ما دار من المخابرات ولا ما لعب من الايدي اذ لا محل له هنا . وانما المراد انه لما تقررت الحرب بين الدولتين زحف الروس على بلاد الدولة في اوربا واسيا . فزحف ١٧٥,٠٠٠ مقاتل بقيادة الغراندوق ميخائيل والجنرال مليكوف نحو بلاد الدولة في اسيا الى ارمينيا وقلوب الارمن مع الروس ايضا

ولا حاجة بنا الى الدخول في تفاصيل هذه الحرب ولكننا نقول بالاختصار انه كان من نصيب صاحب الترجمة ملاقاة الروس في الروملي ومعه عبد الكريم باشا وسليمان باشا ولم ينقض شهر مايو سنة ١٨٧٧ حتى احتلت جنود الروس ضفة الطونا (الدانوب) الشمالية من كلفات الى غلاتس . على ان معظمهم كان في جورجيفو مقابل روستجق . والطونا كما لا يخفى فاصل بين رومانيا وبلغاريا وكان عدد الجند العثماني في جنوبي ذلك النهر نحو مئتي الف مقاتل بقيادة عبد الكريم باشا ومركز المعسكر في شملة على حدود البلقان . ولكنهم احتلوا كل الحصون على ضفة الطونا الجنوبية واصبح الموقف حرجاً وصرحت الدول بحيادتها وهدأت الحال شهرين والطونا فاصل بين الجيشين . ثم حاول الروس عبور النهر وعددهم ٤٠٠,٠٠٠ مقاتل وفي يونيو من تلك السنة عبروه من اماكن مختلفة واحتلوا بعض المدن في بلغاريا وزحف البعض الآخر الى جبال البلقان . وفي طريقهم هذه من الطونا الى البلقان لقيهم صاحب الترجمة في بلافنا وردهم الى الوراء في ٧ يوليو

ولكن قائداً روسيًّا اخترق حدود البلغار في جبال البلقان بشجاعة غريبة فكان لخبر تقدمه هذا وقع موجع في الاستانة . فنقل الباب العالي قيادة الجند من عبد الكريم باشا الى محمد علي باشا وهو بروسياني واسمه الاصلي شلوتز . واصبح الجند العثماني في ساحة الحرب اربع فرق يقودها اربعة من القواد العظام وهم عثمان باشا في ويدين على ضفة الطونا في الغرب ومحمد علي باشا في شملة بالشرق وكلاهما شمالي جبال البلقان . وأما القائدان الباقيان وهما سليمان باشا ورؤوف باشا فكانا في جنوبي تلك الجبال

﴿ حصار بلافنا ﴾ وفي ٣٠ يوليو هجم اربعون الفاً من الروسيين على بلافنا وفيها عثمان باشا وخمسة لاف جندي فدافع العثمانيون دفاعاً حسناً ولكن الروسيين لكثرتهم وفقوا في اول الامر للاستيلاء على ذلك المكان الحصين وكأن صاحب الترجمة نفخ في جنوده روحاً حية فانقضوا على الروس انقضاض الصواعق وصبوا عليهم ناراً حامية فتقهقر الروسيون وعاد العثمانيون الى حصونهم فتجدد القتال في

اليوم التالي والفوز لا يزال مع العثمانيين . ففر الروس من ساحة الوغى وقد تركوا خمسة آلاف من جندهم بين قتلى وجرحى وحدث فشل عظيم في معسكرهم

وفي ٦ سبتمبر ١٨٧٧ عاد الروسيون الى بلافنا بمدافعهم وبنادقهم واطلقوا القنابل على حصونها يومين متواصلين فاستولوا على تلال في جنوبها في مساء ٨ منه وواصلوا الاطلاق طول الليل واليوم التالي والذي بعده وفي ١١ منه فتحوا حصن كريفتزا بعد جهاد اليأس . اما العثمانيون فتشددوا في اليوم التالي بتشجيع قائدهم الباسل وانقضوا على الروس بقلوب لا تهـاب الموت فطردوهم واسترجعوا كل الحصون الا كريفتزا . وخسر الروس في هذه المعركة سبعة الاف رجل بين قتيل وجريح . ولما بلغ خبر هذه النصر الى الاستانة أنعم جلالة السلطان على صاحب الترجمة بالنيشان العثماني المرصع مع لقب « غازي »

وعاد الروسيون مرة ثالثة بقيادة الجنرال تودلبن بطل سباستبول فحاصروا بلافنا وصبوا عليها النيران من مدافعهم وفي ١٩ اكتوبر فتحوا حصن كريفتزا الثاني بعد ان ارتدوا عنه مرتين . على ان العثمانيين عادوا فاستولوا عليه في تلك الليلة بقوة السلاح وبنوا سوراً آخر داخلياً لزيادة المناعة

ونظر صاحب الترجمة في مركزه الحرج فعلم انه يحتاج الى النظام اكثر منه الى الرجال فامر كل من كان معه من التراكسة والباشبوزق بالخروج من بلافنا وثبت هو بمن بقي من جنده فيها ثبات الجبال

وكان الروسيون في اثناء ذلك يحاربون ما يحيط ببلافنا من الحاميات العثمانية ويطاردونهم حتى خلت تلك البقاع من الجند العثماني الا بلافنا فانها ظلت ممتنعة الى ١٠ دسمبر وقد نفدت مؤونتها وانقطع عنها المدد . فخرج عثمان باشا من حصنه وهو ينوي ان يخترق صفوف المحاصرين لعله ينجو من حصاره . فسار في مقدمة رجاله ومشوا جميعاً الى جهة واحدة والروسيون يطلقون عليهم النار وهم لا يبالون فاخترقوا خطين من خطوط الجند الروسي ولم يبق لنجاتهم الا خط واحد كادوا يخترقونه لو لم يروا بطلهم عثمان باشا سقط الى الارض هو وجواده وقـد أصيب

برصاصة اخترقت فخذه واصابت الجواد فظنوه قتل ففشلوا واضطروا للتسليم . فسلموا اسلحتهم بلا شرط وعددهم أربعون الفاً فضلاً عن ٢٠,٠٠٠ بين مريض وجريح . فلما سلم عثمان بعث اليه قائد الروسيين مركبة يركب فيها الى بلافنا لمداواة جراحه فركب . وهو في الطريق لقيه الغراندوق نيقولا ومعه البرنس شارل امير رومانيا فاوقفا عربته وسلما عليه مصافحة

وفي صبيحة اليوم التالي سار صاحب الترجمه يتوكأ على طبيبه الخاص الى القصر الذي نزل به القيصر اسكندر الثاني ببلافنا . فلما اقبل عثمان وقف له القيصر وسلم عليه واثنى على بسالته وامانته وأعجب بما أبداه من الشجاعة في محاولته الخروج من بين صفوف المدافع والبنادق الى ان قال « وهذا سيفك اردّه اليك اقراراً ببسالتك واهليتك ولك ان تتقلده في بلادي وهذه مركبتي وهؤلاء حرسي تحت امرك اذا شئت ركبت وان شئت مكثت »



ش ٦٢ : القيصر اسكندر الثاني

ولا يخفى ما في ذلك من الاكرام الذي لم يصدر من هذا القيصر الا لما يعتقده من فضل هذا القائد العظيم . ومما يزيد فضله في هذا الحصار ان الذين حصروا

بلافنا يزيد عددهم على ١٥٠,٠٠٠ ومعهم ٦٠٠ مدفع وقوات هذا الغازي لم تكن اكثر من خمسين الفاً وثمانين مدفعاً وقد رأينا من ذلك انه لما يئس من الزاد والذخيرة لم يطلب التسليم وهو داخل الحصون ولكنه خرج مستقتلاً فاما ان يسلم واما ان يسلم . وكان لسقوط بلافنا دويٌّ عظيم ففرح الروسيون واستاء العثمانيون

﴿ اواخر ايامه ﴾ وبعد انقضاء تلك الحرب وعقد شروط الصلح في مارس ١٨٧٨ عاد عثمان باشا الى الاستانة وتعين قائداً للحرس الشاهاني وفي ١٠ يونيو من تلك السنة عين مشير المابين ثم والياً لجزيرة كريد

وفي اخر تلك السنة انتدب لوزارة الحربية وتقرب من الحضرة الشاهانية نال كل التفات ورعاية وتقلب في احسن مناصب الدولة واشرفها ونال اشرف وساماتها ووسام كومندور اللجيون دو نور من فرنسا

ومن غريب ما تقوله الناس على اثر ما ظهر من بسالته في حصار بلافنا ان كل امة حاولت ان تدَّعيه لنفسها فقال الاميركان ان الرجل اميركاني الاصل وقال الفرنساويون انه فرنساوي وقال غيرهم غير ذلك ولكنهم تحققوا بعدئذ انه تركي لا شك فيه

وكان صاحب الترجمة في آخر اعوامه مشير المابين الهمايوني وقائد الفيلق الخاص ولا يجتمع مجلس في سراي يلدز الا وهو من اعضائه . واليه النظر في شؤون جند المابين وملاحظة كل ما يتعلق بالمابين وكل ما يحدث فيه . وله دائرة خصوصية هناك يقيم فيها وله الكتاب والمأمورون

ومما ناله من التفات جلالة السلطان ان اثنين من اولاده تزوجا بكريمتي جلالته . ثم أصيب بمرض عز شفاؤه فتوفي في الاستانة في اوائل افريل ١٩٠٠ وهو لم يتجاوز الثامنة والستين من عمره وفي موته خسارة كبرى على الدولة العثمانية لانه من اعاظم افرادها



حميد بن محمد المرجبي

فاتح الكونغو

لم يتعود قراء هذا الزمان الاطلاع على اخبار الهمم العالية والنفوس الكبيرة وظهور نوابغ القواد ورجال الدهاء الا بين اهل العرب . ويعجبهم على الخصوص اذا قرأوا عن قائد او وزير او ملك نبغ من بين العامة وتسنم عرش السيادة بجده وسعيه . ولكن بين اهل الشرق اليوم نوابغ لا تقل نفوسهم كبراً ولا هممهم سمواً عن اولئك قد ينبغون في اواسط اسيا وافريقيا ويأتون بمعجزات السياسة والدهاء والقيادة ولا نعرف اخبارهم . واليك ترجمة رجل منهم ولد في الفقر والضنك وارتقى

بهمته وسعيه حتى قاد الالوف وفتح البلاد ـ نعني به حميد بن محمد بن جمعة المرجبي الملقب بتيبوتيب فاتح الكونغو باواسط افريقيا وقد بعث الينا برسمه وترجمة حاله حضرة الشيخ ناصر بن سليمان بن ناصر اللمكي ساكن زنجبار فاثبتناهما مع الثناء على غيرته في نشر مآثر الشرقيين قال :

تمهيد

كانت الاقطار الزنجبارية ملكاً للبرتغال كما لا يخفى على ذوي الالمام بالتاريخ فلما اراد العرب تخليص هذه الاقطار من يد الافرنج بقوة سلطانهم سيف بن سلطان اليعربي جهزوا جيشاً من بلاد عمان مؤلفاً من قبائل شتى من العرب وفيهم القبائل المراجبة . فبرح هذا الجيش مسقط في سفن شراعية فوصل الى ممبسة سنة ١٦٦٥ مسيحية وهناك جرت بينهم وبين البرتغال وقائع كثيرة قضى الله بعدها باجلاء البرتغال من تلك الاقطار واستلم العرب ازمة الملك . ولما رجع السلطان الى مسقط أحب بعض اصحابه الاقامة في تلك الاقطار فاقاموا وفيهم العائلات من قبائل الحواثم والنباهنة واليعاربة والمراجبة واتخذ كل فريق منهم المناخ الموافق له ولا تزال هذه القبائل باقية هناك الى الان . ولكن رجالها لا يتكلمون الا اللغة الزنجبارية وانما حفظوا اسم القبيلة فقط . فالمراجبة اختاروا قرية بجنوب دار السلام اسمها مبوماجى مناخاً لهم ولا يزالون فيها الى اليوم

ثم آل امر تلك الاقطار مع توالي الزمن الى الانحطاط حتى جاءها سعيد ابن سلطان الازدى جد العائلة المالكة الان في زنجبار وعمان فاخذت في التقدم وفتحت ابواب التجارة وجعلت عاصمة المملكة جزيرة زنجبار ثم رحل اليها العرب من عمان كما رحل اليها قبائل البراري والافرنج

ترجمة حاله

في هذه الجزيرة ولد صاحب الترجمة وهو حميد بن محمد بن جمعه المرجبي في سنة ١٢٤٨ هجرية وقد نشأ في عصر مظلم وبلاد مظلمة . ولم ير بين يديه الا اقواماً لباسهم الجهل وطعامهم الفقر خالين من كل فضيلة متردين بكل رذيلة لا

يميزون بين الخير والشر . ولما بلغ السنة الخامسة من العمر اجتهد والده بتعليمه القراءة والكتابة وكتاب الله فاخذ منه بالقسط الاوفر في اقرب وقت ثم مكث في حالة الفقر عدة سنوات كأنه على النار اذ كان يشعر في نفسه بشيء يستحثه على طلب العلى وهو لا يدري باي وسيلة يسمو اليها واتفق ان والده سافر الى داخل البلاد لطلب الرزق وترك ولده في زنجبار فالولد لم يقر له قرار لانه رأى في نفسه ضيقاً شديدًا لم يعلم له سبباً — ذلك هو دأب عظماء الرجال يحسون بالكبرياء والعظمة وهم في المهد . فاذا اتيحت لاحدهم الوسائط لقضاء مراده وجد لذلك طريقاً يسهل عليه الامر واستعمل الحيلة والمال لبلوغ اربه ولكن المترجم لم يجد لنيل بغيته طريقاً مع مطالبة نفسه بها وظل كذلك حتى تطرق الى قلبه اليأس فاخذ في طلب ما يسد رمقه به

ولما بلغ من العمر اثنتي عسرة سنة اقترض اثني عشر ريالاً اشترى بها ملحاً سافر به الى دارالسلام ومنها الى داخل البلاد للاتجار ولبث شهوراً يتردد في بيع الملح وقد ذاق حلاوة الجد والاجتهاد وكانت اسفاره لا تزيد عن مسير يومين او ثلاثة ثم طال سفره شيئاً فشيئاً واطمأن اليه التجار باموالهم فاتجر في الثياب والمأكولات والكوتشوك وغيرها حتى اجتمع عنده شيء يسير من المال . ثم بلغه ان والده وصل الى مدينة تبوره وتزوج بابنة سلطان الانيموز (قبيلة من الزنوج لا يختتنون وهم كثيرو العدد) فشمر عن ساعد الجد وعزم على اللحاق به في تلك البلاد فسافر من باجويو وبعد مسير ثمانين يوما في البراري والقفار وصل الى تبوره فوجدها كبيرة وفيها من العرب نحو خمسمائة نفس وجملة سكانها اربعون الفاً ثم واجه السلطان وهو صهر والده فلقي منه اكراما واهدى اليه عاجا وقربه منه فقوي نفوذه لديه وبقي هناك متاجراً

ثم حصل خلاف بين صهر والده وسلطان آخر من سلاطين الزنوج فتحاربا مدة وخرج حميد بن محمد لنجدة صهر والده ببعض الزنوج والمماليك فدخل بلاد العدو ليلاً واحرقها واستباحها قتلاً وسلباً وجمع الكثير من العاج واستتب امره في

تلك البلاد حتى صارت ملكاً له وأطاع اهلها امره . ولما عاد الى والده منصوراً اخذ ما كان معه من العاج وقفل راجعاً الى زنجبار فحظي بمقابلة سلطانها يومئذ ماجد ابن سعيد بن سلطان ثم باع ما معه من العاج ووفى ما عليه من الديون واخذ في تجهيز ما يحتاج اليه في سفره فلما تم ما اراد تجهيزه عمد الى السفر

نشأته السياسية

لقي حميد في هذه النشأة من المصاعب والمتاعب ما تشيب له الولدان لانه كان يسافر الى مكان لم تطأه اقدام اسلافه ولكنه لم يتهيب من ذلك بل كان يسافر والسعد حليفه والعناية تساعده والاجتهاد نصيره على المصائب . برح زنجبار ومعه من الثياب والخرز والبارود والرصاص ما قيمته تسعون الف ريال حتى وصل باجويو ثم برحها في سنة ١٢٧٩ هجرية وبعد مضي ١٥ يوماً من سفره قطع اللصوص الطريق عليه وارادوا نهب ما معه فدافعهم لكنهم اخذوا بعض امواله فلم يرهبه ذلك وقد اصابت رجاله الشمس . فمكثوا ٥ ايام يشربون بول الدواب ثم اصابهم طاعون فمات منهم خمسمائة رجل ولم يجد من يحمل الخمسمائة حمل التي كانوا يحملونها فتركها ومضى الى حل سبيله وسار مجداً حتى وصل تبوره وقد انهكه التعب ومعه نصف امواله فتاجر به سنتين ثم مضى الى البلاد التي كان قد اخذها قبلا فوجد سلطانها استنجد بسلطان آخر فحارب بها فانكسر شر انكسار وضل عن الطريق وتشتت اصحابه من الهزيمة فوصل تبوره مقهوراً مدحوراً ثم برحها الى اوجيجي فربح منها اموالاً طائلة وركب في بحيرة تنكنيكه فوصل الى الجانب الثاني منها سنة ١٢٧٤ هجرية فمكث هناك نحو سنة ونصف سنة بين الزنوج وقد خاف ان يسافر الى الكونغو لقلة معداته فعاد الى الوجيجي ومنها الى تبورة سنة ١٢٨٦

وبعد سنة وصلهم الخبر بوفاة سلطان زنجبار ماجد بن سعيد وتعيين اخيه برغش ابن سعيد مكانه فكتب حميد بن محمد لسلطان زنجبار كتاباً يهنئه بالملك ويطلب منه باروداً ثم سافر لمحاربة السلطان المغتصب للبلاد التي كان قد اخذها فوصل اليه فوجده متحصناً في مدينته فحاصره ستة اشهر ولم يقدر عليه فجمع اصحابه وحفروا



الافيال في اواسط افريقيا

قناة حولوا اليها النهر الذي يشرب اهل المدينة منه فانقطع الماء عن المحصورين فاسلم السلطان نفسه بشرط ان يسلم ما له لحميد بن محمد ويكون خاضعاً لامره فرضي السلطان وقويت شوكة حميد وهابه الاهالي فرجع والسلطان معه . وقبل وصوله الى تبوره جاءه احد اصحابه بكتاب من سلطان زنجبار برغش بن سعيد يخبره انه ارسل اليه الفي رطل من البارود فلما وصلته عزم على السفر الى اوجيجي فاخذ امواله وارسل العاج الى تبوره ليبيعوه ويبتاعوا له بثمنه الثياب فنزل اوجيجي واقام فيها حتى وصلته البضائع فقطع بحيرة تنكنيكه في اواخر سنة ١٢٨٧ وسار قاطعاً البراري بين همجيــة الزنوج وانياب الضواري يتلقى الاهوال مرة بالعطايا وتارة بالسيف والنصر حليفه والشهرة تتقدمه فترتعد الملوك خوفاً منه فيصالح المطيعين ويحارب العاصين ولم يشغله هذا عن البيع والشراء من العاج والثياب . اتجه جنوبا وعاد الى الشمال الغربي فوصل الى نهر الكونغو عند المدينة التي يسمونها (ستانلي فولس) ولبث فيها مدة يلتمس الراحة . ولما عزم على السفر في نهر الكونغو بلغه ان احــد سلاطين الزنوج قطع عليه السبيل ليأخذ امواله فتركها في تلك المدينة

وجهز جيشاً من رعاياه ومماليكه قدر ٣٠٫٠٠٠ نفس وامرهم بالسير الى الشرق فالشمال ليأتوا العدوّ من ورائه وجهز جيشاً آخر وسيره على شاطىء الكونغو بحذاء قواربه وعددها ٤٠٠ قارب . فاستمر السير شهرين كان في خلالها يبيع ويشتري وبعد هذه المدة التقى به العدو وكان شديدًا عزيز الجانب والجيش الذي بعثه المترجم في البرراري لم يصل بعد فانكسر حميد شر انكسار وغنم العدوّ القوارب واستولى على شيء كثير من ماله وبعد ١٤ يوماً من الهزيمة وفد الجيش فعاد به الى عدوّه وهجم عليه فتحارب الفريقان ثلاثة اشهر انجلت عن قتل السلطان واستيلاء حميد بن محمد على املاكه . واقام هناك مدة رتب فيها جيشه على اربعة اقسام قسم مؤلف من ٢٠ ٠٠٠ نفس انفذه في الطريق الذي جاء منه ليصلوا الى ستانلي فولس ويخبروا اهله واصحابه بالنصر ويحفظوا الاموال التي له هناك ويذهبوا منها الى الشرق حتى يبلغوا وسط المنيا في مكان عينه لهم . وقسم مثل الاول عدة وعدداً سيره من المكان الذي هو فيه من الجنوب الشرقي ليدعوا الناس لطاعته ثم يتحولوا الى المحل الذي عينه للقسم الاول وقسم مؤلف من ٢٠ ٠٠٠ نفس امرهم بالبقاء في ذلك المكان وخرج بمن معه وهم ٦٠ ٠٠٠ نفس لمحاربة قبائل نيام نيام

ومن ينظر في هذه السياسة يندهل لصدورها من رجل لم يتعلم فنون الحرب ولم يدخل مدرسة حربية وقد اتخذ نقطاً عسكرية لحفظ خطوط الرجعة . اما الجيش الذي كان يقوده بنفسه فوصل الى قبائل نيام نيام وحاربهم وانتصر عليهم واخذ اموالهم وسبى اولادهم ثم اتجه نحو الشرق فالجنوب فوصل الى النقطة التي عينها لاصحابه فوجدهم سبقوه ولم يلق في طريقه هذه المرة حرباً فاستتب الامن وامنت السبل قليلاً . وادركه العرب من اصحابه وانفتحت طرق التجارة الى باجويو فكثرت مداخيل زنجبار

وقد يقول القارىء كيف يمكن لحميد بن محمد ان يجيش مائة الف وكيف كان يطعمهم ويكسوهم فنقول انه لا محل للدهشة لان الثوب الذي قيمته فرنك في زنجبار كان يباع هناك في ذلك الزمان بالف رطل من الارز . ثم ان الاهالي كانوا

يحبون متابعته ليغنموا عند انكسار العدو . ولما استتب الامن عاد باموال و بعض ومماليكه الى زنجبار تاركاً ولاية الامر لاخوته وصحبه . وفي عودته هذه عبر بحيرة تنكنيكه في السفن الشراعية . واتصل به في اوجيجي نعي والده محمد بن جمعة فبكى عليه وحزن لانه لم يجن شيئاً من ثمار اعمال ابنه ومرَّ على تبوره فوجد ارملة والده وصهره فأقام عندهما ريثما استراح من عناء السفر ثم واصل السير حتى دخل دار السلام وقبل وصوله اليها لقيه في الطريق اخوه من امه محمد بن مسعود الوردي وارسل سلطان زنجبار السيد برغش رجلاً يسلم عليه من قبله او يهنئه بما ناله من النعمة والشهرة وكتب اليه كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من برغش بن سعيد

الى حضرة الشيخ الافخم حميد بن محمد بن جمعة المرجبي سلمه الله تعالى و بعد السلام عليك اخبرني المحب ابن مسعود بانك واصل الينا قريبا فوجبت علينا التهنئة لك وارسلنا هذا الكتاب للسلام عليك والسلام »



الاخطار في اواسط افريقيا

وصل حميد بن محمد دار السلام ومعه ٧٠٠٠٠ رطل من العاج وغيره من

انواع التجارة فسافر الى زنجبار بحراً فوصلها في اوائل سنة ١٢٩٤ هجرية و باع ما كان معه من العاج وغيره فاجتمع عنده مبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه صافية بلا ديون

ثم تجهز للسفر فاشترى بضائع كثيرة خرج بها من زنجبار سنة ١٢٩٦ الى باجمويو ومنها الى داخل البلاد يقتحم الاخطار والمفاوز . و بعد عشرة اشهر وصل البلاد التي اتخذها عاصمة له فوجد الامر على غير ما كان يعهده اذ شاهد التجارة كثيرة والارزاق واسعة والتجار من الافرنج والهنود والعرب عديدين . اما اهل البلاد فكانوا على ما تركهم من السذاجة والجهل وكان الامن متزعزعاً فتكبد مشاق جسيمة في محاربتهم ومضت ايامه في الحروب ولكنها لم تشغله عن التجارة بل كانت هي تجارته الرابحة لانه كان يكسب منها اموالاً طائلة غير العاج والعبيد والغنم وكان جميع ما يحصله يرسله الى زنجبار لوكيله ويطلب منه البضاعة الصالحة للزنوج

فلما توفر عنده المال والرقيق عاد الى زنجبار سنة ١٣٠٠ ه وباع ماجلبه من البضائع فيها واشترى ما اراده ثم برحها سنة ١٣٠٢ قاصداً الجهات الداخلية ولسنا ذاكرين هنا جميع ما اصابه في طريقه من الحرب والجوع والعطش وما لقيه من اللصوص والوحوش وانما نقول انه وجد هناك عند وصوله هذه المرة رجلاً بلجيكياً قنصلاً لدولته وكان الخطر محدقاً به لانه طلب من سيف بن حميد بن محمد ان يأتيه بجميع العاج الموجود هناك ليكتب عليه اسم الدولة البلجيكية فقبض عليه سيف وارسله الى سردار الجيش راشد بن محمد فحكم عليه بضرب خمسين جلدة وحبس سنتين ولولا وصول حميد بن محمد في تلك الايام لنال البلجيكي جزاء شديداً . وكان البلجيكيون قبل ذلك يهاجمون العرب مراراً فيصدهم هؤلاء ويقتلون منهم كثيرين . وربما يسأل القارئ عن الرجال الذين كانوا ينصرون البلجيك اذ كان جميع الزنوج رعايا العرب فالجواب ان العرب كانت لهم عادة يكرهها الزنوج وهي انهم كانوا يحملون اولاد الزنوج يبيعونهم في زنجبار . فلما دخل الافرنج تلك الديار خدعوا الزنوج وزخرفوا لهم القول بانهم سيحررونهم ويعملون كيت وكيت من الخير وما زالوا بهم حتى استمالوهم واستعانوا بهم على محاربة العرب . ولم تخف على حميد بن محمد هذه

الحيلة فكان دائما يعرض عن محاربة الافرنج ويعدهم خيراً وكان يقول « دخلت هذه البلاد صغيراً فقيراً وملكت هذه الرقاب جميعها ولم يكن لدي مال ولا سلاح فهل اقوى بهم على الافرنج »

وكان يكلم اولاده دائماً بهذا المعنى ويحذرهم من غدر الزنوج . ولما باع تجارته هناك رجع الى زنجبار فوصلها سنة ١٣٠٤ هجرية فوجد الانكليز له بالمرصاد وقد اخبره قنصل الانكليز بما تم عليه الاتفاق وان البلجيك سيدخلون الكونغو ونصحه بعدم معارضتهم وانهم لا يريدون سوى التجارة وانه سيكون كسابق امره مطلق الحرية وتدفع دولة البلجيك له مقابل تجارتها ٦٥ جنيهاً شهرياً فابى اولا فقال له قنصل الانكليز ان انكلترا تعهدت بمساعدة البلجيك وانه اذا اصر على ابائه فاول شيء تفعله هو منعه عن السفر مرة أخرى

فلم يجد بدًّا من القبول وعندئذ قيل له ان اي شيء يطلبه من انكلترا يعطى له وتتحقق امانيه فيه فطلب من القنصل تحميل عبيده من باجويو الى زنجبار وكان الانكليز متشددين في منع بيع الرقيق وتحميله ولكنهم اذنوا له بذلك لحاجة كانت في نفوسهم فحمل حميد بن محمد سبعماية عبد من باجويو الى زنجبار ثم وصلت الاخبار من الكونغو ان البلجيك هجموا على العرب مرارًا فصدوا عنهم وان العرب اخرجوا جميع الافرنج من تلك البلاد فلم يبق بها بلجيكي ولا الماني وكلما اراد البلجيك المسير اليهم التقوا بهم على ضفاف نهر الكونغو ورموهم بالرصاص فشق هذا الخبر على الانكليز وطلبوا من حميد بن محمد ان يرحل بالسفر الى الكونغو ومعه المعتمدان الانكليزي والبلجيكي فسافروا سنة ١٣٠٥ في باخرة عن طريق رأس الرجاء الصالح فوصلوا الى مدينة الكاب ومنها الى بنانا عند مصب نهر الكونغو ثم سارت الباخرة في النهر ٤ ساعات فوقفت بسبب الشلالات فركبوا الفلك وساروا بها شهرين حتى وصلوا الى مدينة ستانلي فولس . ولما اطل العرب على هذه الفلك ورأوا فيها الافرنج رموهم برصاص البنادق فاشاروا اليهم انهم ليسوا محاربون فلم يقبلوا واخيرًا رمى حميد بن محمد نفسه في النهر فلما رأوه عرفوه وامسكوا عن اطلاق

البنادق ونزل هو والافرنج الذين معه وبوأ لهم مكاناً وامنهم وبواسطته تم الاتفاق بين العرب والافرنج . وفي غضون ذلك انتهم الاخبار بوفاة برغش بن سعيد سلطان زنجبار وارتقاء خليفة بن سعيد سلطانا مكانه فمكث حميد يتاجر بماله الى سنة ١٣٠٧ ثم عقد النية على الرجوع الى زنجبار فسافر و بعد مسير عشرة ايام اتاه الخبر بوفاة خليفة بن سعيد وولاية علي بن سعيد مكانه فواصل السير حتى بلغ تبوره وفيها أصيب بمرض فتأخر هناك و بعد شهرين وصل اليه ولداه سيف وثابت فوجداه مريضا فكانا قاصدين الكونغو فامرهما بالسفر اليها ومكث هو في تبوره سنة حتى اذ عوفي من مرضه برحها الى زنجبار فبلغها سنة ١٣٠٩ و بعد ان صفا الجوّ للبلجيك هجموا على العرب مرارا فصدوا عنهم وطلبوا منهم ان يسافروا جميعاً الى زنجبار فابوا ولما اعيت البلجيك الحيلة خدعوا لزنوج وزخرفوا لهم القول فانفضوا عن العرب وانحازوا الى البلجيك ثم هجموا على العرب فهزموهم وغنوا اموالهم وقتل سيف بن حميد وهرب ثابت اخوه ومحمد بن سعيد وغيره واستولى البلجيك على اموال حميد بن محمد ويقدّرونها بمائة الف جنيه وكان حميد بن محمد يتمثل دائماً بقول الشاعر :

ومن يفعل المعروف مع غير اهله يلاقي كما لاقى مجير ام عامر

حيث ذهبت امواله وقتل ولده جزاء احسانه الى البلجيك

وفي ١٣١١ وصلت اخبار الهزيمة الى زنجبار ووصل ثابت وأخوته وانفار من العرب اليها اما بقية اولاد محمد بن سعيد فاسرهم البلجيك وبقوا في اسرهم الى ١٣٢١ حيث اطلقوا سراحهم وسمحوا لهم بالعودة الى زنجبار فبلغوها في حال يرثى لها وهكذا انتهت دولة العرب في افريقيا الوسطى وتقلص ظل ملكهم منها وكانت نهاية امرهم انهم عاشوا في زنجبار فقراء

لكل اجل كتاب

ولما وصل حميد بن محمد الى زنجبار سنة ١٣٠٩ حسب ثروته فوجدها نيفا

ومائة الف جنيه الا ان وكيله الذي كان في زنجبار احتال عليه وقدم واخر في دفاتره فاختلس من تلك الثروة نحو ٣٠,٠٠٠ جنيه و ٢٠,٠٠٠ جنيه كانت في يد هندي اعطيت اليه للتجارة فذهبت ولم يحصل الا على ٤٠٠٠ و ٧٠٠٠ جنيه اعطاها محمد بن خلفان الذي ادعى الشركة في ملكه وحكمت له محكمة دار السلام بدفع هذا المبلغ ونحو ١٦,٠٠٠ جنيه دفعت الى المحامين عنه في دعاويه حينما اراد الدفاع عن نفسه في امر الشركة وغيرها من الدعاوي وكان دائماً يقول « ذهب ربع ملكي في افواه المحامين »

والذي بقي عنده اشترى به بيوتاً و بساتين فعاش من ريعها . وفي سنة ١٣١٠ توفي سلطان زنجبار علي بن سعيد وعين حمد بن ثويني مكانه فنال منه رتبة . وفي سنة ١٣١٤ توفي حمد بن ثويني وهبت ثورة في البلاد فاطلقت الانكليز القنابل على القصر السلطاني ثم عين حمود بن محمد بن سعيد سلطاناً وفي سنة ١٣٢٠ توفي السيد حمود بن حمد فخلفه ابنه علي بن حمود وهو السلطان الحالي ادام الله ملكه . مضى هذا الزمان وحمد بن حميد بين الدعاوي والشكاوي وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٢ اصابه مرض الاستسقاء ثم عوفي منه ولكن صحته بقيت ضعيفة فاشتد به الالم حتى كانت الساعة الخامسة من ليلة الاربعاء عاشر ربيع الثاني (١٤ يونيو) قبضه الله اليه وما شاع هذا الخبر حتى توافدت الجموع الى منزله وفي مقدمتهم قنصل جنرال امريكا وفيس قنصلها وتتابعت الجموع وسار في جنازته اناس كثيرون وفي الصباح جاء قنصل جنرال الانكليز وقنصل الالمان وغيرهما من معتمدي الدول والتجار الاجانب واعيان العرب والهنود والزنوج لتعزية اهله ونقل البرق خبر وفاته الى العالم المتمدن فأتت جرائده مملوءة بالكلام عن سيرته

رجال الادارة والسياسة



ش ٥٧ المعلم حرحس الجوهري (١)

(توفي سنة ١٨١١)

كان للاقباط في اثناء دولة امراء المماليك شأن كبير في مصالح الدولة فنبغ منهم في القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر رجال اشتهروا بالحزم والدراية ونالوا نفوذاً عظيماً لدى الامراء حتى كانت الامور كلها اليهم . منهم المعلم رزق كاتب علي بك الكبير والمعلم ابراهيم الجوهري رئيس كتاب الامير ابراهيم بك وكان لهما تأثير

(١) نقلت هذه الصورة بالفوتوغراف عن رسم له بباريس ولكنها أُخذت من موضع منحرف فظهرت كما ترى

كبير في تاريخ الامة القبطية وقد ذكر الجبرتي ان النصارى اعتز جانبهم في ايامهما بما كان لهما من التأثير على صاحب الامر والنهي . وجاء في تاريخ الامة القبطية لمؤلفه يعقوب بك نخله روفيله تفاصيل مهمة من اخبارهما ومن هذا الكتاب استخرجنا ترجمة المعلم جرجس هذا . وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهري المتقدم ذكره فلما توفي اخوه قلده ابراهيم بك رئاسة الكتاب كما كان اخوه قبله ورافق أعمال هذا الامير الى آخر ايامه

وقد جاء ذكره في كتاب الجبرتي بين وفيات عام ١٢٢٥ ﻫ وهاك نص قوله :

« ومات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين بالديار المصرية وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهري . ولما مات اخوه في زمن رئاسة الامراء المصرية تعين مكانه في الرئاسة على المباشرين والكتبة و بيده حل الامور و ربطها في جميع الاقاليم المصرية نافذ الكلمة وافر الحرمة . وتقدم في ايام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجيء الوزير والعثمانيين وقدموه واجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس افندي . ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو بجانب شريف افندي الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ويراعون جانبه ويشاورونه في الامور . وكان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفرق على جميع الاعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والارز والكساوي والبن ويعطي ويهب . وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والاربكية وانشأ داراً كبيرة وهي التي يسكنها الدفتردار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد علي) وابنه (ابراهيم) الدواوين عند قنطرة الدكة . وكان يقف على ابوابه الحجاب والخدم ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالي وتداخل في هذا الباشا وفتح له الابواب لاخذ الاموال والمعلم جرجس يدافع في ذلك واذا طلب الباشا طلباً واسعا منه يقول له هذا لا يتيسر تحصيله ويأتي المعلم غالي فيسهل له الامور ويفتح له ابواب التحصيل فضاق خناق المعلم جرجس وخاف على نفسه فهرب الى قبلي ثم حضر بامان كما تقدم وانحط قدره ولازمته الامراض حتى مات في اواخر شعبان وانقضى وخلا

الجو للمعلم غالي وتعين بالتقدم ووافق الباشا في اغراضه الكلية والجزئية وكل شي له بداية وله نهاية والله اعلم . اه



ش ٥٨ : مراد بك احد أمراء المماليك في اواخر القرن الثامن عشر

وذكر صاحب تاريخ الامة القبطية من سبب خوفه وهربه الى الوجه القبلي « انه لما كثرت معارضته لمحمد علي باشا وتوقفه له في تحصيل النقود التي كان في غاية الاحتياج اليها قبض عليه ومن معه من الاقباط بحجة انه متأخر عليه مبالغ من حساب التزامه وحجزهم ببيت كتخداه واحضر المعلم غالي وكان كاتبا عند الالفي [١] احد كبار المماليك وعدو محمد علي باشا الالد) وعينه رئيساً مكانه وكلفه بعمل حساب التزامه عن الخمس السنين الماضية . و بعد سبعة ايام أمر بالافراج عنه ومن

معه على شرط ان يدفع اربعة آلاف وثمانمائة كيس فقام هو بدفع مبلغ عظيم من هذا المقدار ووزّع الباقي على الكتاب والصيارف ما عدا المعلم غالي وشخص آخر يقال له المعلم فلتاؤوس لاسباب اختلفت فيها الاقوال نضرب صفحاً عن ذكرها فحصلت له ولهم مضايقات شديدة اضطرته الى التنازل عن الفخر املاكه ولا سيما التي كانت على بركة الاربكية وقنطرة الدكة ولم تزل باقية في وقف القصر العالي للان ومن ذلك الحين أخذ نجم المعلم جرجس في الافول ونجم المعلم غالي في الظهور والصعود فلم يسعه غير الهرب الى الوجه القبلي حيث كان الامراء المماليك ثم نزع محمد علي باشا البلاد التي كانت تحت التزامه وطرحها في المزاد على الراغبين فأخذها القادرون . وفي رواية انه لم يهرب بل ان محمد علي باشا نفاه الى الصعيد . وقبل قيامه الى الصعيد اما هارباً أو منفياً كما قيل جمع كل حجج املاكه وسلمها الى البطركخانة لتنفق من ريعها على اهل بيته فوضعت اليد عليها وبقيت في حوزتها للان

وبعد اربع سنين صرّح له الباشا ان يعود بامان الى القاهرة فوصلها في اليوم الثالث عشر من شهر شوال سنة ١٢٢٤ هـ — قال الجبرتي ولما حضر « ذهب الى الباشا فقابله واكرمه ونزل في بيته الذي بحارة الونديك وفرشه له المعلم عالي وقام له بجميع لوازمه وذهب الناس مسلمهم ونصرانيهم وعالمهم وجاهلهم للسلام عليه » وفي سنة ١٢٢٥ هـ مات ودفن بمصر العتيقة بدير مار جرجس ولا يزال قبره موجوداً ولكنه قد تخرب وليس من يفكر في اصلاحه . اهـ

المعلم علي

توفي سنة ١٨٢١

هو من مشاهير رجال الادارة من الاقباط نبغ في اوائل ايام محمد علي باشا الكبير . قال صاحب كتاب تاريخ الامة القبطية انه كان في الاصل كاتب الامير

الالفي من امراء المماليك ثم تركه لسبب غير معلوم وتعلق بخدمة محمد علي باشا قال « وكان على جانب عظيم من الذكاء والنباهة ويعرف من اين توكل الكتف فلم يظهر للباشا معارضة في اوامره بل كان يساعده على تنفيذ اغراضه بتسهيل الامر له ولا سيما فيما يختص بتحصيل الاموال وقيل انه كان يعرف اللغة التركية ويتكلم بها فاحبه ورفع منزلته وعوّل عليه في الاعمـــال المالية وركن اليه وعمل برأيه وفكره فيها

« ولما قصد محمد علي باشا تأسيس حكومة منتظمة وكان لا يخفى على المعلم غالي انه توجد اراض كثيرة يزرعها اصحاب الاقتدار بغير دفع اموال عليها شرع في مساحة عموم اراضي القطر المصري فاخذ جملة اراض فربطت عليها الاموال وبذلك نمت الايرادات فكانت هذه خدمة وطنية عظيمة قام بها . وقسم اطيان كل بلد الى حيضان وقبائل وجعل لكل بلد زماماً مخصوصاً وغير ذلك مما لا تخفى فائدته فلا حاجة لاطالة الشرح فيه

« ولما نكب المعلم جرجس الجوهري وأسندت رئاسة الكتاب اليه طلب منه الباشا الف كيس فوزعها على المباشرين والكتبة وجمعها في اقرب وقت . ولكن كان جمعها بسرعة موجبا لغير ما يتوقعه المعلم غالي وسببا في جلب الضرر عليه وعلى غيره فان الباشا بعد قليل أوقع الحوطة على بيته وبيت المعلم جرجس الطويل وحنا اخيه وفرنسيس اخي المعلم غالي والمعلم فلتاؤس واثنين آخرين واخرجوهم منها بصورة منكرة وسمروا دورهم وأخذوا دفاترهم فلما حضروا بين يديه قال لهم اريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه وأمر بحبسهم ان لم يدفعوا ثلاثين الف كيس وبعد ايام أفرج عنهم بواسطة شخص يسمى حسين افندي الروناجي على شرط ان يدفعوا سبعة آلاف كيس فقاموا بدفعها ولكن لم تمض سبعة شهور حتى قبض عليهم ثانية وحبسهم في القلعة وختموا على دورهم ثم انزلوا المعلم غالي والمعلم فلتاؤس في مركب ليسافر الى دمياط كنفيين وكان على ديوان الجمرك رجل يقال له المعلم منصور صربون ومعه كاتبان آخران يسمى احدهما بشاره والآخر

رزق الله الصباغ والبعض يقول ان الثاني من عائلة المعلم جرجس الجوهري فاحضر الباشا المعلم منصور وقلده مباشرة الدواوين ثم سعى الساعون في مصالحة المعلم غالي و رفقائه فقبل الباشا العفو عنهم والرضا عليهم بشرط ان يدفعوا اربعة وعشرين الف كيس . ولما حضر المعلم غالي من دمياط طلع الى القلعة وقابل الباشا فخلع عليه وألبسه فروة سمور وتنازل له عن اربعة آلاف كيس وأمر ان ينزلوا به الى داره وامامه الجاويشية بالعصي المفضضة واعاده الى الرئاسة كما كان امام المعلم منصور فجعله كاتباً لابنه ابراهيم باشا

« وتكرر حصول ذلك من الباشا فكان يغضب عليه تارة ويعزله ويقلد غيره من رفقائه ويرضى عليه اخرى فيرده الى منصبه بعد دفع مبلغ طائل لا يستطيع القيام به من ماله الخاص فيختص هو بجانب منه ويوزع الباقي على زملائه وغيرهم من رؤساء الكتبة فنتج من ذلك انه داخل بعض رفقائه الغيرة منه فانفكت رابطتهم وتفرقت كلمتهم وكان هذا غاية مقصد الباشا

« واتفق ان الباشا كان قد توجه الى الاسكندرية لمهمة واحتاج لنقود فحول على المعلم غالي صرف ستة آلاف كيس كانت باقية عليه فاعتذر بعدم الاقتدار على ادائها في الحال بدعوى انها بواق على اربابها وهو ساع في تحصيلها فلم يقبل هذا العذر منه وارسل الى كتخداه في مصر بالقبض عليه وعلى اخيه فرنسيس وامينه المدعو المعلم سمعان وسجنهم في القلعة حتى يدفعوا هذا المبلغ . وخاف المعلم جرجس الطويل وحنا اخوه سوء العاقبة وكان في نفسيهما شيء من جهة المعلم غالي فتحاملا عليه ووسوسا للباشا انه اذا حوسب يظهر عليه ثلاثون الف كيس وتعهدا بانه اذا فوض لهما عمل حسابه ولم يظهر عليه هذا المقدار فيكونان ملزومين بادائه للخزينة فاشتد غضبه عليه وعزله من رئاسة الكتابة وولى اخر مكانه يسمى المعلم منقريوس البتانوني وضيق عليه في الحبس واهانه اهانة شديدة وكرر الضرب على امينه حتى اشرف على الهلاك وبعد ذلك افرج عن اخيه وامينه ليسعيا في التحصيل اما المعلم غالي فبقي في الحبس مدة وبعد قليل شرع الباشا في تغيير هيئة الدواوين

واستبدالها بأنظم منها بحيث تعود بالفائدة على الخزينة فرضي على المعلم غالي وأناطه بذلك فقسم البلاد الى مديريات واقسام والاطيان الى احواض وقبائل

« وبعد ان غاب المعلم غالي نحو سنة في الصعيد وهو يشتغل في ذلك عاد الى مصر وكان المتولي امارة الصعيد رجلا يدعى محمد بك الدفتر دار فلما قصد المعلم غالي العود الى مصر زوَّده بكتاب منه للباشا يمدح فيه نصحه وسعيه في فتح ابواب تحصيل الاموال للخزينة وانه ابتكر اشياء وحسابات يتحصل منها مقادير وافرة من المال فقابله الباشا بالرضا واثنى عليه ومن ثم اتخذ كاتباً لسره وخصه بمباشرة الاعمال الحسابية التي ابتكرها فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الاقاليم واستمر في هذا المنصب الجليل الى ان قتل سنة ١٨٢١ م لاسباب لا تزال حقيقتها خافية علينا . وبقيت جثته ملقاة في الخلاء ببعض بلاد مديرية الشرقية يومين الى ان استأذن احد الاقباط في رفعها فأخذها ودفنها » اه





ش ٩٥ علي باشا تبه دالي

بطل البانيا

(ولد سنة ١٧٤١ وتوفي ١٨٢٢)

﴿ البانيا ﴾ هي بلاد الارناؤوط يحدها الجبل الاسود من الشمال وبلاد اليونان من الجنوب والروملي من الشرق والبحر الادرياتيكي من الغرب وتقسم الى ثلاثة اقسام يسمى كل منها ايالة وهي (١) ايالة اشقودرا في الشمال وقصبتها مدينة اشقودرا ٢) ايالة يانيا في الجنوب وقصبتها يانيا وبلاد ابيروس داخلة في حكمها ٣) روميليا في الوسط وقصبتها موناستير . وينقسم الالبانيون باعتبار اصلهم الى ثلاث قبائل ١) قبيلة الجج او الغج ويقطنون في اشقودرا وما جاورها ٢) التوسك ويسكنون اواسط البانيا في لبرات والباسن غربي موناستير (٣) الليار وهم احقر سكان البانيا ويقطنون الجبال بين التوسك وحدود ابيروس

والالبانيون معروفون بقوة الابدان ويضرب المثل بشدة بطشهم ولكنهم

لاقسامهم وتنازعهم فيما بينهم لم تتحد كلمتهم ولا تمكنوا من تأسيس الممالك وما برحوا عرضة لمطامع الدول العظمى من اول عهد العمران . وكانوا مع ذلك يدافعون عن اوطانهم دفاع الاسود فلا يرضخون للسلطة الا بعد شق الانفس فدخلوا اولاً في حوزة دولة اليونان حتى اذا مالت شمسها استقلوا ثم طمع فيهم البلغار فحاربهم الالبان وردوهم فلما ظهرت الدولة العثمانية وفتحت الروملي وجهت اسنتها نحوهم على عهد السلطان محمد الفاتح . وكان على الالبان قائد شهير اسمه جورج كستريوت ويسميه الاتراك اسكندر بك قاد الالبانيين بمهارة وحذق فردوا الاتراك عن بلادهم . ولكنهم دخلوا في حوزة الدولة العلية قهراً سنة ١٤٧٨ بعد موت اسكندر بك ولا يزالون حتى الان على انهم ما انفكوا منذ اول رضوخهم للدولة يتذمرون ويتمردون فيكلفونها تجنيد الجند لقمع عصيانهم حتى لقد كان خيراً لها لو تخلت عنهم على انها استخدمت بعضهم في بعض حروبها . ثم لم ينل الالبان استقلالاً بعد ذلك الا ردحاً من الزمن على عهد علي باشا التبه دلنلي صاحب الترجمة واليك ترجمة حاله

(علي باشا) ولد هذا الرجل في بلدة ديلين على نهر فوبوتسا بجوار جبل كليسورا بولاية موناستير . ومنها لقبه بالتركية « تبه او دبه دلنلي » وهو من قبيلة التوسك وكان اسلافه من اشرافها ويلقبون بيكوات ديليني ويتصل هذا اللقب في اعقابهم بالارث ولما كان حصار اهل البندقية لجزيرة كورفو سنة ١٧١٦ كان جد علي باشا اذ ذاك في جملة المدافعين عنها فقتل هناك فورث اللقب ابنه (والد علي باشا) ويقول بعض عارفيه انه كان رقيق الجانب محباً للسلام ونظنه كان ضعيفاً فسطا عليه جيرانه وسلبوه املاكه فلا نعد ذلك حباً منه للسلام بل هو عجز . اما والدته فكانت عظيمة الانفة فلم يعجبها تصرف زوجها وقد توفي وعلي في الرابعة عشرة من العمر فبذلت جهدها في تربيته على الخشونة وارضعته حب الانتقام وكره الذين اختلسوا اموال والده . فشب على النهب والسلب والسطو والغزو شأن اكثر شبان الالبانا فقضى شبابه الاول في الجبال مع زمرة من اصحابه يصادرون

المارة ويسطون على اعداء والده ويحاربونهم حتى تمكن من استرجاع بعض املاكه في ديليني . ويقال انه قتل اخاه وسجن والدته وان والدته لم تعش بعد سجنه الا مدة قصيرة

فلما استرجع املاكه وصار بيكاً تاقت نفسه الى السلطة بتوسيع دائرة سلطانه واتفق ان والي اشقودرا اذ ذاك كان متمردا على الدولة فعرض علي على الباب العالي ان يخرج هو لتسكين الثورة فاذن له بذلك فحمل عليه وقتله فكافأته الدولة بحق التمتع بكل املاكه وعينته معاوناً لدرويند باشا الروملي وهو لقب يسمى به حامي الطرق ومانع اللصوصية في الجبال

ولكنه طمع بالمال وحاد عن واجباته فكان يشارك اللصوص بسرقتهم و يطلق سراحهم فعلمت الحكومة بذلك فاتهمت رئيسه بالامر وحاكمته وحكمت عليه بالاعدام اما علي فنجا بمساع خصوصية استخدم فيها الاصفر الرنان

ثم كانت الحرب بين العثمانيين والروس سنة ١٧٨٧ وكان علي باشا في جملة القواد فاظهر بسالة شديدة نال عليها انعاماً عظيماً فتعين والياً على تريكالا من تساليا (اليونان) ودرويند الروملي في وقت واحد مع لقب باشا فلم يمض زمن قصير حتى طهر البلاد من اللصوص بترغيبهم في الخدمة العسكرية فادخل في خدمته جماعة كبيرة منهم فألف تحت لوائه جنداً كبيرًا . وكانت يانيا متمردة على الدولة فخرج عليها بجنده فاخضعها سنة ١٧٧٨ واصلح احوالها فلما رأت الدولة منه ذلك ثبتته على كرسيها وسمي من ذلك الحين « والي يانيا » وهو اللقب الذي ما زال يعرف به الى اليوم

فلما رأى نفسه حاكماً وانه توصل الى الحكومة بعدته وجده حدثته نفسه ان يوسع دائرة سلطانه فجعل ينتحل اسباباً يسطو بها على جيرانه كما فعل محمد علي باشا لما تولى مصر . وقد يرى القارىء مشابهة في ترجمة حياة هذين الرجلين من بعض الوجوه وسنأتي على ايضاح ذلك في ما يلي

فسطا علي باشا على حدود اليونان ففتح غربي شمالها وهي المقاطعة التي كانت

تسمى ليفاديا وطمع في جبال سوليوتس في الجنوب الغربي من ابيروس وحاربهم طويلاً فلم يخضعوا فضيق عليهم الى سنة ١٨٠٣ فقبلوا باخلاء جبالهم والمهاجرة الى جزيرة كورفو فعاهدهم على ذلك ولكنهم لم يكادوا يخرجون حتى لقيهم رجاله وذبحوهم غدراً

وعلم علي باشا ان مطامعه هذه لا تسلم من عقاب الدولة الا اذا تحصن واكثر من العدة فاتفق سنة ١٧٩٧ ان الفرنساويين استولوا على البندقية وكان كلما سمع بسالتهم ونهضتهم اظهر اعجابه ولمح انه يريد المسير على خطواتهم ولكنه يحتاج الى الحصون والمعاقل فخابر بونابرت اذ ذاك بالامر فبعث اليه مهندسين بنوا له حصون يانيا التي لا تزال باقية الى هذه الغاية فضلاً عن حصونها الطبيعية . وكان عدد سكان تلك المدينة اذ ذاك ٣٥٠٠٠ بين مسيحيين ومسلمين و بوهيميين

ولم يمض قليل حتى فشل نابوليون في مصر فاغتنم علي باشا تلك الفرصة واستخرج بريفيزا عند خليج ارطا من ايدي الفرنساويين ثم نال مصادقة السلطان على ما فتحه من البلاد فأصبت مملكته شاملة كل البانيا من الجبل الاسود الى ابيروس ولم تأت سنة ١٨١٧ حتى انضم اليها ابيروس و بعض تساليا والجزء الغربي من شمالي اليونان وتولى احد اولاده حكومة المورا فاصبح سلطانه واسعاً واتضحت مطامعه لدى الباب العالي فلم ترَ الدولة طمانينة الا بقتله وكان قد بلغ الثمانين من عمره فلم تجد سبيلاً الى ذلك وهو يتظاهر بموالاتها مع الاستعداد للدفاع فلم تسمح العناية ببقاء دولته كما سمحت ببقاء دولة محمد علي في وادي النيل . فاتفق ان ضابطاً من جنده انتظم في جند الاستانة فغضب علي باشا و بعث اليه من يقتله سنة ١٨٢٠ فشق ذلك على الباب العالي فبعث الى سائر ولاة الدولة في تركيا اوربا ان يزحفوا عليه فلم ينالوا منه مارباً لمناعة يانيا بالحصون فلم يرَ الباب العالي بدًّا من العدول الى السياسة فبعث اليه خورشيد باشا اول سنة ١٨٢٢ ان يسلم فينال العفو السلطاني فاذعن الشيخ تخلصاً من الحروب . وفي ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ دعا خورشيد باشا عليًّا اليه ليسلمه الخط الشريف الناطق بالعفو عنه فجاء وهو لا

يدري ما نصب له فدخل عليه وجلسا برهة يتحادثان ثم مد خورشيد يده فاستخرج الفرمان المؤذن بقتله ودفعه اليه . فلما رآه عليٌ اجفل واعترض ودافع عن نفسه دفاعاً شديداً ولكن الكثرة غلبته فقتلوه وارسلوا رأسه الى الاستانة وانقضت دولته بعد حكومة بضع وثلاثين سنة

﴿ علي باشا ومحمد علي باشا ﴾ لا يقرأ المطالع ترجمة علي باشا الا ويتذكر سيرة رجل مصر المغفور له محمد علي باشا لمتابهة بينهما في غرضهما الاساسي وهو تأسيس الدول . فقد سعى كل منهم في تأسيس دولة يستقل بها تمثلا بمن سبقه او عاصره من الرجال العظام . والمثل الاول لديهم بونابرت الذي كان معاصرًا لهم وارتقى باقدامه وشجاعته وتدبيره من ادنى رتب الضباط الى اسمى رتب الملوك فكان قدوة رجال في الاقدام ومثال القواد العظام . وطبيعيٌ ان ظهور مثل هذا الرجل ينبه اذهان معاصريه الى الاقتداء به فضلا عن النهضة العمومية التي نشأت في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن على اثر الحروب واشراق شمس العلوم وما نتج عنها من الاكتشافات والاختراعات فتحركت الهمم وثارت الافكار وكان ذلك بمنزلة الاحتكاك للاذهان فظهرت القوى الكامنة في الناس على اختلاف مراتبهم واصقاعهم فنبغ من نبغ ومات من مات عملا بناموس الارتقاء العام

وكان في جملة من ثارت قواهم وظهرت مواهبهم العسكرية علي باشا في البانيا ومحمد علي باشا في مصر وكلاهما من ولاة الدولة العلية فسعيا سعياً متشابهاً يلتمسان غرضاً متشابهاً فانتهى باحدهما الى الانقضاء وبالآخر الى البقاء . فبعد ان بلغ علي باشا اوج سعده واستقل تقريباً بالبانيا وبعض ملحقاتها سقط وامحى اثره وظل محمد علي باشا سائراً في خطته واسس دولة يتوارث الحكومة فيها اعقابه من بعده (تحت رعاية الدولة العلية) . فما هي الاسباب التي قضت بزوال الدولة الاولى وبقاء الثانية

يلوح لنا ان السبب الاول في ذلك اختلاف الرجلين في الاخلاق الغريزية فقد كان علي باشا شجاعاً شديد البطش كبير المطامع طلاّباً للعلى ولكنه لم يكن عدلاً حسن السياسة لين العريكة مثل محمد علي . يدلك على ذلك معاملته لاهالي

سوليوتس المتقدم ذكرهم وفتكه باهل كارديكي من ولايته وذلك انه علم بان بعضهم ذكر والدته بالسوء فاعمل السيف فيهم وذبح منهم مذبحة هائلة على حين ان محمد لم يكن يترك وسيلة في استرضاء المصريين واستجلاب طاعتهم بالبذل واجراء العدل ونشر العلوم وضبط الادارة

وقد يعترض على محمد علي بذبحه المماليك غيلةً في القلعة ولكنه فعل ذلك مضطراً استبقاء لسلطته وتنفيذاً لاوامر الباب العالي السرية . اما علي باشا فانه فضلاً عن تنبيه ذهن الباب العالي لمطامعه مدَّ يده الى كرامة عاصمة الدولة فقتل احد ضباط الجند العثماني في وسط الاستانة كما تقدم وفي ذلك من ضعف السياسة ما فيه اما محمد علي فكان عوناً للدولة العثمانية في كثير من حروبها فدوَّخ لها الوهابيين واعانها في اخماد ثورة اليونان وان لم ينجح

ثانياً . ان محمد علي باشا استعان في تأييد حكومته بمصر ونشرها الى ما يجاورها بواسطة اولاده فقد حارب الوهابيين بقيادة ابنه طوسون وحارب الشام والمورة بقيادة ابنه ابراهيم القائد العظيم واخضع السودان بابنه اسماعيل وأيد سلطانه فيها كلها بحسن سياسته مع الدولة العلية والمحافظة على علاقته بها بالحسنى

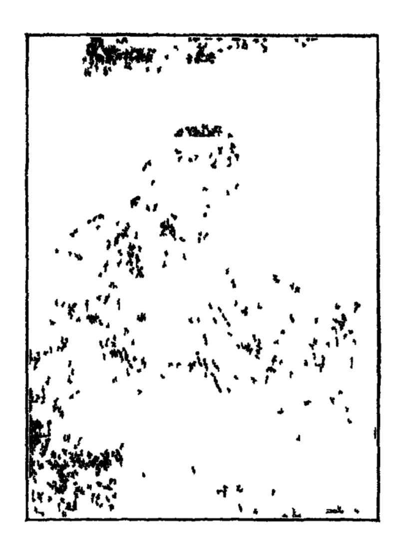
ثالثاً . ان المصريين فضلاً عن قربهم من الطاعة وسهولة حكومتهم فقد سبق محمد علي قبل ولايته وطبع على اذهانهم صورة حسنة من عدله وكرمه حتى حملهم على ان يطلبوا ولايته من الباب العالي راساً فلما تولاهم احسن معاملتهم ورقى شؤونهم وحافظ على رضاهم فلم يات عملاً يوجب نفورهم وحافظ مع ذلك على رضاء جنده القديم من الالبانيين وغيرهم الذين كانوا له عوناً في ارتقاء اريكة الملك حتى اذا اراد تنظيم جند جديد وراى منهم تمرداً اقتصر على تنظيم ذلك الجند من اهالي البلاد الاصليين بلا مقاومة واضمر للمتمردين من رجاله وسيلة يتخلص بها منهم فانفذهم لفتح السودان على ان يفتحوها او يبيدوا فيها وهم لا يشعرون وفي ذلك من الدهاء والسياسة ما لا يخفى على اللبيب . اما علي باشا فقد كان مطمعه في الولاية محصوراً في ما يرجوه من النفع الموقت . وزد على ذلك ان الالبان قوم يصعب التسلط عليهم

لما تقدم من خشونة طباعهم وصعوبة مراسهم

رابعاً . ان ان مصر نظراً لبعدها عن مركز الخلافة كانت اقرب للاستقلال الاداري من البانيا لان هذه في الروملي قريبة من الاستانة وكان الالبانيون انفسهم كثيراً ما يتجندون في خدمة الدولة العلية مأجورين فلم يكونوا قلباً واحد مع واليهم فلما قتل لم يبدوا مقاومة . ناهيك بغنى هذا القطر وما بذله محمد علي من المساعي الخيرية في تحسين الزراعة وتنشيط التجارة والصناعة ففتح المعامل ونظم الجند ونشط العلم فدرّت مصر ذهباً وفضة فلقي اهلها رغداً وعيشاً هنيئاً انساهم ما كانوا يقاسونه من البلاء على عهد المماليك . ولم يتأتَّ لعلي باشا ان يفعل شيئاً من ذلك ولعل طبيعة البلاد الخشنة من جهة وانطباعه على السلب والنهب من جهة اخرى كانا من اكبر العقبات في سبيل الاصلاح

خامساً . ان مساعي محمد علي في الولاية انما كانت تحت ظل مصلحة الدولة وفتح ما فتحه من البلاد باسمها فلم يأت عملاً يوجب الضغينة عليه منها الا في حربه في الشام فلما سئل الرجوع عنها اذعن وتوسطت بعض الدول فجعلت لكل من الجانبين حدوداً رضي بها الفريقان ونال على اثر ذلك الامتيازات المعلومة

سادساً . واخيراً ان علي باشا هذا انخدع باقتراح خورشد باشا انخداعاً آل الى قتلة وانقراض حكومته مما لا نظن محمد علي ينخدع به لو كان في مكانه — يدلنا على ذلك انه لما كان قائداً لفرقة الالبانيين قبل ان يخطر بباله امر الولاية وتأخرت فرقته عن نجدة عساكر خسرو باشا في حرب المماليك اراد خسرو الفتك به غيلة وطلب مقابلته سراً في منتصف الليل فادرك محمد علي بذكائه ودهائه انه انما يريد به شراً فلم يقبل دعوته بل كان ذلك سبباً قوياً في سعيه الى الولاية



ش ٦٠ . بوغوص بك

ولد سنة ١٧٦٨ وتوفي سنة ١٨٤٤

هو بوغوص بك يوسفيان ولد في ارمير سنة ١٧٦٨ وتثقف في مدارسها حتى برع في اللغات الارمنية والتركية واليونانية والايطالية والفرنساوية تكلماً وكتابة وتعاطى في اوائل امره التجارة عملاً بمشورة ابيه ثم تعين مترجماً في قنصلية انكلترا وفي سنة ١٧٩٠ توفي والده فقضت عليه الاحوال ان يأتي رشيد بالقطر المصري فجاء وتعين في بعض مصالح الكمرك ثم انتقل الى كمرك الاسكندرية حتى اذا كانت الحملة الفرنساوية عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون بونابرت هاجر بوغوص الى وطنه ولما انسحب الفرنساويون سنة ١٨٠١ عاد الى الاسكندرية

وكان كمرك الاسكندرية اذ ذاك يحتكر بالمزايدة ففي سنة ١٨١٠ انتهى المزاد عنده على ان يدفع خمسين كيساً في العام والكيس يساوي خمسمئة غرش . وكان محمد علي قد تولى عرش الحكومة المصرية فلما دنا انقضاء مدة الاحتكار استدعاه اليه لتجديد الشروط وكان محمد علي على بينة من مقدار دخل الكمارك فلما اجتمع به طلب منه خمسمائة كيس في العام لمدة خمس سنوات . فلم يقبل بوغوص في بادىء الرأي خوف الخسارة فتعهد له محمد علي اذا قلَّ دخل الكمرك عن ٥٠٠ كيس في السنة اتمَّ له المبلغ من جيبه واذا زاد على ذلك قسم الربح بينه وبين الحكومة المصرية . فقبل بوغوص بك بذلك لعلمه ان محمد علي لا يقدم على هذا الامر الاوهو ينوي للاسكندرية خيراً وبالواقع انه احتفر الترعة المحمودية فتسهلت وسائل النقل وعظمت تجارة الاسكندرية فربح بوغوص ارباحاً حسنة اقتسمها هو ومحمد علي فاصبح شريكاً للحكومة المصرية . وكان محمد علي قد جعل فوق يد بوغوص كاتباً يراقب حساباته فوشى به سنة ١٨١٣ بانه قبض مبلغاً لم يدونه في دفاتره فاستدعاه محمد علي اليه وكان يومئذ في دمياط وحاكمه فاثبت الواشي دعواه بالحساب فامر محمد علي باعدام بوغوص فساقوه الى السجن على ان يقتلوه في صباح الغد وتولى الاحتفاظ به تلك الليلة رئيس حرس الباشا وهو كردي الاصل وكان لبوغوص فضل عظيم عليه لانه انقذه مرة من القتل فعوَّل هذا على مكافأته بالمثل

فلما امره محمد علي باعدامه ساقه الى منزله في دهبية على النيل وجاء في الصباح التالي الى السراي فلما رآه محمد علي سأله عن بوغوص فاجابه بقوله « اطال الله بقاء سمو مولاي » ففهم محمد علي انه قتله فلم يعد يذكره قط

واتفق بعد بضعة ايام ان محمد علي قدم القاهرة لتعهد شؤون حكومته فسمع باختلال احوال الولاية وكانت التقارير ترد عليه من الكشاف (المديرين) تناقض بعضها بعضاً فشق ذلك عليه وتذكر بوغوص لانه كان عمدته في حل هذه المشاكل

فصاح باعلى صوته قائلاً « من لنا ببوغوص الآن ... كيف اني قتلته »

وكان رئيس حرسه حاضراً فامتقع لونه واضطرب فادرك محمد علي ذلك فقال له والغضب ظاهر على وجهه « ادعه الي حالاً » فخاف الكردي خوفاً شديداً واصطكت ركبتاه فترامى على قدمي الباشا فرفسه محمد علي برجله ولم يزد على قوله « ادعه اليّ » فجاءه به وبوغوص يرتعد خوفاً ورهبةً . اما الباشا فلم يبد ملاحظة ولكنه استشارهُ في حل المشكلة التي وقع فيها فتناول بوغوص الاوراق فتلاها وحل رموزها واستطلع ما بطن منها وما ظهر . فاصدر محمد علي حكمه فيها طبقاً لمشورة بوغوص . ولما انقضت الجلسة وانصرف الكتبة دعاه للطعام معه فتناولاه ولما همّ بوغوص بالانصراف قال له محمد علي « قد تناولت الخبز والملح معك ونسيت كل ما مضى فاذهب الى الاسكندرية بسلام » فالتمس بوغوص منه ان يعفو عن رئيس الحرس فعفا عنه على شرط ان لا يرى وجهه بعد ذلك . فاخذه بوغوص معه واسكنه في اهله زمناً طويلاً ثم اراد النزوع الى وطنه فجهزه بمال يكفي لمعيشته بالرخاء والنعيم كل حياته

واصبح بوغوص بك من ذلك الحين موضع ثقة محمد علي ومرجع مشورته ولم تبق ثمة حاجة الى تجديد شروط احتكار كمرك الاسكندرية . واصبح بوغوص بك من موظفي الحكومة المصرية بلا راتب معين فكان يستولي على ما اراده من دخل الكمارك بلا حساب على ان محمد علي لم ير منه طمعاً ولا اسرافاً فرقاه الى رتبة فريق مع لقب بك واطلق له التصرف في كل اعماله . ولما نظم محمد علي حكومته وانشأ فيها النظارات ولاه نظارة الخارجية والتجارة فقضى في ذلك المنصب نحواً من عشرين سنة ومحمد علي يعتمد عليه اعتماداً تامًّا في كل ما يتعلق بعلاقاته السياسية والتجارية مع الدول الاخرى . وكانت كل محاصيل القطر المصري تمرّ تحت يده كأنه ناظر المالية ونظم له اقلام الحسابات فاكتسب صداقة محمد علي فضلاً عن ثقته

وتوفي بوغوص بك في الاسكندرية اول عام ١٨٤٤ عن ٧٢ عاماً وكان محمد علي يومئذ في القاهرة فحزن حزناً شديداً فاصدر أمره ان يحتفلوا بجنازه على نفقة

الحكومة فدفنوه في كنيسة الارمن الغريغورية في الاسكندرية . ولم يكن من اقاربه في مصر يومئذ الا نوبار باشا وكان سنه ١٩ سنة فخدمه في اثناء مرضه

وكان محمد علي لما سافر الى السودان عام ١٨٣٩ لتفقد احوالها سلم الى بوغوص بك اوراقا مختومة على بياض لاستخدامها في ما يقتضي اصداره من الاوامر او المنشورات سريعاً فبد انقضاء مدة الحداد فتحوا صناديقه فوجدوا تلك الاوراق لا تزال كما كانت عليه ومعها جواهر ومصاغ كان محمد علي قد عهد اليه بها قبل سفره ويدل ذلك على امانته واخلاصه في خدمته

وكان ربعة مع ميل الى القصر قوي البنية يتقلد العمامة ويلبس القفطان والجبة لا يختار من الوان الالبسة الا المظلمة ولم يلبس الطربوش قط . لم يخلف بوغوص اولاداً فورثه اخوه بدروس يوسفيان وكان يقيم في تريستا ولم يعش بعده الا قليلاً



ش ٦١ : مصطفى رشيد باشا

(ولد سنة ١٢١٥ هـ وتوفي سنة ١٢٧٤ هـ)

هو الوزير الخطير والسياسيّ العثمانيّ الشهير المعروف بحبه لوطنه وحسن

خدماته لدولته وأمته ابن مصطفى افندي روزنامه جي الاوقاف الهمايونية ولد سنة ١٢١٥ ه بالاستانة العلية وتهذب على ايدي والديه الى سن الشبوبية فادخل بقلم مكتوبجي الباب العالي وكان يختلس الفرص ويذهب الى المساجد لتناول العلوم العربية عن أئمتها

وكان رؤساؤه يحبونه لاستعداده ودرايته فترقى بمدة وجيزة وصار من الكتاب الممتازين في القلم المذكور ونال فوق ذلك رتبة رئاسة التعليم ولم تكن تعطى لحديث السن مثله وكان على صغره يفصل المسائل المهمة فصلاً يقصر عنه الشيوخ فكان يسمع مدحه وتنشيطه من الرؤساء فيزداد همة ونشاطاً وكان برتو باشا الشهير من جملة من قدر مزيته واقتداره

ولما ارتقى الى درجة باش خليفة (باشكاتب) ارسلته الدولة العلية الى المورة برفقة الاردو الهمايوني تحت قيادة خسرو باشا فابتدأ من ذلك الحين يصرف ذهنه الى استطلاع اسباب تلك الحادثة وما يضمن رجوع النفوذ العثماني

وبعد رجوعه من المورة أرسل الى القطر المصري مرتين برفقة برتو باشا على عهد المغفور له محمد علي باشا فأظهر من الدراية في حل المشاكل ما اشتهر بين الخاص والعام

ولما تبوأ السلطان عبد المجيد خان كرسي السلطنة كان المشار اليه بمأمورية آمدي الديوان الهمايوني وكانت المذاكرات جارية بمجلس الوكلاء (الوزراء) اذ ذاك بشأن اصلاح شؤون الدولة لوقوعها في ارتباك عظيم بمسألة المورة واستقلال اليونان والغاء اجواق الانكشارية ومحاربة روسيا وكان السلطان حريصاً على امته وصيانة ممالكه حتى كان يود اصلاح ذلك كله دفعة واحدة ولكن مقاصد الوزراء اذ ذاك متباينة متضادة مثل ما كانت احوال الولايات . ولما لم ينتج من تلك المذاكرات نتيجة فعالة ضاق السلطان ذرعاً فجاء يوماً بغتة الى الباب العالي ودعا الوكلاء اليه وكان من جملتهم رشيد بك صاحب الترجمة

فأخذ السلطان في تلك الجلسة يبين الخطر العظيم المحيط بالدولة من جميع

اطرافها وطلب الى الوكلاء ابداء آرائهم في تخليص الممالك والامة فلم يكن جوابهم الا التأوّه والتأسف فاثر ذلك برشيد بك تأثيراً فوقف وصرّح برأيه بكل احترام وأدب ووعد بان يقدم رأيه خطاً للاعتاب السلطانية وهكذا فعل فانه قدم لائحة كانت السبب الوحيد لخلاص الامة والمملكة من تلك الوهدة المخطرة ونال بسببها الشهرة العظمى فوجهت اليه رتبة الوزارة مع لقب باشا ثم ارسل سفيراً الى باريس ولوندره لحل مسألة مصروهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر وزدعلى ذلك انه كان يجهل اللغات الغربية فارسل برفقته ترجمان يسمى المسيو كور . ولكنه رأى ان لا بد له من دراسة لغة اوربية فتعلم الفرنساوية وطالع بواسطتها نظامات الممالك وأسباب نجاحها وثباتها وكان ينظر الى تلك الممالك نظرةً والى حال دولته نظرة أخرى ويقابل بين الحالتين توصلاً الى دواء يشفي الدولة مما كانت فيه من الامراض العضالة

وكان الغربيون ينظرون الى الشرق نظر الاحتقار لما كان يتصل اليهم من المبالغات بشأنه فكان صاحب الترجمة يبذل جهده لتكذيب تلك الاراجيف بالدليل والقياس استجلاباً لحسن ظنهم بالدولة العلية وكان الملك جورج (ملك انكلترا) اذ ذاك يصغي الى كلامه حتى اقتنع منه بان المحافظة على قوام الدولة العلية ووقاية ملكها يعودان بالنفع على سائر ممالك اوروبا فانعقدت المعاهدة المسماة (بروتوكول لوندرة ، ومن مقتضاها التخلي لمحمد علي باشا عن ولايتي مصر وعكا طول حياتهولكن محمد علي باشا لم يوافق على ذلك فاضطرّت دولة انكلترا اذ ذاك ان ترسل سفنها الحربية الى تلك الامصار وكانت النتيجة احتراق السفن الحربية المصرية امام بيروت واخراج عساكرها من البلاد السورية واعادة البلاد التي افتتحها الى الدولة العلية وحصر ولاية محمد علي باشا بالقطر المصري مدة حياته ثم يتوارثها اكبر اولاده بموجب الشروط المذكورة بالفرمانات الهمايونية . وترى ذلك مفصلاً في كتابنا تاريخ مصر الحديث

وكانت دول اوربا حينئذٍ تنظر الى الدولة العلية نظرها الى المتعصب ولم

تكن تصادق على تملكها ولا تعد الدولة العلية من جمية الدول الاور بية وربما كان ذلك ناتجاً عن اهمال عمال الدولة وما تمكن من الخلل في داخليتها حتى شغلهم عن علاقاتها الخارجية

وكان السلطان عبد المجيد خان قد تحقق صداقة رشيد باشا فصار يعتمد عليه الاعتماد التام فاتخذه مستشارا خاصاً وفي سنة ١٢٥٦ ﻫ قام على الكرسي العالي بالنيابة عن جلالته في ميدان الكلخانة وقرأ الخط الشاهاني المعلن المساواة بين سائر اصناف العثمانيين فاعتقد الدول الاور بية فلاح الدولة العلية بذلك وابتدأت تثق بالباب العالي كل الوثوق وكان هذا الخط الشريف صورة من لوائح صاحب الترجمة قد افرغت بقالب رسمي

وعلم ايضاً ان قلة الرجال المقتدرين يقف عثرة في طريق الاصلاح فاخذ يرقي اصحاب اللياقة والاقتدار من شبان الوطن الى اعلى المراتب بمدة قليلة وفي جملة من ترقى على يده فؤاد باشا وعالي باشا واحمد وفيق باشا الذين اشتهروا بخدماتهم للدولة العلية

ولما وجهت اليه الصدارة العظمى كانت الاحوال وخيمة جدًّا كما اتضح مما تقدم فاخذ باصلاح الامور الملكية والعسكرية فاسس سفارات دائمـة في برلين وباريز وفيانه ولوندرة فكان يطلع بواسطتها على الحقائق السياسية في حينها ويتخذ الاحتياطات اللازمة والتدابير المصيبة لصيانة حقوق الدولة والملة وان ما ناله من التوفيق في مسألة اعادة المجرمين التي ظهرت بعد الاختلال الكبير في المجر سنة ١٨٤٩ كان نتيجة ما اتخذه من المسلك القويم في طرق السياسة وبرهاناً على فرط حميته وغيرته : وتفصيل ذلك انه لما ضيقت روسياوالنمسا على المجريين التجأ جماعة منهم الى حدود المملكة العثمانية فطلبت الدولتان المشار اليهما الى الدولة العلية تسليمهم اليهما وهددتاها بالحرب اذا خالفت طلبهما فاصدر رشيد باشا لهما ردًّا وقفه على الحقوق الدولية وصان شرف الدولة وكان السلطان يؤيد كل ما يقوله او يعمله ومن جملة كلام جلالته بهذه المسألة قوله « ومن المحال ان اسلم هؤلاء المساكين

وقد التجأوا الى باب سلطنتي السنية وهذا ما تقتضيه الحمية والعدالة وقد اختار الحرب على تسليمهم » فعلمتا ان الدولة ساهرة على حقوقها وشرفها بهمة وزيرها رشيد باشا فاذعنتا الى ان يتلافى الامر بالمخابرات السياسية والقانون الدولي وتحققتا ان التهديد لا يفيدهما شيئاً

وتقلب رشيد باشا في مناصب متعددة على مقتضى الاحوال فتقلد منصب الصدارة ست مرات ونظارة الخارجية اربعاً وتقلد سفارات متعددة وتعين والياً لادرنه مرة واحدة . وكان الفوز مرافقاً له في كل امر شرع فيه . واول جريدة عثمانية نشرت في الاستانة « تقويم قائع » كان هو مؤسسها . وقد اسس ايضاً نظارة المعارف ومجلس المعارف ونظامنامه المعارف وسالنامه الدولة والمكاتب الرشدية وغيرها من عوامل الارتقاء

واتفق في ايامه ظهور مسألة القدس وهي الاختلاف الذي حصل بين الكاثوليك والارثوذكس بحق التصرف في الكنيسة الشرقية وتداخلت روسيا في امره وارسلت (منشيقوف) الشهير الى الاستانة ليبلغ الدولة العلية مطاليب الدولة الروسية الباهظة فاتخذ رشيد باشا الاحتياطات اللازمة فاودع المسألة حالاً الى مؤتمر فيانه وطلب تسويتها وفقاً لقانوني الدول والملل . فاصدر المؤتمر لائحة الى الدولتين فقبلتها الروسية ولم تقبلها الدولة العلية لاشتمالها على شروط تحتاج الى التعديل فطلبت تعديلها واجراء المذاكرات بذلك فصرحت الدول الاوربية بانها لا تستطيع معاضدة الدولة العلية واذا لم تقبل بالشروط المذكورة فالمسئولية تعود عليها اذا آلت الحال الى حرب

فنهض رشيد باشا حينئذ بهمة وغيرة فائقتين وجمع الوكلاء والوزراء والعلماء والامراء والمأمورين والاعيان في الباب العالي بموجب ارادة سنية وشرح المسألة وابان لهم ان بعض مواد تلك اللائحة مخل بحقوق الدولة العلية وان الدولة الروسية لم تقبل تلك الشروط الا رغبة بمواد فيها قابلة للتأويل . ثم أخذ رأيهم ودارت المذاكرات بذلك فاعلنت الدولة العلية الحرب على دولة روسيا سنة ١٢٦٩ هـ وكان

رشيد باشا عالماً بقصور الدولة عن مناهضة الروس اذ ذاك ولكنه رأى قبول الشروط اكثر ضرراً من الحرب فاختار اهون الشرين . ولم تمض برهة على ذلك حتى تأكدت فرنسا وانجترا وسردينيا ان الدولة الروسية قد تجاوزت الحد فاعلنّ عليها الحرب واوقفنها وكانت نتيجة تلك الحرب الاعتراف بحقوق الدولة العلية وادخالها في عداد الدول الاوربية سنة ١٢٧٣ هـ وهذا ما كان يتماه رشيد باشا ويسهر الليل والنهار لاجله وهي خدمة تكفي لتخليد ذكره الى الابد

وكان رحمه الله طويل الباع في الكتابة والاوراق المحفوظة الآن بخطه في الباب العالي دليل واضح على ذلك

وفي سنة ١٢٧٤ هـ وافاه الاجل فلباه واودع حسرة في قلوب العثمانيين كافة ولم يزل العثمانيون يذكرون اسمه بكل احترام واكرام





ش ٦٢ : فؤاد باشا

السياسي العثماني الشهير

ولد سنه ١٢٣٠ ه وتوفي سنة ١٢٨٥ ه

ولد في الاستانة سنة ١٢٣٠ ه ووالده عزت ملا بن كيجه زاده احد الشعراء والعلماء في زمانه . سلك فؤاد باشا في عهد شبيبته المسلك العلمي ثم دخل المكتب الطبي الذي اسسه السلطان محمود الثاني في سراي غلطة وحصل فيه العلوم الطبية بنسبة زمانه واستعداده وارتقى لرتبة قائمقام . وعند ذهاب طاهر باشا بن جنكل والياً لولاية طرابلس الغرب تعين فؤاد « افندي » طبيباً للآلاي في معيته

وفي سنة ١٢٥٣ كان مصطفى رشيد باشا في نظارة الخارجية وتوسم في صاحب الترجمة مستقبلاً عظيماً في السياسة فحرضه على ترك الطب فتركه وتعين مترجماً في الباب العالي . ثم صار مترجماً اول للديوان الهمايوني . وفي سنة ١٢٥٤ ه سافر رشيد باشا الى لوندره سفيرًا موقتاً فاصطحب فؤاد افندي كاتباً اول للسفارة

المذكورة . وبقي المشار اليه في لوندرة ثلاث سنوات ثم عزل الى الاستانة وبقي فيها سنتين معتزلاً

ولما تعين رشيد باشا سفيراً في باريس للمرة الخامسة تعين فؤاد افندي سفيراً موقتاً لاسبانيا والبرتغال وبقي فيها سنتين وبعد عودته للاستانة نال الرتبة الثانية المتمايزة وتعين ترجماناً للديوان الهمايوني في شهر جمادى الآخر من سنة ١٢٦١ وفي ربيع اول سنة ١٢٦٣ احسن اليه بالرتبة الاولى من الصنف الاول وتعين في ديوان آمدىء همايون) اي ديوان الاستقبال الهمايوني

وفي سنة ١٢٦٥ هـ ارسل الى عاصمة الفلاخ والبغدان بمأمورية مخصوصة فقام بها حق القيام وبرهن على ما فطر عليه من الاقتدار الباهر فأرسل من هنالك الى بطرسبرج سفيراً وفي اثناء وجوده في بطرسبرج عين مستشاراً للصدارة العظمى واعطيت له رتبة بالا في محرم سنة ١٢٦٨

وهذه اول خطوة خطاها نحو مرامي الشهرة البعيدة والمجد الباذخ ثم ارسل الى مصر بمأمورية مخصوصة بتعليمات من رشيد باشا فتكال سعيه بالنجاح وحصل على رضاء السلطان عبد المجيد ورشيد باشا ومدحه على اجراآته وولاَّه السلطان نظارة الخارجية مكافأة له . وكان فؤاد افندي الى هذا التاريخ مديناً بما احرزه من التقدم الى رشيد باشا وغريس نعمته لكنه بعد ذلك حالف رشيد باشا في مسلكه السياسي ووطد اركان اقباله بالاتحاد مع عالي باشا تارة والانفراد بنفسه تارة اخرى

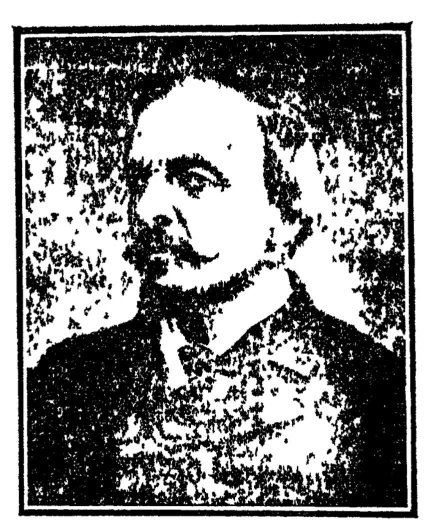
وكان المنتظر من فؤاد باشا تعضيد رشيد باشا ومضافرته في كبح من يعارضه في ترقية الامة والوطن لا مخالفته والتهالك وراء الرفعة والاقبال . وحب ترقية الامة الذي كان فؤاد باشا مفطوراً عليه يقضي عليه بذلك

وفي محاربة القرم ارسل الى يانيه لتأديب اشقياء اليونان فتمكن من اعادة الامن لتلك الجهات في ستة اشهر وفي سنة ١٢٧١ وجهت اليه رتبة الوزارة

وفي سنة ١٨٥٦ تعين مندوبا لمؤتمر باريس المنعقد لعمل معاهدة السنة

المذكورة وكان ناظراً للخارجية في ذلك التاريخ ورافق عالي با بصفته مرخص ثان.
اه — هذا ما رواه ابو الضياء من ترجمة هذا الرجل في كتابه «نمونه ادبيات»

وفي سنة ١٢٧٦ ﻫ (١٨٦٠) حدثت الحوادث الشهيرة في بلاد الشام فاهتمت اوربا بشؤون المسيحيين فيها . وكان البادئ بذلك الاهتمام فرنسا فخابرت انكلترا واتفقتا على تكليف الباب العالي بتشكيل لجنة دولية من مندوب عثماني ومندوبين



الشكل ٦٣ المارکیز دفرين

من سائر الدول العظمى تسير الى سوريا للبحث عن اسباب تلك الفتن ومعاقبة مسببيها وتقرير الخطة التي تضمن الامن في المستقبل . وان يرفعوا بذلك تقريراً الى الباب العالي . فتشكلت اللجنة المشار اليها واعضاؤها هم

فؤاد باشا من قبل الدولة العلية

اللورد دفرين	من قبل انكلترا
الموسيو بيكلاو	« « فرنسا
« نوفيكوف	« « روسيا
« ويكبيكر	« « اوستريا
« ريفوس	« « بروسيا

واجتمعت اللجنة اجتماعها الاول في بيروت في ٥ نوفمبر سنة ١٨٦٠ ثم واصلت الاجتماع خمسة اشهر متوالية دارت في اثنائها المداولات للقيام بالمهمة التي تألفت اللجنة لاجلها واهمها (١) اعادة النظام والامن (٢) ارجاع المسيحيين المهاجرين الى قراهم وبلادهم (٣) تقدير ما لحقهم من الخسائر وتعويضها عليهم (٤) تعيين الاشخاص الذين سببوا تلك الثورة ومقاصتهم ٥ الاتفاق على حكومة تضمن للبنانيين ارواحهم واموالهم وراحتهم . وقد طال البحث في تفاصيل هذه الشؤون واحتدم الجدال خصوصاً بين فؤاد باشا المندوب العثماني واللورد دفرين المندوب الانكليزي وكلاهما من اعظم رجال السياسة

فكتبت القوائم باسماء المنكوبين حسب قراهم ومقاطعاتهم ودفعت لهم مساعدة وقتية فأصاب كل واحد منهم نحو عشرة غروش مصرية . وفرقوا فيهم الدقيق والاقمشة وانشأوا المستشفيات لجرحاهم ومرضاهم ونحو ذلك مما يخفف مصائبهم وقتياً

فلما سدَّ الناس رمقهم عادت اللجنة الى البحث عن مقدار التعويضات اللازمة فقدروا خسائر اللبنانيين وحدها بثلاثة ملايين جنيه وشخصت اللجنة الى دمشق للنظر في ما لحق تلك المدينة ايضاً فقدروا خسارتها بمليون جنيه . فرجعت اللجنة الى بيروت لاعادة النظر في هذه الشؤون فجعلوا خسائر دمشق ٧٠٠,٠٠٠ جنيه فقط وقرروا ان يجمع هذا المال من مسلمي الولاية ثم والت اللجنة اجتماعاتها والآراء مضطربة . وفي اجتماعها الخامس عشر صرح فؤاد باشا ان مسألة التعويضات اصبحت من خصائص الاستانة وللباب العالي وحده الحق في ذلك فارادت اللجنة مقاومته والاعتراض على قوله فلم تفلح وبعد مخابرات طويلة تقرر ان تكون

تعويضات دمشق ٣٥٠,٠٠٠ جنيه فقط تدفع تدريجاً . وطال الجدال ايضاً في المسائل الاخرى مثل معاقبة الجانين ومحاكمتهم واظهر اللورد دفرين ورفقائه ثباتاً كثيراً ولكن فؤاد باشا تغلب عليهم واجرى ما رآه اضمن لمصلحة دولته واحفظ لاستقلالها والدول الاوربية تراه مجحفاً بحقوق المسيحيين هناك

وكان في جملة مطالبهم سرعة تنفيذ القصاص على الدروز الذين ثبتت الجناية عليهم ولكن فواد باشا تغلب على سياستهم في ذلك واجل القصاص وغيَّر اوجه المسألة وخفف الجريمة فانتهت تلك المهمة الى ما هو مشهور من امرها وقد تغلب فيها رأي فؤاد باشا بوجه الاجمال

وفي سياحة السلطان عبد العزيز الى اوربا الحق فواد باشا بمعيته لانه كان ناظرًا للخارجية . وتعين وكيلاً لعالي باشا الصدر عند سفره الى كريد ولبث فيها مدة سنة . واصيب فؤاد باشا في اواخر حياته بمرض في القلب اشتدت وطأته عليه حتى الزمه اطباء فرنسا الذهاب الى « نيس » فذهب اليها وتوفي فيها سنة ١٢٨٥ وعمره خمسون سنة وتقلد صاحب الترجمة منصب الخارجية خمس مرات ثلاث منها في عصر السلطان عبد المجيد واثنتان في عهد السلطان عبد العزيز والسرعسكرية . وتعين رئيساً للمجلس العالي (مجلس والا وكان فواد باشا في صدارته الاولى يوقع على الاوامر بختم محفور فيه عبارة (الوزير الاعظم محمد فواد) وفي صدارته الثانية انضمت له السرعسكرية واحسنت اليه الذات الشاهانية بعنوان (ياور اكرم مقبل صادق)

ولفؤاد باشا شهرة طائرة في عالم السياسة ويذكرون له وصية اصلاحية لم نقف عليها كلها



ش ٦٤ : محمد شريف باشا

ولد سنة ١٨٢٣ وتوفي سنة ١٨٨٧ م

هو الوزير الخطير الجامع بين العلم والسياسة والفضل والرئاسة والشهير بين اقرانه الوزراء بالغيرة على الوطن المصري غيرة خالصة من كل شائبة كما سيتضح لك من سيرة حياته رحمه الله

ولد في القاهرة في سنة ١٨٢٣ من عائلة تركية الاصل عريقة في الحسب والنسب وكان والده قد جاء الديار المصرية في ايام المغفور له محمد علي باشا بمنصب قاضي القضاة فاقام فيها زمناً ثم عاد الى الاستانة حتى اذن ساكن الجنان السلطان محمود الثاني نقاد الرجال بتقليده منصب القضاء في الحجاز فمرّ في طريقه بمصر اقام فيها اياماً وولده صاحب الترجمة معه وسنه اذ ذاك بضع سنين . وكان محمد علي باشا رحمه الله لحسن فراسته ينتقد الرجال بمجرد النظر اليهم فلما رأى الغلام تنبأ بعظم مواهبه وفرط ذكائه فاستبقاه عنده وجعله كاحد اولاده فادخله المدرسة العسكرية التي انشأها في الخانكاه بضواحي القاهرة وجعل فيها اولاده واولاد الامراء والاعيان . وبعد ان درس فيها مدة بعثه محمد علي باشا في الرسالة المصرية التي

كان يبعث بها الى اوربا للتخرج في العلوم وكانت تلك الرسالة مؤلفة من ثلاثة واربعين تلميذًا ارسلوا الى المدرسة المعدة لابناء مصر في باريس وكان في جملة تلك الرسالة محمدسعيد باشا ابن محمد علي والي مصر واسماعيل باشا الخديوي الاسبق وغيرهما من ابناء العائلة الخديوية وعلي باشا شريف وعلي باشا مبارك ومراد حلمي باشا وعلي باشا ابراهيم وغيرهم من ابناء الاعيان والوجهاء

وكان صاحب الترجمة رحمه الله ميالًا ميلا طبيعيًّا الى العلوم العسكرية والحركات الحربية ولا سيما في ابان شبيبته فاختار تعلمها لان التعلم كان في تلك الرسالة اختياريًّا فادخلته الحكومة مدرسة سان سير المعدة لتعليم الضباط العسكرية سنة ١٨٤٣ و بعد سنتين اتمَّ دروسها وامتاز عن رفاقه فانتقل منها الى مدرسة تطبيق العلوم العسكرية قضى فيها سنتين اظهر فيهما كل ما دل على النجابة والذكاء فانتظم في الجند الفرنساوي للتمرن عملاً بمقتضى قوانين تلك المدرسة حتى توفي المغفور له ابراهيم باشا ووالده محمد علي باشا سنة ١٨٤٩ م فلما تولى المرحوم عباس باشا حلمي الاول استرجع الرسالة المصرية فرجع صاحب الترجمة وقد نال رتبة يوزباشي اركان حرب في الجيش الفرنساوي والحق بالجيش المصري ولقب من الحين بالفرنساوي وما زال معروفاً بين عامة المصريين بشريف باشا الفرنساوي الى هذه الغاية

وكان اعظم قواد الجنود المصرية اذ ذاك سليمان باشا الفرنساوي (راجع ترجمته صفحة ١٦٥) فلما رجع صاحب الترجمة من فرنسا كما تقدم الحق باركان حرب سليمان باشا وتقرب منه حتى تمكنت علائق المودة بينهما كثيراً وبقي في الجيش المصري الى سنة ١٨٥٢ فلما رأى انه لم يرتقِ عن رتبته التي جاء بها من فرنسا اعتزل العسكرية ودخل في خدمة البرنس حليم باشا بوظيفة كاتب يده الى سنة ١٨٥٣ فلما توفي المرحوم عباس باشا الاول استقدمه خلفه سعيد باشا وانعم عليه بما كان يستحقه من الالتفات ورقاه الى رتبة اميرالاي لحرسه الخصوصي و بعد سنتين منحه رتبة لوا . اما علاقته مع سليمان باشا فكانت لا تزال ودية حتى

تصاهرا فتزوج صاحب الترجمة بابنة سليمان باشا واخذت مواهبه بالظهور من ذلك الحين فاشتهر بالحزم والعفة والاستقامة . فرأى المرحوم سعيد باشا ان الادارة أحوج اليه من العسكرية فعينه ناظراً للخارجية سنة ١٨٥٧ فلما توفي سعيد باشا سنة ١٨٦٣ خلفه اسماعيل باشا فعينه ناظراً للداخلية مع بقائه على الخارجية نظراً لما كان له من المنزلة الرفيعة في عينيه فاقام بما عهد اليه أحسن قيام واظهر من الغيرة الوطنية والاخلاص في خدمة الديار المصرية ما زاد مولاه ثقة فيه حتى ولاه سنة ١٨٦٥ النيابة الخديوية اثناء غيابه في الاستانة العلية

ولما عاد اسماعيل باشا من الاستانة قلده نظارة المعارف مع نظارة الخارجية ثم رئاسة مجلسه الخصوصي سنة ١٨٦٧ ثم مناصب أخرى حتى لم يبق منصب من المناصب المصرية الرفيعة الا تقلده بين داخلية وخارجية وحقانية ورئاسة مجلس النظار وغيرها في ايامه وايام الخديوي السابق المرحوم محمد توفيق باشا

وكان صاحب الترجمة معروفا بين الاهالي بالوطنية الخالصة حتى ان الاحزاب العرابية الذين قاموا بالدعوة الوطنية ولم يثقوا باحد من وزراء مصر تقريبا ولم يرضوا سواه لتولي رئاسة مجلس النظار يوم حادثة عابدين الشهيرة وقد تردد زمناً في قبولها لما كانت فيه البلاد من الاضطراب ولكنه قبل بها غيرة على الامن العام . وهو الذي اسس مجلس النواب المصري مراعاة للامر الخديوي ولرغبة الاحزاب الوطنية اذ ذاك ولما اشتدت الازمة العرابية تنحى عن الوزارة ثم عاد اليها بعد تدمير الاسكندرية وبقي فيها الى عام ١٨٨٤ فتنحى عنها ولم يعد يتولاها ولا سواها من مناصب الحكومة

وتنحيه هذا جاء مؤيداً لاخلاصه للوطن المصري وصدق طويته وعزة نفسه — وسببه ان المتمهدي السوداني كان قد استفحل امره في الاقطار السودانية البعيدة وافتتح كردوفان ودارفور وتهدد الخرطوم وكانت الحكومة المصرية قد بعثت حملة هيكس باشا وبادت عن آخرها فاشارت الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وتركها للعصاة فلم يقبل شريف باشا بتلك المشورة بدعوى ان السودان

كلفت الحكومة المصرية مالا ورجالاً منذ افتتحها محمد علي باشا الى ذلك الحين وهي مصدر ثروة تجاري للقطر المصري فضلاً عما يتهدد مصر من الخطر بسبب اخلائها الى غير ذلك من الادلة القاطعة ولكن الانكليز اصروا على مشورتهم وطالت المخابرات بين مصر ولندره وهو لم يتحول عن رايه . ولما رأى من الحكومة المصرية ميلا لموافقة الحكومة الانكليزية تنحى عن الوزارة حتى لا يكون هو المؤذن باخلاء تلك الاقطار ولكي لا يجري عملاً غير مطابق لما يناجيه به ضميره . ومن تتبع الحوادث المصرية السودانية من وزارة شريف باشا الاخيرة الى الان يتحقق صواب رأيه وافضلية استبقاء الاصقاع السودانية تحت كنف الحكومة المصرية ولكن حكم القضاء ونفذ المقدر

وبقي رحمه الله معتزلا الاعمال الادارية منقطعاً الى الدرس والمطالعة حتى اصيب بداء الكبد في اوائل سنة ١٨٨٧ م فاشار عليه الاطباء بتغيير الهواء فسافر الى الاقطار الاوروية ولم يكد يصل مدينة غراتس من اعمال النمسا حتى فاجأه المنون فتوفاه الله عن ٦٤ عاماً . ولما بلغ الحكومة الخديوية امرت باقفال الدواوين يوماً كاملاً حداداً عليه وبعث رئيس النظار رسالة برقية الى ابن الفقيد يقول فيها « اننا اسفنا على الفقيد بقدر حبنا له »

وجيء بجثته الى القاهرة في ٢٧ افريل (نيسان) من تلك السنة ودفن بالتجلة والاكرام والناس يتأسفون على فقده ويستمطرون عليه الرحمة والرضوان

وكان شريف باشا حسن الخلق والخلق مهيبا جليلا ممتلئ البدن طويل القامة تظهر في عينيه وجبينه ملامح الذكاء وحدة الذهن وكان متمكنا من اكثر العلوم العصرية وخصوصاً علم الفلك حليم الطبع لين العريكة وقد اجمع المصريون على ولائه ونال من انعام الحكومة الخديوية والحضرة الشاهانية وسائر الدول العظام من الرتب والنياشين ما تتحلى به صدور الرجال وتفتخر بنيله كرام الانام رحمه الله وتغمده برحمته ورضوانه



ش ٦٥ : رستم باشا
(ولد سنة ١٨٠٦ م وتوفي سنة ١٨٩٥)

هو الوزير العثماني الشهير سفير الدولة العلية في لندرا مؤخراً واصله ايطالي ولد سنة ١٨٠٦ من عائلة كونتية عريقة في الحسب والنسب ولكنه انتظم في خدمة الدولة العلية وتخلق باخلاق رجالها واتقن لغتهم فصلا عن لغته ولغات اخرى كما فعل كثير من خدمة الدولة العلية من الاوربيين وكانوا غالباً اذا انتظموا في سلك خدمتها اعتنقوا الاسلام . اما رستم باشا فبقي على مذهب آبائه وهو النصرانية وكان منذ نعومة اظفاره جريئا مقداما حاد الذهن ذكيا فما لبث ان انتظم في خدمتها حتى اخذ يرتقي ويتقلب في المناصب حتى تعين سفيراً للدولة العلية في ايطاليا على عهد ملكها فيكتور عمانوئيل الثاني ومـا زال في ذلك المنصب الى سنة ١٨٧٣ فاستقدمه الباب العالي ليتولى متصرفية لبنان

وكان الجبل قد حال بين احكامه والعدل نفوذ ذوي الوجاهة والرئاسة وخصوصاً

طائفة الاكليروس وكان رستم باشا لحزمه وصرامته يتوخى القسط ولا يقبل الوساطة فشق ذلك على بعض جماعة الاكليروس وحاولوا استخدام نفوذهم فلم يروا منه الا البقاء على عزمه فنتج عن ذلك نفور بينه و بين جماعة منهم . وتمكن النفور حتى آل الى حكمه على المطران بطرس البستاني بالنفي الى القدس سنة ١٨٧٩ بواسطة قنصل فرنسا لنفور موقت كان بينهما . والمطران المشار اليه من ذوي الرأي والوجاهة والكلمة النافذة في الطائفة المارونية فتزعزعت اركان لبنان واشتدت الازمة فعادت فرنسا النظر في الامر فتحققت خطأ قنصلها فعزلته ووافقت الدولة العلية على اعادة المطران الى كرسيه . على ان هذا الحادث كان عبرة لسائر الاحزاب والعصب في لبنان فسارت الاحكام على ما يرام من العدالة والقسط وساد الامن وعرف كل ذي حق حقه

و يقول المدافعون عن المطران بطرس ان سبب النفرة بينه و بين رستم باشا ذود المطران عن حقوق منحتها الدولة العلية لمواطنيه فاغرى رستم باشا ان تقويض نظام لبنان واثقال كاهله بضرائب جديدة يكسبانه رضاء الباب العالي ولعلمه انه لا يستطيع التسلط على اعضاء الادارة والمطران على يمينه سعى في ابعاده

و بقي رستم باشا في ولايته هذه عشر سنوات ولا يزال اهل الشام كافة وخصوصاً اهل لبنان يتذكرون حكمه وعدالته وقد شهد عقلاؤهم على اختلاف اغراضهم ونزعاتهم ان ولايته على لبنان خطت به خطوة كبرى نحو الاصلاح والتمدن . وفي سنة ١٨٨٣ عند انتهاء المدة المعينة لحكمه ابدل بالمرحوم واصه باشا فتوفي سنة ١٨٩٢ فخلفه دولتلو نعوم باشا ثم ابدل سنة ١٩٠٢ بمظفر باشا

أما رستم باشا فتعين سفيراً للدولة العلية في لندرا وهي اخطر سفاراتها وذلك دليل على ثقة الدولة به وما زال هناك حتى توفاه الله سنة ١٨٩٥ وله من العمر زهاء تسعين سنة ولم يخلف عقباً

وكان ربما نحيفاً سريع الحركة حاد العينين والذهن صارماً حراً وقد نال بسبب ذلك شهرة كبرى لدى رجال أوربا حتى صرح اللورد سالسبوري وهو

يذكر وفاته ان بموته ماتت رجال الدولة العثمانية كانه يريد انه فريد في الدولة وهو قول لا يخلو من المبالغة ولكنه يدل على منزلة هذا الرجل عند قهارمة السياسة في اوربا



ش ٦٦ نوبار باشا

احد وزراء مصر العظام

(ولد سنة ١٨٢٥ وتوفي سنة ١٨٩٩)

امتازت مصر عن سائر ممالك الارض بتعدد الجنسيات واختلاط اهلها بسائر

اصناف الناس وقد خدم حكومتها رجال من امم شتى وفيهم الفرنساويون والانكليز والالمان وغيرهم من امم اوربا . والاتراك والارناؤوط والارمن والشركس والسوريون وغيرهم من رعايا الدولة العلية

وقد تناوب رئاسة وزارتها من اول عهد العائلة الخديوية الى امد غير بعيد ثلاثة من كبار الوزراء اثنان تركيان هما المرحوم شريف باشا وصاحب الدولة رياض باشا وواحد ارمني هو نوبار باشا صاحب الترجمة . وقد اشتهر الارمن بالاقدام وعلو الهمة والذكاء والثبات وقضت عليهم بيئتهم بالاغتراب وتجشم الاسفار التماساً للرزق بعرق الجبين والصبر والمواظبة فلم يعدموا حيثما حلوا نصيباً حسناً من ثمار اتعابهم . فنبغ بينهم رجال اشتهروا بالسياسة وآخرون بالثروة ومنهم في الاستانة جماعة كبيرة من اهل اليسار وجاء بعضهم مصر على عهد المغفور له محمد علي باشا فتولوا أعظم المناصب الادارية وخدموا الحكومة المصرية خدمات تستحق الاعتبار . اشهرهم بوغوص بك وارتين بك ونوبار باشا

ولد نوبار باشا في ازمير من اعمال اسيا الصغرى سنة ١٨٢٥ وتلقى العلم في مدارس سويسرا ثم فرنسا فخرج من المدرسة وهو في السابعة عشرة من عمره ونفسه تتطلب المعالي فقدم الديار المصرية سنة ١٨٤١ وقد حبب اليه الاقامة فيها بوغوص بك وكان ناظراً للتجارة والامور الخارجية فيها على عهد المغفور له محمد علي باشا وكان من ذوي قرابته فقدمه الى محمد علي فعينه سكرتيراً للامور الاجنبية ثم صار سنة ١٨٤٤ سكرتيراً ثانياً ومترجماً في مجلس محمد علي . ولم يمض قليل حتى ظهرت نجابته وعرف قدره فارتقى الى رتبة سكرتير اول ومترجم للمغفور له ابراهيم باشا . ولما شخص هذا القائد العظيم الى اوربا لتبديل الهواء سنة ١٨٤٥ سار نوبار في معيته وشهد ما لاقاه ابراهيم هناك من الحفاوة والاكرام

وفي سنة ١٨٤٨ توفي محمد علي وابراهيم وارتقى عباس باشا الاول الى منصة الاحكام فادخل نوبار في خدمته كما كان عند عمه ابرهيم ورقاه الى الرتبة الثانية مع لقب بك وحدث خلاف يتعلق بحقوق ورتة الاريكة المصرية فانفذه عباس باشا

الى لندرا سنة ١٨٥٠ لاثبات تلك الحقوق فعاد منها ظافراً فعرف عباس باشا له ذلك فلم يصبر عن مكافأته فسماه وزيرًا وهو في فينا . وما زال في هذا المنصب حتى توفي هذا الوالي سنة ١٨٥٤ وتولى عمه سعيد فاسرع هذا الى خلعه . ولم تمض سنتان حتى استقدمه وعهد اليه انشاء مصلحة تتولى شؤون البضائع الصادرة الى الهند فقام بتلك المهمة قياماً دل على ذكائه وحكمته

فلما تولى اسماعيل باشا الخديوي الاسبق سنة ١٨٦٣ انتدبه للسير الى الاستانة لهذا الشأن وللمفاوضة بأمور اخرى هامة . فلما عاد انعم عليه اسماعيل باشا بالرتبة المتمايزة و بعد قليل نال رتبة اللواء من السلطان عبد العزيز اثناء مروره بالاسكندرية في سياحته الى اوربا . ولم يزدد اسماعيل باشا الا ثقة في نوبار واعتماداً عليه فلما نشأت مشكلة قنال السويس بين الحكومة المصرية وشركة القنال سنة ١٨٦٤ عهد اليه السعي في حلها فسوَّى ذلك على اسلوب رضي به الفريقان. فعينه اسماعيل باشا عند عودته ناظراً للاشغال العمومية . وفي سنة ١٨٦٦ وكل اليه وزارة الخارجية

وفي السنة التالية دارت المخابرات بين الباب العالي واسماعيل باشا بشأن وراثة الحكم وكانت لا تزال في اكبر اعضاء العائلة واسماعيل يريدحصرها في نسله فانفذ نوبار باشا الى الاستانة لتسوية ذلك فعاد اليه بالفرمان القاضي بترقيتــه الى رتبة الخديوية مع توسيع دائرة استقلاله وحصر الحكومة في نسله

وفي تلك السنة شخص نوبار باشا الى اوربا مندوباً مفوضاً من اسماعيل باشا لمخابرة الدول العظمى في انشاء محاكم مختلطة تقوم مقام المحاكم القنصلية التي كانت مرجع محاكمة الاجانب في ذلك الحين فقضى في سعيه هذا سبع سنوات يتردد في اثنائها بين ممالك اوربا و يفاوض عظماءها وملوكها والخزينة المصرية مفتوحة بين يديه فانفق اموالاً طائلة ولكنه عاد ظافرًا غانماً . وكان قد عهد اليه سنة ١٨٦٧ ايضاً النيابة عن الحكومة المصرية في مؤتمر النقود في باريس فحضره

ولما قضى مهمته في انشاء المحاكم المختلطة عام ١٨٧٤ اعتزل الاعمال مدة ثم

عاد اليها

واصاب مصر في اثناء ذلك ازمة مالية مما تراكم عليها من الديون لما اتاه اسماعيل من النفقات في سبيل عمارة القاهرة وغيرهـا كما هو مشهور حتى افضى الامر الى مراقبة الدول والسعي في غلّ يديه وضبط الميزانية والاقتصاد فيها ورأت الدول ان تقيد حكومته بالشورى فاقترحت عليه تشكيل مجلس النظار على ما هو عليه الآن فلم ير اسماعيل خيراً من نوبار لتشكيل ذلك المجلس فاستقدمه اليه وكلفه بذلك سنة ١٨٧٨ فألفه وجعل في جملة اعضائه عضوين اجنبيين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن والآخر فرنساوي وهو المسيو دي بليفير يراقبان سير الاعمال بالنيابة عن انكلترا وفرنسا . ولكن ذلك لم يكن ليرضي اسماعيل باشا فلم تمض على تلك الوزارة الشورية سبعة اشهر حتى حلها اسماعيل فحدثت ثورة عسكرية نسبها الى الوزيرين الاجنبيين وحمل نوبار على خلعهما ليلقي تبعة الامر عليه فاستعفى نوبار وكان ما كان على أثر ذلك من تداخل الدول في خلع الخديوي فصدر الامر الشاهاني في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ بخلع اسماعيل باشا وتولية نجله المنفور له توفيق باشا الخديوي السابق وسافر نوبار باشا من مصر . على انه كان يتردد اليها حيناً بعد آخر فحدثت الثورة العرابية وعقبتها الحوادث السودانية فظهر المهدي وفتح كردوفان ونوبار باشا معتزل الاعمال مشتغل بأحواله الشخصية . ثم استفحل امر المهدي واشارت انكلترا على الحكومة المصرية سنة ١٨٨٤ باخلاء السودان والتخلي عنه للدراويش وكانت الوزارة المصرية اذ ذاك برئاسة المرحوم الطيب الذكر شريف باشا فلم يوافق انكلترا على مشورتها فالحت عليه ففضل الاستقالة على ركوب ذلك الخطأ فاستقدم الخديوي نوبار باشا وعهد اليه تشكيل وزارة جديدة فشكلها وتولى هو ايضاً نظارة الخارجية ووافق انكلترا على اخلاء السودان . وما زال في ذلك المنصب الى ٧ يونيو سنة ١٨٨٨ فاستقال منه وانقطع الى خصوصياته حتى أصابه المرض الاخير فسافر الى اوربا للاستشفاء فادركه القدر المحتوم هنالك فنقلت جثته الى مصر ودفنت فيها بما لاق بمقامه من الاكرام والوقار

فترى مما تقدم ان صاحب الترجمة خدم الحكومة المصرية خدمات ذات بال فعاصر كل ولاتها من محمد علي باشا الى الخديوي الحالي عباس باشا الثاني وهو يعمل بنشاط وحكمة فلم يقم فيها مشروع عظيم الا كانت له فيه باع طولى . وقد نال من رتب الدولة العلية الى رتبة المشيرية وحاز نياشين شتى منها ونيشان اوفيسيه دي لجيون دنور دونور من الحكومة الفرنساوية وغير ذلك

وكان رحمه الله ذكياً حازماً حسن السياسة لين العريكة وقد احرز ثروة طائلة وهو يعد من اغنى سكان وادي النيل . وكان كريماً غيوراً على مصلحة ابناء جلدته فنال الارمن في ايام وزارته مساعدات كثيرة بذل لهم فيها المال الكثير



ش ٦٧ : جواد باشا

ولد سنة ١٢٦٧ هـ وتوفي سنة ١٣١٨ هـ

هو نجل المرحوم مصطفى عاصم بك من اعضاء دار الشورى العسكرية المعروف بقبا اغاجلي واصله من بلدة قرا حصار . ولد صاحب الترجمة في دمشق

الشام سنة ١٢٦٥ (رومية) الموافق ١٢٦٧ للهجرة . فسماه والده « احمد جواد » ليدل جُمله على سنة ولادته . وتلقى مبادى العلم في مدارس بورصه واتمه في الاستانة ونال الشهادة العسكرية الرسمية واتقن اللغتين التركية والفرنساوية مع مبادىء اللسان العربي

فخرج من المدرسة وفيه ميل شديد الى خدمة العلم فألف كتابين احدهما « المعلومات الكافية في الممالك العثمانية » والآخر « تاريخ عسكري عثماني » ثم أنشأ مجلة سماها « بادكار » اي « تذكار » اصدر منها ٢٤ عدداً فقط . وترجم رسالة في علم الهيئة الى اللغة التركية سماها (سماء) واخرى في تطبيق الصناعة على الكيمياء واخرى في المباحث الرياضية الدقيقة . وشرع في تأليف تاريخ مطول للدولة العثمانية لكنه مات قبل اتمامه

فترى مما تقدم ان الفقيد فطر على حب العلم فجعل الاشتغال فيه باكورة اعماله ولكن الاحوال قضت عليه بعد ذلك بالتحول الى السياسة والادارة فانتظم في خدمة الحضرة الشاهانية وارتقى فيها حتى صار من القرناء برتبة بكباشي سنة ١٢٨٩ ﻫ ثم عين استاذاً للرياضات في المكتب الهندسي الملكي ثم مأموراً في الفيلق الخامس في دمشق الشام مسقط رأسه . ويذكرون من مآثره في تلك الخدمة انه بنى ثكنة عسكرية في جبل الدروز فكوفىء بزيادة راتبه . وما زال في ذلك الفيلق حتى انتشبت الحرب في السرب فنقل الى جند الطونة رئيساً لاركان حرب عزيز باشا وهناك ارتقى الى رتبة قائمقام سنة ١٢٩٣ ﻫ ثم صار رئيساً لاركان حرب نجيب باشا ثم ارتقى الى رتبة امير الاي . وتنقل في عدة قومندانيات تولى رئاسة اركان حربها في تلك الاثناء . وشهد مواقع ستان كوي وفانسلوي وعين بعد عقد الصلح مندوباً ثانياً لتحديد تخوم السرب بمكافأة شهرية مقدارها ٢٥٠٠٠ غرش فوق راتبه الاصلي ثم صار مندوباً أول ولما انتهت مهمة الحدود انعم عليه ملك السرب بنيشان طاقوا من الدرجة الثالثة

ولما توجه المشير مختار باشا الغازي لتحديد تخوم اليونان صحبه جواد باشا . ثم



ش ٦٨ مختار باشا الغازي

تعين على تخوم الروس من جهة الاناطول وانتهى أخيراً الى تخوم بايزيد واحسنت عليه الدولة العلية اذ ذاك بالنشان العثماني الثالث واهداه القيصر نشان القديسة حنة من الدرجة الثانية

وما زال يرتقي من منصب الى آخر في الاستانة وفي الجبل الاسود وتوالى عليه الانعام والنياشين والرتب حتى صار سنة ١٣٠٦هـ فريقاً . وكان عضواً في لجنة التفتيش العسكري فانتقل الى رئاسة اركان حرب جزيرة كريد ثم صار وكيلاً لها ثم تعين والياً على كريد واحسن اليه بالميدالية الذهبية . وفي سنة ١٣٠٨ هـ ارتقى الى رتبة المشيرية وصار راتبه ٣٢٥٠٠ وفي السنة التالية وجهاليه مسند الصدارة العظمى

وانعم عليه بالنيشان المرصع العثماني ولقب بياور اكرم . ثم اهدي اليه النيشان المجيدي المرصع وتقلد ميدالية اللياقة الذهبية فنشان الافتخار المرصع فمدالية الصنائع النفيسة فنشان الامتياز المرصع

وتوالت عليه الوسامات من الدول الاجنبية غير ما تقدم . فنال من ملك السرب نشان طاقوا من الدرجة الاولى ومن حضرة البابا نشان بي نوف الاول ومن امبراطور المانيا نشان النسر الاحمر المرصع ومن جمهورية فرنسا نشان اللجيون دونور الاول ومن شاه ايران نشان شير خورشيد المرصع ومن ملكة اسبانيا نشان الصليب الاول فضلاً عن مداليات الجمعيات العلمية وغيرها

وفي اواخر سنة ١٣١٢ فصل من الصدارة العظمى وتقلب في مناصب مختلفة في كريد وانتدب سنة ١٣١٤ لاستقبال امبراطور المانيا اثناء زيارته فلسطين وتعين على إثر ذلك مشيراً للفيلق الهمايوني الخامس بدمشق وما زال في هذا المنصب حتى اعتل مزاجه فانتقل الى الاستانه قضى فيها بضعة ايام ثم وافاه الاجل المحتوم





ش ٦٩ : احمد عرابي المصري

ولد سنة ١٢٥٧ هـ ونفي سنة ١٣٠٠ هـ وعاد من منفاه سنة ١٣١٩ هـ

نشرنا ترجمة هذا الرجل مراراً في تاريخ مصر الحديث وفي الهلال ثم كتب هو الينا ترجمة حياته بخط يده فآثرنا نشرها دون سواها ومن اراد زيادة التفصيل فليراجع الحوادث العرابية في كتابنا تاريخ مصر الحديث وفي اهلة السنة الخامسة والسنة التاسعة واما ما يقوله احمد عرابي عن نفسه فهو : —

﴿ نشأتي الاولى ﴾ ولدت في ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هـ من ابوين شريفين من ذرية العارف بالله السيدصالح البلاسي البطائحي ومقامه الشريف بقرية فاقوس بمديرية الشرقية وهو اول من قدم الى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق في اواسط

القرن السابع للهجرة وهو من ذرية الامام علي الرضا بن الامام موسى الكاظم من سلالة الامام الحسين بن علي بن ابي طالب وابن فاطمة الزهراء البتول بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم . واسم والدي محمد عرابي بن السيد محمد وفى بن السيد محمد غنيم بن السيد ابراهيم بن السيد عبد الله الى آخر السلسلة الشريفة . واسم والدتي فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد تجتمع مع والدي في جدي الثالث عشر المسمى ابراهيم مقلد رحمه الله تعالى. ومولدي كان بقريةهرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي بندر الزقازيق وهي بلدة قديمة جدًّا من ضواحي مدينة بوباسطة كرسي مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق ابن نمرود التي يقال لها الان (تل بسطة) . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها وكان والدي رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى ان توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ ﻫ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة واربعة اولاد وست بنات . وكنت ثاني اولاده الذكور وسني ٨ سنوات وترك لنا ٧٠ فداناً ولو شاء لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله تعالى يراعي صالح ابناء عمومته حيث ان اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة باسماء المشايخ توزعونها بمعرفتهم على اهل بلادهم بحسب الاحتياج الى عهد المغفور له عباس باشا الاول وهو اول من كلف الاطيان باسماء الافراد والزمهم بدفع خراجها وما زاد عنهم يترك للميري ويسمونه المتروك . وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان عالماً فاضلاً تقياً نقيا اقام بالجامع الازهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشائخ كشيخ الاسلام القويسني رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار — ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية المذكورة وفيه اربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة وانشأ بجوار المسجد مكتباً لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيهاً صالحاً عالماً يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازي والزم الاهالي بتعليم اولادهم وكان رحمه الله يشدد عليهم في ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة

يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهاً عالما ومنهم المرحوم الشيخ محمــد حسين المراوي من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصيلحي نفع الله به المسلمين . فلما بلغ سني ٥ سنوات ارسلني والدي الى المكتب المذكور . فاقمت فيه ثلاثة اعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمري اذ ذاك ثماني سنين و بضعة شهور فلما توفي والدي كلفني اخي الاكبر المرحوم السيد محمد عرابي الذي توفي في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى واخذت عنه مبادىء علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض اشغال الزراعة ثم بدا لي المجاورة في الازهر حين بلغت اثني عشر عاما فكنت اجود القرآن على أقاربي واهل بلدي نهاراً واتوجه الى بيت عمتي ليلا وتلقيت شيئاً قليلاً من الفقه والنحو و بعد سنتين رجعت الى بلدي

﴿ سعيد باشا ﴾ وكان المرحوم سعيد باشا عليه سحائب الرحمة والرضوان قد تولى الحكومة الخديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ وامر بدخول اولاد مشايخ البلاد واقاربهم في العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطــة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر في شهر ربيع اول عام ١٢٧١ وجعلت فيهــا وكيل بلوك امين من اول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضور ابراهيم بك امير الالاي وحسن افندي الالفي حكيم الالاي ثم ترقيت الى رتبة بلوك امين في شهر رجب من السنة المذكورة بعد اعادة الامتحان مع الطالبــين لذلك من غير واسطه احد غير الجد والاجتهاد . و بعد عام نظرت فرأيت بعض الباشجاوشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثاني وعلمت ان البلوك امين لا يرتقي الا الى رتبة الصول قول اغاسي وفيها يفنى عمره . فجزعت من ذلك وذهبت الى امير الالاي وطلبت منه ترتيبي في رتبة جاويش في اورطة كانت افرزت لارسالها الى مدينة المنصورة فسألني الامير الاي المذكور عن سبب ذلك حيث ان راتب الجاويش اقل ١٠ غروش من راتب البلوك امين وان كانت الرتبتان متساويتين فافصحت له عمــا خالج فكري واني اذا صرت جاويشاً سهل علي

الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط . فعجب لذلك الخاطر وامر في الحال بجعلي جاويشاً فمكثت في هذه الرتبة سنتين وفي تلك المدة حبب اليّ الاعتزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبير في معانيها حتى اتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة و بعض فصول من تعليم الالاي . وفي اوائل عام ١٢٧٤ امر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة قصر النيل و بلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقال — ان افندينا بلغه انكم تقولون في ما بينكم كيف يصير ترقي الصف ضباط الجدد وتأخير من هو اقدم منهم في الرتب وانه امر ان لا يترقى احد بعد الآن الا بعد الامتحان علما وعملا فمن فاق اقرانه في الامتحان ترقى الى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الاولى غير شهر واحد فمن اراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام . فعند ذلك تقدمت امام سعادته واحجم الآخرون خوفاً وهلعاً ظناً منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك . ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصاً فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسمعيل باشا الفريق فكنت اول فائز في الامتحان . ثم صار جميع الضباط والصف ضباط بمعرفة سعادة راتب باشا الذي كان وقتئذٍ امير الاي وصار طلبي امام الجميع ووضع في صدري نيشان الباشجاويش واعلن ترقيتي الى هذه الرتبة . و بعد عام اي في اول عام ١٢٧٥ صار امتحان الباشجاويشة بحضور سعادة راتب باشا ايضاً والمرحوم اسمعيل سليم باشا الفريق فكنت الفائز الاول وترقيت الى رتبة الملازم ثاني التي كنت ادأب في الحصول عليها منذ البدء . ثم بعد سبعة اشهر صار امتحان الضباط في القصر العالي فكنت اول فائز فيه وكتب اسمي في اول جدول الامتحان . ولما عرض الجدول على ساكن الجنان سعيد باشا امر باعادة امتحاني وانتدب لذلك المرحوم سليمان باشا الفرنساوي رئيس رجال العسكرية . فطلبت ثانيا الى الامتحان وكان يوماً مشهوداً و بعد الامتحان التمس سليمان باشا المشار اليه خروج الخديوي المرحوم الى ميدان الامام الشافعي رضي الله عنه وهناك يصير

امتحاني في الميدان باورطة من العساكر بحضرته الخديوية . فسأله الخديوى عما يقصده بذلك فقال انه مستحق لرتبة الميرالاى لان الذين ترقوا الى هذه الرتبة من المدارس الحربية لم يقروا في اجوبتهم مثله . فقال الخديوى رحمه الله تعالى لا يمكن ذلك . فقال له يحسن اليه على الاقل برتبة بكباشي فابى عليه ذلك وقال يلزم انه يتدرج في كل رتبة ليعرف واجباتها واحسن الي برتبة ملازم اول وامر باعتبار جدول هذا الامتحان وان يكون الترقي على مقتضاه بدون تجديد امتحان لمدة مجهولة وقبل مضي شهرين احسن عليَّ برتبة يوزباشي والتحقت بمعيته . وفي اوائل سنة ١٢٧٦ ترقيت الى رتبة صاغقول اغاسي في بني سويف

وبعد العودة الى مصر صار ختان المرحوم الطيب الذكر طوسن باشا النجل الوحيد للمرحوم سعيد باشا فأولم المرحوم الخديوى وليمة شائقة دعى اليها جميع اعضاء العائلة الخديوية في قبة عظيمة حضرها جميع الضباط والذوات وغيرهم من الاجانب وبعد الطعام انتصب الخديوي رحمه الله تعالى قائما وقال خطبة ارتجالية ذكر فيها « ان من امعن النظر في تاريخ بلادنا هذه وتوالى حوادثها المحزنة لا يسعه غير الاسف والتعجب كيف توالت الامم الاجنبية على اهلها وهم يظلمون سكانها كالكلدانيين والفرس قبل الاسلام والترك والاكراد والشركس وغيرهم بعد الاسلام وكلهم يفسدون ولا يصلحون واني عزمت على تثقيف ابناء البلاد وتهذيبهم وترقيتهم حتى تكون حكومة البلاد بايديهم بصفة كوني مصريا منهم وبالله الاستعانة » — فوقع هـذا الخطاب على من حضر من غير المصريين وقوع الصواعق وتهللت وجوه المصريين وشكروا ودعوا وانقضت الحفلة . ثم في اواخر سنة ١٢٧٦ ترقيت الى رتبة بكباشي وفي اوائل عام ١٢٧٧ احسن الي برتبة القائمقام الرفيعة كما احسن بها على السيد محمد باشا النادي وعلى المرحوم راشد باشا راقب الذي استشهد بحرب الحبشة في عام ١٢٩٣ وعلى المرحوم عثمان باشا رفقي الذي صار ناظراً للجهادية قبل الثورة الوطنية . فكنا اربعة قائمقامات اثنين مصريين واثنين شركسيين وكل منا استلم قيادة الاي بيادة . وفي السنة المذكورة سافرت

بمعية المرحوم سعيد باشا الى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة واتم السلام برتبة القائم مقام كما ذكرتم ذلك في كتابكم « تاريخ مصر الحديث »

وفي عام ١٢٧٨ رأى سعيد باشا ان الحكومة سقطت في دين يبلغ مقداره ٦ملايين جنيه مصري وذلك يساوي ايراد الحكومة في ذلك الوقت سنة كاملة تقريباً وكان ذلك المبلغ ثمن اسلحة ومهمات حربية وملبوسات وذخائر عسكرية موصى عليها في معامل اوربا ووردت بعد وفاته رحمه الله تعالى . فامر برفت جميع الالايات وأبقى اورطة واحدة كان فيها يوزباشي سعادة مصطفى فهمي باشا رئيس النظار الآن وعلي فهمي باشا الذي نفي معنا الى سيلان . وامر باستيداع الضباط بالمحافظات والمديريات على حسب رغبتهم ومن له بلد يتوجه الى بلده ويصرف لهم نصف مرتباتهم في مدة استيداعهم وامر ان تضاف مرتباتهم على الاطيان موقتاً ريثما يتم تسديد الدين . فخص الفدان الواحد ٥٠ فضة أي غرش واحد وربع . وقد حصل ذلك فعلاً ثم صار بيع الخيول ومأكولات العساكر ومفروشاتها وكانت من البوسطي وغيرها وكذا الفضيات الموجودة في خزائن الامتعة والمسافرخانات وكذا الفوريقات الموجودة في جميع القطر المصري والاطيان المتروكة في كل المديريات كل ذلك رجاء تسديد الدين

وفي اوائل عام ١٢٧٩ سافر المرحوم سعيد باشا الى اوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان وكان بمعيته المرحوم محمد علي باشا الحكيم المصري الذي استشهد في حرب الحبشة عام ١٢٩٣ فصدر امره الكريم الى قائمقام خديوي فخامة اسماعيل باشا الخديو الاسبق بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم واقامتهم في قصر النيل ومداومتهم على التدريس في القوانين العسكرية يقول فيه « ان الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد اشتغلوا بملازمة نسائهم وتركوا دروسهم ولو تركناهم على هذا الحال الذي لا يؤول عليهم منه الا بالوبال لفقدوا العافية والنظر وصاروا عبرة لمن يعتبر . وبما اننا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم واظهرناهم فلا يصح لنا تركهم في هذا الحال الذي ذكرناه فقد اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكينهم من نسائهم حتى

ولا بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلاً ونهاراً في قصر النيل .»
وبناء على هذه الارادة صار اجتماعنا في قصر النيل وفي ربيع الاول انتدبت
لفرز الصف ضباط في الوجه القبلي وتعين معي حكماً للفرز المرحوم سالم باشا سالم
الحكيم وكان برتبة قائمقام ايضاً

وفي ٢٧ رجب من تلك السنة توفي المرحوم سعيد باشا ودفن في الاسكندرية
بالمدفن المجاور لمسجد النبي دانيال عليه السلام بعد عودته من اوربا وجلس على
الاريكة الخديوية ابن اخيه اسماعيل باشا الخديو الاسبق وصار ترتيب الالايات
فكان ترتيبي قائمقام ٦ جي الاي پياده · واما سعادة نادي باشا فتعين على الاي
جميع ضباطه من المصريين المترقين في زمن سعيد باشا وارسل الى السودان .
وحاصل الامر اني دخلت العسكرية نفراً بسيطاً في اوائل سنة ١٢٧١ وبلغت
رتبة القائمقام في اواخر عام ١٢٧٧ بجدي واجتهادي وسهر الليل والنهار على حد
قول القائل ومن طلب العلى سهر الليالي . ونجح كثير من تلامذتي نجاحاً تاماً حتى
كانوا في مقدمة جميع الصابطان في الامتحانات العمومية · وكان السبب في هذا
الاجتهاد الغريب الذي فاقوا به المتخرجين من المدارس الحربية وكان اغلبهم
اميين رغبة المرحوم سعيد باشا في تقدم ابناء الوطن ومساواتهم لغيرهم كما ذكر ومحبته
لهم وانعطافه اليهم ومعاملته للجميع بالعدل والمساواة مع تفقد احوالهم ومراعاة
سيرهم وحسن سلوكهم كأنهم اولاده وكفى بالامر الصادر منه وهو في بلاد اوربا
في حقهم المذكور آنفاً برهاناً صادقاً على حسن معاملته للوطنيين كانه كان وصية
منه عليهم لمن يخلفه . وهذا هو الذي اوغر علينا صدور اخواننا من الترك والشركس
وغيرهم . ولقد قال لي مرة رحمه الله تعالى وانا برتبة قائمقام ان جميع الناس عادوني
حتى اهلي رجالاً ونساء بسبب مساواتكم بغيركم فحققوا املي فيكم · فاجبته «ولكن الله
سبحانه وتعالى يرضى عنك والامة المصرية ترضى عنك بمراعاتك للحق والانصاف»
هذا وبسبب عدله وقناعته اثرت البلاد في زمنه واخصبت الارض وانتعشت الامة
حتى صار الرجل المزارع بعمل يده يحصل له فوق ٢٠ جنيهاً في السنة وهذا ما

حفظ مصر من لافلاس في مدة خلفه الذي بلغ دين الحكومة في زمنه مايه الف الف والف الف جنيه كما هو مدون في بطون الدفاتر



ش ٧٠ : احمد عرابي وابنه في حديقته في سيلان

(نشأتي الثانية) ولما تولى الخديوية المرحوم اسماعيل باشا وأمر بانشاء ٦ الايات ياده كنت قائمقاما في الالاي السادس وكان المرحوم خسرو باشا امير الايا على الالاى الثاني ثم ترقى الى رتبة لوا باشا وكان رحمه الله متعصباً لابناء جنسه تعصبا اعمى وترتب قومندانا على الالاى ٥ و ٦ ولما وجدني وطنيًا قحاً عظم عليه وجودي في الالاي وسعى في رفتي من الالاي لاجل اخلاء محلي لترقية احد ابناء المماليك مصطفى افندى سليم بن سليم بك المشهور بالحجازي . ولاجل

هذه الغاية صار يترقب الفرص للايقاع بي الى ان صـدر امر الجهادية بامتحان الضباط لاجل استكمال النقصات . وبعد ان صار الامتحان وتحررت العرايض للمستحقين وختم عليهـا من ارباب الامتحان وكنت من ضمن اعضاء مجلس الامتحان تحت رئاسة الباشا المذكور ارسل لي عريضة احد الملازمين اسمه سيد احمد افندي وطلب اخذ ختمي من عريضته والختم على عريضة ضابط آخر من اورطة مصطفى افندى سليم البكباشي لكونه دائما يباشر خدمـة منزل البكباشي المذكور . فشق علي هذا الامر وتوجهت الى مركز اللوا باشا واخبرته ان يعفيني من الختم على عريضة من لا يستحق . فقال لا بد من الختم لاجل خاطر البكباشي المذكور . فقلت ان هذا ظلم لا افعله واذا كنت تراعي خاطر البكباشي في الظلم فاولى لك ان تراعي خاطر رئيسه في العدل . وذكرته بعاقبة هذا الامر اذا تشكى المظلوم الى ديوان الجهادية وطلب امتحانه مع الآخر كما حصل مثل ذلك في زمن المرحوم سعيد باشا وصار عزل جميع اعضاء مجلس الامتحان مع رئيسهم بسبب ظلم نفر مستحق رتبة اونباشي وهي ادنى رتب الصف ضباط . ثم ذكرته بعاقبة الظلم غدا بين يدي العزيز الجبار . فحنق لذلك حنقا شديدا وذهب الى ناظر الجهادية المرحوم اسماعيل باشا سليم واخبره اني لا اطيع له امرًا ولا اعبأ باوامر ديوان الجهادية . وناظر الجهادية عرض للخديو الاسبق بذلك ثم صدر الامر برفتي من الجهادية بالقول اني قوي الرأس شرس الاخلاق (وما بي والله من شراسة ولكن جبلني الله سبحانه على حب العدل والانصاف وكره الظلم والاعتساف) فترتب على ذلك رفتي من الخدمة وحرماني من المايتي فدان التي صدر امر الخديوي بالاحسان بها على كل من القائمقامات الجهادية عقيب مناورة عسكرية حضرهـا الخديوي وكنت من ضمن من حضرها وكان اصدر ارادة سنية المديريات بوجه بحري بتسليم تلك الاطيان الى المنعم بهـا عليهم . فصدرت ارادة سنية ثانية بتوقيف التسليم فيما يخصني وقد حصل . ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون فانتقم بعدله ممن ظلم من غـير امهال وذلك انه صدر امر الخديوي في الاسبوع

الذي رفت فيه بالعاء الالاي ٥ و٦ اي اللواء الثالث وارسل خسرو باشا الى السودان واصيب حسين باشا الطوبجي بالفالج ومحمد بك امين القبرصلي بالفالج ايضاً حتى ماتا وامين بك رئيس قلم تركي بديوان الجهادية انتحر بعد تكبيله في الحديد وارساله الى السودان وهكذا كل من اشترك في هذه المظلمة اصيب بقارعة عظيمة . واما مصطفى سليم المذكور فقد رفت ايضاً واقام في بيته مرفوتا نحو عشر سنين حتى اذله الله . واما اسماعيل سليم باشا ناظر الجهادية فانه مات في حرب كريد ولكن ليس شهيداً بل مات بسبب اكلة من فريك القمح فانعقدت امعاؤه وقضى نحبه وجيء بجثته الى مصر ودفن فيها سامحه الله تعالى . وفي شهر ربيع اول عام ١٢٨٣ عرضت للخديو بواقعة الحال والتمست انصافه فصدر امره في ١٦ رمضان عام ١٢٨٣ نمرة ١٦ وهاك صورته

« ديوان جهاديه ناظرى سعادتلو باشا حضرتلرى

٦ جي پياده سابق قائمقامي احمد عرابي بكك اشبو عرضحال منظورم اولدى خطاسني عفو ايتمش اولد يغمدن حاله مناسب خدمه ظهورنده استخدام ايتدير لسى حقنده ايجابني اجراء ايلمكز ايچون اشبو امرم اصدار قلندى »

وحيث ان ناظر الجهادية المذكور كان مساعداً لخسرو باشا كرهت الخدمة في العسكرية وطلبت احالتي على ديوان المالية . وفي التاريخ المذكور صار تعييني محافظا على بحر مويس وجزء من البحر الاعظم بمديرية الشرقية زمن فيضان النيل بمعرفة المرحوم الشهيد المخنوق في خرائب دنقله اسماعيل باشا صديق . وبعد انقضاء زمن النيل من غير ان يحدث ادنى ضرر في مديرية الشرقية كما حصل من الغرق بقطع نادر وقطع بطره وغيرها ترتبت مأموراً لتشهيل بناء قناطر فم الاسماعيلية بقصر النيل وتشهيل قطع الاحجار في معامل طره والدقيقة بالعباسية والجبل الاحمر بالبساتين وشحنها بالمراكب الى القناطر المذكورة والى سد فم الرياح في شبرا والى القناطر الخيرية والى جميع مديريات الوجه البحري وتشهيل مراكب النقل وتفريغها بقناطر الاسماعيلية وسد الرياح في شبرا وكان عملا شاقا جداً من غير مراعاة

الحكومة لاسباب التسهيل . فكنت انتقل في كل يوم الى المحلات المذكورة على ظهر فرسي او حماري حتى جاء سنة ١٢٨٥ فانتدبت لتشهيل بناء كبري قشيشه المظلم بمديرية بني سويف وكبري الرقة بمديرية الجيزة وكبري ابو راضي على سكة حديد الفيوم و بعد تمـام تلك الاشغال كوفئ غيري بخمسة الاف جنيه مصري لكوني وفرت عن طلب المقاولين من الاجانب ٢٥ الف جنيه مصري... ثم احيل على عهـدتي تمديد سكة الحديد من محطة المنيا الى محطة ملوي وبعد نهوها تصادف جعل المرحوم قاسم باشا فتحي ناظر الجهادية وكان يعرف قدر اعمالي واقتداري فطلبني وكلفني الانتظام في سلك العسكرية ثانية . فاجبته الى ذلك وترتبت قائمقاما في ٣ جي الاي بياده في اوائل سنة ١٢٨٧ وفي سنة ١٢٨٨ انتقلت الى رئاسة ٢ جي الاى بياده ولكن برتبة القائمقام وفي اواخر سنة ١٢٩٠ توجهت بالالاى المذكور برًّا الى رشيد للاقامة فيها وفي ٢٤ شعبان سنة ١٢٩٢ انتدبت الى ترتيب عساكر محافظين للقـلاع الحجازية من اهالي تلك الجهات وارسال العساكر النظامية المصرية الى مصر فتوجهت البهاوحيدا فريداً على مصاريف نفسي من اول يوم من شهر رمضان حتى وصلت الى قلعة نخل و رتبت لها العساكر اللازمة للمحافظة عليها وجعلت فيها مكتبا لتعليم ابنائهم القراءة والكتابة ثم ذهبت الى قلاع العقبة والمويلح والوجه واجريت فيها كما اجريت في قلعة نخل وارسلت العساكر النظامية الى مصر ثم عدت قافلا بحراً الى بندر القصـير ثم برًّا الى قنا وبحرا الى اسيوط وبرًّا الى مصر . ولما عرضت انتهاء مهمتي على ناظر الجهادية فخامة صاحب الدولة حسين باشا كامل قال لي اني لاعتمادي عليك ووثوقي بك قـد عينتك مأمورًا للحملة الحبشية فاستعد لذلك بعد عشرة ايام . فانتخبت من اعتمد عليهم من الضباط والكتبة وسافرنا جميعاً الى مصوع و بعد انتهاء تلك الحرب المشؤومة عدت الى مصر فامرني دولة المشار اليه ان اعود الى السويس لتشهيل المحضرين من مصوع وزيلع وارسال الذخائر اللازمة لتلك الجهات بدل المرحوم علي غالب باشا حيث انه تعين مديراً لمديرية الدقهلية فذهبت اليها . وبعد انتهاء

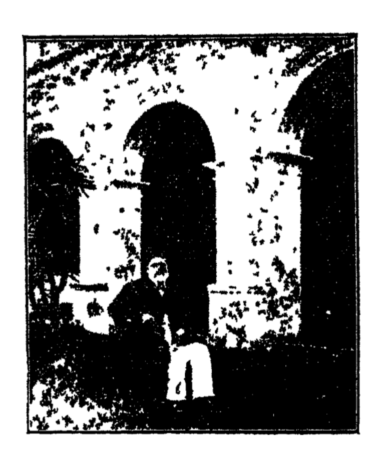
تلك المأمورية ايضاً عدت الى الالاي الذي بعهدتي برشيدوفي اوائل سنة ١٢٩٦ صدر لنا الامر بحضور الالايات الموجودة برشيد الى مدينة القاهرة وتسليم الاسلحة والمهمات وارسال العساكر الى بلادهم فحضرنا . وكنا ثلاثة الايات وسلمنا المهمات في يوم وصولنا وفي اليوم الثاني صباحاً ذهبت الى منزل سعادة محمد نادي باشا وكان اميرالاي احد الالايات المحضرة من رشيد حينذاك فما نشعرالاواحد الضباط اسمه احمد افندى نجم حضر واخبرنا ان تلامذة الحربية و بعض الضباط احاطوا بالمالية فجاءت العساكر من ١ جي الاي وضربت عليهم بالسلاح فاندهشنا لهـذا الخبر المريع وارسلنا غيره من الضباط ليستكشف الامر ويأتينا بالحقيقة فذهب وعاد واخبرنا بما صار و بعد يومين صار طلبي وطلب نادي باشا بطرف سر تشريفاتي خديو سعادة عبد القادر باشا حلمي . فذهبنا اليه في بيته فاخبرنا « ان الخديوي بلغه انكما وعلي بك الروبي قد اغريتم التلامذة والضباط على حصر المالية وانه سيجري تحقيق ذلك فان ثبت هذا عليكم صارت مجازاتكم باشد الجزاء » وصار يهددنا تارة ويوعدنا بالسلامة تارة اخرى فاجبناه بقولنا « ياسبحان الله اننا حضرنا امس من رشيد وكنا مشغولين بتسليم الاسلحة والمهمات بمخازن العسكرية وصرف العساكر الى بلادهم فكيف يتصور اننا نغري تلامذة الحربية والضباط ونحن لسنا موجودين بالقاهرة ولا كان احد من ضباط عساكرنا موجوداً في هذه الحركة اصلاً على ان هذا العمل الخارج عن حد التعقل يلزم تدبيره وترتيبه من قبل اجراآته بمدة » فضحك لانه يعلم ان تلك الحركة كانت بايعاز الخديو نفسه وعمـل جاهين باشا جنج لاجل التخلص من نظارة ويلسن المختلطة وايضاً صار طلب المرحوم علي بك الروبي بطرف مأمور الضبطية محمود سامي باشا البارودي و بلغه تلك التهديدات بعينها والافتراآت الظاهرة فتنصل منها . و بعد ذلك صار تشكيل مجلس عسكري فوق العادة تحت رئاسة رئيس اركان الحرب اسطون باشا الامريكي وعضوية سعادة افلاطون باشا والمرحوم مرعشلي باشا وجميعهم يعرفون الحقيقة كما يعرفون اباءهم ولكن المسألة خرجت عن مركزها المعين . ثم بعد ذلك صار طلب الضباط

والمتهمين من رتبة بكباشي فما فوقها بسراي عابدين وقام الخديوي يطيب خواطرنا ويوعدنا بخير ولكن .....

امور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

هكذا قلت لسعادة محمد باشا النادي والمرحوم علي باشا الروبي المتهمين معي في مسألة الاحاطة بديوان المالية . وفي ذلك الاجتماع صار جعلنا نحن الثلاثة من ضمن الياوران الذين بمعيته — عجبا والف عجب — لكن بعد اسبوع انخلع علي الروبي من العسكرية وتعين رئيساً لمجلس المنصورة وابعد نادي باشا بالآلاي الجديد الى الاسكندرية ثم صار طلبي الى ديوان المالية فذهبت الى ناظرها المرحوم راغب باشا فاخبرني ان اهالي جرجا واسيوط ومديريات الوجه القبلي قد انتخبوني امينا من طرفهم في تسليم ٧٠٠ الف اردب قمح وشعير وفول الى بنك قطاوي و بيحة واجيون باسكندرية لسداد ما عليهم من الديون — والله اعلم ان الامر غير ذلك وانا اعلم ايضاً .... ومع ذلك توجهت الى الاسكندرية واديت تلك المأمورية التي حقيقتها سلفة نصف مليون نتتوا احذتها الحكومة لتسديد بعض الاقساط من ارباح الدين المصري . وفي ٧ رجب سنة ١٢٩٦ صار خلع المرحوم اسماعيل باشا وتولية المرحوم توفيق باشا وشاهدت الاحتفال بتوديع الخديوي المخلوع بحق حين انزاله في السفينة من اسكلة سكة الحديد منفيا الى بلاد ايطاليا كما انزل منها عمه حليم باشا منفيا الى القسطنطنية . فانظر الى اثار قدرة الله تعالى واعلم انه يكال لك بالكيل الذي تكيل به . وعلى هذا انتهت مدة ولاية اسماعيل باشا كما علمت ولم انل منه رتبة ولا نيشاناً ولا اختصني بجارية من جواريه ولا اصبت منه خـيرا قط ولا اقسمت على الدفاع عنه كما ذكرتم ولا خدمت بمعيته اصلاً ولا انهرني ابداً ولا صحت حول سرايه ولا قال عني ما ذكرت ان صوتي اكثر قعقعة او قرقعة من الطبل واقل نفعاً منه . وقد تحملت مدة ولايته بكل صبر وثبات جأش على تحمل الظلم والاستبداد بل الاستعباد ومكثت برتبة القائمقام ١٩ سنة وانا انظر الى اليوز باشية والملازمين الذين كانوا تحت ادارتي وقـد صار بعضهم امير الاي

وبعضهم اميرلواء وبعضهم امير الامراء اعني باشوات وفرقاء وانهمرت عليهم سحب الانعامات والاحسانات فاقتطعوا الاقتطاعات الواسعة واخذوا القصور العالية واغدقت عليهم الخيرات وهم يعلمون قوتي واستعدادي . ولقد اجتهد صاحب الدولة حسين كامل باشا عم الحضرة الفخيمة الخديوية اذ ذاك في ترقيتي الى رتبة امير الاي ولكن لم يقبل منه واخيرا قال لي « اني بذلت ما في وسعي في طلب ترقيتك ولكن قيل لي انك من رجال سعيد باشا » فعجبت لذلك وقلت له انى من رجال الوطن وبلدى اسمها هرية رزنة بمديرية السرقية ولست مملوكا لاحد . فطيب خاطرى ولاطفني وقال لي « لا تفتر همتك وسأواصل السعي في انصافك » فشكرت له وخرجت انا اشعر باني لا انال خيرًا في مدة ابيه وكنت اتوسم كل خير في المرحوم توفيق باشا . ولكن من اعتمد على غير الله سبحانه وتعالى اخلاه الله منه لانه سبحانه غيور على عباده المؤمنين



ش ٧١ . احمد عرابي امام منزله في سيلان

﴿ خاتمة امري ﴾ ولما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية وحضر الى الاسكندرية احسن علي برتبة امير الاي على الالاي الرابع فتوجهت الى رأس التين وقدمت تشكراتي وامتناني الى حضرته الكريمة ودعوت له بخير ثم جعلت من ضمن ياوران الخديوي ولما صار المرحوم عثمان رفقي باشا الشركسي ناظر الجهادية في وزارة مصطفى رياض باشا واستبدوا بالادارة لا يسأل كل من النظار عما يفعل في ادارته واستخفوا بامر الخديوي كل الاستخفاف وخصوصاً عثمان رفقي لجهله وعجبه — خيلت له نفسه ان يمنع ترقية المصريين من العساكر العامل في الالايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية وصدرت اوامره بذلك . ثم اردفها باحالة عبد العال حلمي بك امير الاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاونا وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة ليس الا ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الالاي المذكور وكان سنه فوق الستين وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية ورفت احمد بك عبد الغفار قائمقام السواري وترتيب شاكر بك طمازة من جنسه بدله وهو طاعن في السن ثم ختمت تلك الاوامر وصار قيدها بدفاتر الجهادية . وكنت لا اعلم بشيء من ذلك اصلاً وانما دعيت الى وليمة وسماع تلاوة القرآن الشريف بمنزل المرحوم نجم الدين باشا لمناسبة عودته من اداء فريضة الحج الشريف وكان ذلك ليلة ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته غاصا بالذوات العسكرية وغيرهم فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل وبجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسي الاصل ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف فأخبرني نجيب بك بمـا صار وانه نصح ناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب. ثم اوعز اليه ان يخبرني بما سمع منه .فاخبرني نجيب بك بحقيقة الحال همساً في اذني فقلت لاسماعيل باشا كامل « أحق هذا ؟ » فقال « نعم واعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له « ان تلك لقمة كبيرة لا يقوى ناظر الجهادية عثمان رفقي على هضمها » وبعد تنال طعام المأدبة حضر لي احد الضباط

واخبرني بان كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبد العال بك حلمي وعلي بك فهمي . فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني اخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فماذا تريدون » فقالوا « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكسة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتذاكرون في تاريخ دولة المماليك في كل ليلة بحضور عثمان رفقي باشا ويلعنون حزبك و يقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا انهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل اولئك المماليك » . وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره فقلت لهم « وماذا تريدون اذا ؟ » فقالوا انما جئناك لاخذ رأيك فيما دهما من الخطب العظيم » . فقلت لهم « أرى ان تطيبوا نفوسكم وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لهم رئيساً منهم يثقون به كل الوثوق ويطيعون امره ويحفظونه بمعاضدتكم » . فقالوا كلهم « قد فوضنا الامر اليك هذا الامر وليس فينا من هو احق به واقدر عليه منك » . فقلت لهم « لا .. انظروا غيري وانا اسمع له واطع وانصح له جهدي » فقالوا « لا نبغي غيرك ولا نثق الا بك » فقلت « ارجعوا لانفسكم فان هذا امر عصيب لا يسع الحكومة الا قتل من يقوم به او يدعو اليه » فقالوا « نحن نفديك ونفدي الوطن بارواحنا » فقلت لهم « اقسموا لي على ذلك » فاقسموا . وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين والتمست فيها تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذاً للامر الخديوي الصادر ابان توليته . ثانياً ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً تطبيقاً لمنطوق الفرمان السلطاني. ثالثاً تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب . رابعاً تعيين ناظر الجهادية من ابناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التي بايدينا . ثم تلوت العريضة هذه على

مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فامضيتها بامضائي وختمتها بختمي وختم عليها ايضاً علي فهمي بك امير الاي الحرس الخديوي وعبد العال بك امير الاي السودان ولما تمّ ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الذات الخديوية وحفظ اعضاء العائلة الخديوية وحفظ الوزراء والامراء الوطنيين اذا حدث اي حادث من الضباط الشراكسة الطامعين في التغلب على البلاد مع ترتيب اللازم لحفظ البيوت المالية وبيوت التجار من الاجانب والوطنيين من مطامع الرعاع وحفظنا ايضا من بطش الحكومة اذا ارادت الايقاع بنا وارفض الاجتماع على ذلك . وما دعانا الى طلب انشاء مجلس نواب للامة ينظر في صوالحها ومصالحها الا ما حل بالمرحوم اسماعيل صديق باشا الحائز لرتبة المشيرية التي من لوازمها حفظ صاحبها ولو باستعمال السلاح في عهد الخديوي الاسبق اسماعيل باشا بسبب كلمة حق قالها — وما حلّ بحضرة السيد حسن موسى العقاد بسبب كلمة عدل اراد بها مساواة الاهالي الذين دفعوا للحكومة سبعة عشر مليون ١٧,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات المصرية باسم المقابلة و٥,٠٠٠,٠٠٠ اخرى باسم السهام بالاجانب اصحاب الديون وما حصل لكثير من القتل والخنق في السجون بغير حق ولا تحقيق بل بمجرد ظلم واجحاف واستعلاء على الناس بالقهر والجبروت بما تأباه النفوس الشريفة وفي ضحوة الغد ذهبت الى ديوان الداخلية وقدمت العريضة المذكورة الى دولة رئيس النظار فقال لنا « سانظر في هذا الامر واتكلم مع ناظر الجهادية » وبعد يومين ذهبت الى بيت الرئيس المذكور ومعي الاميران المذكوران فلما تمثلنا بين يديه وسألناه عما تمّ في هذا الامر فقال « ان هذا الطلب مهلك وهو اشد خطراً من العرض الذي قدمه احمد افندي فني الذي ارسل بسببه الى السودان » (وتحرير الخبر ان احمد افندي فني هذا كان كاتباً بديوان المالية وكان طلب المساواة مع خدمة الديوان المذكور لظلم حاق به فكان جزاؤه ارساله الى مقبرة الابرياء من المصريين بالسودان) فاجبته « بأننا لم نطلب الا حقا وعدلا وليس في طلب الحق من خطر على اننا نعتبرك ابا للمصريين فما هذا التعريض وما هذا التهديد » فقال انه ليس في البلاد من هو اهل لمجلس

النواب « فقلت له « عجبا انك مصري و باقي النظار مصريون والخديو ايضاً مصري اتظن ان مصر ولدتكم ثم اعقمت لا بل فيها العلماء والفضلاء والنبهاء والبلغاء وعلى فرض انه ليس فيها من يليق كما ظننت افلا يمكن انشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية و بعد خمسة اعوام يتخرج منها رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم و يعضدون الحكومة في مشروعاتها الوطنية » فانبهر لذلك وقال لنا « سننظر بدقة في طلباتكم هذه » فانصرفنا على ذلك . ولما كان يوم غرة ربيع الاول سنه ١٢٩٨ انعقد مجلس تحت رياسة الخديوي بعابدين حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدين وكلهم من الترك والشراكسة الا قليلاً من الاوربيين وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة امراء الالايات الذين امضوا على العريضة المتقدمة الذكر ثم اجراء محاكمتهم في مجلس مخصوص مختلط من رجال الجهادية . فقال رئيس النظار رياض باشا « اني ارى انه اذا صار توقيف الميرالايات المذكورين يلزم ايضا توقيف ناظر الجهادية لانه في عدم توقيفه مثلهم خطراً عظيما وذلك لما رأيته فيهم من الجراءة » فلم يوافق المرحوم الخديوي على ذلك وتعهد ناظر الجهادية المذكور بانه ضامن لاخذنا بسهولة . وفي الحال دعي المرحوم احمد خيري باشا الشركسي وكان مهردار الحضرة الخديوية وصاحب الرأي النافذ فحضر وتلا بالمجلس المذكور امراً فحواه « ان هؤلاء الثلاثة امراء احمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي مفسدون في الارض وانه يقتضي توقيفهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم ومجازاتهم باشد أنواع الجزاء في مجلس عسكري فوق العادة تحت رياسة ناظر الجهادية ويكون من اعضائه اسطون باشا رئيس اركان الحرب (وهو امريكي) وناظر المدارس الحربية أرفي باشا (وهو فرنساوى) » فوقع الخديوى عليه وسلمه الى ناظر الجهادية عثمان رفقي باشا وارفض المجلس بعد ذلك . وفي المساء ارسل ناظر الجهادية لكل منا تذكرة يدعونا فيها للحضور الى ديوان الجهادية بقصر النيل في غد يوم ٢ شوال سنة ١٢٩٨ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية المرحومة جميلة هانم وكان وقت زفافها لم يحن بعد فتيقنا أنه يريد خدعتنا

والبطش بنا . فالتجأنا الى جانب الحق سبحانه وتعالى واخذنا حذرنا ثم اعددنا ما يلزم لنجاتنا اذا اقتضت الحال ذلك . وحين حلول الوقت المعين ذهبنا الى ديوان الجهادية فوجدناه غاصاً بجمع الشراكسة من رتبة الفريق الى رتبة الملازم الثاني وجميع شبانهم بايديهم الطبنجات ذوات ٦ طلقات مملوءة بالخراتيش وكلهم في فرح ومرح ولا فرح هناك ولا زفاف . فلما حضرنا دعينا للحضور امام مجلس الهلاك فاجبنا طائعين وتلي الامر الخديوي الآنف ذكره ثم امرنا بتسليم سيوفنا فاطعنا على هذا التسليم وما يعقبه من السجن وهو مخالف للفظ الحكم بالتوقيف ثم تعين بحضرتنا من يستلم امرة الالايات وساقونا الى السجن في قاعة بقصر النيل . فمررنا بين صفين من الشراكسة المسلحين و بعد اقفال باب السجن جاء خسرو باشا وكان رجلا صلفاً جاهلاً فوقف خارج السجن وقال (ايه زنبيل لي هرفلر) يعني فلاحين شغالين بالمقاطف ولما اقفل علينا باب الغرفة قال علي فهمي بك احدنا « والله لا نجاة لنا من الموت واولادنا صغار » وجزع جزعاً شديدا فأردت تثبيته وقلت له متمثلا بقول الامام الشافعي رضي الله عنه

ولرب نازلة يضيق بها الفتى * ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها * فرجت وكان يظنها لا تفرج

فلا وابيك ما كان الا هنيهة حتى جاءت اورطتان من الاي الحرس الخديوي بقيادة الشهم الهمام محمد افندي عبيد البيكباشي واحدقوا بديوان الجهادية ثم اسرع بعض الضباط والصف ضباط وفتحوا الابواب واخرجونا من السجن وقد فر ناظر الجهادية الغشوم هاربا وكذا رجال المجلس وغيرهم من المجتمعين — ولما فرج الله علينا اسرعت الى العساكر وحذرتهم وانذرتهم وقلت لهم « لا تمدوا ايديكم بسوء الى احد من الجراكسة فانهم موالينا واخواننا استأثروا بانفسهم علينا ونريد الانصاف والمساواة معهم ليس الا » ثم نظرت فوجدت بجانبي المرحوم اسماعيل كامل باشا انفت نفسه ان يفر مع الفارين فاخذته بيده وضممته الى صدري امام العساكر وقلت « هذا جركسي كما تعلمون ولكنه اخي حرام علي دمه وماله

وعرضه وكذلك غيره من الجراكسة » فانصرفوا بانتظام على بركة الله ثم سرنا جميعاً الى قشلاق عابدين وكانت لاورطة الاولى من الحرس الخديوي حكمدارية البكباشي المرحوم احمد افندي فرج واقفة امام سراي الخديوي لحفظها منها عسى ان يطرأ من الامور كما أمرت بذلك من قبل اميرالاي الحرس علي فهمي بك ولما تم وجود عساكر الالاي المذكور امر امير الالاي العساكر بحمل اسلحتهم بحركة (سلام دور) وعزفت الموسيقة بالسلام الخديوي ونادوا جميعا « يعش الخديوي » ثلاثاً وذلك كان اشارة واعلاناً للقوم بانناعلى اخلاصنا للحضرة الخديوية . وكان جميع الذوات الذين كانوا بديوان الجهادية التجأوا الى حمى الحضرة الخديوية . ثم انهم تشاوروا فيما بينهم فقال اسطون باشا الامريكي هذا عصيان ظاهر والواجب حصر القشلاق المذكور بالطوبجية وآلايات البيادة ويطلب من هذا الالاي تسليم الثلاثة امراء فان ابوا تضرب عليهم المدافع وتمطر عليهم البنادق ناراً حامية حتى يضطروا الى التسليم . فاستحسن الجميع ذلك الرأي الامريكي ولكن ابتدره المرحوم اسماعيل كامل باشا المذكور آنفاً وقال « انا اعتقد اتفاق جميع اصناف العساكر على رأي واحد فلا يجدي هذا الرأي نفعا » . وفي اثناء مفاوضتهم حضر آلاي السودان من طره وانضم الى آلاي الحرس ثم عزفت الموسيقه بالسلام الخديوي وهتفوا جميعاً « افندمز جوق يشا » وانا العاجز الضعيف كتبت الى وكيل فرنسا السياسي في مصر الكونت « دورنج » من غير ان يكون لي به ولا بغيره من قناصل الدول الاوربية سابق معرفة ولا مقابلة التمس منه مخابرة باقي قناصل الدول بما حصل بيننا وبين حكومتنا من الخلاف واطلب منهم التوسط في اصلاح ذات البين . ثم بتنا على ذلك وفي صباح الغدحضر لنا المرحوم احمد خيري باشا مهردار الخديوي ومعه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف من قبل الخديوي وقالا لنا « ماذا تريدون » فقلنا « العدل والمساواة » . قالا « ثم ماذا » قلنا « استبدال ناظر الجهادية برجل وطني . وتشكيل مجلس نواب للامــة ينظر في مصالحها وصوالحها وتعديل قوانين العسكرية وابلاغ الجيش الى ثمانية عشر ألفاً ونحن على طاعتنا للحضرة الخديوية » .

فذهبا الى الخديوي ثم رجعا وقالا « قد عزل عثمان رفقي فمن الذي تريدونه ناظراً للجهادية » قلنا « الذي يختاره الخديوي من الوطنيين » فذهبا وعادا ثانية وقالا « ان الخديوي يقول اختاروا انتم من ترضونه حتى لا يحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقي » فقلنا « قد اخترنا هذا محمود سامي باشا وهو من اولاد المماليك الأول ولكنه صدق معنا ولم يقصد الغدر بنا » ثم صدرت الاوامر الخديوية باعادة كل منا الى آلايه وعزل عثمان رفقي وصار تولية محمود سامي على نظارة الجهادية مع نظارة الاوقاف واخذ في سن القوانين العادلة وتعديل القوانين الاصلية وتنقيحها

ثم لما شاعت الاراجيف الكاذبة في اوربا بخروج العساكر المصرية عن الطاعة حضر من الحكومة العثمانية وفد برئاسة المشير علي نظامي باشا وبمعيته احمد راتب باشا والي الحجاز الآن لتحقيق امر العصيان فرده الخديوى قائلا ان عساكري على طاعتي وان ليس ثم عصيان . وبعد ذلك اجتهدت الحكومة في غدرنا وأخذنا على غرة او بحيلة من ضروب الحيل ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامي باشا على نواياها صار عزله بتذكرة من رياض باشا رئيس النظار وتشدد عليه بان لا يجتمع بنا ولا يقيم بالعاصمة وتعين بدله داود باشا يكن وهو عديل الخديوى ولكنه رجل جاهل احمق مشؤوم فاسرع باصدار اوامر لا يستطاع قبولها فردت اليه ونفرت القلوب منه . فكتبت له في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ باننا سنحضر بجميع العساكر الموجودين في القاهرة الى ساحة عابدين لعرض طلباتنا على فخامة الحضرة الخديوية في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وكلفته عرض ذلك على الحضرة الخديوية ثم كتبت الى جميع قناصل الدول بذلك واعلنتهم بحفظ جميع رعاياهم فلا خوف عليهم ولا على اموالهم . وفي الوقت المعين اجتمعت الالايات البيادة والسواري والطوبجية في رحبة عابدين وكان ما هو مسطر في بطون التواريخ وهو اسقاط الوزارة وترتيب مجلس النواب وابلاغ الجيش الى القدر المحدد بالفرمان السلطاني . وقد حبانا المرحوم الخديوي باجابة تلك الطلبات العادلة . وقد تعرض لنا المستر كوكسن قنصل انكلترا بالاسكندرية حين ذاك وهددنا فلم نعبأ

بتهديده لاعتمادي على صدق عزيمتي وطهارة ذمتي . ثم صار استدعاء المرحوم شريف باشا من الاسكندرية وتعيينه رئيساً للوزارة على حسب اختيارنا له وتعين محمود سامي باشا ناظراً للجهادية ثانية وقد توقف شريف باشا في قبوله ٧ ايام ثم رضي بعد ذلك وصار توظيفي وكيلا للجهادية . وفي تلك النظارة صارت الامتحانات وترقى كثير من الباشاوات وامراء الآلايات والقائمقامية وغيرهم من جميع الرتب واستكملت الالايات وانشئت القوانين العادلة وتعدلت الرواتب والماهيات بنسبة كل رتبة الى ما دونها . وصرفت الحقوق الموقوفة من زمن مديد وانشأ مجلس النواب وجعل رئيسه ابو سلطان باشا وعم العدل واستقامت الامور وحين ذاك عرضت علي رتبة لواء (باشا) فرفضتها لئلا يقال اني انما اشتغل لمصلحتي فقط وبقيت في رتبة الميرالاي مدة وكالتي للجهادية . واما رفقاي عبد العال حلمي وعلي فهمي فقد تشرفا برتبة الباشوية الرفيعة . ثم ان مجلس النواب قرر في لائحته الاساسية ان يكون لهم الحق في نظر ميزانية الحكومة ومعرفة كيفية ايرادها ومصروفها بشرط عدم الخروج عن دائرة التعهدات الدولية وقانون التصفية فلم يجبهم المرحوم شريف باشا لذلك لانه سامحه الله أخذ رأى السير مالت وكيل انكلترا السياسي في مصر وقنصل فرنسا ايضاً فاشاروا عليه بعدم قبول لائحة المجلس فأصر مجلس النواب على الطلب في تنفيذ لائحتهم فلم يوافقهم وقدم استعفاءه واستعفت هيئة نظارته ثم تشكلت هيئة جديدة تولى رئاستها محمود سامي باشا وجعل من رجالها حسن باشا الشريعي رحمه الله تعالى والمرحوم سليمان باشا اباظه والمرحوم عبد الله باشا فكري والمرحوم محمود باشا فهمي وسعادة مصطفى باشا فهمي رئيس الوزارة المصرية الآن . وجعلوني ايضاً ناظرًا للجهادية لاجل اطمئنان خاطر العسكرية الذين لا يأمنوا غيري في ذاك الوقت فقبلت ذلك . ثم احسن علي برتبة لواء باشا من لدن المرحوم الخديوي توفيق باشا وكنت لا أريد ولكن قالوا انه لا يليق ان يكون ناظر الجهادية برتبة اميرالاي وفي نظارته اللوا آت والفرقاء . فقبلتها للضرورة وشكرت الحضرة الخديوية وقد انتظمت الامور وهدأت الاحوال

وصارت العساكر في امن من الغدر — ولكن اوربا لا يروق في نظرها انتظام حكومات الشرق فاقلقوا حكومة الدولة العلية فارسلت وفداً مندوباً من طرفها تحت رئاسة المشير المرخص درويش باشا لتحقيق ما يقال من العصيان فجاء درويش باشا وبحث في الامر وكتب للحضرة السلطانية بأن العساكر على الطاعة وكذلك كتب المرحوم الخديوي بالحقيقة فأرسلت الحضرةالسلطانيــة الى الحضرة الخديوية اربعمائة نيشان من انواع مختلفة للاحسان بها على المستحقين من ضباط العساكر واحسن عليَّ بنيشان الدرجة الاولى المجيدي،وحضر بوابور مخصوص يحمله سعادة سليم بك ياور الحضرة السلطانية فأبيت استلام النيشان المذكور الا من يد مولاي الخديوي . ثم كتبت تلغرافاً الى المابين الهمايوني برفع تشكراتي الخيرية للحضرة المقدسة السلطانية وتشرفت تلغرافياً بقبول تشكراتي لدى جلالة السلطان الاعظم وحصول المحظوظية لدى جلالته . كذا قيل بالتلغراف



ش ٧٢ : احمد عرابي وحفيده الى جانبه

وفي شهر مايو سنة ١٨٨٢ جاءت الاساطيل الحربية الانجليزية والفرنساوية الى ثغر الاسكندرية وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة من دولتي فرنسا وانكلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية وحقوق الدولة العلية وتقدمت نسخة منها للخديوي فرفضها مجلس النظار وقبلها الخديوي فاستعفت النظارة من وظائفها . وهاجت الافكار العمومية وطاشت العقول الزكية واجتمع مجلس النواب وجميع قناصل الدول حولي كعرف الضبع يطلبون مني حفظ الامن والراحة العمومية فقلت لهم لا قدرة لي على ذلك لاني قد استعفيت . فذهب وفد من مجلس النواب وطلب من الخديوي اعادتي الى نظارة الجهادية حفظاً للنظام والراحة فصدر الامر الخديوي باعادتي الى النظارة المذكورة ثم دعيت الى الحضرة الخديوية فوجدت عنده جميع قناصل الدول ما عدا وكيل انكلترا السياسي وبحضرته درويش باشا المندوب السلطاني فاخذ عليَّ تعهد بحفظ رعايا الدول الاجنبية وصار اعلان جميع مصالح الحكومة بذلك

وفي ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ حدثت حادثة اسكندرية المشؤومة بتدبير ذوي الغايات لاجل تشويه اعمالي في نظر اوربا وخدش تعهدي بالحفظ والامن العمومي فاسرعت بارسال العسكر الى الاسكندرية حتى ملئت شوارعها بالعساكر وانتهت الفتنة التي ابتدأ بها احد المالطية من التبعة الانكليزية مع احد حمارة الاسكندرية بايعاز وتعليم ثم صار الشروع في تحقيقها في مجلس مختلط تحت رئاسة ذي الفقار باشا محافظ الثغر ومن الغريب العجيب انه لم يبحث اصلاً في الدماء التي سفكت بل كان البحث قاصراً على معرفة مقدار الضائع التي انتهبها الرعاع ليس الا . وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديوي تحت رئاسة المرحوم الطيب لذكر راغب باشا وكنت من رجالها أيضاً ثم انتقل الخديوي ودرويش باشا الى الاسكندرية . وفي يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وردت افادة الى قومندان عساكر الاسكندرية من طرف اميرال الاسطول الانجليزي يقول فيها انه جاري تهديد العمارة الانجليزية بترميم القلاع والاستحكامات وانه يطلب تخريب القلاع وهدمها بايدي العساكر المصرية والا

ضرب الاسكندرية وخرب المدينة ودمرها . فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الخديوي حضره درويش باشا المندوب العثماني وقدري بك من رجال الوفد المذكور وجميع النظار وكبار الذوات المتقاعدين وبعد المذاكرة اجمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب ولكن لا يبدأ بها الا بعد اطلاق ثلاث قنابل من الاسطول الانكليزي حتى لا نكون نحن البادئين بالحرب فأعطيت الاوامر بذلك

وعند اشراق يوم ١٢ يوليو بدأت مراكب الانكليز بالضرب على مدينة الاسكندرية وجميع سواحلها وانتشب القتال بين مصر والحكومة الانجليزية . واما الاسطول الفرنساوي فاعتزل جانباً كالمتفرج . وضربت الطوابي حتى تهدمت استحكاماتها . وفي اثناء الحرب خرج سكان المدينة مهاجرين منها خوفاً وهلعاً وفي اليوم الثامن انهزمت العساكر فرجعت الى كفر الدوار واتخذت خطا دفاعيًا وتراجع المنهزمون اليّ وفي ١٤ يوليو أرسلت اقطار الخديوي لاستحضار الخديوي ومعيته ومن معه من النظار ولما وصلت القطارات الى سراي الرمل لركوب الحضرة الخديوية ورجوعه الى عاصمة بلاده ابى ان يعود واسرع في الذهاب الى رأس التين بعائلته ومن بمعيته وانحاز الى العدو المحارب لبلاده . واستدام الحرب الى ان قدر الله تعالى شأنه بالخذلان العظيم في التل الكبير كما هو معلوم للجميع وتم الامر نفينا الى جزيرة سيلان وخرجنا من مصر في يوم ١٦ صفر الخير سنة ١٣٠٠ على قطار مخصوص الى السويس وفي سبعة عشر منه بارحنا الثغر المذكور على مركب انكليزي اسمه «مرتوطة» وفي اول شهر ربيع الاول خرجنا من السفينة الى ثغر (كولومب) ومكثنا بها تسع عشرة سنة الى ان تشرفت جزيرة سيلان بزيارة كريم الشيم عظم الرأفة والحنو الدوق (كرنوال ويورك) ولي عهد الحكومة الانكليزية وتشرفت بزيارة سموه في مدينة كندي وتفضل عليّ بالسؤال عن حالي وما أقاسيه من تباريح الغربة وذل النفي فقلت لسموه الامبراطوري اني اعتبر تشريف سموه الى هذه الجزيرة وتشريفي باقبال سموه عليّ سبباً عظيما لانالتي نعمة الحرية والعود الى وطني العزيز من لدن مولاي الخديوي عباس باشا الثاني . فقال لي وهل تعرفه

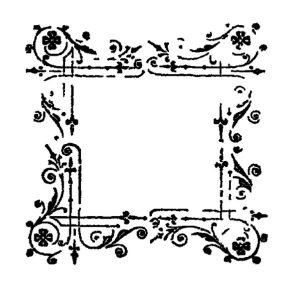
قلت نعم وقبلت يد سموه مذ كان في سن ١٠ اعوام فوعدني خيراً فشكرت ودعوت ثم أحسن علي بسيجارة ملوكية قبلتها أدباً لحفظها تذكاراً للطف سموه ولم احرقها بنار وفي ٦ صفر الخير سنة ١٣١٩ صدرت الارادة الخديوية بالرخصة لي بالعود الى مصر والاقامة فيها . واني أرجو من مكارم سمو مولاي الخديوي عباس باشا تمام رضاه وقد أعرضت لسموه العالي تشكراتي ودعواتي الخيرية الصادرة عن صميم الفؤاد واخلاص النية وقد تفضل حفظه الله سبحانه وتعالى بحملي وعائلتي الى مصر على مصاريف حكومته الخديوية فأرجو من الله ان يوفقني لما يحبه ويرضاه هذا واني ابرأ الى الله من حولي وقوتي في كل ما ذكرته او فعلته . واني يكون للمخلوق العاجز الضعيف مثلي من قوة يدافع بها ارادة اوربا وقوة انكلترا العظمى فضلاً عن بطش حكومة مصر الاستبدادية القادرة وموافقة جلالة السلطان الاعظم على الاعلان بعصياني في جورنال الجوائب وانحياز حاكم البلاد الى المحارب لبلاده وانما كان ما كان بقضاء الله وقدره ولا راد لقضائه وقدره وليس لي فيه الا مجرد الكسب الاختياري الذي أثاب او أعاقب عليه ولم يخطر ببالي أصلا الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين كما ذكرتم ولا بتأليف دولة عربية كما ارجف المرجفون — لاني ارى ذلك ضياعاً للاسلام عن بكرة ابيه وخروجاً عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وآله والبرهان على ذلك ارتفاع صوتي بالمحافظة على حياة المرحوم الخديوي السابق كمحافظتي على نفسي بكرة وعشياً مع احترام اعضاء عائلته الكريمة يشهد لي بذلك ما هو واضح بدفتر الاخبار اليومية المحفوظ بالديوان الخديوي وارادته الخديوية الصادرة الى مجلس التحقيق بعد الخذلان العظيم بالتل الكبير وسجننا مع جميع رجال العسكرية واعيان البلاد وحكامها وعلمائها وقضاتها وتجارها مما هو معلوم لدى الجميع وغني عن البيان . والله الذي لا اله الا هو فالق الحب وبارىء النسمة اني ماخدمت بذلك دولة انكلترا ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة ما ولا للخديوي الاسبق المرحوم اسماعيل باشا ولا للمرحوم حليم باشا ولا أوصي اليّ بمساعدة الدولة العلية من عرش عظمتها . وانما كنت اجتهد في حفظ استقلال بلادي مع نيل الحرية والعدل

والمساواة لأهل بلادي المساكين وانا خادم لهم وناديت سرًّا واعلانًا بتأييدها وتأييدات الذات الخديوية ولكن المقادير الالهية غالبة فانعكست المرئيات وتوالت الصعوبات لنفاذ ما هو كائن في علمه أزلا سبحانه وتعالى . واني والله لا أكره شركسياً ولا روسياً لذاته وانما اكره الاعمال المغايرة للعدالة والانسانية والآداب الشريفة . وأحب العدل والمساواة بين جميع بني الانسان . والحمد لله اولاً وآخرًا والشكر لله وللحضرة الفخيمة الخديوية التي منحتني نعمة العود الى وطني العزيز لاحظى برؤية ذاته الكريمة ورؤية ابناء وطني الكرام قبل ان أفارق هذه الحياة الدنيا والحساب على الله

خادم وطنه العزيز

مخلصكم

احمد عرابي الحسيني المصري





ش ٧٣ : لي هونغ تشانغ

الوزير الصيني الشهير

ولد سنة ١٨٢٣ وتوفي سنة ١٩٠١

☙ ترجمة حاله ❧ ولد لي هونغ تشانغ في بلده « سوي تشو » من مقاطعة « نجان هواي » في شرقي الصين في ١٦ فبراير سنة ١٨٢٣ . وفي سنة ١٨٤٩ نال رتبة « هان لين » وهي من رتب التشرف عند الصينيين . وفي السنة التالية مات امبراطور الصين « تاو كوانغ » وكان محبًّا للاصلاح وقد اشتغل في اواخر ايامه

بادخال الصنائع الافرنجية الى بلاده حتى كادت تزهو وتنمو — فلما مات خلفه ابنه « هيانغ فونغ » وكان ضعيف الرأي معتسفاً فعمل على هدم ما بناه ابوه فشق ذلك على بعض رجال النفوذ وهاج الشعب الصيني وطلبوا خلع الامبراطور وطرد التتر من بلادهم • ورأس العصاة رجلٌ اسمه « تيان تيه » كان قد تثقف على يد بعض الافرنج وتعلم مبادىء الديانه المسيحية فنهض نهضة دينية وزعم انه معيدٌ عبادة « تشانغ تي » • وجعل يعلم التعاليم والشرائع مما استخرجه من التوراة وادعى انه سلطان اهل الارض قاطبة وسمى اتباعه « ناي بنغ » أي امراء السلام وكان الانكليز يومئذٍ ناقمين على الصينيين لاختلاف سياسي فخابر « تان تيه » الانكليز وعرض عليهم المساواة بالتي هي احسن

وكان « لي هونغ تشانغ » في تلك الاثناء من حزب الامبراطور وعمل على مساعدته واصلاح ما فسد من اموره • وطالت ثورة « تاي بنغ » ١٤ سنة وانتهت أخيراً على يد صاحب الترجمة لحسن سياسته • فانتحر زعيم الثورة وقبض الامبراطور على سائر قوادها وقتلهم سنة ١٨٦٤ • وكان لي هونغ تشانغ في اثناء ذلك قد تقلب في مناصب عديدة فتولى قضاء مقاطعة « تشي كيانغ » ثم حكومة « كيانغ سو » سنة ١٨٦١ فلما قدم الجنرال غوردون سنة ١٨٦٣ الى « كيانغ سو » لمطاردة العصاة كان صاحب الترجمة عوناً له في اخراجهم من تلك المقاطعة • فانقضت الثورة سنة ١٨٦٤ وكان الامبراطور هيانغ فونغ قد توفي سنة ١٨٦٢ وخلفه ابنه « تونغ تشي » فعرف هذا الامبراطور له فضله فخلع عليه الجاكت الصفراء وقلده ريشة الطاووس وهما شعار الاشراف • فاصبح لي هونغ تشانغ شريفاً من الدرجة الثالثة بتوارث اعقابه ذلك الشرف من بعده • وفي سنة ١٨٦٦ تعين حاكماً عاماً المقاطعة « ليانغ كيانغ » وفي اثناء ذلك ثار المسلمون في المقاطعات الجنوبية بقيادة قائد منهم اسمه السلطان سليمان وحاولوا خلع نير الصين والاستقلال فحاربهم الامبراطور حرباً عنيفة استعان بها برأي لي هونغ تشانغ وقيادته فانطفأت نار هذه الثورة سنة ١٨٧٣ فتناول السلطان سليمان السم فراراً من الوقوع في الاسر

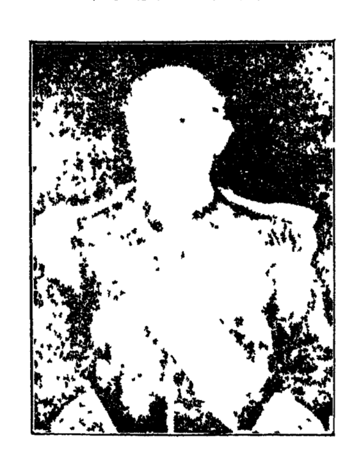
وكان فوز « لي هونغ تشانغ » في هذه الحرب سبباً في ارتقائه الى ولاية مقاطعة تشيلي أرقى مقاطعات الصين لان بكين واقعة فيها وأصبح من ذلك الحين محل ثقة الامبراطور وسائر اهل البلاط . فتقلب بعد ذلك في عدة مناصب رفيعة فتعين مستشاراً أعظم للامبراطور ومندوباً سامياً في الامور الخارجية ومديراً عاماً للقوات البحرية في الثغور وناظراً للتجارة في الشمال وقائداً عاماً لجند الصين في مقاطعات الشمال . ولما انتشبت الحرب بين الصين واليابان ثم أرادت الصين المخابرة بأمر الصلح لم تر خيراً منه للتوسط في ذلك . فانتدبته سنة ١٨٩٥ لمخابرت اليابان كما انتدبته بعد ذلك لمخابرة دول أوربا

وفي سنة ١٨٩٦ بعد انقضاء حرب اليابان رحل الى اوربا رحلة تحدث بها الناس زمناً طويلاً ولم تبق جريدة من جرائد العالم لم تذكر تلك السياحة او تصف « لي هونغ تشانغ » وتعدد مناقبة واخلاقه فنشروا في ذلك المقالات الضافية وكلهم مجمعون على منزلة الرجل من التعقل والحكمة والدراية . على ان بعضهم بالغ في غرابة ما ظهر من عاداته مما يخالف عوائد لافرنج هناك فذكر احدهم في بعض الجرائد ان احد رجال السياسة اهدى « لي هونغ تشانغ » كلباً من جنس « البولدوك » المشهور بسمنه واكتناز لحمه فلما قابله في اليوم التالي سأله اذا كان مسروراً من ذلك الكلب فاجابه « انه سمين لكن لحمه مالح وقاس » فعلم صاحبنا ان رجل الصين ذبح الكلب واكله

وكتب بعضهم الى جريدة الستاندرد يصف فيها اخلاق هذا السياسي من حيث المقابلات الرسمية قال — اذا جاءه رجل في امر استعجله في بيان غرضه وهو يصغي لسماع ما يقوله مخاطبه فاذا اطال الكلام اظهر رغبته في قطع الحديث باشارة يعرفها الذين عاشروه — وهي انه يرفع فنجان الشاي الى شفتيه ومعنى ذلك « اني مسرور بمقابلتكم لكنني لا احب تعويقكم اكثر من ذلك » وفي حديثه مع الاجانب من الافرنج كثيراً ما كان يظهر الفظاظة والاستبداد في الرأي وكلما لان له جليسه زاد هو قسوة فاذا رأى القسوة من جليسه لان هو . فكانه من هذا القبيل

يتشبه بما نقلوه عن معاو ية بن ابي سفيان داهية الاسلام اذ قال « اني لا اضع سيفي حيث يكفيني لساني · ولو ان بني و بين الناس شعرة ما انقطعت » فقيل له «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين» قال «كنت اذا شدُّوها أرخيتها واذا أرخوها شددتها »

و يكرم لي هونغ تشانغ زائر يه بالسيكارة والخمر . واما هو فلا يدخن غير الشبق (الغليون) وله خادم خاص لاصلاحه وقد يتناول كاساً من المرق او الارروط بين يدي زائريه ولا يعد ذلك مخالفاً لآداب المجالسة • ور بما انصبَّ بعض المرق على لحيته او صدرته فلا يلتفت هو الى ذلك لان بجانبه خادماً بيده منشفة يمسح بها ما انصب . على انه لم يكن اكولاً ولم يشرب الخمر الا نادراً ولم يتعاط الافيون مطلقا



ش ٧٤ : المارکيز ايتو
اكبر سياسي اليابان
ولد سنة ١٨٤١

﴿ ترجمته ﴾ اسمه هيرو بومي ايتو ولد في ولاية تشوشو من اعمل اليابان سنة ١٨٤١ وتلقى العلم فيها على قدر ما كانت تسمح به حالة تلك الايام . فلما تجاوز العشرين من عمره تاقت نفسه الى اكتساب العلوم العالية . وكانت ذكرى أوربا ترنّ في اذنيه فجاء انكلترا سنة ١٨٦٣ فاطلع على علومها وتفقد اسباب تمدنها فاضاف معارف الغرب الى معارف الشرق واتخذ من المزيج قوة أهلته لاكبر المناصب فكان هذا الرجل اكبر وسيلة ساعدت امة اليابان على النهوض تلك النهضة التي ادهشت العالم و بهرت العقول

وأخذ منذ عاد الى بلاده يتدرج في المناصب حتى بلغ اعلاها جميعاً . فتولى سنة ١٨٦٨ حكمدارية هيوجو وكانت في حال تدعو الى والٍ ذي دراية في السياسة الخارجية فلم يروا اليق منه لذلك . ولكنه لم يلبث سنة في هذا المنصب حتى رأت الحكومة انها تحتاج اليه في اصلاح المالية فولته وكالة نظارة المالية وشخص في السنة التالية (١٨٧٠) الى اميركا قضى فيها سنة يدرس نقودها وما يتعلق بها فلما عاد الى منصبه ظهرت نتائج ابحاثه في سرعة تقدمه فترقى سنة ١٨٧٣ الى رتبة الوزارة وتولى نظارة الاشغال العمومية ومنزلته ترتفع في عيني الامبراطور يوماً عن يوم فلم تدخل سنة ١٨٨٥ حتى عهد اليه بتشكيل الوزارة . فتولى رئاسة النظار ثلاث سنوات متوالية ثم اعتزل هذا المنصب وتنقل في مناصب اخرى بخدمة الامبراطور . فكان تارة رئيس الخاصة وطوراً صاحب الختم وآونة رئيس مجلس الشرفاء وانعم عليه الامبراطور بلقب كونت

وعاد سنة ١٨٩٢ الى الوزارة وما زال فيها الى سنة ١٨٩٦ وجرت الحرب بين اليابان والصين في تلك الاثناء فأبان فيها من الدهاء والحزم ما خلد له الذكر الجميل . فلما انقضت الحرب كافأه الامبراطور بلقب ماركيز . ثم عاد الى الوزارة ثالثةً سنة ١٨٩٨ ورابعة سنة ١٩٠٠ ولكنه لم يمكث في كليهما الا بضعة أشهر . ثم اقتضت صحته ومصالح بلاده انتقاله الى اوربا — وهذه هي سلسلة المناصب التي تولاها على وجه الاختصار

الشورى : ترى من سرعة ارتقاء هذا الرجل في مناصب الدولة انه ذو مواهب سامية • غير ان المواهب السامية لا تقتضي الاتيان بالمنافع الكبرى حتماً الاَّ اذا تمهدت لها الاحوال وكان صاحب المواهب راغباً في الاصلاح • اما ايتو فانه وفق الى خدم جزيلة يندر أن تتأتى لرجل وخصوصاً في الشرق وسبب نجاحه انه لم يشرع في عمل قبل ان يدرسه ويفحصه وقد سار الى اوربا واميركا غير مرة لهذه الغاية . ومن اهم تلك الاعمال انه ادخل الشورى في الحكومة اليابانية فبعد ان كانت حكومة مطلقة وقول الملك فيها شريعة المملكة جعلها شوروية . ولا يخفى ما يحول دون ذلك من المشقة في امة كان يزعم المتمدون انها من الامم الخامله

بدأ بتأسيس الشورى سنة ١٨٨٣ فوضع لهـا اللوائح وطال به أمر التنقيح والتعديل لغرابة هذا النظام عندهم حتى تقرر رسميا سنة ١٨٨٩

وخلاصة نظام الحكومة اليابانية ان الامبراطور هو رأس المملكة وله سلطة الاجراء بمساعدة مجلس شوراه وهم مسئولون بين يديه عن اعمـالهم وهو يوليهم ويعزلهم . وهناك ايضاً مجلس خاص يبحث في المسائل الهامة المتعلقة بالمملكة ممـا يعرضه الامبراطور . وللامبراطور ان يشهر الحرب ويدعو الى السـلم ويعقد المعاهدات . وفي اليابان مجلس للاعيان ومجلس للنواب فلا يسنُّ الامبراطور قانوناً الا بمصادقتهما

الجند : ومن اعمـاله ايضاً انه اصلح الجندية اليابانية في البر والبحر وبذل في سبيل ذلك العناية الكبرى. ولولا هذا الاصلاح ما استطاعت اليابان ان تتغلب على الصين في حروبها سنة ١٨٩٢ وللماركيز ايتو لائحة في بناء السفن لا يزال العمل جارياً بها وقد جعلت اسطول اليابان من امنع الاساطيل

الامبراطور : والسر في نجاح مشروعاته واخراجها من القوة الى الفعل انما هو ثقة الامبراطور فيه وانقياده له ولولا ذلك لذهب سعي الماركيز هباءً منثوراً . ولكنه تسلط على رأي الامبراطور تسلطاً عجيباً وهان عليه اقناعه في ما يشرع فيه من الاصلاح . ولا ينكر ما للامبراطور من الفضل في ذلك . وخلاصة القول ان الله

رضي عن اليابان فمنحها وزيراً حكيما وسلطاناً سامعاً فلم تمض عليها ثلاثون عاماً حتى انتقلت من مصاف الامم الخاملة الى أرقى مدارج المدنية

عيشته الخصوصية : يقيم المـاركيز ايتو في عزبة له اسمها (أويسو) قرب مدينة طوكيو وهو يحب الرياضة البدنية كثيراً ولكنه يفرط فيهـا حتى تتوالى عليه النزلات الشعبية . قد وخطه الشيب ولكنه يخضب شاربيه ولحيته

وهو يلبس اعتيادياً اللباس الافرنجي وفوقه القباء الكبير المزرر من الامام كما تراه في الرسم وعلى راسه طاقية افرنجيـة وهو يحسن التكلم بالانكليزية واذا خاطبته وذكرت نهضة اليابان الاخيرة تنسمت من مجمل كلامه اعجاباً بما كان له من الباع الطولى في ذلك

ومن اخلاقه التي يجب ان تكون مثالاً لكل شرقي — سواء كان من رجال السياسة او العلم او لاي فردٍ من افراد الناس — انه مع رغبته في اقتباس عوامل التمدن الحديث والاقتداء بآداب المتمدنين وترغيب مواطنيه في اقتباسها لم يكن يقبل عادة افرنجية ولا عملاً افرنجياً الا بعد ان يلبسه حلة يابانية محافظة على جامعة الوطن واحتراما لعوائد البلاد وشعائر اهلهـا . فهان عليه نشر ما اراد نشره من الامور النافعة ولم يحط من منزلة امته . فما اجدره ان يكون مثالا لاناس بين ظهرانينا نراهم اذا اقتبسوا عادة افرنجية بالغوا في المحافظة على اصلها اكثر من محافظة اصحابها عليها وان يكن في بعض تفاصيلها ما يخالف الآداب الشرقية

رجال الاعمال واهل البر والاصلاح



ش ٧٥ : كـيرلس الرابع

بطريرك الاقباط الارثوذكسيين العاشر بعد المئة

هو حد رجال الاصلاح الذين يفتخر تاريخ الامة القبطية بذكرهم نظراً لما له من الايدي البيضاء في اصلاح الكنيسة القبطية في هذا القرن وقد آثرنا شرح ترجمة حاله اقراراً بفضله اسوة امثاله من اعاظم الرجال نقلاً عن اصدق المصادر وفي جملتها ما سمعناه من افواه جماعة ممن عاشروه ورأوا اعماله رأي العين

ولد هذا الرجل سنة ١٥٣٢ قبطية (١٨٠٦ م) في قرية الصوامعة الشرقية من مديرية جرجا في مصر العليا وكان اسمه داود وكان والده مزارعاً معروفاً بين قومه بالسذاجة وسلامة النية وكان امياً لا يعرف القراءة ولكنه لم يغفل عن تربية ولديه وهما داود المتقدم ذكره و يوسف وهو اصغرهما فعني في تعليمهما فتعلما القراءة والكتابة في اللغتين العربية والقبطية ومبادئ الحساب

فلما اكمل داود تعلمه على قدر ما سمحت به مدارس تلك الايام عكف على

معاضدة والده في اعماله الزراعية فكان يقضي يومه بين المزارع والغياض في الاعمال الخشنة فنما جسمه وتشددت عضلاته . اما اخوه فاختار الكتابة والحسابة فكان يقضي معظم يومه جالساً في الديوان عاملاً فكرته مجهداً عقله فنما ضعيفاً نحيفاً خلافاً لداود الذي لما بلغ اشدة اختلط بالعربان المجاورين لقريته وتعلم منهم ركوب الخيل حتى صار يراكبهم ويسابقهم ويرافقهم في اسفارهم في الجبال والبراري والصحاري والف كثيراً من طرق الصحراء حتى انه لم يحتج الى دليل يرشده الى طرق لدير عند ما اراد الترهب

وقلما نعلم عن حالة صاحب الترجمة قبل انخراطه في سلك الرهبنة وانما علمنا انه لم يكن يهمه شيء من اعمال هذه الدنيا ولم يكترث بعمل من الاعمال العالمية كان العناية حفظته لخدمة لا يقوم باعبائها الا نفر قليلون من بني الانسان . فلما بلغ الثانية والعشرين من عمره برح بيت ابيه وفارق اصحابه وخلانه وقصد دير القديس انطونيوس في الجبل الشرقي لمجرد الترهب والانقطاع للعبادة وخدمة الله فوصله بعد مسيرة ثلاثة ايام وترهب على يد القس اثناسيوس القلوصني رئيس ذلك الدير ولم يلبث هناك مدة حتى اشتهر بين رفقائه الرهبان بالذكاء والورع ودماثة الاخلاق والهمة والنشاط . فكان الرئيس اذا غادر الدير لغرض له في العزبة او مكان آخر يعهد بتدبير الدير لداود دون سواه لما رأى فيه من الاهلية وحسن التدبير والغيرة على مصلحة الدير والمواظبة على مطالعة الكتب المفيدة حتى رآه يجمع اخوانه الرهبان في ساعات الفراغ ويقرأ عليهم ويشرح لهم ويحثهم على المطالعة . وبعد دخوله الدير بسنتين توفي القس اثناسيوس المشار اليه فاجمع الرهبان كافة على اسناد منصب رئاسة الدير اليه فاستحضره الانبا بطرس بطريرك الاقباط اذ ذاك وثبته في ذلك المنصب ودعا له وباركه . فانصرف القس داود الى مقر وظيفته في بوش بمديرية بني سويف وشرع في مباشرة المسام التي عهدت اليه بهمة ونشاط ودراية . وكان على كثرة تجواله لقضاء مهام الدير المتعددة في البلاد المختلفة لا يهمل شيئاً من لوازم الدير في الجبل في اوقاتها حتى لا يتخذ الرهبان تأخرها ذريعة لمغادرة الدير والتجول

في البلاد من جهة الى اخرى مما يخالف عهود الرهبنة . اذ كان في اعتقاده ان الراهب لايجب ان يبرح ديره الا اذا دعاه رئيسه الى ذلك فاذا خالف احد الرهبان هذا الامر كان يتظاهر القس داود بالاغضاء عنه ثم يعمل على اجباره بحسن السياسة على ايثار البقاء في الدير على الخروج منه . وما زال ذلك اعتقاده في الرهبنة الى آخر ايامه حتى انه لما صار بطريركاً اصدر منشوراً يقضي بملازمة الرهبان الديور وان لا يخرجوا منها الا باذن منه ولم يبق في العزبة في بوش الا الرهبان الذين لا غنى عنهم في الاعمال الزراعية ومتعلقاتها ومن اقواله من هذا القبيل « ان من يختار ثوب الرهبنة فقد مات عن الدنيا ودفن في الدير فلا يخرج الميت من قبره . والرئيس الذي يؤذن للراهب في الخروج من ديره فقد اخرج ميتاً من قبره »

ومما يذكر من آثاره في اثناء اقامته في بوش رئيساً للدير انه خصص مكاناً في العزبة جمع اليه ما كان هناك من الكتب وضم اليها بعضاً آخر من كتب الدير وكان يجمع الرهبان اليه في ساعات الفراغ و يستحثهم على المطالعة والمفاوضة في المواضيع الدينية والادبية والتاريخية . وانشأ مدرسة لتعليم شبان بوش الاقباط اللغة العربية بفروعها واللغة القبطية واعتنى هو في تعلم النحو والصرف فاكتسب منهما ما يكفي لضبط القراءة والكتابة وبالجملة فقد كان نوراً تنبعث منه اشعة الفضيلة والقدوة الحسنة في سائر مديرية بني سويف واجمع اهلها على اختلاف المذاهب على حبه واحترامه ومشاورته في مهامهم

وحدث في اثناء ذلك خلاف بين الانبا سلامة مطران الحبشة واكليروسهم وسببه ان المطران سلامة لما تولى اسقفية الحبشة رأى الشعب واكليرسهم هناك على ما هو مخالف لروح الكتاب واستغرب تساهل اسلافه المطارنة في هذا الامر وسكوتهم عنه فاراد ردعهم واهدائهم الى الطريق الحق فغضبوا واصروا على اعتقادهم بدعوى انه اعتقاد اجدادهم ولا يريدون الجنوح الى سواه فلما يئس من ردعهم بالبراهين الدينية هددهم بالسلطة الكنائسية فشكوه للبطريرك الانبا بطرس المتقدم ذكره وكان مشهوراً بالحلم والوداعة والتقوى فكتب الى المطران سلامة يحرضه

على معاملة الرعية بالرفق واللين وتجنب كل ما يؤول الى الشقاق فلما قرأ هذا الكتاب شقّ عليه ما نسب اليه فيه من القسوه والحدة ولو تلميحا فكتب الى البطريرك يبرئ نفسه من تلك التهم وقد شرح المسألة شرحاً وافياً وقال في آخر الكتاب ان موضوع الخلاف ليس عالميًّا حتى يتساهل فيه وطاعة الله اولى من طاعة الناس . فلما تناول البطريرك الكتاب سرَّ لثبات المطران واخلاصه وكان يرجو ان تنفرج تلك الازمة على يده ثم علم بتفاقم الخطب لتداخل بعض رجال الحكومة هناك ومقاومتهم له فخاف العاقبة فلم يرَ بدًّا من ملاقاة الامر بالحزم فبعث القسيس داود واسرَّ اليه حقيقة الواقع واظهر له اسفه مما حصل وانه يخشى وقوع الانشقاق في الطائفة بسبب ذلك وانه لشيخوخته لا يستطيع الذهاب الى الحبشة بنفسه لتسوية الخلاف ولذلك فانه لم يرَ من يليق لهذه المهمة افضل منه . وعهد اليه بالمسير نائباً عنه لما يعهد فيه من الدراية والحكمة والعزيمة . فاذعن القسيس لامره ولكنه طلب اليه ان يصرح لكاهن آخر برافقته ليكون له عوناً في ذلك فاذن له فاصطحب راهبا اسمه القس برسوم الراهب (ثم صار الانبا يوأنس اسقف المنوفية) فسار القس داود اولاً الى بوش يتأهب للمسير وفي اليوم المعين سارا بكتاب من البطريرك للمطران وآخر الى القسوس وسائر الشعب الحبشي ولما ودعاه قال البطريرك للقس داود على مسمع من الناس « انك اذا اديت هذه المهمة على وجه مرض تنال فيه نصيباً صالحاً عند عودتك مكافأة لك » وقال آخرون انه وعده بمنصب مطران عند رجوعه فسار على بركة الرحمن سنة ١٥٦٧ قبطية (١٨٥١ م) وقد احسن بمرافقة الانبا يوأنس لانه جدير بثقته واهل لمثل ذلك المسعى الخيري

وفي يوم ٢٨ برمهات سنة ١٥٦٨ الموافق (١٨٥٢ م) توفي البطريرك الى رحمة الله في اثناء غياب القس داود بعد ان أقام في كرسي الكرازة المرقسية نيف واربعين عاما وكان رجلاً كاملاً اسف الناس على فقده

وبعد وفاته بقليل جاء العاصمة اساقفة الوجه البحري والوجه القبلي لكي

يتحدوا مع الشعب في انتخاب من يقوم مقامهِ وفي اجتماعهم الاول في دار البطريركية كان اسم القس داود في جملة المرشحين لذلك المنصب فاعترض بعضهم على انتخابه لانهم لا يعلمون من امر حياته شيئاً بدعوى انهم سمعوا بخروجه من بلاد الحبشة منذ مدة ولم يعودوا يعلمون ماكان من امره والحوا في انتخاب سواه فارفضت هذه الجلسة ولم يتم الانتخاب . ومن غريب الاتفاق انه قبل حلول ميقات الجلسة الثانية ورد من القس داود كتاب لبعض اصدقائه ينبئه بوصوله حدود مصر وانه سيكون في القاهرة بعد قليل فسر منتخبوه بذلك فلما التامت الجلسة صرحوا بكتابه وطلبوا انتخابه فطلب بعضهم انتخاب الانبا يوساب اسقف اخميم اذ ذاك واوقفه جماعة من الحضور فاعترض منتخبو القس داود على ذلك وارفضت الجلسة بلا نتيجة فاخذ حزب القس داود في كتابة تزكية باسمه وقع عليها كثير من ابناء الطائفة لكي يكون شاهداً لرضاء الجمهور عن انتخابه . وكان في جملة احزابه تادرس شلبي وتادرس عريان وبرسوم واصف وحنا عبيد ويوسف نصرالله وحنين حنس واخوه اسطفانوس حنس ورفائيل الطوخي وحنا القسيس وبطرس نخله وابراهيم لطف الله ويوسف مفتاح وتادرس سيدهم وجميعهم من اعيان الطائفة ووجهائها وكان من اشد الناس اهتماما في ذلك حنا افندي جريس وابراهيم افندي خليل

وبقي النزاع مدة وصل في اثنائها القس داود الى القاهرة فسرت احزابه وتقاطروا للسلام عليه وكانت مدة غيابه هذه المرة نحو ثمانية عشر شهراً

فلما رأت احزاب اسقف اخميم ميل الجمهور الى انتخاب القس داود عولوا على تنفيذ مآربهم بالحيلة بان يجتمعوا ذات ليلة ويسيموا الاسقف بطريركاً فاذا اصبح الناس رأوا السهم قد نفذ وادعى بعض الراغبين في ذلك انه تحصل على امر شفاهي من المغفور له عباس باشا الاول برسم الاسقف بطريركاً . ولكنهم لم يستطيعوا كتم تواطؤهم فعلمت احزاب القس بذلك فجاؤهم في الوقت الذي عينوه لذلك واخرجوهم من الكنيسة بالقوة واقفلوا الابواب وسلموا المفتاح لرجل حبشي اسمه سلطان كان في البطريركية مع جماعة من ابنـاء وطنه وكان يدعي انه عائلة

النجاشي ملك الحبشة . ثم اجتمعوا وعرضوا للحكومة يشكون سوء تصرف بعض الاساقفة في هذا الامر والحوا في انتخاب القسيس لرضاء الشعب عنه بشهادة التزكية التي كتبوها عنه فاحالت الحكومة تسوية الامر على الانبا كبريل ورتبيت الارمن اذ ذاك فاخفق سعيه لتمسك كل من الفريقين برأيه وغرضه . ومن الغريب ان تلك المقاومة لم يكن لها اساس حقيقي سوى حب السيادة ونفوذ الكلمة غير ان حزب القس داود كانوا على بينة مما دعوا اليه لانهم كانوا يعلمون صفات ذلك الرجل وانه لائق بذلك المنصب لما عرف به من شدة الميل الى اصلاح الطائفة وسعة اطلاعه وحسن درايته . واما المتشيعون لغيره فكانوا يظنون انه يكفي لرئيس الطائفة والقابض على ازمتها ان يكون حسن السيرة ورعاً تقياً وقد يلتمس لهم في ذلك بعض العذر لانهم لم يكونوا يعرفون للبطريرك عملاً غير الصلاة والفصل في بعض القضايا الجزئية كتاييد الصلح بين رجل وامراته او ما شاكل اما مصلحة الامة العمومية فلم يكونوا يفقهون لها معنى

ولما خابت مساعيهم جعلوا يختلقون على القس داود اقاويل واراجيف لا اصل لها فادعى عليه بعضهم انه تزوج في الحبشة وله ولدان في قيد الحياة وكان المختلق لهذه الاكذوبة قسيساً حبشياً جاء مصر لضغينة بينه و بين القس داود بسبب ما ذهب القس الى الحبشة من اجله وكان في عزم ذلك الحبشي ان يشي به الى البطريرك فلما رأى البطريرك قد توفي والشعب قائماً على القس داود اختلق عليه تلك الاكذوبة واتهمه بالمداخلة في امور السياسة في الحبشة بما يشبه خيانة الحكومة المصرية ولكن حبل الكذب قصير فما لبثت هذه التقولات زمناً حتى ظهر فسادها ظهور الشمس لذي عينين وكان عباس باشا قد تغير عليه بسبب ما نسب اليه من المداخلات السياسية فلما تحقق الخبر اعتقد صدق طويته

وما زال الخلاف والنزاع قائماً بهذا الشان نحو عشرة اشهر انتهت بواسطة ورتبيت الارمن بتعين القس داود مطراناً على مصر ثم اذا اتضح من اعماله انه لائق بالبطريركية تقلدها فتنصب مطراناً في ١٠ برمودة سنة ١٥٦٩ قبطية (١٨٥٣م)

واخذ من ذلك الحين في مباشرة اعماله وادارة البطركخانة واظهر من الاهلية والهمة والغيرة ما استدر الثناء عليه من القاضي والداني . واول امر باشره بعد رسمه مطرانا بناء مدرسة للاقباط بجوار البطركخانة وهي اولى مدرسة اقيمت لهذه الطائفة فاشترى عدة منازل واقام على انقاضها مدرسة ذاع صيتها وفاح اريجها في سائر الديار المصرية وغيرها

وكان بناء هذه المدرسة ونجاحها من موجبات اجماع الجميع على محبته حتى انتخبوه بطريركاً في ليلة الاحد ١١ بؤونه سنة ١٥٧٠ قبطية الموافق (١٨٥٤ م) بحضور جميع الاساقفة ما عدا اسقفي اخميم وابي تيج ولقبوه انبا كيرلس الرابع

فلما اصبح مستقلاً في عمله شرع في اخراج مقاصده من حيز الفكر الى الفعل فاتم بناء المدرسة واحضر لها الاساتذة الماهرين وكان يقبل التلامذة فيها و يصرف لهم الكتب والادوات المدرسية مجاناً وكان يباشر التعليم بنفسه فلا يمرُّ عليه يوم لا يفتقد فيه حالتها مرة او غير مرة . ولزيادة الاعتناء بها اتخذ له محلاً فيها فاذا اتى اليه زائر من الاجانب او غيره من ذوي المعرفة باللغات والعلوم وطرق التعليم كلفه بزيارة المكاتب وفحص التلامذة وابداء ملاحظته فيما يعود الى تحسين حالتها وتسهيل طرق التعليم فيها • وكثيراً ما كان يطيل الاقامة في المكتب مصغياً لما يلقيه الاستاذ على الطلبة ثم يقول مخاطباً التلامذة قبل خروجه « قد استفدت معكم اليوم فائدة لم اكن اعرفها قبلاً » وكان احياناً يلقي على التلامذة عبارات ادبية وتاريخية مما يناسب سنهم وادراكهم . وقد جعل تعليم اللغة القبطية جبرياً وكان يلاحظ سير دروسها بنفسه

ولما رتب مدرسة الازبكية وارتاح باله من جهتها ورأى ان بعض الطلبة يأتون اليها من جهات بعيدة مثل حارة السقايين اشفق عليهم وانشأ مدرسة وكنيسة هناك ولم يكن بها من قبل كنيسة وناط المرحوم حنا افندي القسيس بملاحظتها وتقديم ما يلزم لها من المعدات والادوات وكان حنا افندي هذا من افاضل القوم الغيورين ولم يكتف جناب البطريرك بذلك بل كان يزورها و يفحص حالتها مرة في كل

اسبوعين على الاقل هذا فضلاً عن تكايفه معلمها الاول بتعريفه عن حالتها وكيفية سيرها اول فاول

ولكن مع كل التسهيلات التي اجراها رحمه الله وعدم تكايف الوالدين شيئاً لم يزد عدد التلامذة في ايامه بمدرسة الازبكية على مئة وخمسين تلميذاً مع انه لم يكن بمصر واسطة لتعليم ابناء الامة القبطية غير هذه المدرسة وكثيراً ما كان يحمل الوالدين على احضار اولادهم الى المدرسة جبراً ولكنهم مع ذلك كانوا يفضلون وجود اولادهم بمكاتب العرفان القذرة الرديئة الهواء وكان معظم هؤلاء التلامذة من ابناء وجهاء القوم ومعتبريهم ولذا كان يعاملهم احسن معاملة و يحث الاساتذة على تربيتهم التربية الحسنة وبذل الجهد في توسيع عقولهم وتثقيف اذهانهم بالنصائح الادبية والروايات الحكمية كما كان يفعل هو بنفسه في اكثر الاحيان

وعهد الى احد قسوس كنيسة الازبكية المسمى القمص تكلا المشهود له باتقان فن الموسيقى والالحان الكنائسية ان ينتخب من بين تلامذة المدرسة النابهين عدداً معلوماً من ذوي الاصوات الحسنة وناطه بتعليمهم التراتيل الكنائسية بطريقة مضبوطة وجعل لهم ملابس مخصوصة على طرز جديد لطيف يلبسونها في اثناء وجودهم في الكنيسة في ايام الاحاد والاعياد والمواسم فنتج من هذا التحسين الظاهري فائدتان احداهما اظهار مزايا المدارس وترغيب الاهالي في وضع اولادهم بها والثانية مواظبتهم على الحضور الى الكنيسة وهم منشرحو الصدر من سماع التراتيل وهاك ما قاله ابرهيم افندي الطيب في كتابه المسمى «مصباح الساري ونزهة القاري» المطبوع في بيروت سنة ١٢٧٣ ه في اثناء كلامه عن مصر ومدارسها قال :

« وفي حارة الاقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسان القبطي القديم والتركي والايطالياني والفرنساوي والانكليزي والعربي وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف و ينفقون على التلاميذ من مال المدرسة وهذه بناها البطريرك كيرلس القبطي وانفق عليها نحو ستمئة الف قرش وكل هذا بخلاف ما نعهده في بلادنا من الاكليروس واوجه الشعب »

ولم يمض زمن حتى خرج من هاتين المدرستين عدة تلامذة . واتفق حدوث مصلحة السكة الحديدية بالديار المصرية فانتظموا في خدمتها وانتشروا في جميع محطاتها وكانوا يؤدون اعمالهم باللغة الانكليزية و بعضهم استخدم في البنوكة وعند التجار لمعرفتهم اللغة الطليانية وقد عرف جناب اسماعيل باشا الخديوي الاسبق مقدار هذه الخدمة الوطنية فاستدعى اليه الانبا ديمتريوس البطريرك خلف السعيد الذكر الانبا كيرلس واظهر ارتياحه للخدمة الوطنية التي قامت بها المدارس القبطية لان معظم مستخدمي السكة الحديد المصرية من تلامذتها وانعم عليه بألف وخمسمئة فدان ليتساعد بايراداتها على توسيع نطاق المدارس ورتب لها ايضا مئتي جنيه مصري سنوياً ولكن هذه منعت عنها فيما بعد بسبب عسر المالية واضطرار الحكومة للاقتصاد

ووجه نظره الى تحسين حالة ادارة البطركخانة فانشأ لها ديواناً وعين له المستخدمين الاكفاء وقسم الادارة الى قسمين قسم يختص بالاوقاف والمكاتبات الرسمية وغيرها وقسم يختص بالاعمال الدينية والشرعية وخص ابراهيم افندي خليل بالقسم الاول واحد القسوس ومطران مصر بالقسم الثاني وكلاهما تحت ملاحظاته الشخصية . ورأى ان اعمال الاوقاف جارية بطريقة غير منتظمة وكان بعضها ضائعاً ولم يعرف الضائع منها والموجود فأمر بانشاء سجل لحصر جميع الاوقاف به من واقع الحجج واستخدم لهذا العمل عمالاً اشتغلوا به زمناً حتى اتموه على الوجه الذي كان يريده وانشأ ايضاً مطبعة وبعث يستحضر ادواتها من اوروبا على يد المرحوم الخواجا رفله عبيد السوري الارثوذكسي . وقبل احضارها اختار من ابناء الامة القبطية اربعة من شبانها النجباء . ورتب لهم رواتب شهرية وملابس سنوية تصرف لهم في اوقاتها من الدار البطركية وتحصل على امر من المرحوم سعيد باشا بقبولهم في مطبعة بولاق الاميرية ليتعلموا صناعة الطباعة اذ لم يكن في القطر المصري اذ ذاك مطبعة غيرها

ومما يدلك على شدة احترامه للعلم ورغبته في نشره وتنشيطه انه لما انبأه الخواجا رفله عبيد المتقدم ذكره بوصول ادوات المطبعة الى الاسكندرية وكان

البطريرك في الدير بالجبل بعث الى وكيل البطركخانة بمصر يأمره باستقبال تلك الادوات عند وصولها القاهرة باحتفال رسمي يقوم فيه الشمامسة بالملابس الرسمية المختصة بالخدمة الكنائسية يرتلون التراتيل الروحية وكان لاستقبال تلك المطبعة احتفال تحدث الناس به زمنا لغرابته غير ان المقادير لم تفسح له بالاجل حتى يتم المعدات ويباشر العمل بنفسه فتولى امرها بعده المرحوم رزق بك جرجس وطبع فيها عدة كتب دينية وادبية ثم صارت المطبعة تحت يد اخيه الخواجه ابراهيم جرجس وعرفت بمطبعة الوطن

وفي آخر شهر مسري سنة ١٥٧٢ قبطية (١٨٥٦ م) بعثه المغفور له سعيد باشا بمهمة سياسية الى الحبشة فذهب وقلبه عالق بالمدارس فاوصى المرحوم المعلم برسوم واصف بادارة البطركخانة والمدارس . وطالت مدة غيابه في الحبشة فقلق الناس خوفاً عليه ثم سمعوا انه قام من جهة الخرطوم مع اثنين من خاصة ثيودور ملك الحبشة فاطمأن الناس واستبشروا بنجاح مهمته وفي ٧ امشير سنة ١٥٧٤ وصل القاهرة فاستقبلوه باحتفال يليق به حتى غصت الشوارع بالناس ولاسيما جهات الازبكية وما وصل البطركخانة حتى تهافت الناس عليه يقبلون يديه ويتبركون به واعدوا له زينة فاخرة في المدرسة والبطركخانة . ولما انتهت الزينة عاد هو الى مباشرة اعماله في بناء الكنيسة واحتفل بتأسيسها احتفالاً عظيماً جداً حضره جميع رؤساء الطوائف واعيان البلاد ورجال الحكومة يوم الخميس ٢٩ برموده سنة ١٥٧٥ (٢٢ افريل « نيسان » سنة ١٨٥٩)

وفي ليلة الاربعا ٢٣ طوبه سنة ١٥٧٧ قبطية (١٨٥١ م) توفي الى رحمة الله وحزن لفقده كل من عرفه او سمع عنه ولاسيما الطائفة القبطية لانها خسرت بفقده خسارة جسيمة جداً وكانت مدة توليه البطريركية سبع سنوات

وكان البطريرك كرلس الرابع طويل القامة ممتلىء الجسم قوي البنية صحيح الاعضاء اسمر اللون حاد النظر والذهن كبير الرأس عريض الجبهة كثيف اللحية اسودها طلق الوجه واللسان سريع الاقدام على ما ينويه كثير الامثال في حديثه

فقلما يلقي عبارة لا يسندها الى مثل . وكان عالي الهمة وديعاً فطناً سديد الراي قريب الرضا سريع العفو لا يشرب الخمر كثير الاحترام للرهبنة محافظا على اصولها وكان شديد الكره لمقابلة النساء وجمع المـال لا يحب الاستبداد في رأيه ولو كان مصيباً وكان كلفاً بمخالطة العلماء ومجالسة الفضلاء ومكالمتهم ومناظرتهم ولم يكن يستكنف من الاقرار بغلطه اذا اتضح له . ومن افضل ما اتصف به رحمه الله حبه لرعيته وسهره على مصلحتهم ورفع كل ما يوجب النفرة بينهم والسعي في كل ما فيه تهذيب الشبان بانشاء المدارس وتسهيل طرق التعليم

ومن اعماله الحميدة ان القسس كانوا قبل زمانه يعيشون على حسنات الطائفة وصدقاتها فرتب هو لهم رواتب شهرية تصرف لهم من البطركخانة . ورغبة في رفعة منزلتهم وحفظ مقاماتهم اصدر منشوراً يقضي بان الراتب لا يصرف الا لمن يعرف خدمة القداس باللغة القبطية معرفة جيدة

وعند عودته من الحبشة رتب للقسس ميقاتاً يجتمعون فيه كل سبت في المدرسة يتباحثون في امور دينية وكان هو يحضر معهم يناقشهم ويشرح لهم واجبات القسوس وآدابهم ومـا يكسبهم مقاماً رفيعا بين الناس وكان في نيته ان يعقب ذلك بتأسيس مدرسة اكليريكية فلم تمهله منيته وفتح في آخر ايامه مدارس للبنات ولكنها لم تثبت

وكان كثير التيقظ لاصلاح ما يقع من النفور بين اولاده او بين الرجال ونسائهم على انه كان يكره مواجهة النساء حتى انه لم يكن يقابل والدته الاَّ نادراً

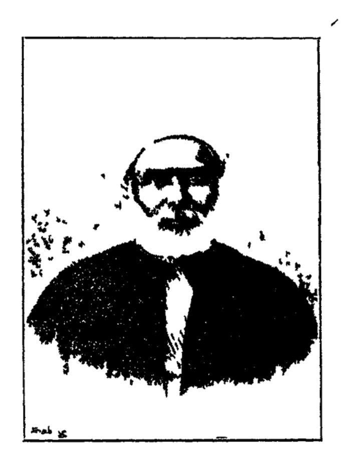
وكانت العادة في الزيجة ان يعقد القسيس بين الشاب والشابة عقداً يدعونه « عقد تمليك » قبل الاكليل بمدة غير ان هذا العقد لا يقبل الحل او هو بمنزلة عقد الزيجة فاصدر البطريرك منشوراً يجعـل ذلك العقد « عقد صلح وسلام » حتى اذا عرض لاحد الطرفين ما يمنع اتمام الاقتران يمكن حله وهذا لا يزال جارياً في الطائفة الى الآن . وكانت العـادة ان يزوّجوا البنات صغيرات جداً فامر ان لا يتم عقد الزواج على الفتاة الاَّ اذا تجاوزت الاربع عشرة سنة من العمر

وجعل الاعتراف قبل الاكليل فرضاً واجباً على العروسين حتى لا يحصل ما يكره احد الفريقين بسبب ما كان من التحجب بين الرجال والنساء في تلك الايام وامر ان لا يعقد القسس اكليلاً الا بعد استئذان البطركخانة حتى يسجل ذلك في دفاترها والبطركخانة لا تؤذن بالاكليل الا بعد الاطلاع على محضر الاتفاق بحيث لا يكون ما يمنع الاقتران

ولشدة رغبته في تعليم ابناء طائفته ورفعة منزلتهم استأذن المغفور له سعيد باشا ان يدخل تلامذة مدرسته في مدرسة الطب وغيرها من المدارس الاميرية بصفة رسمية

وخلاصة القول انه كان قدوة البطاركة وعنوان رجال الفضل ولو امهلته المنية بضع سنين اخرى لجاء من الاعمال العظيمة باضعاف ما جاءه ولكنها عاجلته فلم يتولَّ كرسي الكرازة المرقسية الاَّ سبع سنين عمل في اثنائها اعمالاً لا يعملها غيره اضعاف تلك المدة





س ٧٦ : السيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية

ولد سنة ١٢٥٨ وتوفي سنة ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥م)

ترجمة حياته

﴿ نشأته الاولى ﴾ نسأالفقيدفي قريةصغيرة (محلة نصر من ابوين فقيرين فلم يمنعه ذلك من الارتقاء بجده واستعداده حتى بلغ منصب الافتاء. وأصبح علَماً في الشرق وقطبا من اقطاب الدهر سينقش اسمه على صفحات الايام و يبقى ذكره ما بقي الاسلام

ولد عام ١٢٥٨ هـ وابوه يتعاطى الفلاحة وقدادخل فيها اولاده الأ محمداً لانه توسم فيه الذكاء فاراد ان يجعله من الفقها. فادخله كتاب القرية تردد اليه حيناًثم ارسله الى الجامع الاحمدي في طنطا اقام فيه تلات سنوات ثم نقله الى الجامع الازهر فقضى فيه عامين لم يستفد فيهما شيئاً وهو ينسب ذلك بالاكثر الى فساد طريقة التعليم

ثم انتبه لنفسه ولم يرَ بدًّا من تلقي العلم فاستنبط لنفسه اسلوبا في المطالعة واعمل فكرته في تفهم ما يقرأه فاستلذّ العلم واستغرق في طلبه فاحرز منه جانباً كبيراً على ما يستطاع ادراكه بتلك الطريقة

واتفق ان ورد على مصر سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م السيد جمال الدين الافغاني فيلسوف الاسلام وصاحب الترجمة لا يزال في الازهر وقد ادرك الثلاثين



ش ٧٧ جمال الدين الافغاني

من عمره . وتولى جمال الدين تعليم المنطق والفلسفة وانخرط الفقيد في سلك تلامذته مع جماعة من نوابغ المصريين تخرجوا على جمال الدين فخرجوا لا يشق لهم غبار كانّ الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا اعينهم واذا هم في ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلاً عن العلم والفلسفة روحاً حية ارتهم حالهم كما هي اذ تمزقت عن

عقولهم حجب الاوهام فنشطوا للعمل في الكتابة فانشأوا الفصول الادبية والحكمية والدينية . وكان صاحب الترجمة الصق الجميع به واقربهم الى طبعه واقدرهم على مباراته . فلما قضي على جمال الدين بالابعاد من هذه الديار قال يوم وداعه لبعض خاصته « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً »

وتقلب الفقيد في بعض المناصب العلمية بين تدريس في المدارس الاميرية وتحرير في الوقائع المصرية وكتابة في الدوائر الرسمية . حتى كانت الحوادث العرابية فحمله اصحابها على السير معهم وهو ينصح لهم ان لا يفعلوا و ينذرهم بسوء العاقبة . ولما استفحل امر العرابيين اختلط الحابل بالنابل وسيق الناس بتيار الثورة وهم لا يعلمون مصيرهم . فدخل الانكليز مصر والشيخ محمد عبده في جملة الذين قبض عليهم وحوكموا فحكم عليه بالنفي لانه افتى بعزل توفيق باشا الخديوي السابق فاختار الاقامة في سوريا فرحب به السوريون واعجبوا بعلمه وفضله فاقام هناك ست سنوات فاغتنموا اقامته بينهم وعهدوا اليه بالتدريس في بعض مدارسهم

وانتقل من سوريا الى باريس فالتقى فيها باستاذه وصديقه جمال الدين وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك فانشاءا جريدة العروة الوثقى وكتابتها منوطة بالشيخ فكانت لها رنة شديدة في العالم الاسلامي ولكنها لم تعش طويلاً . وتمكن الشيخ في اثناء اقامته بباريس من الاطلاع على احوال التمدن الحديث وقرأ اللغة الفرنساوية على نفسه حتى اصبح قادراً على المطالعة فيها . ثم سعى بعضهم في اصدار العفو عنه فعاد الى مصر فولاه الخديوي السابق القضاء وظهرت مناقبه ومواهبه فعين مستشاراً في محكمة الاستئناف وسمي عضواً في مجلس ادارة الازهر وعين اخيراً مفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ وما زال في هذا المنصب حتى توفاه الله في ١١ يوليو ١٩٠٥ ولم يعقب ذكراً يبقى به اسمه ولكنه خلف آثاراً يخلد بها ذكره

مناقبه واعماله

كان ربع القامة اسمر اللون قوي البنية حاد النظر فصيح اللسان قوي العارضة متوقد الفؤاد بليغ العبارة حاضر الذهن سريع الخاطر قوي الحافظة . وقد ساعده

ذلك على احراز ما احرزه من العلوم الكثيرة الدينية والعقلية والفلسفية والمنطقية والطبيعية وتلقى اللغة الفرنساوية وهو في حدود الكهولة في بضعة اشهر . وكان شديد الغيرة على وطنه حريصاً على رفع شان ملته وذاع ذلك عنه في العالم الاسلامي فكاتبه المسلمون من اربعة اقطار المسكونة يستفتونه ويستفيدون من علمه وهو لا يردُّ طالباً ولا يقصّر في واجب

ناهيك بما عهد اليه من المشروعات الوطنية فقد كان القوم لا يقدمون على عمل كبير الاّ رأسوه عليه او استشاروه فيه . فرأس الجمعية الخيرية الاسلامية وألف شركة طبع الكتب العربية وشارك مجلس شورى القوانين في مباحثه . وآخر ما عهد اليه تنظيم مدرسة يتخرج فيها قضاة الشريعة ومحاموها . فضلا عما اشتغل فيه من التأليف والتصنيف وما كان يستشار فيه من الامور الهامة في القضاء او الادارة بالمصالح العامة والخاصة . وبالجملة فقد كان كنز فوائد للقريب والبعيد بين افتاء ومشورة واحسان وكتابة ومداولة ووعظ وخطابة ومباحثة ومناظرة واستنهاض وتحريض وتنشيط وغير ذلك

اصلاح الاسلام

على ان عظمته الحقيقية لا تتوقف على ما تقدم من اعماله الخيرية او العلمية او القضائية وانما هي تقوم بمشروعه الاصلاحي الذي لا يتصدى لمثله الا افراد لا يقوم منهم في الامة الواحدة مهما طال عمرها الا بضعة قليلة . وهذا ما اردنا بسطه على الخصوص في هذه العجالة

﴿ العظمة الحقيقية ﴾ تختلف العظمة شكلاً واثراً باختلاف السبيل الذي يسعى صاحبها فيه او الغرض الذي يرمي اليه . فمنهم العظيم في السياسة او الحرب او العلم او الدين ومن العظماء من يوفق الى اتمام عمله ومنهم من يرجع بصفقة الخاسر من نصف الطريق او ربعه او عشره على ان اكثر العظماء اعماياتون العظائم لمجرد الرغبة في الشهرة الواسعة ويغلب ان يكون ذلك في رجال الحرب . وهؤلاء تنحصر ثمار اعمالهم في انفسهم او اهلهم او أمتهم على انهم لا يستطيعون

نفعاً لانفسهم الا بضر الاخرين — اعتبر ذلك في سير كبار الفاتحين كالاسكندر و بونابرت وغيرهما فكم سفكوا في سبيل عظمتهم من الدماء او ارتكبوا من المحرمات وكان النفع عائداً على انفسهم او امتهم ولم يطل مكثه فيهم الا قليلاً

واما رجال العلم فعظمتهم تقوم بما ينيرون به الاذهان من الاصول العلمية او يكتشفونه من اسباب الامراض والوقاية منها او يضعونه من النظامات والقوانين او غير ذلك . ونفعهم يشمل القريب والبعيد الرفيع والوضيع ولا يسفكون في سبيل نشره دماً ولا يرتكبون محرماً وهو باقٍ ما بقي الانسان وينمو بنموّ المدنية

واما رجال الدين ومن جرى مجراهم من واضعي الشرائع والاحكام فتأثيرهم اوسع دائرةً واعم شمولاً لانه يتناول البشر على اختلاف طبقاتهم واجناسهم رجالاً ونساء كباراً وصغاراً وعليهم يتوقف نظام الاجتماع وآدابه واخلاق الناس وعاداتهم وعلائقهم بعضهم ببعض . وعظماء الدين فئتان الفئة الاولى واضعو الشرائع كالانبياء او من في معناهم ممن ينسبون اعمالهم الى ما وراء الطبيعة . والفئة الثانية المصلحون الذين يصلحون الدين بعد فساده — لان الدين اذا مرَّ عليه بضعة قرون فسد وتغير شكله وانقلب وضعه تبعاً لمطامع الذين يتولون شؤونه فتفسد الامة وينحط شأنها حتى يقوم من يصلحه ويعيده الى رونقه . ووضع الاديان عمل شاقّ قلَّ من يفوز به والاصلاح الديني لا يقلُّ مشقة عنه . وربما كان ادخال دين جديد ايسر من اصلاح دين قديم . فالديانة المسيحية لم تكلف البشر في قيامها من الدماء اكثر مما كلفتهم في اصلاحها . على ان ما يضيعه رجال الدين في نشره من الدماء يعوضونه بسرعة انتشاره اعتبر ذلك في الفرق بين النصرانية والاسلام في قيامهما . ويقال نحو ذلك في الاصلاح فقد طلبه وسعى فيه غير واحد من رجال النصرانية فلم يتفق منهم الى اصلاح كبير غير لوثير لان اهل السياسة نصروه . ولا بد من استعداد الاذهان لقبول الاصلاح وتهيئة الاسباب الاخرى . فكم نهض من المصلحين بالسيف فغلبوا على امورهم وذهب سعيهم عبثاً . واقربهم عهداً منا صاحب مذهب الوهابية في نجد فقد استفحل امره في اوائل القرن الماضي واراد في الاسلام نحو ما اراده لوثير في النصرانية فلم يوفق الى غرضه لان الجنود المصرية غلبته

وفلت عزيمته . اما المصلحون بالموعظة الحسنة والتعليم فعملهم بطيء ولكنه اوسخ في الاذهان واصبر على كوارث الحدثان — والشيخ محمد عبده واحد منهم

(هو وجمال الدين) نشأ الشيخ المفتي نير البصيرة حرّ الضمير ور بي في الاسلام وتعلم علومه فشب غيوراً عليه ثم اطلع على علوم الام اراقية من اهل هذا التمدن ودرس تاريخ الاجتماع ونواميس العمران فرأى الاسلام في حاجة الى نهضة ترفع شأنه وتجمع كلمته . واتفق اجتماعه بالسيد جمال الدين الافغاني فاخذ عنه الفلسفة والمطق والحكمة المشرقية وكان جمال الدين غيوراً على الاسلام راغباً في جمع كلمته ورفع شأنه فتوافقا في الغاية ولكنهما اختلفا في الوسيلة . لان جمال الدين سعى في ذلك من طريق السياسة فاراد جمع شتات المسلمين في اربعة اقطار العالم تحت ظل دولة اسلامية واحدة وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من اجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسباً وانما جعل همه السعي الى تلك الغاية فلم يوفق الى غرضه لاسباب عمرانية طبيعية لا محل لذكرها . وكان الشيخ محمد عبده رفيقه في كثير من مساعيه واطلع على دخائل اموره وعرف اسباب حبوطه فعلم ان جمع كلمة المسلمين ورفع شأنهم من طريق السياسة لا يتيسر الوصول اليه فسعى فيه من طريق العلم . فجعل همه رفع منار الاسلام وجمع كلمة لمسلمين بالتعليم والتهذيب وتقريبهم من اسباب المدنية الحديثة ليستطيعوا مجاراة الامم الراقية في هذا العصر . ورأى ذلك لا يتأتى الا بتنقية الدين مما اعتوره من الشوائب التي طرأت عليه بتوالي العصور وتغلب الدول واختلاف اغراض اصحابها وائمتها كما اصاب النصرانية في القرون المتوسطة اذ تمسك الناس بالعرض وتركوا الجوهر واستغرقوا في الاوهام ونبذوا الحقائق . والسبيل الوحيد لمغالبة الاوهام والخرفات انما هو العلم الصحيح على ما بلغ اليه في هذا العهد . وعلم الفقيد رحمه الله ان محور العلوم الاسلامية اليوم مصر ومركز العلم بمصر او في العالم الاسلامي كافة « الجامع الازهر » فرأى انه اذا اصلح الازهر فقد اصلح الاسلام فسعى جهده في ذلك فاعترضه اناسٌ من اهل المراتب يفضلون بقاء القديم على قدمه واستنصروا العامة عليه وغرسوا في اذهانهم ان المفتي ذاهب بالمسلمين الى مهاوي الضلال والبدع . فلم يهمه قولهم

لعله ان ذلك نصيب امثاله من قديم الزمان — على انه لم ينجح في اصلاح الازهر الاً قليلاً ولكنه وضع الاساس ولا بدَّ من رجوع الامة الى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون الفضل له في تأسيسها

على ان الجانب الاعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم يرون رأيه في اصلاح الدين ورجاله . وبما سبقه كثيرون منهم الى الشعور بحاجة الاسلام الى ذلك ولاسيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية ولكنهم لم يجسروا على التصريح بافكارهم في غير المجتمعات الخصوصية لئلاَّ ينسبهم الناس الى المروق من الدين — فلما جاهر محمد عبده برأيه وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بالسنتهم واقلامهم. فحاجة الاسلام الى الاصلاح ليس هو اول من انتبه اليها ولكنه اول من جاهر بها كما ان لوثير المصلح المسيحي ليس اول من انتبه لحاجة النصرانية الى الاصلاح ولكنه اول من جاهد في سبيلها وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته . واما مصلح الاسلام فكانت السياسة ضده وانما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع في الافتاء

(الاسلام والمدنية) فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة الاسلام الى الاصلاح انقسم المسلمون الى فئتين فئة ترى بقاء القديم على قدمه وهم حزب المحافظين وفئة ترى حلَّ القيود القديمة واطلاق حرية الفكر والرجوع الى الصحيح من قواعد الدين ونبذ ما خالطه من الاعتقادات الدخلية . وكان رحمه الله زعيم هذة الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه وبكل جارحة من جوارحه . وكانت مساعيه من هذا القبيـل ترمي الى غرضين رئيسيين : الاول تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه والثاني تقريب المسلمين من اهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علميًا وصناعيًا وتجاريًا وسياسيًا . فاهل العصبية الاسلامية يرون هذا التقريب مغايراً لما يرجونه من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية لان مجاراة اهل التمدن الحديث باسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام على زعمهم ويبعث على تشتيت عناصره فيستحيل جمعها في ظل دولة واحدة . ولكن الشيخ المفتي

كان يرى ذلك الاجتماع السياسي مستحيلا في هذه الحال فلم يشأ ان يضيع وقته سدى كما اضاعه استاذه وصديقه جمال الدين وان يخسر فائدة تقرب المسلمين من اسباب هذا التمدن فسعى في ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا والموقوذة ولبس القبعة ونحو ذلك مما يقرب المسلمين من الامم الاخرى و يسهل اسباب التجارة

(تنقية الدين) واما تنقية الدين الاسلامي من الشوائب الطارئة عليه فاساس سعيه فيها انه اطلق لفكره الحرية في تفسير القرآن ولم يتقيد بما قاله القدماء او وضعوه من القواعد التي يحرم الائمة تبديل شيء منها . فرأى ان يحلّ نفسه من هذه القيود ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر فيجعل اقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ولنواميس العمران على ما بلغ اليه هذا العلم الى الآن مع مطابقته لاحكام العقل واصول الدين كما فعل النصارى في تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديد . وهو أوعر مسلكاً في الاسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه . والقرآن اساس الدين والدنيا عندهم فيعلقون على تفسيره اهمية كبرى لانه مرجع الفقه وغيره من الاحكام الشرعية والسياسية ولذلك رأى اهل السنة تقييده باقوال الائمة الاربعة وخالفهم الشيعة باستبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً فلا يرون بأساً في العدول عن تفسير الى آخر بشروط يشترطونها في مفسريهم وهم يعرفون عندهم بالائمة المجتهدين

(التفسير) وقد توالى على تفسير القرآن احوال تختلف باختلاف العصور من الاسلام الى الآن ترجع الى اربعة أعصر — الاول العصر الشفاهي : وهو ينحصر في ايام النبي واصحابه فقد كانوا عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة او آية فهموها وادركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لانها بلسانهم وعلى اساليب بلاغتهم ولان اكثرها قيلت في احوال كانت القرائن تسهل فهمها واذا اشكل عليهم شيء منها سألوا النبي فيفسره لهم . وكان التفسير مختصراً بسيطاً لسذاجة الدولة الاسلامية يومئذ

ثانياً العصر التقليدي : ونريد به عصر التابعين او حواليه وكانت الدولة الاسلامية قد اخذت في النمو والارتقاء فاحتاجوا الى التوسع في التفسير وكان اكثرهم أميين فاذا اعجزهم تفسير بعض الآيات سألوا عنها من أسلم من اهل الكتاب ولا سيما اليهود المقيمين في اليمن وكانوا قد اسلموا وظلوا على ما كان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاهاً او كتابة مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية

ثالثاً العصر الفلسفي المنطقي : ونريد به تدوين التفسير وضبطه بالقياس الفلسفي والحكم المنطقي بعد ان اختلط المسلمون باهل العلم القديم في الشام والعراق وفارس واطلعوا على علوم القدماء وفلسفة اليونان والهند ونقلوا ذلك الى لسانهم واستخرجوا منه علم الكلام . وكان العرب قد وضعوا العلوم اللسانية وضبطوا معاني الالفاظ واساليب التعبير فنظروا في التفاسير السابقة نظر الناقد ومحصوها وضبطوها بالقياس العقلي بالاعتماد على قواعد المنطق بما تقتضيه الفلسفة اليونانية القديمة على نحو ما فعله لاهوتيو النصارى قبل ذلك

رابعاً العصر العلمي: الذي نحن فيه وهو عصر الفلسفة الجديدة المبنية على العلم الطبيعي الثابت بالمشاهدة والاختبار ويمتاز عن العصر السابق باطلاق حرية الفكر من قيود التقليد القديمة التي أغلت السنة اسلافنا واقلامهم واوقفت مجاري التمدن اجيالاً متطاولة . فالشيخ المفتي رحمه الله اراد ان ينقل التفسير الى روح هذا العصر فيفسر القرآن بما يطابق احكام العقل ويحل الاسلام من قيود التقليد . فسار في هذا الطريق شوطاً بعيداً فالقى على طلبة الازهر خطباً كثيرة في التفسير نشرت في مجلة المنار وطبع بعضها على حدة وكان لها تأثير حسن في نفوس العقلاء . ولو مدّ الله في اجله لأتم هذا العمل ولكنه قضى آسفاً خائفاً ولسان حاله يردد هذين البيتين— وقد قيل انهما من قصيدة نظمها في اثناء مرضه وهما :

ولست ابالي ان يقال محمدٌ   أبلّ او اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه   أحاذر ان تقضي عليه العمائم

على انه خلف جماعة من تلامذته ومريديه اكثرهم من اهل العلم وارباب الاقلام

وفيهم نخبة كتاب المسلمين وشعرائهم في هذا العصر . واكثرهم مجاهرة بنصرته واذاعة لارائه رصيفنا السيد رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي

والشيخ محمد عبده زعيم نهضةٍ اصلاحية لا خوف منها على الدماء او الارواح واكثر نهضات الامم في سبيل اصلاحها لا تخلو من اهراق الدماء — فهو رجل عظيم يجدر بالمسلمين ان يبكوه وان يقتفوا آثاره في التوفيق بين الاسلام والمدنية الحاضرة وتنقيته مما ألمّ به بتوالي الازمان وذلك ميسور لمن اطلق فكره من قيود التقليد واسترشد بما يهديه اليه العقل الصحيح بالاسناد الى العلم الصحيح . على اننا نرجو ان لا تعدم هذه النهضة من يخلف الامام الفقيد في الانتصار لها والعمل بها والله على كل شيء قدير





مصطفى كامل

صاحب اللواء

ولد سنة ١٨٧٤ وتوفي سنة ١٩٠٨

مصطفى كامل والنهضة السياسية

شاهد المصريون في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ما لم يشاهدوا مثله من قبل . شاهدوا حزناً على مصطفى باشا صاحب اللواء عمَّ القطر المصري من اقصاه الى اقصاه وانتشر في سائر العالم الاسلامي وسمع دويه في اوربا والشرق الاقصى مما لم يسمع بمثله في وادي النيل . توفي صاحب اللواء في اصل ذلك اليوم ودفن في اصبل اليوم التالى فمشى في جنازته عشرات الالوف واشترك في المصاب اهل القطر على

اختلاف طبقاتهم واعمارهم • فرثاه الشعراء وابنه والخطباء و بكته الصحف وقضت اياماً في نشر ما يرد عليها من رسائل التعزية نثراً ونظما • واقيمت له المآتم في انحاء القطر فلم يبق جمعية خيرية او ادبية او ناد علمي او مدرسة وطنية للذكور او الاناث في القاهرة والاسكندرية او في الارياف الا عقدت جلسة لتأبين ذلك الفقيد حتى الجمعية الماسونية فقد احتفل بعض محافلها بتأبينه • وبعضهم اقام حفلات تابين في الازبكية غير ما بعثوا به من تلغرافات التعزية الى ادارة اللواء من الافراد والجماعات كالجميات والمشيخات والمدارس وتبرع كثيرون عن نفسه للجمعيات الخيرية ونحوها. وغير ما جاء من رسائل التعزية من انكلترا وفرنسا وغيرهما ومن اطراف الهند • ونشرت التلغرافات العمومية والصحف الافرنجية نعيه وتكلمت عنه • وتألفت في القاهرة لجنة لاقامة تمثال يحيا به ذكره والناس يبذلون المال في هذا السبيل • وعينوا يوم ٢٠ مارس التالي للاحتفال بتأبينه بجانب ضريحه بقرافة الامام — فمن كان هذا وقع مصابه في النفوس جدير بان ننظر في ترجمة حاله وندرس اخلاقه واعماله ونبين منزلته من التاريخ . وتقدم الكلام بمقدمة في تاريخ النهضة السياسية المصرية فنقول :

النهضة السياسية المصرية

فتح العرب مصر في صدر الاسلام فاصبح النفوذ فيها للفاتحين واعظم مناصب الدولة في ايديهم فتغلب العنصر العربي على سائر العناصر . ثم دخلت في حوزة الاكراد (الايوبيين) فالشراكسة (المماليك) فالاتراك (العثمانيين) فكان النفوذ ينتقل من امة الى اخرى حسب ادوارهم على ان العنصر الشركسي ظلَّ متسلطاً في اثناء حكم الدولة العلية بمصر لانها ولتهم الاحكام تحت رعايتها ومنهم امراء المماليك والسناجق وبعض الجند . فاصبح العنصر العربي وهم المصريون الوطنيون اضعف سائر العناصر

فقضى المصريون اجيالاً راضين بما قسم لهم وكان الجهل ضارباً اطنابه فيهم

لاشتغال حكامهم بالحروب والخصومة عن ترقية شأن رعاياهم حتى اذن الله ان يتولى حكومتهم المغفور له محمد علي باشا الكبير فاقتضت سياسته ومقاصده احياء معالم اللغة العربية فانشأ المدارس وفتح المعامل وسهل دخول الاجانب الى هذه البلاد وارسل بعض شبانها الى اوربا لتلقي العلوم واقتباس حسنات التمدن الحديث . فاستنارت اذهان المصريين وفتحوا اعينهم ففقهوا لما ضاع من حقوقهم ولكنهم لم يطالبوا به لضغط حكامهم على افكارهم بقوة الاستمرار اذ لا يتأتى لهم ان ينتقلوا بغتة من الضغط الشديد تحت الامراء المماليك الى الحرية التامة تحت حكومة العائلة المحمدية العلوية . فتوالى على حكومة مصر محمد علي فابراهيم فعباس والمصريون ساكتون فلما افضت الولاية الى سعيد باشا سنة ١٨٥٤ طلع على المصريين فجر الوطنية لانه كان يعدُّ نفسه مصرياً فاخذ يبث روح الوطنية في جنده اذ لم يكن للعامة ساعد يرجى ولا سطوة تخشى . وجاهر بوطنيته في حفلة اختتان نجله طوسون بحضور العائلة الخديوية وضباط الجيش وجماعة من الاجانب فوقف وارتجل خطبة قال فيها « ان من امعن النظر في تاريخ بلادنا هذه وتوالي حوادثها المحزنة لا يسعه غير الاسف والتعجب حيث تتوالى الامم الاجنبية على اهلها ويظلمون سكانها كالكلدانيين والفرس قبل الاسلام والترك والاكراد والشركس وغيرهم بعد الاسلام وكلهم يفسدون ولا يصلحون وقد عزمتُ على تثقيف ابناء البلاد وتهذيبهم وترقيتهم حتى تكون حكومة البلاد بايديهم بصفة كوني مصريًّا منهم وبالله الاستعانة »

فكان لقوله وقع شديد على السامعين وفيهم احمد عرابي (باشا) وهو يومئذ صاغقول اغاسي وكان جريئاً فازداد جرأة واتسعت مطامعه وانبثت روح الوطنية في سائر الضباط وارتقوا في رتب الجندية واكثرهم غير متعلمين وانما رقاهم سعيد باشا تنشيطاً للوطنية فشق ذلك على الضباط الشراكسة والاتراك واوغرت صدورهم على الوطنيين ووجدوا على سعيد باشا فاحس بجفائهم وتذمرهم فلم يبال وربما ذكر ذلك للوطنيين تحريضاً لهم على الثبات

١ — النهضة العسكرية

فلما افضت الولاية الى اسماعيل سنة ١٨٦٣ تبدلت الاحوال لانه كان على غير رأي سلفه في امر الوطنيين وقد بذل قصاري جهده في استقدام الاجانب الى بلاده بما انشأه من وسائل الرفاه وتسهيل التجارة وكان مع ذلك يعنى بتعليم الوطنيين وارسال الارساليات الى اوربا فارداد المصريون معرفة لحقوقهم . ولكن الخديوي اسماعيل كان يري من حسن السياسة ان يضغط عليهم و يقيد افكارهم و يطلق العنان للاجانب على اختلاف اجناسهم وخصوصاً الشراكسة فكظم المصريون ما في نفوسهم اعواماً على انهم ظلوا يتهامسون به فيما بينهم ولم يكن حديثهم حيثما اجتمعوا الا التشاكي مما يقاسونه من الضغط مع خروج معظم مصالح البلاد من ايديهم الى الاجانب

وكان اكثرهم تشكياً جماعة الجهادية لظهور الاحجاف فيهم اكثر مما بسواهم لان القوة العسكرية كانت مؤلفة من المصريين والشراكسة وغيرهم . ولم يكن المصريون ينالون من الرتب الا امارة الالايات فما دونها بخلاف الشراكسة فقد كانت الالوية والفرقاء منهم والسلطة والنفوذ في ايديهم وكلما شاهدوا من المصريين تذمراً زادوهم تضييقاً فاذا اقتضت الاحوال تجنيد حملة الى السودان او غيرها من بلاد الشقاء جندوا اليها المصريين و بقي الشراكسة يتمتعون بنفوذهم ورفاهيتهم في القاهرة والاسكندرية فلم يكن ذلك الا ليزيد الوطنيين حقداً او غيظاً . ولما لم يستطيعوا التصريح بشكواهم جهاراً ألفوا الجمعيات السرية يهمسون فيها بما في ضمائرهم سراً

ثم افضت الخديوية المصرية الى المغفور له الخديوي توفيق باشا وكان رحمه الله محباً للوطن المصري راغباً في ترقية ابنائه لانه تربى تربية وطنية محضة وكان حر الضمير فنظر في شكوى الوطنيين فرفع الضغط عنهم واعترف بما لهم . وهي فضيلة جديرة بكل حاكم ولكنها جاءت المصريين اذ ذاك على غير استعداد . فبينما هم تحت الضغط الشديد والنار كامنة في صدورهم اذ رفع الضغط بغتة فاتقدت نيران

الثورة وانتشرت في سائر انحاء القطر

هذا هو الطور الاول من النهضة السياسية الحديثة والعامل فيه كما رأيت اطلاق الحرية فجأة بعد طول الضغط وقد قام بها الجنـد وجاراهم الاهالي واكثر هؤلاء لا يدركون ماذا يعملون وان كانوا يرجون بذلك التخلص من امتياز الاجانب . وكان زعماء الجند اكثرهم من غير المتعلمين فلم يحسنوا التصرف في تلك الحركة فبعد ان كانت نهضة وطنية سياسية تحولت الى ثورة عسكرية آلت الى الاحتلال الانكليزي وامره معلوم

فلما ذهبت دهشة الحرب انتبه عقلاء الامة فوجدوا انفسهم قد نجوا من شر ووقعوا في شر ين لاعتقادهم انهم سفكوا دماءهم و بذلوا اموالهم للتخلص من شر الشراكسة وهم يختلفون عنهم جنسـاً و يشتركون معهم في الدين فاذا هم قد دخلوا في سيطرة دولة اجنبية تختلف عنهم جنساودياً. ونبغ على اثر تلك الثورة جماعة من رجال الفكر والحرية عملاً بسنة العمران على اثر كل حركة اهلية . وكان بعضهم قد مالأوا عرابي وحوكموا ونفوا ثم عادوا وقد زادتهم الغربة خبرة وعبرة ورأوا الاحتلال قد توطدت دعائمه فرضخوا له وهم يعللون انفسهم بجلائه قياماً بالوعد . على ان بعضهم يئس من الجلاء فتقرب من عميد الاحتلال واستعان به على خدمة مصالح الامة والبعض الآخر خدمها بنشر المبادىء الاجتماعية لترقية النفوس وتربية الاخلاق الحسنة وعمل آخرون على بث المبادىء الاصلاحية في نفوس المسلمين ومحاربة البدع ونحوها مما يباعد بين المسلمين وسواهم

اما الامة على اجمالها فما زالت تئن تحت نير الاحتلال وتشكى همساً في الاندية الخصوصية او المجالس العائلية لا يسمع لها صوت والصحـافة مقيدة يومئذ بقانون المطبوعات الا من كتب في جريدة افرنجية لا سلطة للقانون عليها . وكان اكثر الاجانب تظاهراً بتقبيح الاحتلال الفرنساويون

ولما توفي المرحوم توفيق باشا وخلفه سمو الخديوي الحالي تجددت آمال الامة باقلاب سياسي يرفع ذلك النير عن رقابهم . وطبيعي ان يكون الجناب العالي اكثر

الناس رغبة في الجلاء . ولم يخف ذلك على المصريين فزادوا تعلقاً بعرشه واحسن الانكليز بذلك فاستيقظوا وساعدتهم الاحوال على البقاء فبالغوا في استخدام نفوذهم واساء بعضهم معاملة المصريين فازدادوا كرهاً للاحتلال وتعلقاً بالخديوي كاولاد يستغيثون بوالدهم من غريب نزل في دارهم يحاول امتلاكها . ولنفس هذا السبب توجهت الامال الى الاستانة واكثر المصريون من ذكر الخليفة وسيادته على المسلمين وقلما كانوا يفعلون ذلك من قبل

٢ — النهضة المدرسية

واقتضت سياسة انكلترا في اثناء ذلك اطلاق حرية المطبوعات ونبغ جماعة من الكتاب والمحررين تدرجوا في استقلال الفكر الى نشر مساوىء الاحتلال فحدثت نهضة سياسية صحافية انقسمت الصحف فيها الى حزبين حزب يعرف بجرائد الاحتلال يمتدح اعمال المحتلين وحزب يعرف بالجرائد الوطنية ينتقدها وعميد انكلترا يطلع على ما يقولون ولا يكلفهم السكوت . وكانت الجرائد الوطنية تعبر عن احساس الوطنيين وتطعن في جرائد الاحتلال لا يخرجون في ذلك عن المناقشة وقلَّ فيهم من جاهر بطلب الجلاء . ونشأ في اثناء ذلك طبقة من الشبان تخرجوا في المدارس المصرية وتفقهوا في اوربا وتشرب بعضهم كره انكلترا من معاشرة الفرنساويين — وفرانسا الى ذلك الحين خصم انكلترا تساعد كل من يقوم عليها. وزعماء هذه الطبقة من الناشئة المصرية طلبة الحقوق لما يتعوده طلاب هذا الفن من استقلال الفكر والرضوخ للصواب والتمسك باهداب الحق . فتألف من الناشئة المصرية حزب جاهر بمقاومة الاحتلال وانضم اليه سائر طلبة المدارس العالية وهم في الغالب من ابناء الخاصة ويعدون بالآلاف منتشرون في انحاء القطر المصري فبثوا تلك الافكار في اهلهم وجيرانهم وهم سواد الامة فتكاثر الناقمون على الاحتلال وهي نهضة سياسية مدرسية تختلف عن التي تقدمتها بقوة الحجة والاقتدار على المطالبة بالاقناع . وهي الطائفة التي نصرت مصطفى كامل وهو من طلبة الحقوق

مصطفى كامل

١ — ترجمة حاله

ولد في القاهرة من ابوين مصريين في ١٤ اوغسطس سنة ١٨٧٤ وكان والده علي افندي محمد مهندساً من جهة الصليبة اشتهر بين معارفه وجيرانه بطيب العنصر وحسن الخلق ووالدته من جهة المحجر بالقاهرة . ولما بلغ السادسة من عمره اتاه والده بمدرس لقنه القراءة والكتابة ثم ادخله مدرسة عباس باشا الاول . وقبل اتمام دروسه الابتدائية توفي والده فانتقل الى مدرسة القربية وعمره ١٢ سنة فاتم دروسه الابتدائية فيها وظهر ذكاؤه بامتيازه على سائر الرفاق فنال جائزة الامتحان الاولى بين يدي المغفور له الخديوي السابق سنة ١٨٨٧ ثم انتقل الى المدرسة التجهيزية قضى فيها اربع سنين نال في نهايتها شهادة البكلوريا وكان من النابغين واشتهر باستقلال الفكر وصراحة القول من ذلك الحين . وانتبه المرحوم علي باشا مبارك ناظر المعارف يومئذٍ لفصاحته وقوة عارضته فقال له مرة « انك امرؤ القيس وستصير عظيماً » واخبرنا احد رفاقه في تلك المدرسة ان المرحوم علي باشا مبارك اختصه بجنيهٍ يتناوله كل شهر مدة اقامته في المدرسة ودوَّن اسمه في كشف ماهيات المعلمين واضطر مصطفى لنقش خاتم يختم به الكشف على اصطلاحهم وهو اول عهده بالاختام

وكان في اثناء اقامته بالمدرسة التجهيزية موضوع اعجاب الاساتذة والتلامذة جميعاً لما امتاز به من حسن الالقاء وفصاحة اللسان . ولم يكن ناظر المعارف اقل منهم اعجاباً به فكان ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه في المسائل العلمية او الاجتماعية ويقدمه الى جلسائه من العلماء والوزراء والكل يعجبون به ويتوقعون له مستقبلا مجيداً . فلما اتم دروسه التجهيزية سنة ١٨٨٩ دخل مدرسة الحقوق الخديوية على ان يعدَّ نفسه لصناعة المحاماة لانها احوج المهن الى الخطابة . ورأى في وقته متسعاً فالتحق بمدرسة الحقوق الفرنساوية ايضاً فكان يتلقى العلم بالمدرستين حتى نال الكفاية منه فذهب الى طولوز بفرنسا ادى فيها الامتحان ونال الشهادة وهو في التاسعة عشرة من عمره

وتنبه خاطره وهو يدرس الحقوق الى المسائل السياسية ومدارها على مصر

والاحتلال وهو وطني حريص على وطنيته مستقل الفكر شديد الثقة بنفسه وقد تشرب من اساتذته الفرنساويين الاستهانة بانكلترا والوثوق بفرنسا فاصبح همه انقاذ مصر من الاحتلال . وكان عضواً عاملاً في عدة جمعيات ادبية يخطب فيها ويباحث واكثر بحثه في مصر والاحتلال والجلاء . وكان يتردد على الجرائد الوطنية ليكتب في هذه المواضيع . ولقي اصغاء وتنشيطاً فالف رواية فتح الاندلس التمثيلية وكتاباً في حياة الامم والرق عند الرومان والف بعد ذلك كتاب المسألة الشرقية وغيره وكلها ترمي الى تحبيب الاستقلال الى المصريين واحياء الشعور الوطني فيهم. فالتف حوله جماعة من المريدين والمعجبين واكثرهم من رفاقه في المدرسة ومن يرى رأيهم من تلامذة المدارس العالية فانشأ لهم مجلة شهرية سماها المدرسة يبث فيها آراءه وافكاره

واتفق في اثناء ذلك رجوع المرحوم عبدالله نديم خطيب العرابيين الى مصر سنة ١٨٩٢ وسمع بمصطفى كامل فقربه منه واقتبس صاحب الترجمة بعض اساليبه واطلع على دخائل الحوادث الماضية وتبين اسباب الفشل فاصبح قادراً على تجنبها وزاد رغبة في انقاذ مصر من سلطة الاجانب ولايكون ذلك الا بالالتفاف حول امير البلاد فاستنبط فكرة الاحتفال بعيد الجلوس الخديوي فحرض رفاقه التلامذة على ذلك فاحتفلوا به في الازبكة في ٨ يناير سنة ١٨٩٣ فقربته المعية ورضي عنه الجناب العالي . وفي ذلك الاحتفال صرح مصطفى كامل للمرة الاولى بانتقاد حالة الحكومة ودعا المصريين الى مطالبة الانكليز بالجلاء عن بلادهم قياماً بوعودهم . وكان في جملة الحضور ناظر مدرسة الحقوق فاستدعى مصطفى اليه في الغد وعاتبه على تصريحه فاجابه انه مصري وله الحق ان يبحث بشؤون مصر وشدد لهجته فرفع الناظر امره الى نظارة المعارف فاصدرت امراً بمنع التلامذة من الاشتراك في مثل ذلك ومن مكاتبة الصحف . فاعتبر مصطفى هذا الامر موجهاً اليه فازداد تمسكاً برأيه وتضاعفت همته على اخراجه الى حيز العمل

وجاء مصر في ذلك الحين الموسيو دلونكل وهو فرنساوي كثير التظاهر بالغيرة

على المصريين • وكان في مصر يومئذٍ حزب وطني تألف بطبيعة الحال من اوائل عهد الاحتلال ولم يكن حزباً منظماً له رئيس ونائب وامين وكاتب مثل احزاب هذه الايام ولكنه ضم نخبه النبهاء والوجهاء الذين يكرهون الاحتلال و ينتقدون اعمال الانكليز اما رغبة في استقلال مصر او نقمة لذهاب نفوذهم • ولهذا الحزب فضل على اكثر الصحف الوطنية التي نشأت في اوائل الاحتلال لانهم كانوا يساعدونها ماديًا وادبيًا تحت طي الخفاء للاستعانة بها على جرائد الاحتلال • وكان مصطفى كامل طبعاً من جملة ذلك الحزب وكان دلونكل يحضر مجتمعات الوطنيين و يستحثهم على الثبات • فالتقى هناك بصاحب الترجمة وأعجب بذكائه وفصاحته فرغبه في السفر الى فرنسا للتبحر في الحقوق فسافر الى باريس آخر سنة ١٨٩٣ واعجبته حرية القوم وموافقتهم اياه في انتقاد الانكليز فعرف كثيرين من رجال السياسة والصحافة فيها • وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٤ احتفل بعيد الجلوس الخديوي هناك احتفالاً شهده اكثر المقيمين في باريس من المصريين وهم من التلامذة المرسلين لتلقي العلم على نفقة الحكومة المصرية • فالقى مصطفى فيهم خطاباً استحثهم فيه على الثبات في طلب الجلاء فوافقوه وتواطأوا على استنجاد فرانسا في ذلك الطلب على ان تكون حجتهم وعد انكلترا الذي صرحت به عام الاحتلال • وبلغ ذلك نظـارة المعارف المصرية فاخرجت المشتركين في ذلك العمل من عداد الارسالية

وعاد مصطفى في اواسط السنة التالية الى مصر وتعاطى المحاماة اشهراً فرآها اضيق من ان تسع مطامعه وفي صدره غرضٌ اصبح جزءًا من وجدانه ولم يكتف بما كان ينشره في الجرائد فعول على القاء الخطب السياسية في المنتديات العمومية فالقى خطبته الاولى في الاسكندرية ونشرتها الجرائد فرأى فيها الناس من شدة اللهجة على الاحتلال وطلب الجلاء ما لم يعهدوه من قبل فاعجبوا بالشاب وشاركوه في احساسه وفيهم من يرى ذلك الطلب بعيد المنال ولكن الانسان يلتذ بالانتقاد على غاله . فاطروه ونشطوه فازداد رغبة في الخطابة والصحافة ولذت له الشهرة ووطن النفس على الاستهلاك في طلب الجلاء وجعل ذلك وجهته وكعبة آماله ومدار اعماله

وهو يعلم عجزه عن تلك الامنية بنفسه واهله فرأى ان يستعين بفرنسا وقد جرأه على ذلك ما آنسه في رحلته الاولى من الحفاوة وما سمعه من التأمين والترغيب على عادة الفرنساويين من الانقياد الى الوجدان . فكف عن صناعته وانقطع للمطالبة بالجلاء فشخص سنة ١٨٩٥ الى باريس ومعه رسمٌ كبير يمثل مصر والاحتلال الانكليزي بشكل يرمز عن توسل المصريين الى فرنسا ان تساعدهم كما ساعدت الاميركان واليونان والبلجيكيين والايطاليان في نيل حريتهم

رفع هذا الرسم الى مجلس النواب الفرنساوي في ٤ يونيو من تلك السنة . ومعه عريضة قدمها باسمه ينوب فيها عن مصر في استنجاد ذلك المجلس على الانكليز . وكان لهذا العمل دوي في فرنسا فضلاً عن مصر وتحدث الناس يومئذٍ بجرأة هذا الشاب وعلو همته واقدامه وهو الى ذلك الحين لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره . فلم يأت هذا المسعى بالنتيجة المطلوبة ولكن الفرنساويين رحبوا بالخطيب المصري وتقاطر اليه كتاب الصحف يقابلونه وينشرون اراءه في جرائدهم . وتسابق القوم يدعونه لالقاء الخطب في انديتهم وكلها ترمي الى الغرض عينه . واول خطبة سياسية القاها على الافرنج في طولوز صدرها بتاريخ الاحتلال وعهوده وفصل احوال النظارات المصرية وسيطرة الانكليز فيها وبالغ في استئثارهم بالوظائف والنفوذ واحتقارهم الاهالي واخذ يبرهن ان وجود الانكليز بمصر يخالف كل المعاهدات وان اخراجهم منها يوافق مصالح دول اوربا كافة . ثم القى خطباً اخرى وراسل الجرائد وكاتب الوزراء وكلها ترجع الى انتقاد الاحتلال وطلب الجلاء . اشهرها خطاب بعث به الى المستر غلادستون من باريس يسأله رأيه في مسألة مصر والاحتلال فاجابه غلادستون جواباً جاء في جملته قوله « اننا يجب ان نترك مصر بعد ان نتمّ فيها بكل شرف وفي فائدة مصر نفسها العمل الذي من اجله دخلناها » و « ان زمن الجلاء على ما اعلم قد وافى منذ سنين »

فلا عجب بعد اعتراف اعظم رجال انكلترا بموافاة زمن الجلاء اذا رأينا مصطفى كامل يزداد ثباتاً في دعوته . فرجع الى مصر في اوائل سنة ١٨٩٥ وقضى بضع

سنوات وهو يخطب ويكتب ويكاتب ويناضل . وكأنه خاف ان تضيق الصحف عن خطبه ومراسلاته فانشأ جريدة اللواء اليومية لنشر آرائه السياسية سنة ١٨٩٩وهي الآن في سنتها الثانية عشرة وصوتها في الدفاع عن مصر والمصريين من أعلى الاصوات

ولما تم الاتفاق بين انكلترا وفرنسا بشان مصر والمغرب الاقصى ولم ينل مصطفى من فرانسا غير المواعيد وجه احتجاجه الى المراجع الاصلية اما الى رجال السياسة بانكلترا رأساً او الى جرائدهم وسافر الى بلاد الانكليز لهذه الغاية . ثم رأى ذلك لا يفي بمراده ولا يحيط بمدى صوته فانشأ اللوائين الانكليزي والفرنساوي لينشر فيهما اقواله عن مطالب مصر حتى يصل النداء الى انكلترا وسائر اوروبا والف لهما شركة مساهمة هي اول مساهمة تألفت لانشاء الجرائد في هذه البلاد وذهب بنفسه الى انكلترا واستقدم المحررين

فطار صيته في الآفاق واصبح اسمه مرادفاً لاحتجاج مصر على انكلترا وهو في خلال ذلك لا يضيع فرصة لا يحتج بها . ومن اشهر مواضيع احتجاجه مسألة دنشواي فقد كان في مقدمة المنادين بظلم الحكم على اهلها واستكتب الاهلين عرائض لالتماس العفو وقع عليها ١٢٦٥٠٠ من المصريين ورفعها الى الجناب العالي. وكان في اثناء ذلك يخدم مصلحة الدولة العلية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب والالقاب حتى بلغ الرتبة الاولى من الصنف الثاني والنيشان المجيدي الثاني . وتعلقت به قلوب المصريين وتعشقوه بما لم يسبق له مثيل فلما تشكل الحزب الوطني في العام الماضي انتخبوه رئيساً له طول حياته ولكنه رحمه الله كان قصير الحياة فتوفي في العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره . فانتخبوا مكانه رفيقه في جهاده محمد بك فريد رئيساً للحزب ومديراً للالوية الثلاثة

٢ــــ صفاته واعماله

كان رحمه الله متوسط القامة قمحي اللون سريع الحركة جريئاً مقداماً فصيح اللهجة قوي العارضة شديد الثقة بنفسه واسع الآمال طموحاً للعلى مستقل الفكر

صريح القول . وكان عصبي المزاج والعصبي يغلب فيه الذكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر وكانت هذه الطبائع ظاهرة في الفقيد ظهوراً واضحا اذ كثيراً ما كنا نراه في اثناء نضاله يكاد يغلب على رأيه لما يظهر لنا من حجة خصمه فما هو الاّ ان يصدر اللواء في اليوم التالي فنراه قد تدرع بدفاع ايده بشواهد تاريخية اثبته لها . وكانت تساعده على ذلك قوة الحافظة

وكان فيه من طبائع العصبيين سرعة الانفعال . وسريعو الانفعال يغلب فيهم التقلب في الرأي ولم يكن كذلك ولكنه كان شديد الوطأة على مخالفيه ولو كانوا من اساتذته او اقرب الناس اليه . وسرعة الانفعال مع هذه الشدة قد يبعثان على الفشل في الاعمال العظمى لانها تفتقر الى التساهل والكظم والصبر على المكاره فالفقيد سدّ هذا النقص بجرأته وعلو همته وثقته بنفسه . فكان اذا نهض لامر اقتحمه اقتحام الاسد فريسته وجاهد في سبيله بيده ولسانه وجنانه لا يعجزه السفر ولا يبالي بالتعب فقضى زهرة شبابه يتنقل من قارة الى قارة ومن عاصمة الى عاصمة لا يتحول عن منبر عربي حتى يعلو منبراً افرنجيًا. اذا كتب رايت الحماسة تتجلى بين سطوره واذا خطب انقض كالصاعقة او انهال كالسيل . واذا توهم في احد وقوفاً في طريقه ناهضه وبارزه لا يبالي بمنصبه او مقامه . وكان لا يهاب عظيماً ولا يراعي خليلاً ولا نزيلاً ولا سيما في اوائل ادواره وهذا هو سبب ما كان يبدو في بعض اقواله يومئذٍ من التعريض بالنزلاء او الدخلاء لاعتقـاده انهم يخالفون مصلحة مصر . وفهم القوم يومئذٍ انه يعني بالدخلاء السوريين فعاتبوه فصرح انه انما يعني فئة منهم يعتقد انها تكره مصلحه مصر . فلم يبق لهم حجة عليه لان القائل اولى بتفسير اقواله . وقـد يعذر على تعريضه بالسوريين اذا ساء الظن بهم فقد مرّ بهم اعوام في اواسط الاحتلال لم يقم كاتبٌ يدعي الدفاع عن مصلحة مصر الا حمل عليهم واتهمهم بالعداوة تصريحاً او تلميحاً وهم ساكتون دائبون على اعمالهم حتى تحقق العقلاء بتوالي الاعوام ان السوري لا يقلّ غيرة على مصلحة مصر من اخيه المصري وان السوريين طائفة ذات شان في المجتمع المصري فعاد الفريقان الى التحاب والتقارب . وكان

الفقيد في مقدمة اولئك العقلاء

وكان رحمه الله نزيه النفس عفيف الازار صادق اللهجة طاهر الجيب لا يلذ له من احوال الحياة غير التفكير في الغاية التي وقف قواه عليها وهي خدمة بلاده باشرف السبل وانفعها وكان يعتقد ان الاستقلال اول خطوة يجب السير بها ويعني بالاستقلال خروج الانكليز من مصر بمساعدة دول اوربا ورجوعها الى ما كانت عليه قبله . واستجمع قواه في هذا السبيل فسافر وكتب وخطب وجادل وناقش لهذا الغرض . وكان يرى مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم فكان شديد المدافعة عنه كثير السعي في نصرته . ومن اقصى امانيه ان يكون نصير المسلمين في اربعة اقطار الارض . وقد اطلعنا بعض الاصدقاء على كتاب من بعض رجال ابن الرشيد يوخذ منه ان الفقيد سعى منذ بضع سنوات في السفر الى نجد لملاقاة ذلك الزعيم هناك . وقرأنا في تأبين بعض مريديه انه كان ينوي استئذان جلالة السلطان في ان يكون خطيب المسلمين في المدينة يوم وصول السكة الحديدية اليها وانه كان يهيء اسباب لرحيل الى اليابان لحضور معرضها ونقل نتائج الافكار الكبيرة لربط العلائق مع الشعب الياباني على ان يمرّ في اثناء طوافه ببلاد الهند ليرى احوال النهضة الاسلامية هناك — كل ذلك يدلُّ على كبر نفس هذا الرجل وسعة مطامعه . فهل كان مخلصاً في سعيه حسن القصد بما يقوله ؟ فاذا ثبت انه كذلك حق للمصريين ان يبكوه ويعظموه وان لم يروا ثمر عمله لان الاعمال بالنيات . والاَّ فلا فضل له . ويظهر لنا من تدبر اعماله انه كان مخلصاً واليك الدليل :

١ ثباته في المبدأ الذي قام في نفسه منذ كان تلميذاً لا يسمع صوته الا رفاقه حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطني وصاحب الالوية الثلاثة — له دعوة واحدة كانت تتجلى في مطالبه اذا كتب او خطب او ناقش او باحث بين الاصدقاء او الاعداء بالعربية او الافرنجية على سواء

٢ انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه في سبيلها حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاذ الشباب فلم يتزوج ولا جلس لشرب او لهو ولا التفت الى جمال او طرب.

لا يلذ له غير التحدث بالوطن او الاستقلال او الجلاء . وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك طمعاً بالمال وهذا باطـــل لان الرزق من القلم اضيق من شقه . ويقول آخرون ان غرضه الشهرة الواسعة وقد نال منها ما لم ينله سواه من اهل هذا الجيل حتى تناقلت ذكره صحف العالم الافرنجي وحدها ١١٥٠٠٠٠ مرة في اثناء جهاده فضلا عن جرائد الشرق الاقصى والادنى وعرف اسمه كثيرون لا يعرفون اسم اعظم رجال مصر — ولكن طلب الشهرة في سبيل المصلحة العامة ليس من المعائب بل هو من اكبر دعائم العمران وطلاب الشهرة اعظم رجال العالم

٣ اجماع الذين عاشروه من رفقائه واصدقائه على حبه واعتقاد الاخلاص فيه فضلا عن الاخرين ممـــا لا يتأتى لغير المخلصين لان الانسان اذا سعى في مشروع عمومي طمعاً بمال او جاه لا تلبث حقيقة حاله ان تنكشف لعشرائه الاقربين او شركائه في عمله فينفضون من حوله كما اصاب كثيرين من زعماء الاحزاب في العالم القديم والحديث. ففسدت نيات اصحابهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وقد يبقى مع الزعيم المنافق اناس يداجونه ويداجيهم التماساً للكسب . ولكن اصحاب مصطفى كامل ثبتوا في ولائه حيًاوميتاً وهم يستهلكون في سبيل نصرته وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء ومعظمهم اكبر منه سنًا واوفر مالاً واعرض جاهاً وبعضهم اغزر منه علماً وقد نصروه بعقولهم واموالهم وقلوبهم ولم يستنكفوا من تصـدره في مجالسهم ولا داخلهم الحسد من رئاسته عليهم

٣ — هل هو رجل عظيم

يختلف الحكم في عظمة الرجال باختلاف الامم والاجيال فبعضهم يقيسون العظمة بكبر المطامع وسعة الفتوح او بكثرة الاموال وبعضهم يقيسونها بمقدار النفع الذي يترتب على ظهور ذلك العظيم . فمن الفرنساويين من يعدُّ بونابرت اكبر رجال فرنسا لكثرة فتوحه وكبر مطامعه وبعضهم يقدم باستور عليه لانه خدم الانسانية باكتشافاته المكروبية . وآخرون يفضلون رجال الدين والشارعين . وعندنا ان الرجل العظيم انما يكون عظيماً بما يخلفه من الاعجاب والاثر الحسن في نفوس معاصريه .

اذ قد يكون عظيماً بنفسه ولا يوافق لاتمام عمله فيؤسس لمن يأتي بعده . وعلى هذا القياس نعدُّ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده عظيمين لان الاول من مؤسسي النهضة السياسية والثاني من مؤسسي النهضة الدينية الاصلاحية . وعلى هذا القياس ايضاً نعدّ مصطفى كامل عظيماً لانه احيا في الامة المصرية جامعة الوطن وهو القائل «لو لم اكن مصرياً لوددت ان اكون مصرياً» . وعلم المصريين المجاهرة بطلب حقوقهم واسمع دول اوربا اصواتهم . فهو من اكبر مؤسسي النهضة السياسية المصرية . ولم يأتِ جمال الدين الافغاني عملاً لا يستطيع مصطفى كامل مثله واعظم منه لو بلغ الى مثل سنة . ألم يواقف اعظم دول الارض حتى عرَّض نفسه للنفي او الطرد ؟ وقد تفانى في خدمة مبدإه حتى مات شهيداً في ريعان شبابه

على ان ذلك لا يمنعنا من انتقاد اعماله لان العصمة لله وحده ولكل امرىء رايه . والذي نراه في الفقيد رحمه الله كان متطرفاً في آرائه يعادي من ينتقدها او يخالفه فيها . واذا حمل على خصمه بالغ في الغض من فضله وقد ينكر حسناته ولو كانت ظاهرة كالشمس . وكان مغالياً في استسهال مطالبه لانه طلب الاستقلال العاجل وقرائن الاحوال تشهد ان ذلك الطلب سابق لاوانه . او لعله تعمد التطرف جرياً على سياسة المتطرفين Radical من احزاب الامم المتمدنة الذين يطلبون البعيد فاذا لم ينالوه نالوا بعضه ومن ثمار هذه السياسة في مصر نهوض المعتدلين وتجرؤ الخائفين من ارباب الصحف على طلب الاصلاحات الممكنة . ومن ثمار سياسة التطرف ايضاً سرعة نمو الشعور الوطني لما في تلك السياسة من الحماسة المثيرة للاحساس والحاملة على التضافر والتعاون

على اننا نرى انه لو وجه تلك الهمة الشماء او بعضها لاستدرار الاموال وانشاء المدارس العالية لكان ذلك اقرب الى الغرض المقصود من سعيه بدليل انه انما قام بموازرة ابناء تلك المدارس ولولاهم لم يستطع عملاً يذكر فكلما زاد عددهم زاد مشروعه قوة وثباتاً وتهيأت الامة ان تحكم نفسها فاذا طلب الاستقلال بعد ذلك لا يجد المحتلون حجة للبقاء . ولم يكن يعجزه انشاء عدة كليات كبرى بما فطر عليه من قوة

العارضة وعلو الهمة وبما له من المكانة في نفوس الاغنياء . ولا ننكر ما للفقيد من الايادي البيضاء في نصرة التعليم والتربية ولكننا في حاجة الى اكثر من ذلك كثيراً

ان الفقيد احيا الشعور الوطني بحماسته وجرأته وجاءه الموت السريع في ابان جهاده فذهب شهيداً . وعرف المصريون له ذلك فاتحدوا في البكاء عليه وتعاونوا في تعظيمه وتكريمه فظهر الشعور الوطني بعد موته اكثر مما كان ظاهراً في حياته . فنتقدم الى الساعين في مصلحة الامة من مريديه وغيرهم ان يؤيدوا هذا الشعور بتعميم التعليم العالي ليكون اجتماع الامة عن تعقل وروية وذلك ادعى الى الغرض المراد والسلام





سليم صيدناوي

صاحب اكبر محل تجاري في مصر

ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٩٠٨

المراد عندنا من نشر تراجم العظماء اما تدوين اعمالهم ليبقى ذكرهم اقراراً بفضلهم واعجاباً بمواهبهم او نشر تلك الاعمال للاعتبار بسير اصحابها قدوة لسواهم او للسببين جميعاً . فترجمة بونابرت والاسكندر ومعاوية وبسمارك وغلادستون يراد بهـا تخليد اعمال اولئك العظماء والاعجاب بما اتوه من الاعمال العظمى .

وترجمة كولمبوس مكتشف اميركا وباستور مكتشف المكروب وغوتمبرج مخترع الطباعة وغيرهم من اصحاب الفضل على المجتمع الانساني يراد بهـا على الغالب تدوين افضالهم على صفحات التاريخ . وامـا تراجم دزرائيلي وبالسي وسليني وروتشيلد وغيرهم من رجال النشاط والاجتهاد الذين ولدوا فقراء واكتسبوا الثروة او العلم او الصناعة بجدهم ونشاطهم فيراد بها فضلاً عن تخليد ذكرهم الاقتداء باعمالهم وكلما اقتربت سير هؤلاء من حاجات القراء زادت الفائدة من نشر تراجمهم . فترجمة رجال السياسة او الادارة او الحرب لا تفيدنا شيئاً في ما نرجوه من التقدم في اعمالنا . واما رجال العلم او التجارة او الصناعة اذا كانوا قد نالوا ما نالوه من الثروة او الجاه بجدهم وامانتهم فترجمة حالهم فيها قدوة حسنة للشبيبة من ابناء هذا الجيل — ودرهم قدوة خير من قنطار تعليم

وقد جرت العادة ان يقتصر ارباب الاقلام عندنا على ترجمة العلماء او القواد او رجال السياسة ونحن اشدُّ احتياجاً الى ترجمـة التجار العصاميين الذين أثروا بالطرق القانونية الموافقة لشروط النجاح . لان التجارة اهم مصادر الارتزاق في بلادنا . ومن الاوهام الشائعة « ان الثروة لا تنال بطريق الحلال وان الانسان الامين المستقيم يعيش فقيراً ويموت معوزاً وانما يثري الكاذبون اهل الحيل والنفاق » . ولهم في ذلك اقوال واشعار وامثال . وهو عذر الذين يفشلون في سعيهم مع رغبتهم في العمل وسهرهم واستقامتهم فينسبون فشلهم الى صدقهم وسلامة نيتهم . وهم انمـا فشلوا لافتقارهم الى بعض معدات النجاح كالذكاء او المعرفة او الثبات او نحو ذلك لان الاستقامة وحدها لا تكفي ولو رافقها السعي والسهر . واليك اهم ما يحتاج اليه الانسان من شروط النجاح على العموم :

شروط النجاح

١ المعرفة : اول ما يحتاج اليه طالب النجاح في هذه الحياة ان يكون متقناً لعمل من الاعمال الصناعية او التجارية او الزراعية او القلمية كأن يكون نجاراً ماهراً

او تاجراً محنكاً في اصناف التجارة او عارفاً الحساب التجاري او مزارعاً يعرف أصول الزراعة علماً وعملاً او عالماً بفن من الفنون القلمية او متقناً مهنة من المهن العلمية كالطب او المحاماة او الترجمة او الانشاء او نحو ذلك . ويكفي ان يعرف مهنة واحدة معرفة جيدة لا ان يعرف غير واحدة معرفة ناقصة فان المكثر لا يتقن والنجاح يحتاج الى اتقان

٢ حسن الاختبار : وهو ان يحسن الانسان اختيار المهنة الملائمة لمواهبه ويضعها في المكان الموافقة له . فلا يتعاطى الصناعة وهو مفطور على التجارة ولا يشتغل بالعلم اذا لم تتوفر فيه المواد اللازمة له . ولا يتعاطى عملاً حيث لا يرجى له رواج كان يتجر بالاقمشة السميكة في البلاد الحارة او ينشيء معملا لمصنوعات لا تروج في تلك البلاد او انها تكلف اكثر مما تكلفه اذا حملت اليها من الخارج او نحو ذلك مما لا يمكن حصره وانما يتكفل بتمييزه الذوق السليم

٣ الثبات : كثيراً ما يفشل العامل ولو توفرت فيه المعرفة اللازمة وحسن الاختبار و يغلب ان يكون سبب فشله استعجاله في استثمار عمله . فاذا لم يذق ثمر سعيه عاجلاً عدل عنه وشكا سوء حظة او نقم على الزمان لانه لا يساعد غير الجهال ... وقد ياتي بالشواهد القريبة عن اناس افلحوا وهم اقل منه معرفة وقد فاته انهم انما افلحوا بالثبات او بغيره من الاسباب التي لم تتوفر فيه وهي لازمة للنجاح

٤ الاستقامة : من الامثال الشائعة على السنة صغار الباعة ان هذا الزمان لا ينفق فيه غير النفاق ولا يروج فيه غير الغش وهم يقولون ذلك في كل زمان . وهو غير الواقع لان الاستقامة والامانة من اهم شروط النجاح ولا سيا في هذا العصر عصر الحق والحرية وما نجاح الكاذبين الا الى حين . على ان الاستقامة وحدها لا تفيد شيئاً لان المستقيم اذا جردته من المعرفة والثبات كان كالعجماوات لانها سليمة القلب لا تعرف الغش ويندر ان تسرق او تخدع ... وانما يشترط في الاستقامة ان تكون دعامة للمعرفة لا ان تكون هي رأس مال العامل وحدها

٥ الاجتهاد : قد تتوفر في الرجل المعرفة والاستقامة والثبات وحسن

الاختيار ولا يصيب الا نجاحاً قليلاً لكثرة المناظرين له في مهنته او لاسباب اخرى فلا يتم نجاحه الا بالجد والسهر وقد يكون الرجل متوسط الذكاء والمعرفة فيعوض جده عن ذلك النقص

٦ مراقبة الفرص : ان اغتنام الفرص من اكبر اسباب النجاح وهي على الغالب اهم وسائل الاثراء . اذ قد تسنح للانسان فرصة اذا تنبه لها واغتنمها اغنته عن سعي كثير او فتحت له باباً للكسب الطائل الذي لا يتوقعه من عمله الاعتيادي

٧ اسلوب المعاملة : هذا سرٌّ عظيم من اسرار النجاح اذ قد يكون الانسان متقناً ثابتاً مستقيماً مجدًّا ساهراً ولا يصيب نجاحاً كبيراً لانه لا يحسن معاملة الناس او انه اتخذ في معاملتهم اسلوباً لا يرضيهم . وينبغي لطالب النجاح ان يتحلى بالاخلاق الرضية مع خفة الروح ورقة الطبع ودقة الشعور . فاننا نعرف غير واحد من اشهر المتقنين لاعمالهم وقد فشلوا لانهم لم يحسنوا الاسلوب في المعاملة وكثيراً ما يتوقف نجاح المرء على حسن اخلاقه اكثر مما على حدة ذهنه وذكائه

فسليم صيدناوي الذي نحن في صدد ترجمته ولد فقيراً ونال ثروة طائلة وشهرة واسعة بجده واستقامته وثباته وحسن اسلوبه على ما تراه في ما يلي :

ترجمة حاله

ولد سليم في دمشق سنة ١٨٥٦ من عائلة معروفة هناك وكان ابوه المرحوم يوسف صيدناوي سمساراً تجاريًّا . فربي في حضن والديه وتلقن مبادىء القراءة والكتابة على قدر ما تسمح به احوال تلك الايام . فقد كانوا اذا اتقن احدهم القراءة في المزامير او الاناجيل وعرف شيئاً من الحساب قالوا « انه ختم علمه » وكان والده كثير التفكير في مستقبل بنيه ويرى ان الشاب لا يأمن الفقر ما لم يتعلم صناعة من الصنائع الضرورية فادخل سليماً في محل خياطة افرنجية وكانت حديثة العهد في سوريا يومئذٍ فتعلمها وما زال يشتغل بها حتى انتقل الى مصر سنة ١٨٧٩

وكان اخوه سمعان وهو اصغر منه بسنتين قد اتى مصر سنة ١٨٧٧ وفيه ميل الى التجارة من صغره فخدم وهو في دمشق في محل تجاري نحو ثلاث سنوات مع

رغبة ابيه في تعليمه الصناعة عملاً بالمبدإ الذي قدمنــاه . وقد علمه صناعة الحياكة لكنه كان اكثر ميلاً الى التجارة . وجاء الى مصر سنة ١٨٧٧ بلا رأس مال فالتقى فيها عمه المرحوم نقولا صيدناوي وكان تاجراً في الحمزاوي يبيع الحرائر والخرداوات فخدم عنده ونفسه لا تطاوعه على البقاء في الخدمة . واتفق بعد خمسة اشهر من خدمته عند عمه ان تاجراً سوريًا اسمه الياس جهامي توفي عن اولاد قاصرين وله محل تجاري في الحمزاوي اراد الاوصياء تصفيته فاغتنم سمعان هذه الفرصة وتصدى لتصفيته فسلموه اليه وعمل في اثنــاء التصفية على استخدام بعض ما يقبضه من ثمن المبيع في ابتياع بعض الاصناف وتصريفها مع سائر البضائع على ان يكون له نصف ربحها وللمحل النصف الآخر . ولما قارب الفراغ من التصفية بلغت تلك الارباح ٢٨٥ جنيهاً نصفها له . فاتفق مع الاوصياء على استبقائها كلهــا بيده وان يدفع عن النصف الآخر وعن ثمن بضائع باقية في المحل قيمتهــا ١٤٠ جنيهاً فائدة قانونية . فكان رأس مال ذلك المحل نحو ٥٠٠ جنيه ثلثاهــا دين على سمعان يدفع فائدة ٢٠٠ غرش كل شهر

فصرف سمعان عنايته في طلب النجاح بالطرق الحلال وكان سبب نجاحه على الاكثر انه اهتدى بتفكيره وسهره الى المصدر الاصلي للبضائع التي كان يبيعهــا في محله وهي الحرائر والمناديل وكان تجار القاهرة يستوردونها من الاستانة فعرف هو ان تجار الاستانة يستجلبونها من اوربا فاستجلبها من هناك رأساً وباعها بارخص مما كان غيره يبيعها به فراجت تجارته واتسع شغله

فلما قدم سليم الى مصر كان سمعان في محله المشار اليه فاشتغل سليم اولاً بالخياطة من طريق التجارة فاشترك مع الخواجه متري صالحاني في محل للخيــاطة والتجارة وحصة سليم من رأس المال دفعها اخوه . وبعد قليل احترق المحل وذهب رأس المال كله . وكان بين سليم وسمعان تآلف وتحاب فوق تآلف الاخوة كانهما شخص واحد . وكان للمرحوم سليم انعطاف على اخيه منذ الصغر فلما احترق المحل اغضى سمعان عن تلك الخسارة وشارك اخاه في الباقي معه ففتحا حانوتاً في الموسكي

عند مدخل شارع منصور باشا لا تزيد مساحته على اربعة امتار مربعة اقام فيه سليم وظل سمعان في الحمزاوي . وعقدا الشركة رسميًّا باسم « سليم وسمعان صيدناوي» سنة ١٨٧٩ اي منذ ٣١ سنة . واخـذا في العمل بنشاط وامانة وهما عازبان يقيمان في غرفة بوكالة يعقوب بك بالحمزاوي ليس فيهـا من الاثاث الاَّ سرير ينام عليه احدهما ومقعد ينام عليه الآخر . ويأكلان في مطعم بغاية ما يكون من البسـاطة والاقتصاد . وقد سمعناهما يذكران ذلك بعد ان بلغا ما بلغاه من بسطة الجاه وسعة الثروة لا يرون في ذكره حطة ولا صغاراً

اساس النجاح

واساس نجاحهما بعد الشركة حادثٌ يشبه ما يروى عن نجـاح بيت روتشيلد يدلُّ على ثمار الامانة والاستقامة . وذلك ان سليماً وهو في حانوته المشار اليه اتته خادمة من قصر البرنس مصطفى فاضل باشا وابتاعت منه ثوبي دانتلاً بستة عشر غرشاً (تعريفة) وفهمت انه يعني ١٦ غرشاً صاغاً فدفعت المبلغ ومضت وهو لم ينتبه لمقدار مادفعته لاشتغاله بسواها ثم عدَّ النقود فرأى المرأة دفعت ضعفي ما طلب منها ولم يكن يعرف مكانها . فجاءت في اليوم التالي لتبتاع ثوبين آخرين وبيدها ١٦ غرشاً اخرى فاخبرها ان الثمن ٨ غروش وهي القيمة التي بقيت لها بالامس واعطاهـا الثوبين ولم يأخذ منها شيئاً . فدهشت المرأة لهذه الامانة وهي نادرة الوقوع لا سيما في معاملة الاغنياء لطمع الناس باموالهم . وقصَّت ذلك على سيدتها فشاع خبر تلك الحادثة في بيوت الوجهاء من الامراء واقاربهم فرغبوا جميعاً في معاملة ذلك التاجر المستقيم . وكان سليم يعرف شيئاً من التركية سهل عليه معاملتهم وما زالوا يزدادون ثقة بامانته كل يوم حتى اصبحوا لا يبتاعون فرشاً او ثياباً او قماشاً الا بمشورته او على يده

فاشتهر بالامانة والاستقامة بين الاغنياء فزادت مكاسبه وضاق ذلك الحانوت عليه فانتقل سنة ١٨٨١ الى حانوت اكبر منه في الموسكي ايضاً يطل على الخليج — ثم وسعوه من داخله بعد ذلك وهو شطر محلهم الحالي وفيه اصناف السجاد والفرش.

ولما اخذا ذلك المحل اجتمع الاخوان للتعاون على العمل وظل محل الحمزاوي لهما . وما زالت اشغالهما تتسع ورأس مالهما يكبر وكلما ضاق المحل وسعاه حتى لم يبق سبيل الى توسيعه فاخذا محلاً تجاهه جعلاه المحل المركزي وفيه الكتاب والحساب

ومما يعدُّ خطوة كبرى في طريق النجاح اعتمادهم في المسواق على اوربا . بدأوا بذلك سنة ١٨٨٥ في فرصة عرضت لهما وذلك ان المرحوم سليماً اصيب بانحراف في صحته فوصف له الاطباء الاستشفاء باوربا فاغتنم وجوده هناك وخابر المعامل التي تشتغل باصناف تجارته ورأى فرقاً كبيراً بالاثمان فعاملها رأساً فصار ذلك قاعدة في المسواق كل عام واقسم الشغل بين الاخوين فتولى سليم المسواق والحسابات وانفرد سمعان بتنظيم ادارة البيع وما زالا في تقدم والشغل ينمو ويتسع ويتفرع حتى اصبح محلهم في القاهرة اعظم محل تجاري في الشرق عدد عماله يناهز ١٥٠ عاملاً من الباعة والكتاب غير المستخدمين الصغار وغير مستخدميهم في اطيانهم وعقاراتهم واعمالهم الاخرى فضلاً عن محلاتهم الفرعية في منشستر وليون وباريس والاسكندرية وغيرها . وغير البنك الذي انشأوه قبل وفاته شركة مساهمة باسم « بنك صيدناوي وظريفة ونحاس وشركاهم » وانعم عليهما الجناب العالي بالرتبة الثانية مع لقب بك . وفي ذلك العام جعلا محلهما التجاري بالقاهرة شركة مساهمة اسمها « سليم وسمعان صيدناوي لميتد » وظلت شركتهما الاصلية في العقار والطين باسم « سليم وسمعان صيدناوي » اما ثروتهم فنحو ثمانماية الف جنيه ثلثاها عقار واطيان والثلث الاخر في التجارة

حساب الحق او العشور

قد رأيت انهما اسسا شركتهما على الاستقامة والامانة وقد سيجاها بالاحسان على اسلوب جعلا الاحسان فيه فرضاً عليهما لا يتوقعان عليه اجراً . وذلك انهما تعاهدا منذ تأسيس الشركة وهما في ذلك الحانوت الصغير ان يخصصا خمسة في المئة من الربح تفرق في الفقراء على سبيل الزكاة فاصبحا يجردان المحل في كل سنة فاذا عرفا الربح اخرجا خمسة في المئة منه للاحسان وسميا هذا المال « الحق او العشور »

تُنفق في سبيل البر . وما زال ذلك دأبهما الى الآن وقد زادت اموال المشور بزيادة ارباحهما ففتحا لها حساباً خاصاً في دفاتر خاصة وربما بلغ مقدارها الان نحو ٢٠٠٠ جنيه في العام تنفق في اعالة الفقراء لا يفرقان في ذلك بين المسلم والمسيحي واليهودي وغيره للكساء او الطعام او المأوى او بتزويج العذارى اللواتي يحول الفقر دون زواجهن . فكم من عائلة سترها احسانهما وكم من بيوت امست لولاهما خراباً . يفعلان ذلك ولا يعدانه احساناً واذا اردت التنويه بذكره تجاهلا وقد ينكرانه ولكن الحق يأبى الا الظهور . فلاعجب اذا رأيت آثار احسانها ظاهرة في الجمعيات والعائلات والمستشفيات والمدارس والكنائس . وهي امثولة للاغنياء يحسن تحديها والعمل بها . فان المحسنين بينهم قليلون واذا عملوا برًّا نفخوا بالبوق وضربوا بالطبل واشاعوا ذلك على صفحات الجرائد التماساً لحسن الاحدوثة

صفاته واخلاقه

كان سليم رحمه الله ربع القامه ممتلىء الجسم مخاص الطوية صادق اللهجة لا يحلف ولا يخلف وكان واسع الصدر طويل الاناة شديد الميل الى المسالمة والتساهل صبوراً على العمل شديد المحافظة على الوقت كثير الرغبة في مواساة الحزانى واعالة المساكين فاذا احتضر والد وعلم قبل موته ان سليم صيدناوي سيكون وصيًّا على اولاده مات قرير العين مطمئن الخاطر ولذلك كثرت الوصايات اليه وهو لا يبالي بما ينفقه في سبيلها من الوقت او الصحة . فضلاً عن اعماله في خدمة اوقاف الطائفة الكاثوليكية وعن توسطه في حل المشاكل بين الشركاء او الاقرباء او الاصدقاء

ومع كثرة شواغله كان كثير الائتناس باهله لا يبرح بيته زاهراً مشرقاً بقرينته وهي ابنة عمه نقولا صيدناوي الذي تقدم ذكره في صدرهذه المقالة بما فطرت عليه من الزكاء واللطف والتعقل وحب المطالعة فلم تكن تذخر وسعاً في سبيل راحته فاذا اوى الى منزله خففت عنه متاعب الحياة بلطفها وحسن اسلوبها كما ينبغي ان تكون المرأة الفاضلة . ويعمد هو الى ملاعبة اولاده او اولاد اخيه ومداعبتهم فيذهب تعبه وتتجدد قواه فيزداد نشاطا على العمل

العبرة والموعظة

نحن في مقام ترجمة المرحوم سليم صيدناوي ولكننا لم نرَ بدًّا من الكلام عن اخيه ايضاً لارتباطهما في العمل وتعاونهما على الخير . اما العبرة بما تقدم فهي ان نجاح هذين الاخوين حجة دامغة على ان الاستقامة والصدق ضروريان للنجاح ولا يكون مأموناً ان لم يتعهده اصحابه بالاحسان زكاة او صدقة فتزداد المكاسب وينجو صاحبها من غوائل الحسد . ليس لان الحسد يضر المحسودين ولكن الانسان اذا ارتقى باي باب من ابواب العمل كثر حساده ومنتقدوه وكلما كبرت نفسه كثر الطاعنون فيه — ومن الناس من لا يهمه ما يقال عنه وانما يهمه ان تزيد ثروته احبه الناس او أبغضوه . ومنهم من لا يهمه الكسب بقدر ما يهمه حب الناس . فهولاء يتلافون الطعن والحسد بالاحسان والتواضع والتلطف وقد يكون احسانهم عن احساس ديني التماساً للثواب وكلا السببين الاخرين حسن نافع لان النتيجة منهما اعالة الضعفاء وعمل الخير . واما الذين يقتصر همهم على جمع المال لا يبالون بما يقال عنهم فانهم نموٌّ غريب في جسم الاجتماع ينمو بامتصاص غذائه ويعود بالضرر عليه

اما الصيدناويان فانهما افضل مثال لما ينبغي ان يكون عليه رجال الثروة واهل الجاه وهما مع ثروتهما وجاههما يتوخيان البساطة في اساليب معاشهما ويبذلان الالوف في اعالة الفقراء . وهما مثال في الجد والنشاط يشتغلان من الصباح الى ما بعد العشاء شغلاً شاقاً يعرفه كل من زار محلهما ورأى حركة العمل فيه

ومن اسباب نجاحهما غير ما تقدم من الامانة والنشاط واغتنام الفرص حسن الاختيار فقد اختارا العمل واقتسماه على حسب استعداد كل منهما سليم للسواق والادارة والحسابات وسمعان لادارة البيع . ومن تلك الاسباب ايضاً الثبات فقد ثبتا في شغل واحد ثلاثين سنة وهو الاتجار بالحرير والخرداوات لم يتحولا عنه وانما وسعوه بما يلائم ان يكون ملحقاً به . ومنها اسلوب المعاملة وهما مشهوران باللطف والتواضع فلا يخرج الشاري ولا البائع من محلهما الا راضياً



قاسم امين

نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة

ولد سنة ١٨٦٥ وتوفي سنة ١٩٠٨

اصيب الاسلام في اوائل هذا القرن بفقد غير واحد من كبار رجاله ونوابغ عماله نخص بالذكر اثنين من دعاة الاصلاح الاجتماعي او الديني احدهما الشيخ محمد عبده زعيم النهضة الاصلاحية الاسلامية في هذا العصر والثاني قاسم بك امين نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة . وقد مات كلاهما وبينهما ثلاث سنين فخسرنا بذلك خسارة لا يعرف مقدارها الا الذين يعلمون افتقار تشرق الى ذلك الاصلاح ولا سيما العائلة فانها قوام الامة وقوام العائلة المرأة فلا الصلح الامة الا باصلاحها

المراة العربية قبل الاسلام وبعده

تبين لنا من أبحاثنا في « تاريخ العرب قبل الاسلام » الذي صدر ملحقاً للهلال ان المرأة العربية كان لها مقام رفيع في التمدن العربي القديم فتعاطت الكتابة وتولت الادارة وعانت سائر اعمال الرجال في الالف الثالث قبل الميلاد اي منذ اكثر من ٤٠٠٠ سنة . وعرفنا دولاً عربية في اعالي الحجاز لا يتولى الملك فيها الا النساء . ناهيك بما تناقله العرب من اخبار بلقيس صاحبة اليمن والزباء (زينوبيا) صاحبة تدمر . عدا اللواتي اشتهرن في اثناء الجاهلية من العرافات والكواهن ولا يتولى الكهانة الا الممتازون بالعقل والتدبير بعد ان ينالوا المقام الرفيع ويحرزوا العلم الواسع . ويقال بالاجمال ان المرأة في الجاهلية كان لها شأن وارادة وانفة ورأي وحزم . ونبغ غير واحدة منهن قبيل الاسلام وفي اوائله بالسياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول يومئذٍ فاشتهر جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال . وممن اشتهرن بالحزم والرأي خديجة بنت خويلد زوج النبي واسماء بنت ابي بكر وسكينة بنت الحسين وغيرهن (١)

ظلت المرأة العربية على انفتها وعزة نفسها وسمو منزلتها في ايام الراشدين وزاد توسعها في طب المعرفة اذ اتسع المجال للعقول والمواهب فنبغت غير واحدة بالشعر والادب واتت بعضهن اعمالاً يعجز عنها كبار الرجال . فلما افضت الدولة الى بني امية في اواسط القرن الاول للهجرة اصاب المرأه العربية صدمة قوية غيرت كثيراً من طبائعها لتكاثر الجواري والغلمان في دور الامراء وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر وتكاثر المخنثين في المدن وتوسطهم بين الرجال والنساء بالباطل

ولما استبحر عمران المسلمين في العصر العباسي زادوا انغماساً في القصف واللهو

---

(١) ترى تفصيل ذلك في الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي

والخلاعة وفسدت النية بين الرجل وامرأته وهو صاحب الذنب لانه بدد شعائره وامياله بين عدة نساء فقلت ثقة امرأته به . ولم ينضج التمدنْ في ذلك العصر حتى تنوسيت المرأة العربية وذهبت حريتها وغيرتها وانحطت نفسها وذهبت انفتها واستقلال فكرها فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعاشرها على غل وسوء راي يقفل عليها الابواب والنوافذ . واصبح الطعن في طباعها وسوء سريرتها شائعا على السنة الناس حتى الفوا فيها الروايات والقصص ونظموا بها الشعر وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها . هذه قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الاعصر الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف . واما الاشعار فاليك ما قاله ابو العلاء المعري :

اذا بلغ الوليـد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليـد
وان خالفتني واضعت نصحي فانت وان رزقت حجا بليـد
الا ان النساء حبـال غي بهن يضيع الشرف التليـد

واصبح الكاتب اذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله ابو بكر الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه بينته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها . ووقفت عليه من غرائب امرها . لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات . ودفن البنات من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة . فقد استكمل النعمة . واذا زف كريمة الى القبر . فقد بلغ امنيته من الصهر قال الشاعر :

ولم ارَ نعمة شملت كريماً كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر : تهوى حياتي واهوى موتها شفقاً والموت اكرم نزال على الحرام

وقال آخر : وددت بنيتي ووددت اني وضعت بنيتي في لحد قبر

وقال آخر : ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر : سميتهـا اذ ولدت تموت القبر صهر ضامن وبيت

هذا مثال من اراء ادباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس

للهجرة وقد زادت حطة وصغاراً في الاجيال الاسلامية الوسطى تبعاً للتقهقر العام وبلغت غاية ذلك في القرون الاخيرة قبل النهضة وقد تساوت في ذلك الانحطاط المرأة المسلمة وغير المسلمة من نساء الشرق الاسلامي على الاجمال والناس سكوت. لان القرائح جامدة والنفوس ميتة بما تولى الناس من فساد الاحكام وتفشي الجهل

فلما اخذ القوم باطراف التمدن الحديث واستنارت العقول بالعلم انتبه العقلاء الى المرأة وعمدوا الى النظر في تحسين حالها ورفع شانها — بدأ بذلك المسيحيون لكثرة اختلاطهم باصحاب هذا التمدن وقد اصابوا منه حظاً وافراً اذ ليس في تقاليدهم او عقائدهم ما يمنع حريتها . ثم اخذ عقلاء المسلمين يفكرون في حال المرأة المسلمة و يشعرون بحاجتها الى الاصلاح لعلمهم ان الامة يتوقف اصلاحها على اصلاح المرأة . فطفقوا يتهامسون في ذلك تهيباً من مقاومة تيار العامة الذين يعدون التضييق على المرأة من حقوق الرجل

ثم اخذ بعضهم يتظاهرون بنصرتها وانشئت المدارس لتعليمها وظهر القائلون بوجوب اصلاحها وليس بينهم من تصدى للمجاهرة بذلك على الملأ بالكتابة والخطابة لان الشجاعة الادبية كانت قليلة بيننا . واسبق المسلمين الى طلب الافراج عن المرأة في هذا العصر الاتراك في الاستانة لكثرة اختلاطهم بالاجانب وسبقهم في الاطلاع على اسباب التمدن الحديث . ولذلك كان كتابهم اسبق الى المجاهرة بوجوب رفع الحجاب واول من فعل ذلك من العرب هناك الشيخ احمد فارس صاحب الجوائب

اما في مصر فما زال العقلاء يتهامسون في هذا الموضوع وفي غيره مما يشعرون بحاجتهم اليه من الاصلاح الاجتماعي او الديني حتى صرح الشيخ محمد عبده بارائه فلاقى ما لاقاه من المعارضة والنقمة وكانت وجهته الاصلاح الاسلامي على العموم بحل قيود التقاليد وتحكيم العقل في التفسير والتأويل الى ما فيه ترقية شؤون المسلمين. فكثر مريدوه والمؤمنون على اقواله وان قل المجاهرون بذلك على المنابر او في الصحف . ومن اولئك القليلون فقيد الامس قاسم بك امين فانه اخذ على عاتقه

القيام باهم اسباب الاصلاح المطلوب نعني تحرير المرأة . تصدى لذلك بشجاعة يندر مثلها

الشجاعة الادبية

الشجاعة الادبية ان يقول الانسان اعتقاده ولو كان فيه ما يسيء الكبراء او يهيج عليه العامة مما يؤول الى الخطر على حياته او مصلحتهِ . واصحاب هذه المنقبة قليلون ولا سيما في الشرق بعد ما توالى على اهله من اصناف الذل والخسف . واما في ابان تمدنه فقد اشتهر من رجاله جماعة تضرب الامثال بشجاعتهم الادبية لسيادة العدل ونزوع ولاة الامور الى نصرة الحق والضرب على ايدي الظالمين . فلم يكن الناس يخافون ان يقولوا ما يعتقدون حتى كان الرجل من العامة ربما انتقد الخليفة او الامير في وجهه لا يخشى بأساً وقد تعود المسلمون ذلك من زمن الراشدين . فلما افضت الدولة الى بني امية وعمدوا الى الدهاء والشدة في تأييد سلطانهم امسكوا على الناس حريتهم . ومع ذلك فقد نبغ غير واحد بذلوا حياتهم في سبيل شجاعتهم كما اصاب ابا ذر الغفاري وحجر بن عدي الكندي وسعيد بن جبير وغيرهم . ولا تقتصر تلك الشجاعة على المسائل السياسية او الدينية بل هي لازمة في العلم والادب فقد عرض غاليليو حياته للخطر لمخالفة الاولين في قولهم عن ثبوت الارض

والانسان من فطرته حرّ الفكر يدلك على ذلك ما يبدو في كلام الاطفال من الصراحة والحرية ولكن تربيته على الخوف والحذر وتضييق الفكر منذ الصغر بالخرافات والاوهام تقيدان العقل حتى يعجز صاحبه عن التفكير الا على القالب الذي صب عقله فيه — فعلى طالب الاصلاح قبل ان يحل لسانهُ من خوف العقاب ان يحل فكره من قيود التقليد — هذه هي الخطوة الاولى نحو الشجاعة الادبية . وجمهور العامة مقيدو الفكر لا تمشي افكارهم الا على الخطة التي رسمتها عاداتهم فتبدو آراؤهم مسبوكة في القوالب التي اقتضتها تربيتهم او معتقداتهم . فقبل ان نطالبهم بحرية القول او الشجاعة الادبية يجب علينا ان نعلمهم « حرية الفكر » اي ان نجعلهم ينظرون في ما يعرض لهم من المسائل بعين

العقل لا بعين الغرض وان يبحثوا عن الحقيقة المجردة بقطع النظر عما غرس في اذهانهم مما يخالفها فيحكموا عقولهم وليس عاداتهم ومعتقداتهم — ذلك ما يعبرون عنه باستقلال الفكر

فمتى اطلق الرجل فكره من قيود الغرض او التقليد بقي عليه ان يصرح بما يرشده اليه عقله اذ قد يكون في تصريحه ما يسوء سواه او يعود عليه بالضرر فيمسك عنه خوفاً او مسايرة فيسكت . وقد يتمادى في جرّ المنفعة لنفسه فيقول عكس ما يعتقده التماساً لرضى الآخرين . ونرى امثلة من ذلك شائعة بيننا لهذا العهد

فالناس من هذا القبيل ثلاث طوائف طائفة غلبت عليها الاوهام وقيدتها التقاليد فلا تنظر في الامور الا بعين الغرض وبما تقتضيه تلك القيود فلا يلام اصحابها الا على الجهل . وطائفة حلت افكارها من تلك القيود ونظرت في الامور بعين العقل فظهر لاصحابها في شؤون العامة خللٌ يقتضي اصلاحاً فمنهم من يسكت عن ابداء رأيه خوفاً من غضب الجمهور او مراعاة لرئيس او صديق — وهي جبانة وضعف . ومنهم من لا يكتفي بالسكوت عن الحق بل يجاري تيار الجهلاء فيقول عكس ما يعتقد — وهو النفاق والرياء . ومنهم من يقول ما يعتقده بشجاعة وصراحة لا يبالي بما قد يلحقه بسبب ذلك من الضرر — وهي الشجاعة الادبية واصحابها هم رجال الفضل على المجتمع الانساني ومنهم كبار المصلحين والشارعين . وليس المصلح او الشارع الا رجلاً دعا الناس الى غير ما الفوه او تعودوه من الاصلاح الديني او الاجتماعي وضحى نفسه او مصلحته في هذا السبيل — وصاحب الترجمة من اولئك المصلحين

ترجمة حاله

كان ابوه امين بك ابن امير من امراء الاكراد اخذ رهينة في الاستانة على اثر خلاف وقع بين الدولة العلية والاكراد . ثم جاء الى مصر على عهد اسماعيل باشا وانتظم في الجيش المصري ورقي فيه الى رتبة امير الاي وتزوج بكريمة احمد بك خطاب اخي ابراهيم باشا خطاب فولدت له اولاداً اكبرهم قاسم صاحب الترجمة

وليس في ترجمة قاسم امين ما نراه في تراجم رجال الحرب او السياسة من الحوادث العديدة فقد ربي كما يربو امثاله من اولاد الوجهاء وتثقف في مدارس الحكومة المصرية وكان ممتازاً من صغره بالذكاء وحدة الذهن ولما اكمل دروسه كان في جملة الذين اختارتهم الحكومة للارسال الى اوربا يتعلمون بنفقتها على جاري العادة في ذلك الحين . فدرس الحقوق في فرنسا وعاد الى مصر سنة ١٨٨٥ فتعين وكيلاً للنائب العمومي في محكمة مصر المختلطة ومـا زال يرتقي حتى صـار مستشاراً في الاستئناف وكان في كل اعماله مثال الامانة والنشاط واستقلال الفكر حتى توفاه الله بالسكتة في ٢١ ابريل الماضي وهو في الثالثة والاربعين من عمره

صفاته واعماله

كان رحمه الله ربع القامة اسمر اللون كثير التفكير قليل الكلام . وكان حرّ الفكر صـادق اللهجة وقـد زاده التبحر في القوانين والنظر في اقوال الفلاسفة الاجتماعيين استقلالاً في الفكر وصراحة في القول لان القضاء يعوّد صاحبه التمسك بالحق واجلال قدر الحقيقة وممارسة القضاة الاحكام وتعودهم اذعان الناس لاقوالهم بلا مراجعة يزيدهم جرأة لابداء آرائهم في كل مسألة تعرض عليهم ولذلك رأيت المحاباة والرياء نادرين فيهم

وكان كبير النفس شديد الحرص على كرامتها ولذلك رأيناه محبًا لامته راغباً في رفع منزلتها لان حب الامة من حب الذات ولا يحب امته الا الذي يحب كرامة نفسه ومن يتغالى في خدمة امته فانما يفعل ذلك حبًّا بنفسه

واطلع قاسم على احوال الامم الراقية في اثنـاء اقامته باوربا فتمنى ان تكون امته مثلها فنظر في اسباب الرقي فرآها كثيرة لا يمكن تناولها دفعه واحدة ولا يتيسر تناول شيء منها قبل اصلاح العائلة لان الامة تكون كما تكون العائلة والعائلة تكون كما تريد المرأة فوجه عنايته الى اصلاح المرأة المسلمة وليس هو اول من رأى ذلك او فكر فيه كما قلنا ولكنه كان حازماً مقداماً لا يكتفي بالقول والتذمر او الاستسلام على عادة اكثر المفكرين بيننا ومنهم طائفة لا يقلون تعقلاً وسداداً عن المفكرين

في العالم المتمدن ولكنهم يقولون ولا يفعلون — وهي آفة المشارقة . اما قاسم امين فكان فعالاً اذا اقتنع بصواب فكر اخرجه الى حيز العمل . فلما عرف الطريق المؤدي الى اصلاح امته بادر الى مباشرته وهو يعلم ما يعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام . لان اصلاح المرأة يقتضي منحها الحرية ويتناول تقبيح الحجاب والنهي عن الطلاق وتعدد الزوجات مما يعدّه العامة من قبيل العقائد الدينية وهو ليس من الدين في شيء فاضطر ان يبين ذلك في اثناء بحثه . وبعد اعمال الفكرة الف كتابه « تحرير المرأة » واسمه ينمّ على منزلة المرأة المسلمة في اعتباره فهو يعدّها مستعبدة وقد اخذ على نفسه ان يحررها . وعلم ان الناس سيكبرون قوله وينكرن عليه مشروعه — حتى المرأة لانها الفت الذل وتعودت ان تعتبر نفسها من ادوات المنزل . فلم يكن يتوقع ان يرى ثمرة سعيه في حياته فرضي ان يضع الاساس لسواه فصدّر كتابه المشار اليه بقوله :

« وغاية ما اريد هو ان استلفت الذهن الى موضوع قلّ المفكرون فيه لا ان اضع كتاباً يوفي الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها في اذهان اولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها »

ثم بين حاجة المرأة المصرية او المسلمة الى الاصلاح موجهاً كلامه الى الخاصة والعقلاء فاورد فصلاً في « ان حال المرأة في الهيأة الاجتماعية يتبع حال الآداب في الامة » لا يقرأه قارىء الا توسم من خلال سطوره الحماسة ونصرة الحقيقة وصدق اللهجة فقد افتتح كلامه بقوله :

« اني ادعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وانا على يقين انه يصل وحده الى النتيجة التي وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها اقلبها وامتحنها واحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضوع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه

وصارت تشغلني بورودها وتنبهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر »

ثم اخذ يبحث في علاقة المرأة بالامة ويورد الادلة والبراهين التاريخية والاجتماعية ويستنهض الهمم ويستحث القرائح على العمل بعبارات ملؤها الحماسة والاخلاص قال :

« ولا يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتي اصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعدُّه اهل الوقت حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الاولى او قضت به المصالح في الازمنة

« وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوى في الجدل بان يقذف بكلمة باطلة . على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام . وما يرمي بهذه الكلمة الا حباً بالتخلص من مشقة الفهم او الخروج من عناء العمل في البحث او الاجراء . كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

« سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فاقول نعم اني اتيت ببدعة ولكنها ليست في الاسلام بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها »

وافاض في بسط الموضوع وتاييده فافرد فصلا لتربية المرأة وهو يعتقد انها مساوية للرجل لا تختلف عنه الا بما يستدعيه اختلافهما في الصنف . وان تعليمها العلوم الطبيعية والعقلية والادبية يساعدها على القيام بواجباتها المنزلية وترقية نفوس ابنائها . وقسم الكلام في التربية الى التربية بالنسبة الى الوظيفة الاجتماعية وبالنسبة الى الوظيفة العائلية . ثم تكلم في الحجاب — وكان قد الف كتاباً بالفرنساوية قبل « تحرير المرأة » ردّ به على كتاب الدوك داركور الذي طعن فيه على المصريين وقبح اخلاقهم وعاداتهم واختصر قاسم في دفاعه عن الحجاب هناك فأفاض هنا في حقيقة الحجاب من الوجهة الدينية ومن الوجهة الاجتماعية واستأنف الكلام في

« المرأة والامة » و بين ارتباطها في فصل طويل

وختم كلامه بفصل في « العائلة » وتوسع في الكلام على الزواج وشروطه وبين ان الشريعة الاسلامية تأمر بحسن المعاملة وتنهى عن تعدد الزوجات وتقبح الطلاق مسنداً اقواله الى القرآن والحديث والقواعد الاجتماعية والاحكام العقلية . وفي كل فقرة دليل على صراحة فكره وصدق لهجته وتفانيه في خدمة امته . ومع ذلك فلم يكد يظهر كتابه وتتناقله الايدي حتى تصدى لتخطئته اقوام جاهروا بالسخط على صاحبه بين منتقد وهازىء اما تمسكاً بالقديم او مجاراة لاحساس العامة لارتباط ذلك بمصالحهم وطرق معائشهم . وفيهم من فعل ذلك عن اعتقاد خالص ولكن بعضهم تجاوز حد الانتقاد الى الاستهزاء والقول الهراء فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وآخرون بالخروج عن الاداب وزعم غيرهم انه يرمي الى قلب الهيأة الاجتماعية المصرية وممالأة الانكليز على ضياع البلاد ...

اما هو فاغضى عن ذلك كله ورجع الى الموضوع فزاده بسطاً بكتاب آخر سماه « المرأة الجديدة » تكلم فيه عن « المرأة في حكم التاريخ » من اقدم ازمنته الى الآن في الامم القديمة والحديثة تأييداً لرأيه في وجوب تحريرها ورفع شأنها وفي « الواجب على المرأة لنفسها » وفصول في « الواجب على المرأة لعائلتها » و « التربية والحجاب »

ولم يكتف بطلب تحرير المرأة لكنه وضع لحريتها حدوداً و بين مايجب عليها وما يحق لها . ووضع للطلاق نظاماً جعله نموذجا تنسج الحكومة على منواله اذا شاءت تحرير المرأة واعطاءها حقها الشرعي والمدني . فقيد ارادة الرجل في الطلاق بحكم القاضي او المأذون بعد ان يرشد الزوج الى ما جاء في الكتاب والسنة من كره الطلاق عند الله و ينصحه و يبين له تبعة عمله واذا ابى الاصغاء وسط حكماً من اهله وحكماً من اهلها للاصلاح بينهما فاذا لم يفلح في ذلك كله اذن بالطلاق . ولا يخفى ما في ذلك من تدارك الاضرار التي تصيب العائلات بتسرع البعض في تنفيذ طلب الطلاق وقد يكون طلبه عن غضب موقت فاذا ثاب اليه رشده ندم على ما فرط منه

ظهرت كتابات قاسم في هذا الشان من تسع سنوات فشغلت الالسنة والاقلام علماً او عامين تنبهت فيهما العقول وثارت الخواطر وقام الناس وقعدوا . وقد لاقى من العقلاء اعجاباً كثيراً فنصره بعضهم بألسنتهم واقلامهم وسكت الآخرون مجاراة للعامة ونصرائهم . واكثر مجاهرة في نصرته واخذاً بيده زميلنا ابراهيم بك رمزي فانه أنشأ يومئذٍ مجلة سماها « المرأة في الاسلام » جعلها وقفاً على هذا المشروع ظهرت سنة ثم احتجبت ثم سكت الناس لا عن اهمال او اغفال ولكنها فترة الحضانة ريثما تتكيف عقول الامة لقبول تلك الآراء — كالتلقيح بالجواهر النافعة فانه يحدث عند دخوله البدن تهييجاً وقد يولد صديداً ثم يسكن في الظاهر ويعمل عمله رويداً رويداً . وقد اخذت نتائج ذلك السعي تظهر برغبة الناس في تعليم بناتهم وانشاء المدارس لهذه الغاية . وهذا من ادلة تسرُّب فكر قاسم بالتدريج

ستتوالى الاجيال وتمر السنون قبل ان تتحرر المرأة المسلمة لكنها ستتحرر وترتقي وتتولى الاعمال الهامة وترفع شأن العائلة كما كانت سالفاتها في جزيرة العرب منذ آلاف من السنين فاذا بلغت الى ذلك الرقي تذكرانه كان صاحب الفضل عليها ويعظم ذكره فيبقى اسمه منقوشاً بحروف من نور على تاريخ الاجتماع الشرقي في التمدن الحديث

اعماله في غير تحرير المرأة

قد تمرُّ القرون والناس على ما ساقتهم اليه الفطرة في طلب المعاش لا يفقهون معنى الحياة ولا الاجتماع حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افراداً ينهضون بالامة الى ما يظنون فيه خيرها — هؤلاء هم اقطاب العالم ودعائم الهيأة الاجتماعية فمنهم من يرى ثمرة سعيه وينال الفخر بحياته ومنهم من يراها خلفاؤه ويطوبونه بعد موته

وصاحب الترجمة واحد من هؤلاء لم يجنِ ثمر سعيه ولكن معاصريه عرفوا فضله واعترفوا بما طبع عليه من سعة العقل وسداد الرأي والرغبة في خدمة الامة فعهدوا اليه باعز المشروعات لديهم نعني نشاء « الجامعة » فولوه رئاسة اللجنة فلم يدخر وسعاً في سبيلها الى آخر ساعة من حياته

ذكرنا للفقيد فضله في نصرة المرأة لانه اظهراعماله الاجتماعية ولكنه كان راغبا في سائر سبل الاصلاح يطلبها من ابوابها القانونية مع تطبيقها على القواعد الاجتماعية الصحيحة لا يغريه اطراء ولا يخيفه صياح ولا يستغرب نقمة الناس وتخوفهم من كل جديد . وكان يشير الى ذلك في اثناء اقواله ويحتاط له ويدفعه . وله في الاصلاح على اجماله مقالات كان ينشرها في المؤيد عنوانها « اسباب ونتائج واخلاق ومواعظ » لم يذكر فيها اسمه وكان لها وقع حسن

وله اقوال مأثورة وجمل يتناقلها الناس عنه ويتخذونها قاعدة او مثلاً نشرتها ادارة الجريدة في كتاب سمته « كلمات لقاسم بك امين » هو عبارة عن مختارات افكاره او مذكراته وفيه حكم فلسفية اجتماعية وشذرات علمية يجدر بالادباء الاطلاع عليها والتمثل بها وهذه امثلة منها :

ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك

اذا استشارك عدوك فاخلص له النصيحة لانه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

تعصب اهل الدين وغرور اهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم. وليس بصحيح انه يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكر — بعد كل اكتشاف يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسألة تحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم اي بمعرفة الحودث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين

ان كان في الوجود انسان يستحق ان يحسد على نعمته فهو العاشق

من اختباري لارباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لي ان الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار تتوقد في القلب — حمية الفاظ متى انتشرت عادت هباء لا

تترك اثراً بعدها

لا ادري ماهي غاية الكتاب الذين اذا ارادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون انفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة الاوتوموبيل . ان كان القصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه اتم من الكلمة العربية وان كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً اذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

لا تكمل اخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه (انتهت اقواله)

وجملة القول ان قاسم امين من المصلحين العظام الذين يحفظ التاريخ ذكرهم وتزداد منزلتهم رفعة وفضلهم ظهوراً بتوالي الاجيال . وفضله يشمل العالم الاسلامي على الاجمال بنصرته المرأة المسلمة وله فضل خاص على القطر المصري بما نشره بين المصريين من النصائح الخاصة بهم . وبما كان له من القدوة الحسنة بين زملائه واصدقائه وغيرهم . لانه خدم القضاء ٢٣ سنة كان فيها مثال النزاهة واستقلال الفكر والشجاعة الادبية لا يراعي في الحق صداقة ولا قرابة ولا مقاماً



ش ٨٠ : بشاره الخوري

المحسن السوري الشهير

ولد سنة ١٨٣٨ وتوفي سنة ١٨٩٨

الاغنياء كثيرون في الارض ولكن المحسنين منهم قليلون . واقلّ من هولاء من جمع منهم بين الغنى والاحسان والتقوى والمرحوم بشاره الخوري قد اضاف الى هذه الفضائل حسنات يندر اجتماعها في رجل واحد كالدعة واللطف وحب السلام والشهامة والغيرة وحسن الطوية فضلاً عن النشاط والسهر على العمل والعصامية فانه جمع ما جمعه من المال بجده واجتهاده كما يتضح ذلك من ترجمة حاله

ولد رحمه الله في عكاء سنة ١٨٣٨ من اسرة كريمة نشأت على التقوى والبر فربي في الفضيلة منذ نعومة اظفاره ثم حدث في سوريا ما حمل تلك العائلة على المهاجرة الى القطر المصري فنزلت الاسكندرية وكان صاحب الترجمة لايزال غلاماً وقد احسن القراءة والكتابة فمال الى التجارة فعمل في بعض المحلات التجارية بصفة

كاتب فلم تمضِ مدة حتى اكتسب شهرة بين التجار بالاستقامة فتهافتوا على استخدامه ولكنه ابى الا الاستقلال بالعمل لحسابه فافتتح محلاً لنفسه فاكتسب ثقة الناس واستمال قلوبهم بحسن معاملته حتى صار مثلاً بالصدق والاستقامة وطبيعي ان من كانت هذه خصاله لا بد من نجاحه فربح اموالا طائلة واتسعت ثروته بما اكتسبه من مقاولات عقدها مع الحكومة المصرية فغلبت عليه القناعة ومال الى الراحة والتفرغ الى المبرات فاعتزل التجارة ونزح الى بيروت ولم يفتر منذ اقامته هناك عن بذل الاموال في سبيل المشروعات الخيرية والادبية وانتظم في جمعية القديس منصور ثم تولى رئاستها وهي من اعظم الجمعيات الخيرية في بيروت ثم تولى رئاسة الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك هناك نحو ١٥ سنة ولم تقتصر حسناته على سوريا وجمعياتها ومدارسها لكنها بلغت الى وادي النيل فبذل الاموال الطائلة في تنشيط المشروعات الخيرية على اختلاف مواضيعها بقطع النظر عن المذاهب والطوائف.

ومما يذكر من حسناته المأثورة انه لما احترقت الاسكندرية سنة ١٨٨٢ اثناء الثورة العرابية كان للمترجم في الاسكندرية مخازن مملوءة بالارزاق فلم تمسها النار مع انها التهمت كل ما جاورها فعدّ الناس ذلك نعمة خصوصية نالها هذا الرجل لتقواه وحسن نيته فلما اخذ مهاجرو المصريين بالعود الى بلادهم وقد اصابهم ضنك مما تحملوا من تلك الثورة فتح صاحب الترجمة يده بالبذل والعطاء وفوض الى بعض الاصدقاء الانفاق على سفر اولئك المهاجرين من جيبه الخاص وتظاهر انه انما ينفق من اموال المحسنين و بلغ مقدار ما انفقه في ذلك العام ٢٥٠٠ جنيه

ومما يروي عنه رحمه الله انه لما اراد الاقتران قصد بعض مدارس البنات في بيروت فالتمس من الرئيسة ان ترشده الى اتقى تلميذاتها بقطع النظر عن حالها من الجمال او المال او غير ذلك مما يبحث عنه شبان هذا العصر فارشدته الى اتقاهن فتزوجها وعاش معها بالسلام والوفاق وولدت له اولاداً رباهم بخوف الله وغرس في قلوبهم حب الفضيلة وقضى ايامه ساعياً في القاء السلام بين اهل الخصام يضرب المثل باحسانه وحسن سريرته حتى توفاه الله في بيروت



ش ٨١ . السيد عبد الرحمن الكواكبي

ولد سنة ١٢٦٥ ﻫ وتوفي سنة ١٣٢٠ ﻫ

العظمة والشهرة صديقتان يغلب ان تتصاحبا فلاتكون احداهما بدون الاخرى. ولكنهما كثيراً ما تفترقان فتكون العظمة بلا شهرة والشهرة بلا عظمة . فترى بين اهل الشهرة الواسعة من اذا لقيتهم وسبرت غورهم رأيتهم كالطبل يدوي صوته الى بعيد وجوفه فارغ . وانهم انما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل الى نشر محامدهم في الصحف ليقرأها الناس ويتحدثوا بها . وقد ينفقون المال ويتحدون اوعر اسباب السعي في هذا السبيل . وترى بينهم من لا محمدة له فينتحل محامد غيره او تكون له حبة منها فيجعلها قبة . فاذا نشر ذلك عنه في صحيفة او نشرة او

كتاب حمله وطاف به في الاهل والاصدقاء يترنم بقراءته عليهم ويتلذذ بما يلقى من آيات الاعجاب وخصوصاً في هذه البلاد — بلاد المجاملة التي يزداد فيها المغرور غروراً اذ لا يسمع من الناس الا اطراء واعجاباً ولو كانت حاله تدعو الى التقريع والتعنيف — ويعدون ذلك من اداب الحديث

فما كل شهير عظيم ولا كل عظيم شهير فكم بين ظهرانينا من رجال توفرت فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الاسباب لأتوا بالامور العظام . وقد تظهر مواهبهم من خلال اعمالهم وان ضاقت دائرة العمل . ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة لا يعرف اسماؤهم الا القليلون فاذا اصابهم سوء اذاع مريدوهم اخبارهم وتحدثوا بافضالهم

ومن هذا القبيل المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي فقد جاء مصر سنة ١٣١٨ هـ واقام في قلب العاصمة ومع سعة علمه وغزارة مادته لم يسمع بذكره احد ولا عرفه الا الاصدقاء والاخصاء . وهناك اناس يقصرون عن ادراك بعض منزلته علماً وفضلاً ولكنهم لا تطأ اقدامهم مصر حتى تتناقل الصحف اخبارهم بما ينشرونه فيها من نفثات أقلامهم او ثمار قرائحهم — وقد لا تكون تلك الثمار شهية — وانما يعمدون الى نشرها رغبة في الشهرة . فالكواكبي رحمه الله لم يكن من اولئك ولكن همه كان منصرفاً الى خدمة الوطن ونشر المبادي الصحيحة فيه بالتأليف والتلقين بعد ان قضى معظم العمر في خدمة الحكومة العثمانية في حلب وقاسى اموراً صعاباً من وشايات ذوي الاغراض . فلم يلق تربة تصلح لغرس مباديه فجاء مصر ونشر بعض كتبه فعاجله الاجل فمضى ومضت معه امانيه وهي شبيهة باماني المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وقد استهلك في سبيلها كما استهلك ذاك من قبله

(ترجمته) آل الكواكبي اسرة قديمة في حلب هاجر اليها اجدادهم منذ اربعة قرون ولهم شهرة واسعة ومقام رفيع في حلب والاستانة . يرجعون بانسابهم الى السيد ابراهيم الصفوي احد امراء اردبيل العظام . ولهم آثار مشهورة منها المدرسة الكواكبية في حلب . ونبغ منهم جماعة كبيرة من العلماء ورجال الادارة ومنهم فقيد

الامس السيد عبد الرحمن وقــد ولد في حلب سنه ١٢٦٥ هـ وابوه الشيخ احمد الكواكبي احد مدرسي الجامع الاموي الكبير

تلقى السيد عبد لرحمن مبادىء العلم في بعض المدارس الاهليه ودرس العلوم الشرعية في المدرسة الكواكبية واتقن العربية والتركية وبعض الفـارسية ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرهـا من العلوم الحديثة . وكان ميلاً من حداثته الى صناعة القلم فاشتغل في تحرير جريدة « فرات » التي كانت تصدر في حلب باسم الحكومة وهو في السابعة والعشرين من عمره . حررها خمس سنوات وانشأ في اثناء ذلك جريدة سماها « الشهبـاء » واشتغل بخدمة الحكومة فتقلب في عدة مناصب علمية وادارية وحقوقية واهل التقديذكرون فضله في كل واحدة منها كبيرها وصغيرها لان اقتدار الرجل يظهر في الصغائر كما يظهر في الكبائر . وكان حب الاصلاح وحرية القول والفكر باديتين في كل عمل من اعماله . فلم يرق ذلك لبعض ارباب المناصب العليـا فوشوا به فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من املاكه . فلم يقلل ذلك شيئاً من علو همته فغادر الوطن وطلب بلاد الله فجاء مصر ثم خرج منها سائحاً فطاف زنجبار والحبشة واكثر شطوط شرق اسيا وغربيهـا ثم رجع الى مصر

ومـا يذكر له ونأسف لضياع ثماره انه رحل رحلة لم يسبقه احد اليها ويندر ان يستطيعها احدٌ غيره . وذلك انه اوغل في اواسط جزيرة العرب فاقام على متون الجمال نيفاً وثلاثين يوماً فقطع صحراء الدهناء في اليمن . ولا ندري ما استطلعه من الآثار التاريخية او الفوائد الاجتماعية فعسى ان يكون ذلك محفوظاً في جملة متخلفاته. وتحول من هذه الرحلة الى الهند فشرقي افريقيـا ايضاً وعاد الى مصر وكان اجله ينتظره فيها

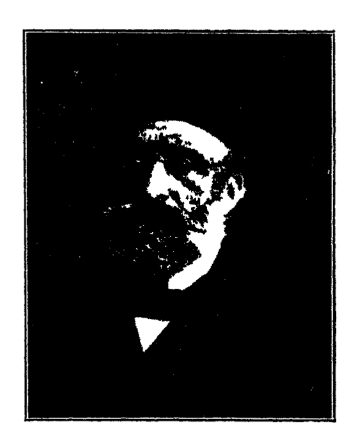
كان الكواكبي واسع الصدر طويل الاناة معتدلاً في كل شيء وكان عطوفاً على الضعفاء حتى سماه الحلبيون « ابا الضعفاء » وجاء في الرائد المصري انه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهـاره لرؤية مصالح الناس ويبعث الى

الحاكم من يأمنهم من اصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين

وكان واسع الاطلاع في تاريخ المشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع في علم العمران • والف كتباً لم ينشر منهــا الا كتاب « طبائع الاستبداد » وهو فريد في بابه قرظناه في الهلال . وكتاب « ام القرى » ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها فقد كان بعيداً عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء لانه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة

ومن يقرأ ترجمة الكواكبي والافغاني وغيرهما من رجال هذه النهضة ويدرس عالمهم والاحوال المحيطة بهم يعترف بفضلهم في نصرة الحقيقة وتأييد الحق والحرية





ش٨٢ : مدحت باشا (١)

ابو الاحرار

ولد سنة ١٨٢٢ وتوفي سنة ١٨٨٣

١ — نشأته الاولى

ولد مدحت باشا في الاستانة سنة ١٨٢٢ ووالده الحاج علي افندي اصله من روستشوك . نشأ مدحت في حجر ابيه ولم يتلقَّ من العلم في صباه الا المبادىء الاولية وكان يتنقل مع ابيه ويقيم حيثما اقام حتى استقر في الاستانة سنة ١٨٣٦ وشب هناك وفيه ذكاء وهمة . واهل الهمم والمطامع في ذلك العهد كانت تتوجه رغائبهم الى خدمة الحكومة فألحق مدحت اولاً بسكرتارية الصدارة العظمى في الاستانة وتنقل منها الى مناصب مختلفة في الولايات فاقام في دمشق سنتين ثم عاد الى الاستانه سنة ١٨٤٤ وبرحها الى قونية سكرتيراً لمجلس تألف تحت رئاسة سامي

(١) كان ينبغي ان تنشر ترجمته مع رجال السياسة ولكنها تأخرت سهواً

بكير باشا . وارتقى سنة ١٨٤٩ الى سكرتير ثاني لمجلس الولاية وفي سنه ١٨٥١ صار سكرتيراً اول له

واتفق ان قبرصلي محمد باشا قائد جند الشام اساء التصرف في بعض الشؤون المتعلقه بالاموال غير الاميرية في دمشق وحلب فاقتضت الحال انتداب من يتحرى الاسباب ويحكم بما يتراءى له فانتدبوا مدحت فسافر وبعد ستة اشهر عاد وقد نظم مسألة الجمارك هناك وردّ الى خزينة الدولة ١٥٠٠٠٠٠ ليرة عثمانية . واثبت اشتراك القائد المشار اليه في الاضطرابات التي حصلت واشار بعزله . واظهر مدحت في قضاء هذه المهمة ذكاء واقتداراً استلفتا انتباه الصدر الاعظم رشيد باشا فولاه منصباً هاماً في المجلس العالي فبقي في ذلك المنصب اثناء صدارة رشيد باشا وعالي باشا ورفعت باشا . وفي هذا المنصب عرف دخائل الامور واطلع على المخابرات المهمة التي دارت بين رفعت باشا وهو وزير للخارجية والبرنس منتشكوف مندوب قيصر الروس قبل حرب القرم

وفي سنة ١٨٥٤ افضت الصدارة الى قبرصلي محمد باشا الذي كان مدحت قد اشار بعزله عن الشام فاراد الانتقام لنفسه من ذلك الشاب الجريء فعهد اليه حل اعقد المسائل السياسية وادقها يومئذ وهي مسألة البلقان . وكانت ثائرة وقد تكاثرت فيها العصابات المتمردة فوكل اليه تسكين الثورة وتنقية البلاد من العصابات. فذهب في هذه المهمة ونجح فيها نجاحاً باهراً . ولما عاد من سفرته كان رشيد باشا قد رجع الى الصدارة ودارت المداولة بينه وبين عالي باشا بشأن منح الولايات العثمانية استقلالاً ادارياً decentralisation واخذ في وضع القوانين اللازمة لذلك . فقدم مدحت تقريره عن مهمته فاعجب الصدر الاعظم باقتداره فعقد له على اهم ولايات الطونه (بلغاريا) على ان يجرب فيها الاستقلال الاداري فحدث تغيير فجائي في الوزارة حال دون كل اصلاح

وتعين بعد مدة قصيرة مندوباً خصوصيًّا لتفتيش ولايتي ايدن وسيلسترية لانهما كانتا قد تمردتا على الدولة فقضى تلك المهمة كما قضى مهمة سوريا من قبل

واطلع بذلك على مواضع الضعف في نظام الولايات ورأى الخلل السائد فشكى الولاة فسعوا لدى الباب العالي في تبرئة انفسهم فامر السلطان عبد المجيد يومئذ باعادة النظر . وخاف العقلاء ان يتغلب الباطل فرفع خير الدين افندي احد العلماء المشهورين في الاستانة تقريراً ايـد به اقوال مدحت

وتوفي رشيد باشا سنة ١٨٥٨ وخلفه عالي باشا فاعطى مدحت اجازة ستة اشهر يقضيها سائحاً في اوربا يتفقد احوال دولها ويدرس نظام بعض الادارات الاوربية. فسافر وهو في السادسة والثلاثين من عمره فزار باريس ولندن وفينا وبروكسل. وامتاز بين رجال الدولة من ذلك الحين بمهارته الخصوصية في تدبير شؤون الولايات فلا تحدث ثورة او اضطراب اوخللٌ في ولاية ويحتاجون الى من يصلحها الا انتدبوه لذلك

فانتدب مرة اخرى لتدبير شؤون بلغاريا وكان اهلها المسيحيون قد خافوا على حياتهم واموالهم فاخذوا يهجرونها بعائلاتهم واموالهم والجند لا يستطيع منعهم . فعهد بذلك الى مدحت ومنح رتبة الوزارة (١٨٦١) فسافر وفي عزمه ان يصلح الامور بالمسالمة فحالما وصل الى بلغاريا بعث الى اعيان البلاد وجمعهم في مؤتمر عرضوا فيه شكواهم فطلب اليهم ان يشتركوا معه في اصلاح الحالة . وكانت تشكياتهم ترجع الى امرين رئيسيين : الاول خلو البلاد من وسائل النقل والمخابرات التي تساعد الاهالي ولا سيما المزارعين على نقل حاصلاتهم وتصريفها . والثاني شيوع اللصوصية والعصابات المتمردة حتى اصبح الناس لا يأمنون على ارواحهم ولا اموالهم. ولهذين السببين فضل البلغاريون الهجرة الى بلاد السرب لانها اقرب الى الامن فرأى مدحت انهم محقون في شكواهم فاخذ يبحث مع اولئك الاعيان في سبل الاصلاح واشار عليهم ان يستخدموا نفوذهم اولاً في ايقاف الناس عن المهاجرة وعاهدهم على اصلاحات وافقوه عليها . وقد بر بوعده فاعاد الجند الى معسكراتهم واخذ في تنظيم الطريق الاعظم بين نيش وصوفيا وفروعه الكثيرة . و بذل جهده في مطاردة العصابات وانشأ الجسور وغيرها و بالجملة لم يغادر أمنية يحلم بها البلغاريون

الا حققها لهم . واقام خطاً عسكرية على الحدود تمنع تعدي السربيين . فلما تمت هذه الاصلاحات عادت العائلات البلغارية من مهاجرها الى مواطنها . وادخلت اصلاحات كثيرة أثرت في اخلاق القوم وعاداتهم . وألف فرقة الجندرمة ونظم تحصيل الضرائب ومنع الاضطهادات الدينية وانشأ المدارس والمستشفيات للبلغاريين بلا تمييز بين اديانهم او طبقاتهم . فاستتب الامن وتعاقد القوم على السعي في مصلحة بلادهم

٢ — تنظيمه اعمال البلقان

ان ما ادخله مدحت باشا من الاصلاح في بلغاريا وفي ايدن وسليسترية وقع وقعاً حسناً لدى الباب العالي في صدارة فؤاد وعالي خليفتي رشيد باشا . فاستقدماه الى الاستانة سنة ١٨٦٤ للمداولة في نظام جديد يضعونه للولايات وقوانين يجري عليها الولاة . فاعدوا ذلك النظام وقرروا ان يعهد الى مدحت بتنفيذه في ولايات سيلسترية وايدن ونيش على ان تتحد كلها باسم ولاية الطونه (١٨٦٥) رغم مقاومة حزب التقهقر بايعاز سروري افندي — ولهذا الرجل شأن في الحكم على مدحت سيأتي ذكره

وخلاصة النظام المشار اليه قسمة الولاية الى سبعة سناجق ويقسم السنجق الى اقضية والقضاء الى نواحي وفي كل ولاية مجالس خصوصية لوضع الاموال الاميرية وجمعها وتولى مدحت هذه الولاية على هذا الطرز . والغى السخرة ومهد ٢٦٠٠٠ كيلو متر من الطرق وبنى ١٧٤٠٠ جسر وانشأ سفناً تجري في الطونه (الدنوب) عليها العلم العثماني وابطل اللصوصية ونظم جندرمة وانشأ مصارف وطنية لتسليف فقراء المزارعين

وقاعدة هذا النظام اشتراك الاهالي في تدبير شؤون بلدهم مع الحكومة في تقدير الاملاك وتعيين خراجها فلا يحصل فيها حيف . فباتت تلك الولاية بسعادة استلفتت انظار اهل الاستانة الى مدحت فجاءته التهاني من المابين والباب العالي . وصدرت الاوامر الى سائر الولاة في المملكة العثمانية ان يجعلوا نظامات ولاياتهم

مثل نظام مدحت في ولاية الطونه فتوسم الناس مستقبلاً مجيداً لهذه الدولة

وانتبه مدحت ايضاً الى امر ذي بال كان سبباً في اكثر متاعب الدولة في البلقان وذلك ان بعض البلغاريين كانوا يرسلون ابناءهم للتخرج في جامعات اودسا او خركوف او كيف وكلها في بلاد الروس فكانوا يتشربون حب الجنس السلافي ويعودون لبث تلك الروح في الاهالي فيثيرون التعصب الجنسي او الديني فيعود ذلك بالقلاقل والمتاعب على الدولة . فارتأى مدحت ان يتلافى ذلك بانشاء المدارس العالية في الولاية نفسها بحيث يغني الناس عن ارسال ابنائهم الى الخارج فضلاً عن تالف الشبان على اختلاف مذاهبهم اذا شبوا في مدرسة واحدة وتربوا تربية واحدة. ورفع بذلك لائحة للباب العالي وقسم النفقات اللازمة لهذا العمل الى نصفين النصف يؤخذ من فضلات الخراج في الولاية والنصف الاخر يكتتب به الاهالي

فلما وصلت هذه اللائحة الى الاستانة علم بها اغناتيف سفير روسيا هناك فقاومها بكل قوته لانها تخالف الترتيب الذي رتبه الروس لتحويل قلوب البلغاريين عن دولتهم و بذل جهده في ايغار صدر السلطان عبد العزيز على مدحت فاوهمه ان الخطة التي يتحداها في الولايات تنافي سيادة الخليفة المطلقة وتأول الى تشتت شمل المملكة العثمانية باستقلال كل ولاية بشؤونها . فلم يصغ السلطان لوشايته في بادىء الرأي لكنه وفق الى غلطة وقعت في لائحة نشرها مدحت في الجريدة الرسمية يطلب فيها تعيين اعضاء مجلس الاهالي المشتركين مع الحكومة في تدبير شؤون الولاية فسماهم « نواب » ولم يغفل اغناتيف عن تنبيه ذهن السلطان الى ذلك فاقتنع بسوء عاقبة تلك البدع وابى المصادقة على طلب مدحت تجنباً للنفقة ولم يذكر السبب الحقيقي

فذهبت اعمال مدحت في سبيل الاصلاح ادراج الرياح وايد اصحاب اغناتيف غرضه باستنهاض بعض العصابات في البلقان للتعديات ونحوها . فما احس مدحت الا وقد ظهرت عصابات فتكت بالمسلمين وقتلت اطفالاً من الرعاة فنهض المسلمون لمثل هذا العمل في المسيحيين . فركب مدحت بنفسه وقبض على بعض

المتمردين من النصارى فوجد باستنطاقهم انهم رسل من جمعية السلاف في بوخارست وفي كشنو فحكم المجلس على الروساء بالاعدام وعلى الاخرين باحكام اخرى فانقضت الثورة وعادت السكينة . على ان جرائد اوربا شددت النكير على تصرف القضاء العثماني في هذا السبيل وعدوا احكامه بربرية ونسبوها الى مدحت فبرأ نفسه . لكنهم لم يعدموا وسيلة اخرى لنكايته وذلك انه سمع برسل سرية قادمة من غلاتز الى بلغراد لدس الدسائس واعداد مشاكل جديدة فقبض عليهم على ظهر باخرة نمساوية عند روستشوك وبعث صورتهم الى قنصل النمسا وطلب اليه ان يأذن بفحص تذاكرهم واخذت الضابطة العثمانية في تفتيشهم ومعها مندوب من القنصلاتو النمسوية فاطلق احد الرسل مسدساً على الضابطة في قاعة السفينة فاجابهم العثمانيون والتحم الفريقان وانجلت الواقعة اخيراً عن القبض على اولئك الدساسين وقد جرحوا جراحاً بليغة

فكان لهذه الحادثة دويٌّ في اوربا واتخذ اغناتيف ذلك ذريعة لطلب اقالة مدحت فلم يفلح فاخذوا يسعون في قتله سرًّا فاطلق عليه احدهم في روستشوك رصاصة اخطأته . وحاول سربي قتله ففشل ولما قبض عليه وسئل عن سبب عمله قال ان اثنين من كبار السرب اغروه على ذلك فحوكم الرجل وعوقب

وبعد هذه الحوادث بقليل (١٨٦٨) استدعي مدحت الى الاستانة ليتولى رئاسة مجلس انشأوه حديثاً فاتاها ولكن وقع اختلاف في الرأي بينه وبين عالي باشا الصدر الاعظم في بعض الشؤون فاعتزل مدحت باشا الرئاسة على ان يتولى ولاية بغداد سنة ١٨٦٩

٣ — اصلاحاته في ولاية بغداد

شخص مدحت الى بغداد فوجد فيها من المشاكل غير ما في ولاية الطونه اعني مسألة التجنيد . وكانت من المشاكل الصعبة لان القبائل العربية التابعة لولاية بغداد لم تكن ترضخ لحكم التجنيد . وكانت يومئذ قد تمردت على الدولة حتى عجزت عن احصاعها لتفرق الكلمة بين والي بغداد ومشير جندها . ولم يكن

اخضاعها ممكناً الا اذا كانت القوتان العسكرية والادارية في يد واحدة فاخذ مدحت على نفسه الجمع بين القوتين وعزم على اخضاع الثائرين بالقوة ولم يكلفه ذلك الا الحزم والشدة فاذعن الثائرون صاغرين بسرعة ادهشت الباب العالي فسماه مشير الفليق السادس ووالي بغداد

وكان الولاة قبله يقاسون في تحصيل الضرائب من اولئك العرب عذاباً شديداً فتحدى الشدة في تحصيلها بقوة الجند وقد افلح . ولكنه اعمل فكرته في حال اولئك البدو فوجد اذلالهم بالقوة يفضي الي تجديد التمرد فرأي ان يتخذ في اخضاعهم طرقاً اخرى فعمل على تعيير نظام ملكية الارضين فيهم . وذلك ان الفلاح العربي كان يدفع للحكومة اجرة الارض التي يستثمرها وثلاثة ارباع غلتها وفي ذلك حيف عليه فقسم مدحت الارض الى قطع عرضها للبيع بشروط سهلة فلم تمض مدة يسيرة حتي ذاق ثمر ذلك العمل اذ تكاثر دخل الحكومة وقلّ تمرد العربان وزادت غلة الارض فزادت حركة الاعمال الاخرى . وكان من نتائج ذلك تسيير السفن في دجلة والفرات وتسهيل المواصلات بين المدن القائمة على ضفافهما

وكانت ادارة السفن هناك بيد شركة انكليزية تشتغل بين بغداد والبصرة فالف مدحت شركة عثمانية ورمم السفن القديمة واوصى على سواها واختزن لها الفحم في مسقط وعدن وبندر عباس و بو شهر . وكانت هذه السفن اول سفن عثمانية عبرت قنال السويس الى الاستانة . فرأى مدحت نجاح ذلك العمل فوسعه واوصل تلك البواخر شمالاً الى آخر ما يستطاع من شواطيء النهرين فعمر كثير من البقاع واتسعت الارض المزروعة . وعزم على ردم البقاع التي كان قد أغرقها الفيضان فعلقت الامال ان يعود العراق الى خصبه في الدولة العباسية

وأنشأ مدحت خط ترمواي بين بغداد والكاظمية طوله سبعة كيلو مترات وابتنى معملاً للنسج تام الادوات وأنشأ المدارس في كل قضاء وشاد المستشفيات والملاجيء . فتكاثرت البيوت المالية كالمصارف ونحوها . وانشأ مطبعة تطبع فيها

جريدة الزوراء الرسمية وشكل مجالس بلدية في أهم المدن . وا كتشفوا في اثناء ولايته منجماً للبترول فسهل الانتفاع به . فتقدم العراق على يده تقدماً مدهشاً وقدم شاه الفرس سنة ١٨٧٠ لزيارة النجف وكربلاء مزار الشيعة فاغتنم مدحت تلك الزيارة وقرر أشياء كانت محل نظر بين الدولتين وفي جملتها تعديات الأكراد على مايمرون به في طريقهم على تركيا . فاتفقت الدولتان على انشاء نقط عسكرية عند الحدود على نحو ما فعل عند حدود السرب من قبل . وبلغه ان في بعض مزارات الشيعة بنجد كثيراً من الجواهر والتحف اجتمعت هناك من هدايا الهنود والفرس ولا فائدة من اختزانها فاشار مدحت باستخراجها و بيعها وهي تساوي نحو ١٣٠٠٠٠٠ ليرة عثمانية على ان تصرف في انشاء خط حديدي بين حدود ايران و بغداد او باقامة المستشفيات والمدارس وغيرها فابى علماء الشيعة عليه ذلك فاغفل المشروع

وجملة القول لم يذخر مدحت وسيلة لاحياء العراق اقتصاديا واداريا وادبياً فضلاً عن تحسن العلائق مع الامم المجاورة من ذلك انه حمل مشائخ الكويت على الاعتراف برعاية الدولة العثمانية بعد ان امتنع ذلك على سلفه نامق باشا . والكويت تبعد عدة اميال من البصرة على شاطيء نجد . وهي فرضة تجارية تحكمها اسرة الصباح واصلهم من نجد لايداخل في شؤونهم احد وهم يتعاطون التجارة البحرية مع شواطيء الهند وفارس وافريقيا واحتكروا مغاوص اللؤلؤ في البحرين وكانوا ينصبون على سفنهم علماً خاصاً بهم وربما نصبوا علماً هولاندياً انكليزياً لغرض من الاغراض . فما زال مدحت يخابرهم بالحسنى حتى قبلوا برفع العلم العثماني على شرط الاستقلال بادارتهم وسائر شؤونهم الداخلية فاصبحت الكويت من ذلك الحين سنجقاً من سناجق ولاية بغداد . وفعل نحو ذلك بنجد وغيرها والبحرين مما يطول بنا بسطه . وفي كل عمل منه دليل على علو همة مدحت باشا ورغبته في تأييد الدولة العثمانية

فزادت واردات العراق وتعددت السفن العثمانية التي تمخر في تلك البحار ولم يكن للدولة هناك قبل فتح قنال السويس الا دارعتان قد افسدهما الاهمال فاصلحها

في بباسيے وأضاف اليهما سبعاً أخر وعشراً لسلك الانهر ووسع مرفأ البصرة . فاعترفت له الدولة بالفضل بكتاب جاءه من الصدر الاعظم عالي باشا مؤرخاً سنة ١٨٧١ يثني فيه على همته لتسهيل طريق الحرمين وارسل اليه السلطان سيفاً مرصعاً وقد نقش عليه كلمة « نجد »

واتفق في اثناء ذلك ان الاستانة تبدلت احوالهـا بموت رجليها فؤاد وعالي وبينهما ثلاثة اشهر وكانا زعيمي الاصلاح ينصران مدحت في مطاليبه واقتراحاته فاتفقت وفاتهما على اثر عودة السلطان عبد العزيز من سياحته في اوربا . ولم تكسبه تلك السياحة شيئاً من رغبة ملوك اوربا في الاحكام الدستورية والرجوع الى الشورى لـكنها اكسبته التصريح بما كان يخالج ذهنه من كره المشيرين من الوزراء وعاد الى تكليف الماثلين بين يديه بمـا كان يكلفهم به اجداده القدماء . وتوسع من الجهـة الاخرى في النفقات الباهظة على الدولة وعلى نفسه فامر بابتناء للدوارع وانشاء القصور الرخامية على شاطيء البوسفور وهو لا يقدر للنفقات عاقبة وواقفه على ذلك الصدر الاعظم نديم باشا تملقاً له والتماساً للنفوذ عنده . ففسدت الاحوال وتبدلت النيـات وامتد ذلك طبعاً الى الولايات . ولما قلت الاموال في خزائن الاستانة بعثوا يطلبونها من الولايات ويلحون في طلبها ولو ظلموا الاهالي في تحصيل الاموال مضاعفة . فآل ذلك طبعاً الى ايقاف المشروعات النافعة فيها فضاق مدحت ذرعاً عن احتمال ذلك فاستقال من ولاية بغداد ورحل الى الاستانة

وعلم حال وصوله اليها ان الارادة صـدرت بتعيينه والياً على ادرنة فعدّ ذلك نفياً لا ولاية فطلب مواجهة السلطان فاذن له وانطلق لسانه في تلك المقابلة فأفاض بما يكنه ضميره من الانتقاد على الحـكومة وبين ضعف الدولة والخطر المحدق بها. فأثرت أقواله في السلطان حتى عزل الصدر الاعظم نديم باشا وولى مدحت مكانه سنة ١٨٧٣ فوجد حوله اعواناً نشيطين اهل نزاهة منهم رشدي باشا الشرواني وجميل باشا وصادق باشا فشرع قبل كل شيء بتنظيم المالية وهو عمل شاق لاختلال الحسابات وسوء ادارتها وكثرة التلاعب فيها

فاخذ في تحقيق كل حادثة ومن جملة ذلك مبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه خرجت من الخزينة ولم يعرف مصيرها ثم ثبت انها دخلت على الصدر السابق نديم باشا . فطولب بها رسمياً بين يدي المجلس فادعى انه انما أخذها ليدفعها الى القصر السلطاني ثم سعى نديم بمساعدة والدة سلطانة واصدقائها في المابين حتى أفسد وانية السلطان على مدحت فامر بنفيه الى ادرنة ومنها الى طرابزون وعاد نديم الى نفوذه . فانقسم رجال الدولة الى حزبين احدهما مدحت ومريدوه الاحرار وفيهم جماعة كبيرة من العلماء وكل الشبيبة العاقلة في الاستانة والولايات . والحزب الاخر نديم ووالدة سلطانة ورجال المابين . ومن اكبر أنصار هذا الحزب اغناتيف سفير روسيا بالاستانة وكان له نفوذ في المابين . ومما جعل السلطان ينفي مدحت أيضاً تصديه لنقد أعمال جرت على يد سلفه وفيها خسارة على الخزينة ومن جملتها امتياز سكة حديدية أعطي للبارون هرش افسد مدحت العقد به

٤ — خلع عبد العزيز

غاب مدحت عن الاستانة بضعة اشهر قضاها في سلانيك ثم عاد الى الاستانة وتولى فيها وزارة العدلية ورئاسة مجلس الشورى لكنه اضطر الى الاستقالة لانه رأى الوزارة سائرة على طريق يؤدي الى خراب الدولة . وقد بين ذلك بكتاب بعث به الى سكرتير السلطان (الباشكاتب) في شوال سنة ١٢٩١ (سنة ١٨٧٤) واعتزل الاعمال ولجأ الى منزل له بجوار الاستانة اقام فيها يترصد تبدل الاحوال فلم يرها تزداد الا فساداً وخللاً وكثر تبديل الصدور فلا يقيم الصدر منهم الا بضعة أشهر . وممن تناوبوا الصدارة في ذلك العهد محمد رشدي باشا وشرواني رشدي باشا واسعد باشا ولم يستطيعوا اصلاحاً ولم يرض بالحالة كما هي الا محمود نديم باشا فتولى الصداوة والمالية في ضيق لا مثيل له . ومع أن الدولة لم تكن دخلت في الدين الاهلي الا منذ عشرين سنة فقد هددها الافلاس وشعر بذلك الخطر أصدقاء الدولة من الدول الاخرى وصرحوا به على منابرهم وأشار بعضهم بالمداخلة في شؤونها فخاف عقلاء الأمة عاقبة هذا التصريح



ش ٨٣ : السلطان عبد العزيز

وحدث في صدارة أسعد باشا مناوشة على حدود الجبل الاسود آلت بالاهمال الى فتنـة أو ثورة عامة . وكان أسعد باشا حسن النيـة لـكنه ضعيف الرأي ساء التصرف وأظهر الضعف لدى الدول فزادت الثورة سعيراً و توسطت روسيا والنمسا فأقيل أسعد وخلفه نديم باشا سنة ١٨٧٥ ولم يستطع هذا اخماد الثورة . فما زالت تنتشر حتى بلغت حدود البلغار وأحس البرنس ميلان صاحب السرب بضعف الدولة فطلب أن تتحول امارته الى مملكة وأخذ يهيء معدات الحرب عندالحاجة وفعل نحو ذلك الهرسك . وفي أوائل السنة التالية تضاعف الخطب بثورة البلغار وكان الجنرال اغناتيف لا يترك فرصة في اثناء ذلك لم يغتنمها لتمشية أغراضه فتفاقم الخطب وساد الاضطراب في المملكة العثمانية واصبح العقلاء ينظرون الى هـذه الحالة نظرة اليأس . فدخل ربيع سنة ١٨٧٦ و بلغاريا والجبل الاسود والهرسك تتقد بنيران الثورة والسرب قد تهيأت للحرب بقيادة ضباط من الافرنج . وهمت رومانيا

بان تقتدي بها • والصدر الاعظم يصغي الى دسائس اغناتيف فينقلها الى السلطان وهذا لاهمّ له الا الانغماس في ملذاته • والدول الاوربية من الجهة الاخرى فتحت المسألة الشرقية وطلبت الاجتماع للنظر فيها وأخذت المذكرات والمفكرات تتساقط على المابين كتساقط المطر • ولم تكن تلك الاحتجاجات الخارجية أقل خطراً على الدولة من الاضطرابات الداخلية



ش ٨٤ : رشدي باشا

ففي هذه الظلمات المدلهمة انبثق نور ضعيف من منزل مدحت باشا مجتمع عقلاء الاحرار . وكان مدحت في اثناء تلك الاضطرابات يفكر في وسيلة لانقاذ الدولة وقد لقي سفير انكلترا واسرّ اليه رأيه في جعل الحكومة العثمانية دستورية لانها اذا ظلت سائرة على هذه الخطة ذهبت الى الدمار لا محالة . واظهر امله ان انكلترا تاخذ بيده في تاييد هذا الطلب وانه انما يقتدي بها في هذا النظام لانها ام الدول الدستورية . فاجابه السفير جواباً مبهماً لكنه شجعه على عادة رجال السياسة في مثل هذه الحال . وعقب هذه المحادثة تجمهر العلماء (الصفتاء) وتصديهم للبرنس يوسف

عز الدين بن السلطان في طريقه الى نظارة الحربية وتقدموا اليه ابلاغ والده ان الشعب يطلب عزل محمود نديم الصدر الاعظم وحسن فهمي افندي شيخ الاسلام. فاجاب السلطان هذا الطلب فعزلهما وولى محمد رشدي باشا للصدارة وحسن خيرالله افندي للمشيخة . وكان رشدي شيخاً طاعناً في السن واكثر مدحت من التردد اليه ففهم القوم ان هذه الصدارة سيديرها مدحت فاستبشروا ولكن فرحهم لم يطل لان السلطان عين في فروع الادارة اناساً من الطاقم القديم والناس لا يزدادون بذلك الا طلباً للدستور على لسان العلماء . واذاعوا على رؤوس الملا ان تعاليم القرآن تأمر بالشورى ومن خالفها لا تجب طاعته . فاصبح مركز السلطان في خطر وما زالوا حتى خلعوه

٥ — كيف خلعوه

والعامل الرئيسي في خلعه حسين عوني باشا وزير الحربية وكان جندياً شجاعا وهماماً حازماً شديد الغيرة على دولته مع حدة في مزاجة ومضاءٍ في عزيمته . وكان قد تولى ارقى المناصب العسكرية ثم نفاه السلطان عبد العزيز من الاستانة — وكان يكره محمود نديم ويخافه ولم يكن يدرك حقيقة الحكومة الدستورية كما ادركها صديقه مدحت لكنه كان كثير الاعتماد على آرائه . وتبادل الوزراء الافكار فاقروا على خلع السلطان ولكي يكون خلعه شرعياً استفتوا شيخ الاسلام حسن خيرالله افندي فافتاهم بالخلع وهذه صورة الفتوى :

« اذا كان زيد الذي هو امير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام في الامور السياسية وما برح ينفق الاموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد اخل بالامور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضراً بها فهل يصح خلعه ؟ الجواب يصح كاتبه الفقير حسن خيرالله

فلما حصل الوزراء على هذه الفتوى اسرعوا في تنفيذ قرارهم وقام بتدبير ذلك عوني ورشدي ومدحت . واختلف مدحت وعوني في اسلوب الخلع فكان مدحت يرى ان تصادق الامة على الخلع اولاً . واما عوني فكان يرى ان الخلع يجب ان يكون

حالاً على عادة العسكرية في سائر احكامها . فاشار مدحت ان يجتمع العلماء واعيان اسطانبول في مسجد نور عثمانية يبدون اسف الامة ويطلبون ابدال النظام الحالي . فوافقه على هذا الرأي اكثر الوزراء وعينوا لتنفيذ القرار يوم ٣١ مايو وكادوا يعملون به . لكن طرأ امر اوجب الرجوع الى رأي عوني — وذلك ان امرأة من نساء يلدز اتت مدحت في ٣٠ من الشهر المذكور واخبرته ان موءامرتهم كادت تنكشف للسلطان . فخاف مدحت العاقبة اذا لم يبادر الى العمل وتحقق قول المرأة لان السلطان دعا عوني باشا اليه مرتين في ذلك النهار مع انه ادعى المرض فلم يقبل السلطان عذره . فاقر الوزراء على المبادرة في تلك الليلة الى خلعه ففي منتصف ليل ذلك اليوم خرج رشدي ومدحت وبين يدي كل منهما خادم يحمل فانوساً والليلة ممطرة حتى اتياسركجي فركبا قارباً الى باشا ليماني حيث يقيم عوني باشا على البوسفور . وكان عوني في انتظارهما على احر من الجمر فتفاوضوا وافترقوا وذهب عوني نحو سراي طولما بغجه وسار رشدي ومدحت الى السر عسكرية . وكانوا قد قرروا ان يجتمع كبار الموظفين الملكيين والعسكريين في ساحة السر عسكرية ينتظرون مجيء السلطان مراد . وكان عوني مكلفاً باستقدامه . وانهم عند وصوله يبايعونه وينادون باسمه سلطاناً وان يشعلوا ناراً على برج السر عسكرية يعلم منها اهل الاسطول في البحر بتنصيب السلطان الجديد فتطلق الدارعة (احمد باشا) المدافع ايذاناً بذلك

فمشى عوني الى السراي حيث التقى بسليمان باشا احد مشيري الجند وكانا قد تواعدا ليتعاونا على تدبير امر الخلع . وكان سليمان من اقرب اعوان عوني وانجد انصار مدحت . وكانت الجنود المقيمة في طاش قشله وغيرها قد تلقت الاوامر من رديف باشا قومندان فيلق الاستانة ان تكون على الاهبة لمنع اي اقتراب من جهة البر وكان الاسطول بقيادة ناظر البحرية نفسه قيصرلي احمد باشا وقد اعطى الاوامر بقطع الطريق عن القصر من جهة البحر . واصطحب سليمان نخبة من رجاله الذين يثق باماناتهم و بسالتهم تحت قيادة الضباط احمد بك وبدري بك ورفعت بك . وبعد

ان رتب هذا الترتيب توجه الى قصر البرنس مراد . وكان مراد عالماً بما اعدوه وعزموا عليه لكنه لم يعلم بتقديم الميعاد المضروب فلما جاء سليمان في تلك الليلة وطلب اليه ان يخرج معه الى عوني وانه ينتظره بباب القصر ليرافقه الى السر عسكرية حسب الموعد ظن في الامر دسيسة . على انه ما لبث ان تحقق الواقع فاطاعهما وسار معهما في طريق السر عسكرية

اما سليمان فتقدمهما لاتمام المهمة الكبرى التي لا بد منها قبل كل شيء وهي تبليغ السلطان عبد العزيز الخلع . فلما اتى القصر السلطاني (طولمه بغجه) اعترضه الخدم فاجابهم انه يطلب مقابلة السلطان لامر هام فاخذوه اليه . فبلغه سليمان ما جاء من اجله وقرأ عليه الفتوى بخلعه فغضب السلطان وانتهر سليمان ولكنه ما عتم ان سمع المدافع تطلق من الدارعة (احمد باشا) فتحقق وقوع القضاء وادرك حقيقة مركزه وسلم نفسه لسليمان فابلغه انه مكلف بنقله من سراي طولما بغجه الى سراي طوب قبو ليقيم فيها

وعند ذلك نودي بالسلطان مراد سلطاناً فاقر الوزارة كما هي واضاف الى حاشيته الخصوصية كمال بك وايا الضيا بك وكلاهما من كبار انصار الحرية والدستور . وبوجودهما في الحاشية يأمن الوزراء من الدسائس التي تعوّد المفسدون نقلها الى السلطان

وطبيعيٌّ ان الاحرار لم يدبروا هذا التدبير الا وقد اخذوا على السلطان مراد المواثيق ان يعلن الدستور الذي اعده مدحت ورفاقه . فكادت تتحقق آمال الاحرار ولكن حال دون تلك الامنية عارضٌ أوقفها دهراً طويلاً . وذلك ان عوني باشا لحظ في السلطان مراد في الليلة نفسها التي رافقه فيها من قصره انه مضطرب واصابته نوبة عصبية . وبعد الاحتفال بمبايعته في اثناء رجوعه الى سراي طولمه بغجه زادت فيه الاعراض العصبية وكان معه مدحت باشا فرأى من الحكمة ان لا يفارقه فمكث معه ثلاثة ايام واستشار الاطباء فاشاروا بعلاج وحمية ولم يكبروا العلة فاتفق في اثناء ذلك حادثتان ازعجتا السلطان وزادتا علته وهما :

٦ — موت عبد العزيز

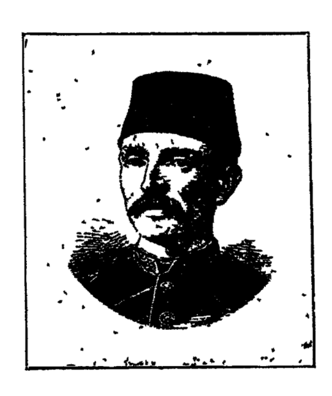
الاولى موت عبد العزيز : وذلك ان هذا السلطان اقام بعد خلعه خمسة ايام. وفي صباح ٥ يونيه طلب من خادمه الخصوصي فخري بك مقراضاً ليقلم اظافره ويصلح لحيته . فتردد حيناً في اجابة طلبه ثم عرض الامر على والدة سلطانة فامرت ان يعطى المقراض الذي يطلبه . واتفق بعد حين ان بعض الحاشية اشرفن من احدى النوافذ على المكان الذي كان عبد العزيز فيه فرأينه جالساً على كرسي وظهره محوّل ورأسه مدلى الى الامام فاسرعن الى الباب فلم يستطعن فتحه وظنن سوءاً فانبأن والدته فامرت بخلع الباب فدخلوا فرأوا عبد العزيز ميتاً وقد نزف دمه من جرحين في ذراعيه ورأوا المقراض بجانبه الايسر كانه استخدمه بيمناه لقطع اوعية اليد اليسرى ثم اراد استخدامه باليسرى لقطع اوعية اليد اليمنى فلم تسعفه قواه ان يتم العمل جيداً

فاستقدموا الاطباء حالا فاثبتوا انه ميت وخاف الوزراء العاقبة فامروا بلجنة من الاطباء تتولى فحص الجثة فاجتمع ١٧ من امهر اطباء الاستانة فاقروا بالاجماع ان الموت انما كان بالانتحار ولا يمكن ان يكون بسواه وكتبوا بذلك شهادة مؤرخة في ٤ يونيو سنة ١٨٧٦ ثم دفنت الجثة في مقام السلطان محمود بعد غسلها. فلما بلغ السلطان مراد خبر هذه الفاجعة اثرت على اعصابه تأثيراً كبيراً

٧ — واقعة حسن الشركسي

ثم وقعت حادثة حسن الشركسي فاتمت عليه — وكان حسن هذا من ياوران عبد العزيز واراد عوني ابعاده فامره بالسفر الى بغداد ليلحق بجندها فابى واخذ يشيع اتهام عوني بقتل السلطان كما اتهم بخلعه فامر عوني بالقبض عليه وسجنه . فارسل حسن بعد يومين يقول انه مستعد لاطاعة اوامره بالسفر الى بغداد لكنه يستأذنه في البقاء بضعة ايام بالاستانة ليتاهب للرحيل فاذن له . ففي يوم ١٥ يونيو وهو اليوم المعين لسفره ذهب الى بيت عوني وطلب مقابلته بالحاح فقالوا انه سار الى منزل مدحت باشا للاجتماع بسائر الوزراء فذهب الى اسطانبول فنزل في مطعم

تنــاول فيه بعض الخمر ثم تحول الى منزل مدحت في طوخان طاش فوصله نحو الساعة العاشرة وقـد اجتمع الوزراء وهم عشرة ومعهم شريف مكة وقـد هموا بافتتاح الجلسة



ش ٨٥ : حسن الشركسي

دخل حسن الدار كما يدخل صاحب المنزل الى منزله فساله الحرس عما يريده فقال انه مسافر في الغد الى بغداد وعنده امور هامة يريد عرضها على السرعسكر عوني باشا قبل سفره فاجابه الحارس ان ذلك لايتأتى الا بعد انفضـاض الجلسة . فوقف حسن ريثما غافل الحرس ووثب الى السلم وتسلقه ليدخل الى قاعة الجلسة فمنعه خادم مدحت ونادى خادم عوني باشا ليشتكي هذا الشركسي لرئيسه . فصعد الخـادم لمقابلة عوني وتبعه حسن ليتحقق مجلس كل من الوزراء ولم ينتظر الاذن . فدخل وسلم سلاماً عسكريـاً ثم اشار الى عوني ان لاينتقل من مكانه واطلق عليه المسدس فاصاب صدره فتناثر الوزراء فراراً من القتل ولجاوا الى غرفة اخرى الا ناظر البحرية فانه حاول ان يقبض على ذراع حسن فافلت منـه وجرحه جروحاً

كثيرة في يديه ومنكبيه . وكان عوني لا يزال فيه رمق فنهض يطلب السلم فادركه حسن وطعنه طعنات عديدة وعاد الى القاعة وخاطب الصدر الاعظم وهو في الحجرة لاخرى قائلاً : « اني احتاج الى قيصرلي سلمه اليّ فلا اوذيك بشيء » . فلم يجبه فلما يئس ولم يظهر له احد جمع ابسطة القاعة وكراسيها واوقد فيها النار فادركه رجل من رجال مدحت باشا اسمه احمد اغا وطعنه في قفاه طعنة مميتة فاطلق عليه حسن المسدس في عينيه فاماته واطلق رصاصة ايضاً على ناظر الخارجية . قضى حسن في هذه المعركة نصف ساعة اجرى فيها مذبحة وهو فرد وهم جماعة وعاش الى اليوم التالي واعترف انه انما جاء لينتقم من عوني باشا وا ه يأسف لمقتل رشيد وزير الخارجية فحكموا عليه بالاعدام فمات قبل تنفيذ الحكم

٨ — خلع السلطان مراد وتولية عبد الحميد

فلما بلغت هذه الواقعة الى السلطان مراد زاد اضطراب عقله وبعد ان كان الاطباء يرجون قرب شفائه رأوه بعيداً عنه فانقسم رجال الدولة بالنظر الى هذا الحال الى قسمين قسم يرى استبقاء السلطان مراد وانتظار شفائه وهم الصدر الاعظم محمد رشدي ومدحت واكثر زملائهم . والقسم الآخر اشاروا بخلعه وتولية من يخلفه وزعماء هذا الحزب داماد محمود جلال الدين باشا صهر السلطان ورديف باشا مشير فيلق الاستانة ومشيران آخران ممن يرغبون في الرجوع الى الحال القديم فقد كانوا اصحاب النفوذ فيه والدستور لا يوافق مطامعهم ولا هم يفهمون معنى الدولة والامة. وكان هذا الداماد مجرداً من العلم كثير الحب لذاته يكره الاصلاح لانه يرفع اناسا كانوا دونه وانما رفعته عنهم المصاهرة . فهولاء وغيرهم سعوا جهدهم في خلع مراد لعلة المرض وقد ساعدهم الشرع على ذلك وتداخل السفراء والحوا في تسوية الحالة الحاضرة لانهم لا يأمنون على مصالح دولهم والدولة في هذا لاضطراب واشاروا بخلع مراد وتولية عبد الحميد . وسعى الداماد في اثارة خواطر اهل الاستانة لتأييد هذا الطلب وان الحاكم اليوم على الامة ليس السلطان خليفة الرسول وانما هو مدحت باشا ورشدي باشا . فلم يبق بدٌّ من خلع مراد . ولكن مدحت ورفاقه رأوا ان

ياخذوا المواثيق على السلطان الجديد قبل مبايعته فقرروا ان يذهب مدحت بنفسه الى موصلو اغلو حيث يقيم البرنس عبد الحميد افندي و يستطلعة رأيه في الاصلاح الذي اخذوا في أدخاله من حيث الدستور وغيره حتى اذا خالفهم في ذلك عرضوه على اخيه رشاد افندي . وقد قام باستطلاع رأي رشاد في هذا الشأن امرأة مدحت بطريقة سرية

اما الشروط التي عرضوها على البرنس عبد الحميد اذا تولى السلطنة فهي :

(١) ان يعلن الدستور حالاً

(٢) ان لا يستشير في اعمال الدولة الا مشيريه المسؤولين

(٣) ان يعين ضيا بك وكمال بك سكرتيرين خصوصيين للسلطان مع سعدالله بك رئيس السكرتيرية (الباشكاتب)

فاجاب مطالبهم بكل رضا ووعد با كثر منها وان يوسع النظام الدستوري الى ا كثر مما يطلبون .وقال انه يتخلى عن العرش حالما يشفى اخوه مراد من المرض. فعاد مدحت الى اسطانبول و بلغ الوزراء نتيجة زيارته فأقروا على خلع مراد وتولية عبد الحميد ولم يكن لهم بدٌّ من فتوى الخلع فاستصدروها من خيرالله افندي شيخ الاسلام فخلعوا مراداً وولوا السلطان عبد الحميد الحالي في اول سبتمبر سنة ١٨٧٦

٩ — جلوس السلطان عبد الحميد وتعيين اعوانه

جلس السلطان عبد الحميد على العرش العثماني في اول سبتمبر سنة ١٨٧٦ وا حتفلوا بيبعته احتفالاً شائقاً في سراي طولما بغجه حضره الوزراء والقناصل ورجال الدولة والاعيان . ولما بايعوه خاطبهم قائلاً : « اشكر لكم تهانئكم ولا اشتهي شيئاً غير تقدم مملكتنا وراحة رعايانا وسترون من اعمالنا ما يؤيد وعودنا بالاصلاح . فعلى رعايانا ان يقوموا من الجهة الاخرى بما عليهم » وخطب في وزرائه خطاباً حثهم به على الاتحاد في الرأي والعمل وبعد ثلاثة ايام احتفلوا بتقليده سيف عثمان في مسجد ايوب بقرن الذهب على جاري عادتهم في تنصيب السلاطين . ثم عاد

الى قصر طوب قبو حيث البسوه البردة وسلموه العلم النبوي . ويذكرون ان رشدي باشا الصدر الاعظم قال لرفقه ساعة خروجهم من طوملا بغحه « اظننا تسرعنـا بخلع مراد فعسى ان لا يحدث ما يبعث على الندم »

واول عمل باشره جلالته انه عين الداماد محمود جلال الدين باشا قائداً عامًا للجند (سر عسكر) وعين سعيد باشا (الانكليزي) رئيساً للياوران . فلم يعارضه احد في ذلك كان تعيينها من حقوق السلطان . ولم يعلق مدحت باشا على تعيينهما أهمية وانمـا اهتم على الخصوص بتسمية سكرتيرية السلطان لان تقربهم منه يجعل لهم نفوذاً كبيراً لا يقل عن نفوذ الصدر الاعظم

وقد كان ينبغي له ان لا يستخف بمنصب السر عسكرية ولا يقبل ان يعين له الا واحد من اهل ثقتهِ وقد علم بالاختبار ان خلع عبد العزيز لم يكن ممكناً لو لم يكن السر عسكر عوني باشا في جملة القائلين به والساعين فيه . فهل غفل مدحت عن ذلك او تغافل ؟ او لعله احسن الظن في مساعي اهل المابين وحسن الظن في مثل هذه الحال من ضعف الرأي

وقـد يعترض بان تعيين السر عسكر من حقوق السلطان — فكان الاجمل بمدحت ان يجعل من ضمن الشروط التي اشترطها على جلالته في مقابلته الاخيرة قبل المبايعة ان يكون السر عسكر فلاناً كما اشترط ان يعين كمال بك وضيـا بك سكرتيرين وسعدالله بك رئيس السكرتيرية (باشكاتب) وهم من خيرة الاحرار . على ان اشتراطه هذا لم يات بفائدة لان السلطان وعده بتعيينهم ولم يفِ فلما قابل جلالته بعد المبايعة اخبره انه عين للباشكاتبية سعيد بك وهو من رجال محمود نديم الصدر الذي تقدم ذكره . فاعترض مدحت واحتج ونصح فلم يجد ذلك نفعـا فاغضى . ولو اصر لانقلب وجه المسالة وربمـا فاز فيولي في تلك المناصب احراراً يؤيدون الدستور . فباغضائه هذا جعل اهم مراجع النفوذ في قبضة رجال من حزب التقهقر . وقد كانت دسائسهم فاتحة عصر الاستبداد الذي انقضى بالامس . وظهر للناس بعد انقضائه ان السياسة الخرقاء التي اتبعها جلالة السلطان في مقاومة الاحرار

انما كانت بدسائس اولئك المقربين وامثالهم

فاغروه اولاً على التخلص من مدحت زعيم ذلك الحزب ولا خوف عليه لان الجند في قبضته وقائده طوع اشارته . لكنه لم يشأ ان يفعل ذلك مصادرة فعمد الى سياسة المقاومة بالمطل والتسويف فجعل يتباطأ في اجابه مطاليب الصدارة ويعترض على اعمالها . فبدأ بالاعتراض على الفرمان الذي نصه مدحت وعرضه على جلالته ليخاطب الوزارة به وهو عبارة عن خطة سياسته بالدستور . فنقحه السلطان وحذف كثيراً من مواده الهامة كما بينا ذلك في مقالتنا « الانقلاب السياسى العثماني » في الهلال الاول من السنة ١٧ فقبل مدحت بذلك التبديل اعتماداً على ان اعلان الدستور واجتماع مجلس المبعوثان يعوضان تلك الخسارة

١٠ — تعديل البند ١١٣ من القانون الاساسي

على انه لم يكد يفكر في ذلك حتى جاءه في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٦ كتاب من السلطان بخط يده يقول فيه « انه مع ما يرجوه من الراحة والسعادة لشعبه بالنظام الدستوري الجديد فهو يطلب ان تكون حقوق السلاطين ايضاً مضمونة فيه ولذلك فهو يرى عرض القانون الاساسي على مجلس الوزراء لتنقيحه » فاجابه مدحت. « ان هذا القانون قد يكون في حاجة الى التنقيح ولكن عرضه على المجلس لتنقيحه يستغرق زمناً لا يسمح به حال الدولة لان المضايق الحرجة التي وقعت فيها تدعو الى المبادرة في نشر الاصلاحات وتسكين الخواطر ارضاء للدول التي تهددنا بعقد المؤتمر الدولي الذي قررت عقده في الاستانة حتى اصبحنا وليس لنا الا احد وجهين اما ان نعلن القانون الاساسي وننشر الاصلاحات قبل عقد المؤتمر فلا يبقى للدول حجة علينا او ان نؤخر اعلانه فينعقد المؤتمر ويقرر المراقبة على اعمالنا . فاذا تأجل عقد مجلس المبعوثان لا يبقى لنا بد من الدخول في وصاية الدول »

فلما رأي اهل المابين قوة حجته في هذه المسألة اتوه من طرق اخرى وذلك انهم وافقوه على وجوب السرعة في اعلان الدستور لكنهم اشترطوا تعديلاً في البند (١١٣) المتعلق بظهور التمرد او الخلل في بعض الولايات . فقد جاء في البند

المذكور « انه يحق للحكومة ان تعلن الادارة العرفية موقتاً أي تبطل القوانين والنظامات » فطلبوا ان يضاف اليه هذه الفقرة « ان الذين يثبت بواسطة تحقيقات الضابطة الصحيحة انهم سبب في اختلال امنية الحكومة فللحضرة السلطانية وحدها الحق ان تخرجهم من الممالك المحروسة وتبعدهم عنها »

فقبل مدحت هذا التعديل رغبة في سرعة العمل ولان التعديل المشار اليه يتعلق بالولايات . ولم يخطر بباله انه سيجري عليه هو نفسه لانه كان قد احتاط لهذا الامر بالمواد ٣١و٣٢و٣٣ وفحواها ان الوكلاء او الوزراء لا يعزلون الا بعد المحاكمة بالمجالس . وهذه نقطة اخرى يلام مدحت على تساهله فيها لانها كانت علة نفيه . و بنفيه تزعزع حزب الاحرار

١١ — اعلان القانون الاساسي

ولكن السلطان لم يذخر وسعاً في تقريب مدحت وترقيته فلما استقال رشدي باشا من الصدارة لشيخوخته في ١٩ دسمبر سنة ١٨٧٦ انتدب مدحت باشا لذلك المنصب . فكان اول شيء اجراه عند ذلك تعجيل اعلان القانون الاساسي وعقد مجلس المبعوثان لئلا تسيء الدول الظن بالدولة وتقلب لها ظهر المجن . وقد لاقى مقاومة شديدة من المتملقين ومن جملتهم جودت باشا وزير العدلية . في الجلسة الاولى التي عقدت للوكلاء في بيت الداماد محمود اقترح جودت باشا تأخير اعلان الدستور الى اجل غير مسمى « اذ لم يبقَ حاجة اليه بعد ان افضت ازمة السلطنة الى جلالة السلطان » فغضب مدحت لذلك الاقتراح غضباً عظيماً وألح في وجوب اعلانه بلا تأخير وهددهم اذا لم يفعلوا وقد افاد تهديده . فلو اتبع هذه الشدة في ما تقدم لغلب الحق على الباطل

على ان الاختلاف بين مدحت ورجال المابين لم يكن قاصراً على مسألة الدستور لكنهم خالفوه في امور كثيرة . منها مقاومتهم في تعيين ولاة مسيحيين وادخال غير المسلمين في المدارس الحربية . ومنها اصرارهم على تعيين غالب باشا وزيراً للمالية ونفي ضيا بك صاحب الاستقلال . اما تعيين الولاة من المسيحيين فقد

ذهب مدحت الى التعجيل فيه ارضاء للدول التي ستجتمع في المؤتمر فيكون تعيينهم حجة للدولة في ادخال الاصلاح . فاجاب السلطان « انا لا نعرف رأي عامة المسلمين في التغيير الذي سيدخل على الدولة بالدستور فتعيين ولاة من المسيحيين ربما هاج خواطرهم وآل الى ما لا تحمد عقباه » وبعد اخذ ورد اجلوا الاقرار على ذلك كله الى ما بعد اجتماع المؤتمر على ان يبادروا الى اعلان الدستور وانتخاب نواب الامة

فاعلن الدستور رسميًا في ٢٤ دسمبر سنة ١٨٧٦ وتلا سعيدباشا (الباشكاتب) الفرمان باعلانه في حضور الصدر الاعظم مدحت وكبار رجال الدولة والعلماء وغيرهم. ثم تقدم سعيد المذكور وسلم صورة القانون الاساسي الى مدحت بعد ان قبلها وتفرق منها نسخ على الحاضرين . وخطب مدحت خطاباً ما له قبول الدستور وقانونه ثم صلى المفتي واطلقت مئة مدفع ومدفع فعلم الناس ان الدستور قد اعلن . فتهافت الكبراء وفي مقدمتهم شيخ الاسلام خيرالله افندي والعلماء ورجال الدين من النصارى مع بطاركتهم والوزراء وغيرهم يرفعون الى مدحت التهاني على فوزه باعلان الدستور وكانوا يصيحون « يحيي السلطان ومدحت » وانهالت عليه الرسائل البرقية من الولايات وغيرها والكل فرحون مستبشرون الاسراي بشكطاش فانها لم تحرك ساكنا لان جلالة السلطان كان يشكو انحرافاً . . .

وفي اليوم التالي خفّ مدحت لزيارة بطريرك الروم وهي المرة الاولى منذ الفتح العثماني زار فيها الصدر الاعظم بطريرك الروم . وانما اراد بذلك اقناع الدول ان النصارى مشاركون للمسلمين في الدستور واحتفل اليونان بزيارته فخطب فيهم واجابه البطريرك بما يدلّ على الائتلاف والولاء

١٢ — مؤتمر الاستانة

ومن غريب الاتفاق ان اليوم الذي تعين لعقد المؤتمر هو نفس اليوم الذي اعلن فيه الدستور (٢٣ دسمبر) فاجتمع المؤتمر في ذلك اليوم للمداولة مع مندوبي الدولة في ما ينبغي اتخاذه من الوسائل لتسكين الاحوال في الولاية العثمانية باوربا

ولم يكد يعلن افتتاح الجلسة حتى دوت اصوات المدافع عن اعلان الدستور . فنهض صفوت باشا احد مندوبي الدولة في ذلك المؤتمر وقال « ايها السادة ان ما تسمعونه انما هو اشارة الى اعلان الدستور الضامن لما تطلبونه فلا حاجة الى المباحثة » فوجم الحضور هنيهة ثم تكلم اغناتيف معتمد روسيا فطلب الرجوع الى مدار البحث فعادوا اليه فطلب استقلال بلغاريا باحكامها وان يتعين عليها وال مسيحي فتباحثوا واتفقوا على ان تكون بلغاريا ممتازة باحكامها . وبحثوا مثل ذلك في شؤون الهرسك والبوسنه وغيرهما مما لا محل له هنا . واقروا على لائحة عرضها اغناتيف على الباب العالي للمصادقة عليها . فشكل مدحت مجلساً عالياً مؤلفاً من الوزراء والمشيرين وكبار رجال الدولة والرؤساء الروحانيين من كل الطوائف وعرض عليهم اللائحة واخبرهم ان ردها يؤول الى الحرب فتباحثوا وتحمسوا وابوا الا ردها فردها مدحت وانفض المؤتمر وبفضه اضطربت العلائق بين اوربا والباب العالي

١٣ — نفي مدحت باشا

ولم يكد ينفض المؤتمر حتى عاد رجال المابين الى متابعة ما كانوا فيه من معاكسة رجال الاصلاح . فاستأنفوا البحث في ادخال المسيحيين المدارس الحربية وعزل غالب باشا ناظر المالية وكان مدحت يرى عزله لاعتقاده عجزه عن القيام بهذا المنصب . فرضي السلطان بعزله لكنه اشترط ان يجعل عضواً في مجلس الاعيان فطلب مدحت ان تفحص أوراقه وتراجع حسابات اعماله . وكتب اخيراً الى المابين كتاباً بين فيه عدم لياقة غالب لهذا المنصب ثم تحول الى البحث في مسألة المدارس وكان يعتقد واعتقاده صواب ان مسألة الاصلاح في المملكة العثمانية لا يمكن حلها الا بتوحيد العناصر على اختلاف الطوائف والنحل ولا يكون ذلك الا اذا نشأ شبانهم في مدارس واحدة وتربوا تربية واحدة فاراد ان يبدأ مشروعه هذا بالمدارس الحربية فطلب ادخال غير المسلمين فيها لينشأ منهم ضباط غير مسلمين يشتركون مع اخوانهم المسلمين في خدمة الامة . فاجيب بالمدافعة والمماطلة والمعارضة وطال الاخذ والرد بين الصدارة والمابين او بين مدحت وباشكاتب المابين بالنيابة

عن السلطان . واخيراً كتب مدحت الى جلالة السلطان كتاباً شديد اللهجة جاء في جملته «اني شديد الاحترام لشخص جلالتكم اما من حيث القوانين والشرع فعلي يا مولاي ان اعصى كل امر يصدر منكم اذا كان مخالفاً لمصلحة الامة والا فاني اتحمل مسئولية انوء تحت اثقالها واخاف صوت ضميري لاني تعهدت بان تكون اعمالي مطابقة لمصلحة الوطن ورفاهيته ... » الى ان قال « مضت تسعة ايام منذ عرضت على جلالتكم مشروعات لا غنى عنها لسعادة الامة وصيانة الدولة فلم تصادقوا عليها مما يأول الى خراب لم نكد ننجو من مخالبه الا بشق النفس .. »

بعث مدحت كتابه ومكث في منزله ثلاثة ايام فوجد اهل المابين مندوحة للتخلص من هذا العدو القوي . فاوفد اليه السلطان صفوت باشا ناظر الخارجية ان يأتي فابى الا ان يصادق السلطان اولاً على مشاريعه فبعث اليه سعيد باشا (الانكليزي) فأكيد له انه اذا اتى السراي فالارادة تصدر حالاً بالمصادقة على مطاليبه . فوثق مدحت بقوله وركب معه وما عتم ان لحظ وهو في الطريق ان الشوارع غاصة بالجند وخصوصاً حول منزله في نيشان طاش ولم يكن يعلم ان الباخرة « عز الدين » في مرسي طولما بغجه منذ بضعة ايام لتحمل ابا الاحرار الى منفاه . وهب انه علم بذلك حينئذ فلم يكن علمه لينفعه لفوات الفرصة . فبحال وصوله لسراى طولما بغجه استمهلوه ريثما تصدر الاوامر السلطانية لمقابلته فجلس في غرفة الانتظار واذا هو برئيس الياوران جاءه واخذ منه ختم الدولة وساقه توًّا الى الباخرة عز الدين وكانت على اهبة السفر فاقلعت ومع ربانها اوامر مختومة لا يجوز فتحها الا بعد ٢٤ ساعة ثم فتحها فاذا فيها ان يحمل مدحت باشا الى المحل الذي يختاره من سواحل اوربا فانزل في برنديزي بايطاليا

ولا يخفى ما كان من تأثير هذا النفي على الاحرار في الاستانة لكن اهل المابين لم يتدموا على نفي زعيم الاحرار ابي الدستور والا قد مهدوا السبيل واحتاطوا لما يخشى وقوعه وكانت حجتهم في نفي مدحت ان « وجوده يسبب اختلال امنية الحكومة » فللسلطان الحق بنفيه كما جاء في المادة ١١٣ من القانون الاساسي . وكان

في الاستانة عصابة من اهل الوجاهة لايرون وجود مدحت نفسه ضروريًا لتأييد الدستور ونشر الاصلاح وكانوا يعتقدون ان السلطان مخلص في اجراءاته وانما يريد بها سلامة الدولة وسعادة الامة وتمكن هذا الاعتقاد من نفوسهم لما رأوه نفى مدحت وظل محافظاً على دستوره وامر بعقد مجلس المبعوثان . وانما فعل ذلك تسكيناً لخواطر الامة او بالحري لخواطر الاحرار مريدي مدحت وانصاره. وكانت الانتخابات جارية فتعجلها لفتح البرلمان في اول مارس سنة ١٨٧٧ ولم يتم عدد الاعضاء الكافي لعقده الا في ٤ منه فاحتفلوا بافتتاحه في سراي طوللا بغجه بحضور السلطان نفسه . ولم يطل عمره الا سنة و بعض السنة

١٤ — مدحت في منفاه

وكانت الدول في اثناء ذلك تنظر في رفض الدولة العثمانية لقرارات المؤتمر المتقدم ذكره وكنّ يتوقعن اصلاح الاحوال باعلان الدستور فلما نفي مدحت سبق الى اذهانهن سوء الظن ولا سيما روسيا فانها عادت الى العدوان واعلنت الدولة العثمانية بذلك في ٢٤ افريل سنة ١٨٧٧ فساعد الاعلان على تغلب حزب المابين فلم يتقرب منه غير الذين يوافقون على سياسته وضعف حزب الدستور بعد نفي صاحبه

انتشبت الحرب بين روسيا والدولة ومدحت منفي في اوربا فلم يدخر وسعاً في مصلحة دولته ولا سيما في لندن وكتب الى الباب العالي انه سعى في عقد صلح يحجب الدماء وطلب مصادقته فلم يجبه على ذلك لان كفة الحرب كانت لا تزال راجحة في جانب الدولة . ثم ما لبث الروس ان اخترقوا البلقان واقبلوا على الاستانة فجدد مدحت الهمة في الدفاع عن حقوق بلاده لدى الدول والباب العالي بالمكاتبات. فوسوس بعضهم لجلالة السلطان ان تصدر مدحت باسم الدولة لدى دول اوربا يخشى منه فعمل على استقدامه الى الاستانة . فكتب اليه رئيس التشريفات الشاهانية كتاباً سريًا يبثه فيه شعور السلطان معه بما يقاسيه في غربته وان جلالته بكى لما بلغه خبر عذابه وانه امر له بالف جنيه ينفقها في مرافقه المستعجلة ولا يعلم احدٌ بها . وطلب اليه ان يعلمه كيف ينبغي ان يرسل هذا المبلغ اليه . فاجابه

مدحت بالرفض واظهر تفانيه في خدمة دولته ووطنه فدعاه للقدوم الى الاستانة لان بعده عنها يوجب الهواجس وسوء الظن . وما زال به حتي اقنعه بالمجيء رغم نصيحة اصدقائه ان لا يفعل

فسافر ولكنه فضل النزول في كريد ليمكث فيها بعيداً عن الدسائس وادرك من مجاري الاحوال ان سياسة المابين تقضي بابعاد رجال الاعمال عن الاستانة واستخدام الضعفاء فقبل السلطان اقتراحه و بعث اليه عائلته الى كنديا في سبتمبر سنة ١٨٧٨ فاحتفل الكريديون بمدحت وعرفوا قدره على اختلاف طوائفهم واطلقت الدوارع الراسية في مياهها المدافع لاجله فنقل ذلك الى السلطان فاوجس خفية وكان في عزمه ان يعقد له على كريد فعقد له عليها و بعد شهرين جاءه تلغراف من الباب العالي بتعيينه والياً على سوريا فاطاع وركب اليها مع اهله على الباخرة « فوائد » حتى اتى بيروت وسافر منها الى دمشق مركز الولاية يومئذ

١٥ — ولايته على سوريا

ولم ينس السوريون اعمال مدحت في اثناء تلك الولاية وكانت شهرته في مساعيه الحرة قد بلغت الى مسامعهم فلما وصل اليهم احتفلوا به احتفالا عظيماً وقد حقق امانيهم بما ادخله من الاصلاح فيها نحو ما فعل في العراق من قبل . فانشأ مدرسة للصنائع والفنون واخرى للايتام وايد الامن فبات الناس في راحة وعدل وفتح الشوارع في المدن ومهد الطرق بين القرى والبلاد لتسهيل الانتقال وانشأ خطاً للترامواي بين مدينة طرابلس الشام والمينا وقد نجحت نجاحاً باهراً . ولا ينسى اهل دمشق كيف انشأ لهم الشارع الاعظم . واهم ما كان من تاثير ولايته انه جمع العناصر المختلفة والف بين قلوبهم على اختلاف المذاهب والاجناس على شكل لم يسبق له مثيل في تلك البلاد . واطلق حرية المطبوعات ونشط الكتاب والادباء والشعراء فتالفت الجمعيات السياسية والعلمية

وفي ايامه ظهرت القصيدة السينية المشهورة التي مطلعها « دع مجلس الغيد الاوانس » وفيها تحريض للعرب ان يطلبوا الاستقلال كما فعل اهل الجبل الاسود . وكان

السوريون اذ لقوا مدحت في محفل صاحوا ليحيي مدحت باشا وهو لا يحاذر المجاهرة بانتقاد المابين وربما تغنى بما تمَّ على يده من الخلع والتنصيب فساء السلطان الظن بمقاصده وزاد حذره من اغراضه واصبح يخاف ان تنتظم احوال سوريا وتجتمع كلمة اهلها فتخرج من يده فاصبح اذا عرضت عليه مشروعات مدحت اجل المصادقة عليها او رفضها . واوحى الى مشير الفليق الخامس في الشام ان يكون على حذر منه . فاصبح المشير ينظر اليه نظر الرقيب وتباعدت القلوب بينهما وتضايق مدحت من ذلك فعزم على الاستقالة وبعد مخابرات طويلة خير الباب العالي فيها بين قبول استعفائه او المصادقة على مشرعاته فكانوا يماطلونه ويدافعونه مع حاجتهم الى آرائه يومئذ في اثناء تمرد الدروز في حوران . وقد خدم الدولة في اخماد ذلك العصيان خدمة حسنة باعادة الامن الى تلك البلاد مع المحافظة على شرف الدولة ونفوذها . ولما فرغ من هذا الواجب لم يعد يصبر على مضايقة الباب العالي ومعارضته بما يعمله فاستقال بحجة شيخوخته وضعفه فابت الحكومة اعفاءه ولكنها نقلته من ولاية سوريا الى ولاية ازمير سنة ١٨٨٠

١٦ — ولايته على ازمير

ان ولاية ازمير هي ولاية آيدين وعاصمتها مدينة ازمير وكانت في خلل واضطراب مثل سائر الولايات في ذلك العهد بل هي من اكثرها اضطراباً بالنظر الى تكاثر اهل الدعارة واللصوص وقطع الطرق فيها . ولم يجهل مدحت ان مشروعاته في اصلاح هذه الولاية ستصادف ما كانت تصادفه مشروعاته لاصلاح سوريا لكنه اطاع الامر وقبل المنصب وانتقل الى ازمير . وفكر في تسكين الخواطر واعادة الامن وكان فيها فرقة من الجاندرمة فوجدها غير كافية لحفظ النظام فانشأ الضابطة على النسق الاوربي ولم يكن لها وجود في تركيا من قبل . واخذ في العمل جهد طاقته والسلطان يزداد فيه سوء ظن ويخافه فزين له مشيروه ورجال خاصته ان يتخلص منه ويريح فكره من اخطاره ولم يجدوا شراكا يأخذونه بها الا مسألة السلطان عبد العزيز فاحيوها . ورغم ما أثبته الاطباء في تقاريرهم عن موت

ذلك السلطان بالانتحار ادعى رجال المابين انه مات مقتولاً وان قتله هم حسين عوني باشا الذي قتله حسن الشركسي في بيت مدحت سنة ١٨٧٦ والدامادان محمود باشا ونوري باشا وانه اشترك معهم ايضاً مدحت باشا ورشدي باشا وخيرالله افندي شيخ الاسلام

فلما اعتقد السلطان هـذا القول امر بالقبض على الدامادين محمود ونوري ونشرت الصحف عود قضية عبد العزيز الى التحقيق وتزلف بعض كتابها الى المابين فالح بالقبض على كل من اشترك في مسالة عبد العزيز او شهدها فقبض على رشدي باشا زميل مدحت وحكم عليه بالنفي ليقضي شيخوخته في منغيسيا من ولاية آيدين وحكم على خير الله بالنفي الى مكة وابعد سائر من بقي من الاحرار في الاستانة . ولم يبق حول السلطان الا المتملقون الذين اخذوا بناصره او حرضوه على افساد امر الاحرار والتضييق عليهم وفيهم جماعة كانوا يتظاهرون بالحرية ثم انقلبوا طمعاً في الدنيا

١٧ — القبض على مدحت

وكان مدحت باشا يومئذ في ازمير وجاءه النبأ انه متهم وان حياته في خطر فاجاب اصدقاءه الذين انبأوه انه لايجد في ضميره ما يوجب القلق لاعتقاده براءته لدى القضاء . اما السلطان فعمد الى المبادرة بالقبض على مدحت فجأة فأنفذ اللواء حلمي باشا والاميرالاي رضا بك (ثم صار رضا باشا سر عسكر) مع جماعة من الضباط والضابطان للقيام بهذه المهمة . فوصلو ازمير على غرة والناس لا يفهمون سبب مجيئهم . اما مدحت فجاءه النذير بامرهم فبث عليهم العيون يراقبون حركاتهم فتحقق انهم جاؤا بأوامر من يلدز للقبض عليه . عرف ذلك من احد رجال الضابطة التي أنشأها في ازمير كان قد تنكر بلباس تاجر ونزل في الفندق الذي نزل فيه حلمي باشا وعاشره وتقرب اليه حتى وثق به واعترف له انه جاء للقبض على مدحت وانه ينتظر اوامر اخرى . فبادر مدحت الى الاحتياط ففتح في قصره باباً سريًا يؤدي الى الشاطيء واعدّ هناك سفينة لشركة انكليزية تنقله الى حيث يشاء

ففي مساء احد الايام جاء جاسوس مدحت المشار اليه واخبره ان حلمي باشا دعي الى مكتب التلغراف على عجل ولما عاد تسلح وذهب الى القشلاق . وكان سبب ذلك ان حلمي باشا تلقى الاوامر بقتل مدحت وذبح عائلته ولم يكن يستطيع ذلك الا اذا كان له من يواطئه عليه من اهل بيت مدحت . وكان قدعرف خادماً من اهل ذلك البيت اسمه نذير فاتفق معه انه حالما يرى الجند قادمين الى القصر يطلق عليهم طلقاً نارياً من مسدس فيكون ذلك حجة لهم في الهجوم والقتل . ويؤكدون وقوع هذه المواطأة بما ناله نذير هذا من الحظاوي في المابين بعد نفي مدحت

فلما علم مدحت بدنو الخطر اعمل فكرته بتروٍ واطلع اهل بيته على الامر واوصاهم ان لا يبدوا حراكاً واخبرهم عزمه على الخروج من تركيا بحراً من ذلك الباب السري والالتجاء الى اوربا . ففي نصف الليل اطلقت التكنة العسكرية ثلاثة مدافع هي علامة الحريق عندهم فادرك مدحت انهم فعلوا ذلك ليصرفوا اذهان الناس عن اغراضهم الحقيقية فعمد الى الخطة التي كان رسمها للفرار فخرج مع سكرتيره من ذلك الباب السري يطلب الشاطئ ولم يبعد بضع خطوات حتى رأى الجنود قائمة على المرفأ تحرسه فركب مركبة وسار الى قنصلاتو انكلترا فوجد قنصلها غائباً فتحول الى قنصلاتو فرنسا وطلب حمايتها فآوته

اما حلمي باشا فانه اتى برجاله الى قصر مدحت بحجة انه جاء يستفتيه في امر الحريق الذي شب في المدينة فاجابه اهل المنزل انه خرج الساعة فظنهم يخدعونه . فامر رجاله فكسروا الابواب ودخلوا البيت عنوة حتى فتحوا غرف الحريم للبحث عنه . وكان الخادم نذير جالساً على مقعد والمسدس في يده فهمَّ ان يقوم بمهمته ويطلقه فهجم عليه خادم آخر عارف بغرضه واستخرج المسدس من يده بالقوة وسقط ميتاً من التأثر . ولم يترك الجند مكاناً لم يفتشوا فيه عن مدحت حتى سرير الطفل . فلما رأت امرأة مدحت باشا تطاول القوم الى هذا الحد خاطبت حلمي باشا قائلة « ارجع رجالك عن منزلنا والا فاني افتح النوافذ واستنجد الامة عليهم » فخاف

حلمي تهديدها لانه امر ان يعمل عمله بدون ان يشعر احد به فصرف رجاله الا جماعة منهم استبقاهم معه وخرج . علم ان مدحت في قنصلاتو فرنسا فذهب الى هنالك وسد عليه منافذ الطرق من كل ناحية حتي يقبضوا عليه اذا خرج اينما كانت وجهته وكان قنصل فرنسا الموسيو بايسيه قد انبأ سفير فرنسا بالاستانة بما جرى وبعث مدحت الى قناصل الدول العظمى في ازمير يدعوهم الى الاجتماع في قنصلاتو فرنسا فجاؤا وقص عليهم الخطر الذي يحدق به وطلب اليهم ان يوسطوا دولهم لدى الباب العالي وانه لا يطلب منهم عفواً ولا رحمة وانما يطلب اذا كان متهماً ان يحكم جهاراً في محكمة قانونية قضاتها نزيهون. فجرت المخابرات التلغرافية واخذت الدول المواثيق والعهود على ذلك فلم يبق لمدحت بدٌّ من السفر الى الاستانة للمحاكمة . وبعد ايام جاء اليخت السلطاني فحملوه عليه الى الاستانة وانزله السلطان في كشك مالطة في يلدز ريثما تتألف المحكمة لمحاكمته

١٨ — محاكمته والحكم عليه

واخذوا في استنطاقه وبعد الفراغ من ذلك عقدوا جلسة في سراي يلدز حضرها السلطان من وراء الستار ولم يحضرها الا السفراء وبعض مكاتبي الصحف الافرنجية مع ان الشرط ان تكون المحاكمة في جلسة جهارية . وكان القضاة خمسة ثلاثة مسلمين واثنين مسيحيين برئاسة سروري افندي احد العلماء وقد تقدم ذكره في مكان آخر من هذه الترجمة . وكان في جملة المتهمين مع مدحت الداماداان محمود باشا ونوري باشا وعلي بك ونجيب بك وفخري بك الجزائرلي وبعض الخدم

ولما فتحت الجلسة قرئت ورقة الاتهام وفحواها «انه بعد خلع عبد العزيز ببضعة ايام تواطأ الدامادان نوري باشا ومحمود باشا مع اثنين من المصارعين واحد حرس السراي على قتل السلطان المخلوع ووعدهم براتب قدره ثلاثة جنيهات عثمانية لكل واحد في الشهر مكافأة على هذه الخدمة فقتلوا السلطان بمساعدة فخري بك احد الحجاب . وان علي بك ونجيب بك ادخلا القتلة الى غرفة عبد العزيز . وانه كان في الاستانة يومئذ لجنة مؤلفة من مدحت ورشدي وعوني وشيخ الاسلام

خيرالله والداماد محمود لم يكن يصدر امر او يجري حادث ما لم تصادق هي عليه فلا بدّ ان يكون اقتل قد حصل بعلمهم ولذلك كان مدحت مشتركاً في ارتكاب تلك الجريمة »

وبعد تلاوة ورقة الاتهام اخذ القضاة يسالون المتهمين اسئلة مختلفة وهم يدافعون عن انفسهم . وتوالت جلسات هذه المحاكمة بين ٢٣ يونيو و٢٩ منه وانتهت بالحكم على مدحت ومحمود ونوري وآخرين بالاعدام وكانت اخبار هذه المحاكمة تنقل يومياً بالتلغراف الى صحف اوربا . ولم يستطع المكاتبون انتقادها لان رسائلهم كانت تمر على المراقب قبل ارسالها يشهد بذلك رسالة مكاتب التيمس المؤرخة في اول سنة ١٨٨١ بعد صدور الحكم فقد صدرها بقوله انه لم ينتقد اعمال القضاة في رسائله السابقة خوفاً من المراقبة . ثم افاض في النقد ومآله ان المحاكمة كانت مهيأة وانها جرت على رغائب اهل المابين فاكثروا من الشهود وفي جملتهم شاهد لم يذكر اسمه في قائمة الشهود ولم يكن يجوز سماع شهادته واسمه رفعت افندي شهد انه سمع مدحت يقول في دمشق انهم انما قتلوا عبد العزيز لئلا يعود الى السلطة ويقتل الوزراء الذين خلعوه. وفي جملة انتقادات مكاتب التيمس ان المتهمين لم يكن يتيسر هم المفاوضة مع المحامين الموكلين في الدفاع عنهم وان مدحت لم يتداول مع محاميه لا مرتين . وغيرذلك مما يطول شرحه وهو مفصل في رسالة التيمس المشار اليها ثم توسطت الدول في الحكم فابدل بالنفي وعين لكل واحد منفاه

١٩ — مدحت في منفاه الى مقتله

اما مدحت فتعين منفاه في الطائف بقرب مكة ومعه الداماد'ن محمود ونوري فحمل مع رفاقه في باخره انزلته في جدة فالتقى هنك بصديقه خيرالله افندي شيخ الاسلام المنفي الى مكه كما تقدم . اما عائلة مدحت فظلت في ازمير تنتظر ما ياتي به القدر . ففي السنة الثالثة من منفى رجلها جاءهم منه كتاب مؤرخ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ يقول فيه انه مصاب بخراج في كتفه اليمنى شديد الالم — وظهر بعد ذلك انه الجمرة (فرخ جمر) وان طبيبه غلام غير محنك . وذكر ما يقاسيه من

العذاب بجهل الطبيب وما اتخذه رفاقه من الوسائط لراحته مع يأسه من الشفاء . وذكر طعامهم فقال انه عبارة عن طبق شوربا لثمانية اشخاص وطبق ورق العجل ونحوه . وذكر في كتاب آخر ان الخراج تتحسن حالته لكنه يشعر بالضعف . وقال في كتاب آخر انه ربما كان آخر كتبه اليهم لانه لحظ ان القوم عاملون على التخلص منه بواسطة السم وانه يقاسي العذاب من شدة التيقظ لنفسه لانه محاط باقوام اشرار لا يبالي احدهم من يقتل ولا كيف يقتل . وذكر على الخصوص احدهم بكير الشركسي رفيق حسن الشركسي الذي قتل عوني باشا قديماً وختم كتابه بالدعاء بحفظ العائلة. والكتاب مؤرخ في ٢٤ ستمبر سنة ١٨٨٢

فلما وصل الكتاب الى امرأته عرضته على سفير انكلترا في الاستانة فوعدها ببذل الجهد . واجتهد اللورد دفرين بالبحث عن صحة مدحت بواسطة ترجمان قنصلاتو فرنسا في جدة فاجاب بعد البحث على يد شريف مكة ان صحته حسنة . وتوفي في اثناء ذلك الداماد نوري باشا مجنوناً

وفي ٢٦ افريل سنة ١٨٨٣ كان مدحت راقداً في غرفته فدخلها بضعة رجال فقبضوا عليه وعلى رفيقه الداماد محمود وقتلوهما خنقاً . وكتب بذلك خيرالله افندي تقريراً مطولاً نشر في تاريخ مدحت الذي الفه ابنه علي حيدر . ولم ينج خيرالله من القتل الا خوفاً من نقمة العلماء على الدولة لصبغته الدينية

وجاء في تقريره المشار اليه اسماء الاشخاص الذين اشتركوا في ذلك القتل وهم تسعة قتلوا مدحت و١١ قتلوا محموداً وهذه اسماء قتلة مدحت : اليوزباشي ابراهيم الشركسي والضابط الصغير نوري اصله من كوما احمد جاويش والانفار قندرجي اسماعيل واحمد ومحمد وكلاهما من كوتاهية ورجب وعثمان من قراحصار واسماعيل البربري . واما الذين قتلوا محمد الداماد فهم : الضابط الصغير مميش اصله من سبارطة ومحمد وحسن جاويش من قوتاهية وسليمان جاويش ومحمد الاونباشي وعثمان البلطاجي واحمد وعلى الروملي ومصطفى بربر

ويقال انهم بعد ان قتلوا مدحت ارادوا ان يثبتوا صدق خدمتهم للسابين

فارسلوا الجمجمة في علبة عنونوهـا الى يلدز في الاستانة وذكروا انهـا تحتوي عاجاً يابانياً وادوات صناعية لجلالة السلطان فلم تفتح الا هناك

وكان مدحت كما رأيت من سياق سيرته ذكي الفؤاد حاد المزاج حرًّا حازماً هماماً مستقل الفكر جسوراً يحب وطنه ودولته و يتفانى في مصلحتهما . وكان مخلص النية في اقواله واعماله شديد الرغبة في الاصلاح يكره الاستبداد ولا يبالى بما يلاقيه في سبيل مقاومته — يدلك على ذلك انه ذهب ضحية في هذا السبيل . لكنه كان قليل الدهاء يحسن الظن في الناس حتى في اعدائه . ولم يكن كتوماً الى الدرجة التي تقتضيها حاله لما يحيط به من ارباب الدسـائس . ولذلك رأيته انخدع في مواقف بيناها في اثناء الكلام عنه . فلو كان اكثر دهاء في تفكيره واقل حدة في مزاجه واسوأ ظناً في اعدائه واكتم لاسراره لما انتهت حياته بالكيفية التي ذكرناها . فذهب رحمه الله شهيد الحرية والدستور • فلمـا حدث الانقلاب الاخير وفاز الاحرار اعترفوا بفضله وسموه اباهم وصاحب دستورهم وسيبقى ذكره ما بقي التاريخ





ش ٨٣ — بطرس باشا غالي

ولد سنة ١٨٤٧ وتوفي سنة ١٩١٠

نشاته المدرسية

هو اكبر انجال المرحوم غالى بك نيروز ولد في القاهرة سنة ١٨٤٧ ووافق نشوءه نهضة تعليمية ظهرت في الطائفة القبطية على يد المرحوم الانبا كيرلس الرابع المتوفى سنة ١٨٦١ بعد ان اسس المدارس القبطية في الازبكية وحارة السقايين. دخل صاحب الترجمة مدرسة حارة السقايين فنبغ بين اقرانه وكان البطريرك المشار اليه يتعهد المدارس بنفسه ويراقب سيرها فلحظ في الفقيد ذكاء واجتهاداً ممتازين فتحدث في ما يرجوه من مستقبله . ويذكرون ان استاذه في اللغة الفرنساوية كان المرحوم مصطفى بك رضوان فلما صار صاحب الترجمة وكيلاً للحقانية عينه رئيساً لمحكمة المنصورة

قضى بطرس ثماني سنوات في مدرسة حارة السقايين ثم انتقل الى مدرسة

البرنس فاضل باشا (ابي الاحرار العثمانيين) وكان والده غالى بك يشتغل في دائرة البرنس المذكور . فاتقن فيها اللغتين العربية والفرنساوية وتعلم الفارسية والتركية . وفي تلك المدرسة ظهرت رغبته في العلم وتلذذه بالدرس — فقد حدثنا بعض الذين عاشروه في صباه انه كان يقضي ليله ساهراً لا يملُّ المطالعة حتى شكى بعضهم ذلك الى ابيه خوفاً على صحته . وقد ساعده على اتقان اللغات التي تعلمها انه كان قويُّ الذاكرة يحفظ الصفحة والصفحات بعد تلاوتها . ذكروا ان معلم الفرنساوية فرض على الصف مرة حفظ ثماني صفحات من الاجرومية فتذمروا من طول الامثولة وفي جملتهم بطرس لكنه جرَّب حفظها فاستسهله فحفظ ما بقي من الكتاب . ولما جاء التلاميذ للتسميع في اليوم التالي اعتذر الجميع بطول الامثولة الا هو فسمع الدرس وسائر ما بقي من الكتاب فاثنى الاستاذ على ذكائه واجتهاده

ومن ادلة رغبته في العلم انه وهو يتعلم الفارسية والتركية في المدرسة المذكورة لم يكن يرتوي من شرح المعلم فاتخذ استاذاً فيهما من اهل خان الخليلي كان يدفع له اجرته مما يجمعه من البارات التي كان ابوه يعطيه اياها ليتفكه بها . وقد اتقن هاتين اللغتين وما زال الى اواخر ايامه يردد بعض الابيات الفارسية التي حفظها في صباه . اما التركية فاحسنها جيداً . وخرج من هذه المدرسة وهو يعرف اربع لغات ثم تعلم الانكليزية والايطالية والقبطية ولم يكن يحتاج في درس اللغة الا الى الارادة فاذا اراد وعزم فثباته وذكاؤه يضمنان سرعة اكتسابه ذلك اللسان . وحكي لنا عن سبب تعلمه اللغة القبطية ان بعض المستشرقين لقيه في بعض سياحاته باوربا وكلمه بالقبطية فاجابه جواباً ضعيفاً لانه لم يكن يحسنها ووعده ان يكاتبه بها بعد عودته الى مصر ببضعة اشهر وقد فعل

دخوله في عالم العمل

خرج من المدرسة فكان اول عمل تعاطاه التعليم في مدرسة حارة السقايين براتب قدره سبعماية غرش وكان ناظر المدرسة يومئذ يعقوب بك نخله رفيله . لكنه لم يمكث طويلاً في تلك المهنة لان مطامعه كانت اوسع من ذلك كثيراً فعمد الى

الاستزادة من العلم الذي يؤهله للعلى • وكانت الحكومة المصرية يومئذ تهتم في اخراج المترجمين لمصالحها وقد انشأت مدرسة الترجمة للمرحوم رفاعه بك ونبغ منها طبقة حسنة من المترجمين فلازمها بطرس سنتين اتقن في خلالها ما كان يعرفه

واتفق ان مجلس تجار الاسكندرية اراد توسيع دائرته فاحتاج الى كتبة ومترجمين فتقدم بطرس في جملة الطالبين للامتحان فنال قصب السبق فتعين كاتباً • لكنه ما زال يرتقي ويحرز ثقة رؤسائه حتى صار رئيس كتاب المجلس وله فيه القول الفصل • وهو في ذلك المنصب نظرت قضية في المجلس المذكور لاحد صنائع المرحوم اسماعيل باشا المفتش وصدر الحكم ضده فادعى الرجل ان بطرس اضاع حقه بافشاء بعض اسرار المصلحة وابلغ ذلك الى مولاه المفتش فابلغ المفتش ذلك الى ناظر الداخلية يومئذ شريف باشا وكانت مجالس التجار تابعة لها • فدعاه الناظر اليه بحضرة المفتش وسأله عن التهمة فتنصل منها وقص الحقيقة بحرية واستقلال فكر • فلم يعجب المفتش تنصله فاخذ يكلم شريف باشا بالتركية طعناً فيه فردّ عليه بتلك اللغة ردّاً بليغاً ادهش الرجلين وحكما ببراءته واعجبا ببراعته

ولما تاسست المحاكم المختلطة جعلوها نظارة مستقلة سموها نظارة الحقانية برئاسة شريف باشا وكان قد عرف اقتدار صاحب الترجمة فولاه رئاسة كتابها سنة ١٨٧٤ فاخذت مواهبه تظهر من ذلك الحين . فاشتغل مع المرحوم قدري بك في ترجمة قوانين المحاكم واكثرها يعمل به الى اليوم

ولما ارتابت الدولتان انكلترا وفرنسا في مالية مصر وعينتا مندوبين لتصفية ديونها شكلوا مجلساً من كبار رجال المالية وفيه رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية وعينوا بطرس مساعداً. ثم تبدلت الاحوال فصار رياض باشا رئيس المجلس وبطرس وكيلاً في الدفاع عن مصالح الحكومة . وقد اتاه هذا المنصب على غير استعداد اذ لم يكن له المام في الشؤون المالية ولكنه عوّل على نفسه واكب على دراسة الموضوع فقضى ليلتين وهو يفكر فيه ويدرسه حتى تمكن من خاطره فوضع تقريراً ومذكرة عن الضرائب والاطيان كانه درس الموضوع من عدة اعوام وقد طبعا باللغتين الفرنساوية

والعربية . وعول عليهما اكثر الذين كتبوا في مالية مصر واطيانها بعده . ويقال ان السير ريفرس ولسن مندوب انكلترا في ذلك العمل لما رأى اقتدار صاحب الترجمة قال له « انك ستكون ناظراً للمالية يوماً ما » ومنحته الحكومة الرتبة الثانية - والرتب يومئذ عزيزة جدًّا . ولكنه اصيب على اثر ذلك بحمى تيفوسية شديدة حتى يئس الاطباء من شفائه

وبعد الانقلاب الذي خلع فيه اسماعيل وخلفه المغفور له توفيق باشا عين صاحب الترجمة (بطرس بك غالي) وكيلاً لنظارة الحقانية . ولما تشكلت وزارة شريف باشا في اثناء الثورة العرابية عهدت اليه سكرتيرية مجلس النظار مدة ثم استقل بوكالة الحقانية وانعم عليه برتبة ميرميران الرفيعة سنة ١٨٨٢ وهو اول من حازها من الاقباط

ومن الخدم التي يؤثرونها له في اثناء الثورة العرابية ان العرابيين بعد ان فروا من التل الكبير واتوا القاهرة عقدوا مجلساً للمفاوضة في ماذا يفعلون ودعوا اليهم كبار الرجال من الامراء العسكرية والملكية وشاوروهم في ما ينبغي عمله فكان رأي بطرس باشا التسليم للخديوي والرجوع عن العصيان وكتبوا بذلك عريضة عهدوا الى صاحب الترجمة ومحمد رؤوف باشا بإيصالها الى اصحاب الشأن في الاسكندرية فذهبا نائبين عن الامة المصرية في تقديم الطاعة للحضرة الخديوية

وظل وكيلاً لنظارة الحقانية عدة سنين بعد الاحتلال وفي سنة ١٨٩٣ رقي الى منصب الوزارة فتعين ناظراً للمالية في وزارة رياض باشا . ثم انتخب ناظراً للخارجية سنة ١٨٩٥ في وزارة مصطفى فهمي باشا . وظهرت مواهبه هنا بحل المشكلات التي تعرض لناظر الخارجية نظراً لكثرة علائق مصر مع الدول من حيث المالية والسياسة وغيرهما . وقد شهد له اللورد كرومر بالاقتدار على حل المشكلات غير مرة . وما زال في هذا المنصب حتى سقطت الوزارة الفهمية فوقع الاختيار عليه لتشكيل وزارة جديدة فشكلها في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وتولى رئاستها مع نظارة الخارجية وهو اكبر منصب يرجوه ابن النيل . وفي عهد وزارته

همت الحكومة بتوسيع اختصاصات مجلس شورى القوانين فقررت اشتراك الأمة في النظر بمشروعاتها بعرضها على المجلس ويحضر لوزراء المناقشة فيها واشياء اخرى . وقد انتقدوا عليه بعض اعمال الحكومة التي تمت في عهد وزارته مما يرونه مغايراً لمصلحة مصر او مخالفاً للشعور الوطني ولكنه اتاه وهو يعتقد نفعه لمصر لانها وطنه وهو شديد الغيرة عليها — او انه لم ير له بدًّا منه . وما زال عاملاً مجدًّا حتى قتل في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ وقاتله شاب اسمه ناصف الورداني اطلق عليه اربع رصاصات من مسدسه في باحة نظارة الخارجية وهو يهم ان يركب عربته . وقد قبض على الجاني واعترف بالجناية بلا تهيب وقال انه قتله لانه امضى اتفاقية السودان وترأس محكمة دنشواي واعاد قانون المطبوعات وقاوم الجمعية العمومية ورضي بمشروع القناة . وقد حوكم القاتل وحكم عليه بالاعدام

مناقبه واخلاقه

قد تبين مما ذكرناه من ترجمة حياته انه كان عالي الهمة كبير المطامع ذكي الفؤاد قوي الحافظة شديد العارضة . وكان قوي البنية ربع القامة ممتلىء الجسم ونظراً لثباته وقوة عزيمته لم يكن يصعب عليه عمل فارتقى من بين العامة الى اسمى المناصب المصرية بعد الامارة بجده وقوة عقله وثباته فيصح ان يكون مثالاً لطلاب العلى . وكان واسع الاطلاع في اهم مناهج الحكومة المصرية في المالية والقضاء والسياسة فضلاً عن معرفته اللغات فانه اتقن منها العربية والفرنساوية والانكليزية والايطالية والتركية ويعرف ايضاً القبطية والفارسية وبعض الالمانية

وكان مستقل الفكر يكره الدالة والوساطة وينظر الى حقائق الاشياء دون اعراضها . ومما يروى عن تقديره الاشياء حق قدرها انه لما اخذت الحكومة في انشاء المحاكم الاهلية وكان هو وكيلاً للحقانية احتاجت الحكومة الى موظفين لتلك المحاكم فاعلنت ذلك وتقدم طلاب الخدمة بالعرائض ولكل منهم وسيط من الكبراء على جاري العادة في ذلك العهد اذ كان للدالة والوساطة شأن عظيم . واستخرج

كتاب الحقانية اسماء الطالبين في كشف شبه جدول دوّنوا فيه اسم كل طالب وذكروا الى جانبه اسم الكبير الذي توسط له او اوصى به . ورفعوا ذلك الكشف اليه فقرأه فرأى اسم احد الطالبين في آخر الكشف وليس له وسيط وكان قد تحقق بالفعل انه كفء للعمل فنقل اسمه الى اعلى الكشف وكتب بجانب اسمه في محل اسم الوسيط لسائر الطالبين « وسيطه الله » يريد ان لا وسيط له غير الله وقد نال الوظيفة

وكان واسع الاطلاع في احكام الشريعة الاسلامية وقد شهد له ائمتها بالتبحر فيها . وكان لا يزال الى الامس يترأس كومسيون المجالس المختلطة والاولى بذلك رسمياً ناظر الحقانية . وكان دقيقاً في انجاز ما عليه لا يبالي بالتعب او السهر . وكان لحسن اسلوبه ونفوذ كلمته وقوة حجته يكلفونه التوسط في حل ما يعرض من سوء التفاهم بين العناصر المختلفة او القوات المتضادة في هذا القطر . فضلاً عما يدخل في واجباته من التوسط بين مصر والدول الاخرى وهو ناظر الخارجية . ومما يذكر من مآثره في حل المشكلات انه اغتنم ذهابه بمعية الجناب العالي الى الاستانة سنة ١٩٠٥ وتشرف بالمثول لدى جلالة السلطان وجرى الحديث بينهما بالتركية لحل مسألة دير السلطان بالقدس

وكان للجناب العالي ثقة فيه يعول عليه في الامور الهامة ولذلك كان اسف سموه عليه كبيراً حتى تنازل لزيارته وهو مريض في المستشفى . ثم شرف بيته بعد الوفاة لتعزية ابنائه وأخيه وهذا التفات لم يسمع بمثله في مصر

وكان يميل الى المطالعة في ساعات الفراغ واكثر مطالعاته في التاريخ وفيه ميل الى المواضيع الفلسفية النظرية وفي داره مكتبة نفيسة وكان يطالع الصحف كل يوم بسرعة غريبة

تم الجزء الاول (الطبعة الثانية)

فهرس الجزء الاول

من تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر

العائلة الخديوية	صفحة
محمد علي باشا	١
ابراهيم باشا بن محمد علي	١٤و٣١
عباس باشا الاول	٣٢
سعيد باشا	٣٣
اسماعيل باشا	٣٥
توفيق باشا	٤٨
عباس باشا الثاني	٥٢
الملوك والامراء	
السلطان محمود الثاني	٥٤
الامير بشير الشهابي	٦٠
محمد احمد المتمهدي	٧٥
عبد الله التعايشي	١١١و١٢٩
ناصر الدين شاه	١٤٢
عبد الرحمن امير الافغان	١٥٢
حبيب الله خان امير الافغان	١٦٣
تسي هسي امبراطورة الصين	١٦٥
منيليك ملك الحبشة	١٧٣
علي بن حمود سلطان زنجبار	١٧٤
القواد والوزراء	
سليمان باشا الفرنساوي	١٧٥
عمر باشا	١٨٠
الامير عبد القادر الجزائري	١٨٢
عثمان باشا الغازي	١٩٣
حميد بن محمد المرجبي	٢٠١
المعلم غالي	٢١٥
علي باشا تبه دلنلي	٢١٩
رجال الادارة والسياسة	
فؤاد باشا	٢٣٥
رستم باشا	٢٤٤
مختار باشا الغازي	٢٥٢
بوغوص بك	٢٢٦
مصطفى رشيد باشا	٢٢٩
شريف باشا	٢٤٠
نوبار باشا	٢٤٦
جواد باشا	٢٥٠
عرابي باشا	٢٥٤
لي هونغ تشانغ	٢٨١
المارکیز ایتو	٢٨٤
رجال الاعمال واهل الاصلاح	
كيراس الرابع	٢٨٨
الشيخ محمد عبده المصري	٣٠٠
مصطفى باشا كامل	٣١٠
سليم صيدناوي	٣٢٦
قاسم بك امين	٣٣٥
بشارة الخوري	٣٤٨
عبد الرحمن الكواكبي	٣٥٠
تابع رجال الادارة والسياسة	
مدحت باشا	٣٥٤
بطرس باشا غالي	٣٨٨

موءلفات جرجي زيدان

مؤلف هذا الكتاب

١ — مولفاته التاريخية

	الثمن ص	البريد ص	
تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم جزآن (طبعة ثانية)	٤٠	٤	
» الماسونية العام	٢٠	٢	
التاريخ العام الجزء الاول	٨	١	٢٠
» اليونان والرومان (مختصر)	٣		٢٠
» انكلترا مزين بالرسوم	٤	١	
» التمدن الاسلامي ٥ اجزاء مزين بالرسوم	٧٥	٥	
تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر مزين بالرسوم (طبعة ثانية) جزءان مجلدان	٤٠	٣	
تاريخ العرب قبل الاسلام جزء اول	٢٠	٢	

٢ — موءلفاته العلمية واللغوية وغيرها

	الثمن ص	البريد ص	
الهلال — مجلة علمية تاريخية ادبية تصدر مرة في الشهر مزينة بالرسوم قيمة اشتراكها بالسنة للقطر المصري والسودان	٨٠		
وقيمة اشتراكها بالسنة للخارج	١٠٠		
سنو الهلال من السنة الاولى الى الخامسة عشر	٦٠	٤	
ومن السنة السادسة عشر الى الاخيرة ثمن السنة	٨٠	٤	
الفلسفة اللغوية « طبعة ثانية »	١٠	١	
تاريخ اللغة العربية	٥		٢٠
تاريخ اداب اللغة العربية الجزء الأول والثاني تحت الطبع ثمن الجزء	٢٠	٢	
انساب العرب القدماء	٤		٢٠
علم الفراسة الحديث مزين بالرسوم	١٥	١	

٣ — سلسلة روايات تاريخ الاسلام

البريد ص	الثمن ص	
٣	٢٠	«١» فتاة غسان جزان طبعة ثالثة
٢	١٠	«٢» ارمانوسة المصرية » »
٢٠ ١	١٠	«٣» عذراء قريش » ثانية
٢٠ ١	١٠	«٤» ١٧ رمضان » «
٢٠ ١	١٠	«٥» غادة كربلاء » »
٢٠ ١	١٠	«٦» الحجاج بن يوسف » »
٢٠ ١	١٠	«٧» فتح الاندلس » »
٢٠ ١	١٠	«٨» شارل وعبد الرحمن » »
٢٠ ١	١٠	«٩» ابو مسلم الخرساني » »
٢٠ ١	١٠	«١٠» العباسة اخت الرشيد
٢٠ ١	١٠	«١١» الامين والمأمون
٢٠ ١	١٠	«١٢» عروس فرغانة
٢٠ ١	١٠	«١٣» احمد بن طولون
٢٠ ١	١٠	«١٤» عبد الرحمن الناصر -
٢٠ ١	١٠	«١٥» الانقلاب العثماني « تحت الطبع »

٤ — رواياته الاخرى التاريخية

البريد ص	الثمن ص	
٢	١٠	اسير المتمهدي « طبعة ثالثة »
٢٠ ١	٨	استبداد المماليك » ثانية
٢٠ ١	٨	المملوك الشارد » ثالثة
٢٠ ١	٦	جهاد المحبين ادبية غرامية طبعة ثانية